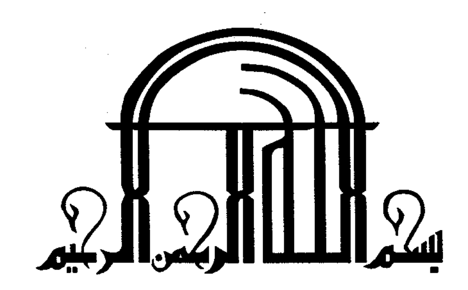
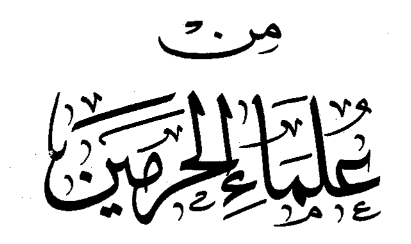


تأليف

فضيلة الشيخ عطية محمد سالم
رحمه الله تعالى (ت ١٤٢٠هـ)

دار
الجوهرة


بسم الله الرحمن الرحيم


من
علماء الحرمين

الطبعة الأولىٰ
١٤٢٦هـ



المدينة النبويّة
شارع الملك عبدالعزيز - التّازل
هاتف : ٨٣٨١١٤٨
فاكس : ٨٣٩٠٨٣٨

تقديم

بسم الله وعلى بركة الله ونستمد العون من الله والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وقدوتنا إلى الله سيد النبيين وخاتم المرسلين نبينا محمد بن عبد الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، واستن بسنته وترسّم خطاه.

ورضي الله بطاعة أصحابه الذين اصطفاهم الله لصحبته، فأخلصوا في طاعته ونصحوا في نصرته، فبهم نصر الله دينه وبه انتصروا، وأوضحوا للناس السبيل وكانوا خير هادٍ ودليل، ورضي الله عن التابعين لهم بإحسان الذين كانوا خير خلف لخير سلف. ومن تبعهم على هداهم وسلك نهجهم وترسّم خطاهم جيلاً بعد جيل، وعنا معهم بفضلك وإحسانك وعطائك الجزيل.

وبعد:

فهذه نماذج بعنوان (علماء المدينة)؛ نقدمها باقات ورد ورياحين من رياض وبساتين، حياء العلماء العاملين، نتذكر فيها معاهدنا ونجدد فيها عهودنا، نستنشق من عبيرها أريج الذكريات. ونستخلص من عِبَرِها أصدق العظات، ونسلك في ضياء شمولها أوسع الطرقات، ونربط حاضرنا بماضينا، وننطلق إلى مستقبلنا بعزيمة وثبات.

وتمهيداً لهذا البرنامج المبارك بتوفيق الله نقول: إن من المعلوم أن نهضة كل أمة تقوم على جهود النابهين من أبنائها في جميع المجالات الفكرية والعملية؛ سواء في مجال الاقتصاد، صناعة وزراعة، وأهم نهضة الأمم وأساسها هي النهضة الفكرية. والتوجيه العلمي.

ونستطيع القول: بأن تراجم الرجال هي مدارس الأجيال لأن ناشئة كل جيل تترسم خطى أبطالها، وتتبع سيرة أعلامها.

وكل طائفة في مجال وحسب مناهجها، فناشئة الطب يترسمون خطأ الأطباء الأولين ويكملون المسيرة في طريقهم، وناشئة الصناعات هكذا يستوعبون خبرات الماضين ويقفون على تجارب السابقين.

ومهما جاء المتأخرون بجديد فإن للأوائل فضل السبق لكل تليد ومفيد.

وإذا ما أطلقت كلمة العلماء فإن أول ما تنطبق عليهم، فهم علماء الدين الذين هم ورثة الأنبياء والمرسلين، وهم أئمة الهدى ومصابيح الدجى يحفظون شرع الله في وحيه، ويؤدون أمانة الله في خلقه، ويعرفون الخلق بالخالق، ويقيمون لهم موازين القسط ليؤدوا ما عليهم، وليستوفوا ما لهم.

وقد عني الإسلام بتراجم الأعلام، من الأنبياء ﷺ وأتباعهم الكرام ليكونوا قدوة للأنام. وما هذا القصص القرآني الرائع لرسل الله وحالهم مع أممهم ابتداءً من آدم وابنيه ونوح وولده وإبراهيم ووالده، وامرأة فرعون وامرأة لوط، وموسى مع فرعون، وعيسى وأمه وحواريه وصحبه.

ثم نبينا محمد ﷺ وسيرته العطرة ومواقفه العظمى وتكفي ترجمته ﷺ في جمل موجزة لكنها معجزة في نص القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وكذلك وصف أصحابه الذين معه ونعتهم لبني إسرائيل في كل من التوراة والإنجيل، فما ذلك كله إلا لرسم الصورة الواضحة في تاريخ الأمم لتعتبر كل أمة بمن سبقها. فهم بحق شموس اهتداء على طريق السعادة الغرّاء وعلى منهجهم سار العلماء.

وقد عني المسلمون بتراجم العلماء عموماً في كل قطر من أقطارهم بل وفي كل مصر من أمصارهم، فهذا تاريخ بغداد، وتاريخ دمشق والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، والتحفة اللطيفة في علماء المدينة الشريفة فضلاً عن المعاجم الكبيرة التي جمعت من كل بلد وعنيت بكل طبقة وكل مسمى من هذه موسوعة بذاته. كـ (سير أعلام النبلاء) لابن سعد وغيرها.

أما تخصيص علماء المدينة بهذه الحلقات فلأنهم أصحاب المنهج الأسمى والسند الأعلى. وهم الذين عاشروا المصطفى ﷺ، وهم الذين اختارهم الله له واصطفى، فقد عاصروا الوحي والتنزيل، وأدركوا معاني التأويل وشاهدوا بأعينهم وفي مسجد رسول الله ﷺ مجيء جبريل، وهم الذين ثبتوا العلم بتطبيق العمل. وعنهم أخذ التابعون الأبرار وبهم نشأت مدارس الأمصار واستعاض بدروسهم العلم في الأقطار فكانوا خير خلف لخير سلف، حتى

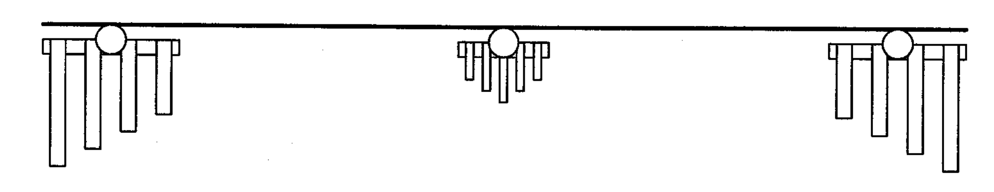
وصلنا العلم غضاً طرياً صافياً نقياً، وفي تراجم هؤلاء تجديد لهم وتنشيط للأمم وإثارة لكنوز علومهم التي خلفوها وتوارثتها الأجيال وورثوها فلم تذهبها الأيام والأعوام.

أما الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فإن تراجمهم وافية وآثارهم وفضائلهم فغير خافية؛ إلا أنهم رضوان الله تعالى عليهم تتفاوت قدراتهم وتتعدد اختصاصاتهم كما نوه عنهم ﷺ في بعض أفرادهم بذكر مميزاتهم وتخصصاتهم كقوله: «أفرضكم زيد وأقضاكم علي، وأعرفكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأمين هذه الأمة أبو عبيدة»، «لو كان فيكم محدثون لكان عمر»، «لكل نبي حواري؛ وحواري الزبير».

وحذيفة صاحب رسول الله ﷺ، وحسان شاعر الإسلام، والمقداد فارس رسول الله، وثابت القيس حظيم الوفود، وغير أولئك من تميزوا بخصائص عن غيرهم.

ونحن نقتدي بمن له منهج علمي واشتغل بالتعليم والفتوى وأثر عنه ذلك ومن المعلوم أنه لن يأتي كاتب ولا مؤرخ ولا مترجم في ذلك بجديد كان معدوماً أو بمزيد في موجود كان معلوماً، ولكن الجديد إنما هو أسلوب العرض، وفيما يمكن أن يستخلصه من حياة العالم في منهجه ويبرزه من عظات وإرشادات في مسلكه يسلكه طالب العلم ويحتذيه؛ كزيد بن ثابت وابن عباس ومعاذ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ثم التابعين، كذلك ما تتصل به حلق العلم في المدينة وفي المسجد النبوي الشريف حيث كان يدرس العلم وتدرس العلماء وقد خص بمزيد الفضل وشرف التفضيل على ما سيأتي في نبذة عنه، وبالله تعالى التوفيق.





أثر المسجد النبوي
على العلم وعلماء المدينة

إن أثر المسجد النبوي على العلم عامة وعلى علماء المدينة خاصة كأثر النبع العذب الفياض على كل كبد ظامئ يروي عطشه، وكل زرع نابت يسقي نبته، وكأثر الشمس يشع نورها وترسل شعاعها، فينقشع ظلام الليل وينفجر ضوء الفجر وينتشر الضياء، ولقد شرف هذا المسجد بما خُصَّ بخصائص ومُيِّز بمميزات ابتداءً من إنشائه في اختيار مكانه وإقامة بنائه، ثم ما شهده من أحداث لم يشهدها سواه.

أما اختيار مكانه فقد كان باختيار من الله حين قدم ﷺ مقدم الهجرة وخرجت أحياء المدينة تستشرف لمقدمه الميمون وتناشده شرف النزول إليها قائلة: هلمّ إلى العدد والعدة والمنعة يا رسول الله آخذين بزمام الناقة. فيقول ﷺ: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» وتمضي «المأمورة» في طريقها حتى جاءت إلى أمام بيت أبي أيوب رضي الله عنه وبركت ولم ينزل عنها ﷺ لأول وهلة. فنهضت ودارت وتلفتت كالمتثبت من شيء يعهده، ثم رجعت إلى مكانها الأول وبركت ومدت عنقها وتحلحلت بجرانها «كلكلها»، فنزل عنها ﷺ وقال: «إنه المنزل إن شاء الله».

وتسابق أهل هذا الحي أيهم يحظى بضيافة رسول الله ﷺ، ولكن أبا أيوب رضي الله عنه كان حكيماً إذ سارع إلى رحل رسول الله ﷺ فأدخله إلى رحله. ولما تنافسوا في استضافته ﷺ التفت إلى الناقة وسأل: «أين رحلي» فقالوا: احتمله أبو أيوب فقال: «المرء مع رحله».

وهنا وقفة لا نحب أن نتجاوزها وهي أنه ﷺ قدم مهاجراً وليس على موعد مع أحد لا أصحاب بيت ولا قبيلة فيستوي عنده على من ينزل. ولكن عمق السياسة النبوية والحكمة والرشد أن يقدر ﷺ ظروف هؤلاء وهم من قبيلتين متنافستين على الخير الأوس والخزرج. فإذا اختار هو أن ينزل على أحد بيوت القبيلتين سيكون على حساب اعتبارات عند القبيلة الأخرى. وهو ﷺ

ما جاء ليجدد تلك الاعتبارات، بل جاء ليلغيها فأحال اختيار منزله على غيره وعلى من؟! على نقاة عجماء؛ ولكنها مأمورة. ومن يملك ذلك إلا الله؟!

فانتهى الموقف بين القبيلتين بأنها مأمورة. ثم وقع كذلك بالنسبة لأهل الحي الذي أمرت الناقة بالنزول فيه؛ ففي بيت من وعند من؟ لم يتقدم ﷺ بالاختيار ولكن كان تبعاً لرحله. وانتهت المهمة كلها بعد أن استقر ﷺ عند أبي أيوب رضي الله عنه. ولبيت أبي أيوب هذا قصة قديمة لا يخرج بنا الحديث إليها وتمضي في خبر المسجد؛ فقد كان مربداً لأيتام أمام بيت أبي أيوب فسأل عنه ﷺ وتم شراؤه ونقد الصديق ثمنه وبنى المسجد: بني أولاً من جذوع وجريد النخل الذي كان فيه ثم جدد بناؤه وشيدت جدرانه بالحجر والطين بعد خيبر. وأصبح جزءاً من روضة من رياض الجنة والمنبر على ترعة من ترع الجنة.

ومنذ إقامة المسجد وهو بمثابة بيت الأمة الإسلامية لمعظم مرافقها:

فهو أولاً: معبدها تضاعف فيه الصلاة بألف ويقوم فيه رسول الله، يسبح فيه بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؛ يؤمه الصغير والكبير ويحضره الرجال والنساء.

وهو ثانياً: مجلس القضاء: يتقاضى فيه المسلمون إلى رسول الله ﷺ، فتؤدى فيه الحقوق، وتعلن فيه الحدود، ويصلح فيه بين الزوجين، ويفض فيه كل نزاع.

وهو ثالثاً: مجلس شورى: فيه يستشير ﷺ أصحابه وفيه يتشاورون من بعده.

وهو رابعاً: بيت المال: وقد وضع ﷺ فيه مال البحرين وأقام أبا هريرة حارساً عليه.

وهو خامساً: دار الضيافة واستقبال الوفود: كما أنزلهم ﷺ عام تسع وفد ثقيف وغيره.

وغير ذلك من المرافق لا نطيل بتعدادها؛ كتمريض الجرحى كما في خبر سعد، ومنتدى الأدباء وميدان جهاد الكلمة للشعراء وقد نصب ﷺ لحسان كرسياً يدافع عن رسول الله ﷺ. واشتد زهير في مدحة رسول الله ﷺ: بانت سعاد وغير ذلك، وأهم رسالة للمسجد أنه كان المعهد الذي تلقوا فيه العلم وعنهم تلقى العالم كله.

معهد منهجه وحي من الله في كتاب يتلى وسنة من رسول الله ﷺ؛ ﴿إِنَّ

﴿هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: ٤ ـ ٥]؛ معهد كان من معلميه جبريل عليه السلام؛ تعقد فيه الحلق ليل نهار؛ ينزل الوحي منجماً فيتعلمونه أولاً بأول، تعرض لهم النوازل فيسألون ويجابون؛ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾.[البقرة: ١٨٩]، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ [البقرة: ٢١٥]، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥]، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ﴾ [الكهف: ٨٣]، إنها نوازل الحياة وجوانب ملموسة وكلها ينزل الجواب فيها مفصلاً والمسلمون يتلقون العلم ويترجمون عملاً.

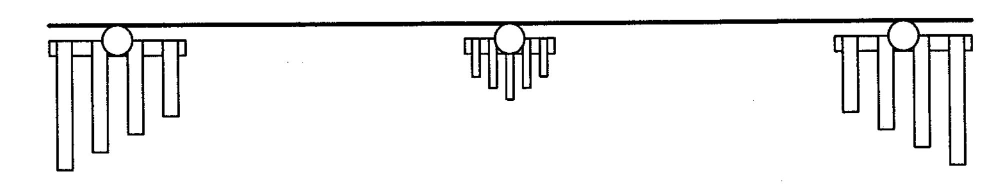
يخطبهم ﷺ كل جمعة ويجمعهم عند كل خَطب: (أحضروا المنبر فيوجّه ويعلّم وقد جاء عن جابر رضي الله عنه: أنه ﷺ صلى الظهر ثم صعد المنبر وخطبهم حتى حانت صلاة العصر فنزل وصلى، ثم صعد فخطبهم حتى حانت صلاة المغرب، وصلى حتى حانت صلاة العشاء، قال: فلم يدع لنا أمراً وصاني ولا أباً ولا طائراً يحرك جناحيه في الهواء إلا ذكر لنا عنه خيراً حفظ ذلك من حفظ ونسي من نسي).

بل إنه ﷺ ليعلمهم ومن على درجات المنبر كيفية أداء الصلاة حين صعد المنبر واستقبل القبلة فكبر وقرأ ثم ركع ثم رفع ثم نزل القهقرى فسجد في أصل المنبر ثم جلس فسجد ثم صعد فأتى بالركعة الثانية ثم قال لهم ﷺ: «صلُّوا كما رأيتموني أصلي». وهكذا كان المسجد النبوي موطن العلم تعليماً وتعلماً.

وبجواره بيوت أمهات المؤمنين لما يشكل على ربات البيوت بما يختص بهن. فهو بمثابة النبع الذي لا يتوقف والنجم الذي لا يغيب والضوء الذي لا يحجب، بل ومنهج لطلبة العلم؛ الغرباء كأهل الصفة المتفرغين لذلك.

ولهذا فإن جميع معاهد الأمصار ومدارس الأقطار وحلق المساجد في المشرق والمغرب إنما أقامها وقام بها تلاميذ ذاك الرعيل الأول حين خرجوا مجاهدين وانتشروا معلمين. وبالله تعالى التوفيق.





أثر المسجد النبوي على مدارس الأمصار

أشرنا في نهاية الحلقة السابقة إلى أن جميع معاهد الأمصار ومدارس الأقطار الإسلامية، وحلق المساجد في الشرق والغرب إنما أقامها وقام بها تلاميذ ومتخرجو المسجد النبوي من الرعيل الأول وأبنائهم وتلاميذهم.

أ ـ فهذه مكة المكرمة مسقط رأسه ﷺ بعد الفتح تتلقى العلم من علماء المدينة ابتداءً من تعليم رسول الله ﷺ في قصر الصلاة وإتمامها في قوله ﷺ: «أتموا صلاتكم يا أهل مكة فإنا قوم سفر». فكانت سنة المقيم أن يأتم بالمسافر بأن يقصر الإمام صلاة ويؤمها المأمومون، أي كلٌّ منهما يعمل بحكمه. ويجب التنبيه بهذه المناسبة على ما إذا كان العكس بأن كان الإمام مقيماً والمأموم مسافراً فإن واجب المأموم أن يتم صلاته لقوله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به». أي أن المأموم وهو تابع للإمام فكان عليه متابعته بخلاف الصورة الأولى.

ب ـ وكذلك في الأذان. لما رجع ﷺ من حنين وتلقاه أهل مكة وقام المؤذن ينادي للصلاة فكان أبو محظورة، في الصبية الذين جاؤوا مع المستقبلين لرسول الله ﷺ ولما سمع المؤذن يؤذن للمسلمين قام يحاكيه ويؤذن مثله، فسمع رسول الله ﷺ صوته فأعجبه فاستدعاه ولقنه الأذان وجعله مؤذناً لأهل مكة.

ثم عند عودته ﷺ من مكة إلى المدينة بعد الفتح خلّف عليها معاذ بن جبل رضي الله عنه يفقههم في الدين.

ثم جاء إليها ابن عباس رضي الله عنه زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقيم للناس الموسم. وقد قال العمرني: لا أقوى على سكنى بلد تتضاعف فيه السيئات كما تتضاعف فيه الحسنات وسأتخذ الطائف مركزاً فأذن له عمر، وكان ينزل إلى مكة في الموسم.

فكانت مدرسة مكة من مجالس ابن عباس ولازمه تلاميذه مجاهد

وعطاء بن رباح وسعيد بن حبير، وابن كثير المقري وكانوا من بعده ﷺ من أئمة التفسير حيث إن عباس قد حظي بدعوة رسول الله ﷺ: «أللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

وفي آخر المائة الثانية وفي خلافة الرشيد كان بها مسلم بن خالد الزنجي والفضيل بن عياض، وابن عيينة، وأبو عبد الرحمٰن المقري وسعيد بن منصور صاحب المصنف وغيرهم.

وعن خالد بن مسلم أخذ الشافعي ﷺ قبل أن يرحل إلى المدينة ليأخذ عن مالك وعن علمائها. وقد استقر مذهب الشافعي بمكة فيما بعد.

جـ ـ وهذه الكوفة: جاء إليها ابن مسعود ﷺ وعمار وعلي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهم، وتركزت دروس العلم على ابن مسعود لسعة علمه واشتغال علي ﷺ بأمر الخلافة وعليه بنى الأحناف مذهبهم في أكثر مسائلهم.

ثم كان بها من التابعين علقمة ومسروق، وعبيدة، والشعبي والنخعي وأبو إسحاق وحماد ومنصور والأعمش. وبقي النشاط العلمي للقرن الرابع حتى استولى عليه الرافضة.

وكان ذهاب ابن مسعود إليها من طرف عمر بن الخطاب بعثه معلماً لأهلها وعنه أخذ هؤلاء ونقل في ذلك. كان أصحاب عبد الله بن مسعود سرح هذه القرية يعني الكوفة، وابن مسعود من تلاميذ ومعلمي المسجد النبوي.

د ـ وهذه البصرة: جاء إليها أبو موسى الأشعري، وأنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وكان من أشهر من تخرّج عليها الحسن البصري، محمد بن سيرين ثم طبقه قتادة وأيوب السختياني ثم حماد بن مسلمة.

هـ ـ وتلك دمشق: عاصمة دولة بني أمية في زمن عمر ﷺ بعد فتح الشام كتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر ﷺ: إن أهل الشام احتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم. فأرسل إليه ابن جبل وعبادة بن الصامت، وأبا الدرداء فتفرقوا في بلاد الشام للتعليم والقضاء. فكانوا مؤسسي مدرسة الشام بصفة عامة.

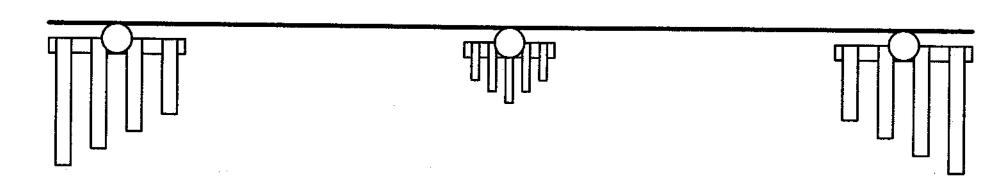
ونلاحظ أن عمر رضي الله عنه بعث معاذاً إلى الشام بينما كان معاذ زمن النبي ﷺ قد خلفه بمكة. فلمكانته بمثابة البعثة المتنقلة قد أدى دوره في مكة وأسس مدرستها ثم جاء ابن عباس يتعهدها ثم ها هو يأتي إلى الشام وقد نقلت مجالس علمه بالشام على أحسن صورة كما جاء في الموطأ عن أبي إدريس الخولاني قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتى شاب تبرق ثناياه. وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شيء أسندوا إليه وصدروا عنه قوله فسألت عنه فقيل: هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغد هجرت فوجدته قد سبقني بالتهجير ووجدته يصلي فانتظرته حتى قضى صلاته ثم جئت من قبل وجهه فسلمت عليه، ثم قال: والله إني لأحبك لله، فقال: الله، فقلت: الله، فقال: الله، فقلت: الله، قال: فأخذ بحبوة ردائي فجذبني إليه وقال: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتجالسين فيّ والمتزاورين فيّ والمتباذلين فيّ». إنها صورة المنقطع للتعليم والمهجر إلى المسجد.

وتلك مصر: افتتحها عمرو بن العاص وكان فسطاطه مجمع من معه من الصحابة وكان ذلك في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين، قال الذهبي: وكثر العلم بها في زمن التابعين ثم ازداد في زمن عمرو بن الحارث وهو أنصاري مدني، ويحيى بن أيوب الفافقي المصري، ثم الشافعي والليث بن سعد صاحب مالك وقرينه رحمهم الله.

وكذلك بغداد عاصمة الدولة العباسية: بنيت في آخر أيام التابعين وأول محدث فيها هشام بن عروة بن الزبير القرشي المدني وبعده شعبة. واليمن ومعلوم أنه ﷺ في حياته قد بعث إليها علي بن أبي طالب وأبا موسى الأشعري ثم معاذ بن جبل، ثم كان مَعْمراً وأصحابه وعبد الرزاق.

أولئك هم المعلمون الأوائل في أمصار المسلمين. ولما طلب الرشيد من مالك أن يحمل الناس على الموطأ امتنع وقال له: إن أصحاب رسول الله ﷺ، تفرقوا في الأمصار ومعهم أحاديث رسول الله وأخذ الناس عنهم فلا تغير عليهم.

وهكذا كان أثر المسجد النبوي وعلمائه على العالم الإسلامي، وبالله التوفيق.



فضل طلب العلم في المسجد النبوي

إن أول ما يحسه طالب العلم حينما يكون في المسجد النبوي أثناء تلقيه حديث رسول الله ﷺ فيقرأ ويسمع شيخه يقول: قال رسول الله ﷺ؛ فينظر عفواً وتلقائياً إلى الحجرة النبوية فيقفز إلى ذهنه ذاك التاريخ المشع بالأنوار المحمدية وتتراءى له صور مجيء جبريل عليه السلام بالوحي ويغدو كأنه ينظر إلى تلك الأقمار الزاهرة في الوجوه النيرة لأصحاب رسول الله ﷺ ملتفين حوله مصغين إليه يستوعبون ما يقول ويفقهون حديثه.

وإذا ورد في الحديث ذكر آثار المسجد كما في حديث التأمين ثلاث في صعد ﷺ فقال: «آمين» ثم صعد درجة فقال: «آمين» وهكذا فسألناه: علام كنت تؤمن يا رسول الله؟... إلخ. فعند ذكر صعوده ﷺ المنبر تكاد تجدك تلمس المنبر وتتحسس صعوده ويكاد رنين آمين ينفذ إلى قلبك وتحسه يمر بأذنك وهكذا قوله ﷺ. ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة تذهب في خطواته متئدة وأحاسيس مفعمة إلى تلك الروضة ترفرف روحك بأرجائها وتتنسم أريج عبيرها. إن هذا الإحساس وهذا الشعور لهو أهم وأعظم فضل لطلب العلم في المسجد النبوي الشريف.

وإن قصة الشافعي مع مالك رحمهما الله لتصور لنا هذا الإحساس وتجسمه وذلك أن الشافعي لما وصل إلى المدينة ولقي مالكاً رحمهما الله فاستضافه مالك، وكان قد حدث ابنته به وبذكائه وورعه وحرصه على طلب العلم فكانت تنتظر فعاله فلما قدم له العشاء أكل كثيراً، فلما أوى إلى فراشه لينام جاءت ابنة مالك بماء الوضوء عند باب مهجعه ليتوضأ عند قيامه في الليل وقبل الفجر ذهبت لتجدد ماء الوضوء ليتوضأ لصلاة الصبح فوجدت ماء وضوئه الذي وضعته أولاً باقياً كما هو، فقالت لوالدها: إن الشافعي ليس على نهج العلماء أكل كثيراً ونام طويلاً. ولما سأله مالك قال: نعم؛ أما عن كثرة الأكل فإني منذ خرجت من بيتي لم أشبع

مخافة الشبهة ولما جئت بيت مالك بن أنس وهو إمام دار الهجرة وعلمت تحرير الحلال في مطعمه ملأت بطني من الحلال. أما عن عدم وضوئي ليلاً فلم ينتقض وضوئي وصليت الصبح بوضوء العشاء. فقال له: وما سبب ذلك؟ فقال الشافعي وهو موجب هذا الإيراد كله قال: حينما جئت إلى المدينة وأخذت أسير في طرقاتها تبادر لي وتراءى لفكري مسير رسول الله ﷺ بها فقلت: من هاهنا جاء رسول الله ﷺ وهنا وقف رسول الله ﷺ حتى ذكرت قصته مع الغلام وقد مر به وفي يده طائر النغري يلعب به، ثم رجع فوجد الغلام يبكي والطائر ميت في يده. فقال ﷺ: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟» فأخذت أتفكر في مقالته ﷺ للغلام واستغرق بي التفكير حتى طلع الفجر وقد استنبطت من هذه العبارة أربعين مسألة.

يهمنا في هذه القصة الموجزة أن حضور الشافعي إلى المدينة لطلبهِ العلم أثار في نفسه ما منعه النوم ليلة طويلة وتجسم هذا الإحساس في فكره وشعوره وترجم علماً وفقهاً واستنتاجاً واستنباطاً، فيفتق المتراكم ويفتح الأبواب ويضع منهج الفقه، وكيف تؤخذ الأحكام من مصادرها وتبنى الفروع على أصولها ويضع مؤشراً وضّاءً واضحاً لطلبة العلم أن يبدؤوا بدراسة الفقه بالحديث، حيث إن الفقهاء رحمهم الله قد بذلوا الجهد وأفرغوا الوسع في فهم الحديث واستنباط الأحكام وصاغوها فقهاً معقداً ومسائل موضحة. ولعل أقوى عامل أوصل الشافعي إلى سعة استنباط هذا لهو ذاك الشعور وهذا الإحساس حين تجسم له شخص رسول الله ﷺ يلاطف هذا الغلام في شأن الطائر الذي كان يفرح به.

ومما جاء في فضل المسجد النبوي في طلب العلم؛ الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «من راح إلى مسجدي هذا لعلم يعلمهُ أو يتعلمه كان كمن غزا في سبيل الله، ومن راح لغير ذلك كان كمن ينظر في متاع غيره».

فهذا تنصيص على تخصيص هذا المسجد الشريف بفضيلة طلب العلم عما سواه من المساجد حتى يرتفع طلب العلم إلى مستوى الغزو في سبيل الله. ومصداق ذلك من كتاب الله قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]. فقد قسم الأئمة المؤمنين بالنسبة إلى الجهاد قسمين: قسم: ينفر في سبيل الله، وطائفة: تنفر للمنفعة في الدين. وبيّن مهمة تلك

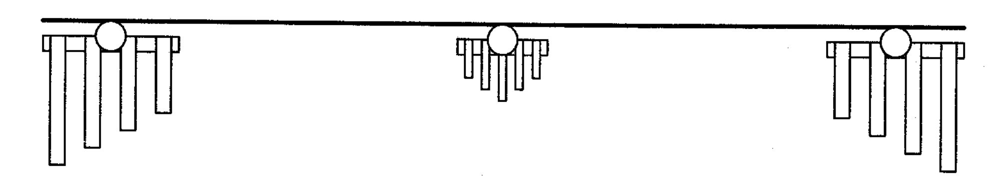
الطائفة وهي الإنذار والتحذير. فكذلك من جاء وراح إلى مسجد رسول الله ﷺ في سبيل طلب العلم يعلم أو يتعلم كان كمن غزا في سبيل الله. ولو قال قائل: إن النفر في طلب العلم أعظم أثراً لما كان بعيداً لأن بالعلم سيعرف الناس حق الجهاد في الحرب وحق العباد في السلم فضلاً عن تصحيح العبادات والمعتقدات.

ومن كبريات فضائل طلب العلم في المسجد النبوي وخصائص قوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة». ولسنا في معرض إثبات أو تعيين من هو؟ ومتى هو؟ فقد أكثروا النقاش، والأكثرون على أنه مالك بن أنس ويهمنا أن النبي ﷺ أثبت أن عالم المدينة يوشك أن تضرب الناس إليه أكباد الإبل، سواء كان ﷺ يقصد شخصاً معيناً مالكاً أو غيره أو يقصد الإخبار عن جنس العلماء ويقارن بين علماء الأمصار ويخبر الناس أنهم لا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة أياً كان شخصه أو أياً كان وقته.

ولو قال قائل: إن هذه السمة لعالم المدينة لم تنقطع على مدى السنين وتتبع الحركة العلمية بالمدينة بالنسبة للأقطار الإسلامية تظهر اضطراد هذا الوصف واستمراره، وحيث قام سوق الحديث والآثار وهاجر إليه فضلاً العلماء من كل قطر وهي الفضيلة الأخيرة التي نسوقها هنا، وذلك من قوله ﷺ: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى حجرها». ومعلوم أن الإيمان معرفة وتصديق ولا بد للتصديق من أن يسبقه تصور والتصور هو عين المعرفة. ولذا قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]. وبوب عليه البخاري في صحيحه: باب العلم قبل العمل، وساق الآية.

فإذا أراد الإيمان أن يأرز إلى المدينة سبقه العلم ليهيئ ويمهد له ثم يتبعه الإيمان، وإذا أردنا تطبيق هذا في وقتنا الحاضر وربطنا وجود الجامعة الإسلامية التي يفد إليها آلاف الطلاب من أقطار العالم الإسلامي يتلقون العلم في جميع مجالاته الإسلامية، لربما قاربنا إيضاح رد أدلة هذا الحديث مع حلق العلم في المسجد النبوي من أولئك كوافدين وغيرهم، ولله الحمد والشكر.





اختصاص علماء المدينة

من المعلوم أن تخصيص العموم لا يكون إلا بموجب مخصص له وهناك عموم علماء العالم الإسلامي كعلماء الشام والعراق ومصر والمغرب والعالم كله شرقاً وغرباً مما لهم من فضل كبير في نشر العلم وازدهاره وهذه مؤلفات عديدة لهم. فما موجب تخصيص علماء المدينة بهذا البرنامج المبارك؟

ولبيان ذلك نقول وبالله تعالى التوفيق: إن من المتفق عليه في مناهج التراجم دراسات البيئة وآثارها على أبنائها خاصة في طلب العلم. وبيئة المدينة قد انفردت بخصائص ومؤثرات في هذا السبيل ما لم يشاركها غيرها مما ييسر طلب العلم ويعظم الرغبة فيه ويوسع مجاله، من ذلك الآتي:

أولاً: أصالة العلوم لأخذها من منابعها الصافية وبدون وساطة حيث هي مهبط الوحي ومستقر التشريع.

ثانياً: صلاحية البيئة وفضل أهلها وحنوهم على الوافدين إليها من إكرامهم وإيثارهم على أنفسهم مما يذهب وحشة الغريب ويؤنس قلبه.

ثالثاً: استقرار الأمور فيها وتوفر الهدوء والسكينة مما يجعل طالب العلم يتفرغ لمهمته. وبهذه العوامل مجتمعة أنجبت المدينة أئمة علماء العالم وكانت قبلة العلماء.

وقد جاءت آثار صريحة في هذا الموضوع قديمة وحديثة:

فمن ذلك ما جاء عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «سيأتيكم أقوام يطلبون العلم فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ وأقنوهم»؛ أي علموهم. وفي رواية عنه ﷺ أنه كان إذا أتاه طالب العلم يقول له: قال لنا رسول الله ﷺ: «إن الناس لكم تبع وأنهم سيأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين؛ فإذا جاؤوكم فاستوصوا بهم خيراً».

وقد تكلمنا على هذه الآثار بتوسع في منهج الوصايا والحمد لله.

ومن الآثار ما جاء في ترجمة عمر بن عبد العزيز أن خاله حين أراد أن يرسله إلى البادية يتعلم الشعر والفروسية قال: أَوَغير ذلك وخير منه: ترسلني إلى المدينة أتعلم الفقه والحديث؟ فكان تعليمه بالمدينة.

وجاء عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «المدينة قبة الإسلام ودار الإيمان وأرض الهجرة ومبدأ الحلال والحرام».

ومصداق ذلك من واقع علماء المسلمين يتمثل في شخصيات الأئمة الأربعة رحمهم الله. فهذا مالك بن أنس جمع علم أكثر علمائها وتوفر فيها من العلماء في زمنه ما أن قال: ما جلست للفتوى حتى شهد لي سبعون عالماً. فكم كان فيها من غير هؤلاء السبعين، وقد قال أيضاً أنه لقي من كان يرجو دعوته ولا يقبل روايته، أي لشدة صلاحه، وقلة خبرته بأحوال الرواة. وقد جاء أبو حنيفة رحمه الله إلى المدينة ولقي علماءها وأخذ عنهم. وهذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة جاء إليها وأخذ عن مالك الموطأ ومعروف باسمه موطأ محمد. وهذا أبو يوسف صاحب أبي حنيفة جاء إليها مع الخليفة هارون الرشيد ولقي مالكاً وأخذ مقدار الصاع النبوي عن واقع عملي حين عرض عليه مالك العديد من صيعان المدينة التي توارثها أهلها عن الآباء والأجداد من لدن العصر النبوي الشريف. وهذا الشافعي يأتي إليها ويلازم مالكاً ويأخذ عنه الموطأ وعنه يقول أحمد رحمه الله: «قرأت الموطأ سبع عشرة مرة آخرها على الشافعي لأنه أوثق الناس فيه».

وهذا هو الخليفة هارون الرشيد، قدم المدينة ومعه الأمين والمأمون ونزل في دار الإمارة فأرسل إلى مالك ليحضر له الموطأ يسمعه عنه.

فقال: إن العلم يؤتى إليه ويأتي. فحضر إليه هارون الرشيد إلى بيته فأبطأ عليه في الإذن له بالدخول. فقال له: ما هذا يا مالك، طلبناك فأبيت علينا وجئناك فحبستنا على بابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن مجيء العلماء إلى الملوك يزري بهم، ومجيء الملوك والأمراء إلى العلماء يعلي قدرهم وإني لما علمت مجيئك علمت أنك تريد حديث رسول الله ﷺ فتأهبت لذلك فاغتسلت ولبست أحسن ما عندي وتطيبت. فقال: هات كتابك لنسمعه، فقال له مالك: إن هذا العلم لا يصلح سراً، فقال: وماذا تريد؟ قال: في المسجد مع عامة الناس. فحضر هارون الرشيد حلقة العلم في المسجد النبوي.

ولما سمع الموطأ قال: إني أريد أن أحمل الناس عليه. فأبى وقيل: إن الذي طلب ذلك هو أبو جعفر المنصور. قال ابن عبد البر بسنده إلى مالك أنه قال: لما حج أبو جعفر المنصور دعاني فدخلت عليه فحدثني وسألني فأجبته فقال: إني قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها يعني الموطأ فتنتسخ نسخاً، ثم أبعث إلى كل مصر من الأمصار منها نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها لا يتعدونها إلى غيرها ويدعو ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث فإني رأيت هذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم. قال: فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل... إلى آخر الخبر.

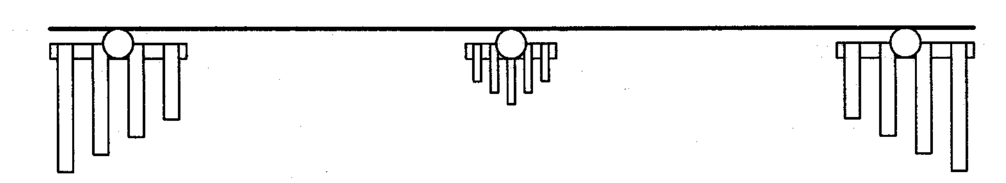
ولعل بهذا كله يتضح موجب اختصاص هذا البرنامج بعلماء المدينة لاختصاصها بما لم يشاركها غيرها.

وقد حث النبي ﷺ علماءها بما يساعد على طلب العلم فيها بقوله ﷺ فيما يرويه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه كما ساقه ابن عبد البر في فضل العلم: قال رسول الله ﷺ: «وتعلموا له السكينة والوقار وتواضعوا لمن تتعلمون منه ولا تكنوا صابرة العلماء». رواه البخاري في الأدب المفرد. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «علموا ويسروا ولا تعسروا ثلاثاً». رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة.

وقد أحسن القائل: علم العلم لمن أتاك لعلم، واغتنم ما حييت من الدعاء وليكن عندك الفقير إذا ما طلب العلم والغني سواء وهذه كانت حالة المدينة يستوي في الحلقة خليفة المسلمين هارون الرشيد وعامة طلبة العلم من المهاجرين.

وقد أشرنا فيما تقدم إلى استمرارية هذه الصورة في المدينة لمضمون الأحاديث؛ كقوله ﷺ: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل لعالم المدينة»، وقوله: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة»، وقوله: «من راح إلى مسجدي هذا لعلم يتعلمه أو يعلمه كان كمن غزا في سبيل الله»، وذكر السخاوي في مقدمة التحفة اللطيفة: أن الحجاج سأل أبا يزيد عن علماء الحجاز فقال له عن المدينة: رسخ العلم بها وخرج منها. وعليه فإن من يترجم لعلماء المدينة فكأنما ترجم لعلماء الأمصار كلها حيث هي الأصل والمنطلق، وبالله تعالى التوفيق.





أ ـ طريقة تلقي علماء المدينة العلم

من المعلوم أن الأمة العربية أمة أمية لم يسبق لها أن وضعت مناهج تعليم ولم تعرف لها طريقة تعلم. وما كان عندهم من علوم مثل: علم الفلك والأنساب والطب؛ فهي علوم تؤخذ تقليدية وتُتوارث.

أما هم بعد مجيء الإسلام أصبح لهم كتاب يقرأ وانتقالهم من أمة أمية إلى حضارية وأصبحت قدوة وقادة للأمم وفي فترة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً، ولم يسبق لها مقياس، فلا بد من معرفة الطريقة التي مكنتهم من هذا التحول السريع وبهذه القوة والفعالية، وبهذا الوضوح والتيسير.

ويمكن القول: بأن يقظة الباء من بداية هذا المنهج هي بيعة العقبة الأولى وتلتها البيعة الثانية ثم إرسال مصعب بن عمير إلى المدينة. إذ إنهم في بيعتي العقبة تلقوا شفاهية أصل العقيدة ومبدأ الرسالة وما لهم وما عليهم سواء في الدنيا أو في الآخرة. ثم واصل بهم مصعب رضي الله عنه إيضاح وتفصيل ما أجمل واستجد في دعوة الإسلام.

ثم كانت النقطة العملية هي البداية بتعلم القراءة والكتابة وذلك بعد غزوة بدر وهي في ثاني سني الهجرة مباشرة، إذ كان الأسير من أسارى بدر لا يستطيع مفاداة نفسه بالمال يفدي نفسه بتعليم عشرة من صبيان الأنصار القراءة والكتابة.

وهذا ليس بالأمر اليسير ولا الهين إذ إن مدلوله عظيم بالنسبة لظروف الأمة في ذلك الوقت. فهي أمة ناشئة تحتاج المال والرجال والعتاد فيعادل ﷺ هذا الكلام بتعليم الصبية القراءة والكتابة. ولكن هذه الخطوة هي من عين الخطوة الأولى في نعمة هذه الرسالة المحمدية ماثلة في هذا المشهد في غار حراء إذ يأتي الروح الأمين عليه السلام للنبي الأمي ﷺ فيفتح رسالته بالقراءة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ويجمع له مع القراءة التعليم بالقلم. فكانت افتتاحية الوحي: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ

بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ - ٥]، ويتوالى الوحي وتتوالى القراءة ويترتب كتاب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ حتى ينزل الوحي بإعظام شأن هذه الصورة فيقسم المولى بالقلم وما يسطرون.

وهكذا بدأت حياة جديدة وحركة متجددة تشهدها المدينة المنورة؛ الوحي يتنزل والرسول ﷺ يعلم والصحابة يتلقون العلم؛ بقلوب واعية وآذان صاغية ومستقبل مزدهر. فتهيأت لهم فرص التعلم وطبقوه بالعمل بل اتسع نطاقهم فتعلم زيد السريانية للتعامل بها مع اليهود على ضوء هذا الوحي ومتطلبات الحياة الجديدة بل شملت هذه الحركة تعليم المرأة الكتابة كما في التراتيب الإدارية أنه ﷺ قال لأم سليمان: «علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة».

ومن صور الطريقة العملية كعمل منهجي: ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا نأخذ الخمس آيات ولا نتجاوزهن فنحفظهن ونتعلمهن ونعمل بهن فأخذنا القرآن علماً وعملاً. وجاء عنه أنه مكث في سورة البقرة سنوات وبعد الفراغ منها نحر جزوراً شكراً لله وفرحاً بما حصل.

ولعلنا من هنا ندرك سر نزول القرآن منجماً يساير حياتهم بالآية والآيتين ويضع الآيات فيتابعون تعلمه حتى إنه لم ينقض عهد نزول الوحي إلا وقد استوعبوه علماً، وطبقوه عملاً فرسخ في نفوسهم وأشربوه في قلوبهم وقامت عليه حياتهم. وكم كانوا يسألون ويأتيهم الجواب ويستشكلون وتأتيهم الحلول.

وكانت مجالسهُ ﷺ في جميع الأوقات للمسلمين بمثابة الدروس المستمرة في الجوانب المتعددة أعظم من أي جدول زمني للدروس اليومية في أكبر معهد وأعظم جامعة اليوم.

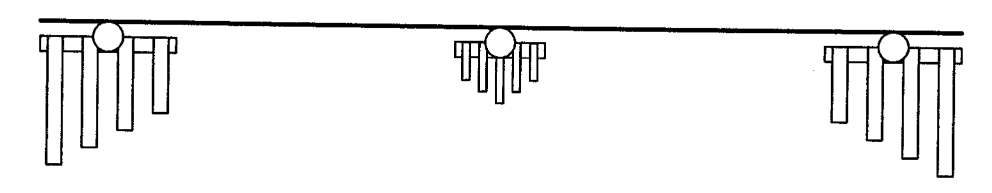
وكان وفود الأعراب يسألون والرسول ﷺ يجيب وهم يستمعون توسيعاً لنطاق التعلم ومجال العلوم.

ثم وجود أمهات المؤمنين بحجراتهن المطبقة بالمسجد النبوي تيسَّر مصدراً آخر للتعلم وخاصة فيما يتعلق بعلاقة الرجال بالنساء مما قد يستحي بعض الرجال من ذكره لرسول الله ﷺ أو كانوا يختلفون فيه بعده صلوات الله وسلامه عليه.

فمن هذا مثلاً ما رواه مالك في الموطأ عن عطاء بن يسار: أن رجلاً قبّل امرأته وهو صائم في رمضان فوجد من ذلك وجداً شديداً فأرسل امرأته تسأل له عن ذلك فدخلت عند أم مسلمة زوج النبي ﷺ فذكرت ذلك لها فأخبرتها أم مسلمة أن رسول الله ﷺ يقبل وهو صائم، فرجعت فأخبرت زوجها بذلك فزاده ذلك شراً وقال: لسنا مثل رسول الله ﷺ، الله يحل لرسول الله ﷺ ما شاء، ثم رجعت امرأته إلى أم مسلمة فوجدت عندها رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ما لهذه المرأة؟»، فأخبرته أم مسلمة فقال: «ألا أخبرتِها أني أفعل ذلك؟»، فقالت: أخبرتها وأنها أخبرت زوجها وأنه قال لها ما قال فغضب رسول الله ﷺ، وقال: «والله أني لأتقاكم لله وأعلمكم بحدود الله». فهذا الرجل أرسل زوجته تسأل زوجات رسول الله ﷺ وها هُن يخبرن عن فعل رسول الله ﷺ والرسول يصادق على ما صدر منهن؛ أي أنهن مصدر علم.

ومن بعده ﷺ يرجع إليهن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع جماعة يختلفون في وجوب غسل الجنابة على من جامع ولم ينزل، فقال بعضهم: يغتسل، وقال البعض: لا غسل عليه، ويستدل الأولون بحديث: «إذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل». والآخرون يستدلون أيضاً بحديث: «إنما الماء من الماء». ثم حضر علي رضي الله عنه فسأله عمر عن ذلك فقال: علام تسألني أو غيري وعندك أمهات المؤمنين فأرسل إليهن وسلهن؟، فأرسل إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جلس بين شقيها ثم جهدها فقد وجب الغسل أنزل أو لم ينزل». فقال أبي بن كعب: يا أمير المؤمنين أنا أخبرك عن هذا كنا في بادئ الأمر لم يعزم علينا؛ ثم عزم علينا يعني بالغسل. هذا ونظائره كثيرة وسيأتي لذلك زيادة بيان، إن شاء الله.





ب ـ طريقة تلقي علماء المدينة

أشرنا إلى بدايات طريقة تلقي علماء المدينة من بداية بيعتي العقبة ومجيء مصعب بن عمير وتعلمهم القراءة والكتابة على أيدي أسارى بدر ومساءلة أزواج النبي ﷺ كمصدر آخر للتعلم، وأوردنا المثال للرجل الذي قبّل زوجته في رمضان واختلاف بعض الصحابة في اغتسال الذي يجامع ولم ينزل ورجوعهم في ذلك كله إلى زوجات رسول الله ﷺ.

ومن ذلك أيضاً ما وقع في مجلس مروان بن الحكم حين كان أميراً على المدينة إذ اختلفوا عنده في الصائم يصبح جنباً. فقال البعض: لا يصح صومه وعزا هذا القول لأبي هريرة. فقال الآخرون: يصح صومه فأرسل مروان من يسأل عن ذلك أمهات المؤمنين، فسأل عائشة رضي الله عنها فقالت: إن كان رسول الله ﷺ ليصبح جنباً من جماع غير احتلام في رمضان ويصبح صائماً. وهنا يرسل مروان إلى أبي هريرة فيخبره بما قالته عائشة رضي الله عنها فيرجع أبو هريرة عن قوله.

فهذا فضلاً عن كونه مصدراً للعلم ففيه تصحيح لأقوال بعض الصحابة فيما لم يسمعوا فيه نصاً صريحاً من رسول الله ﷺ، وكذلك ما جاء في تعذيب الميت ببكاء أهله ورد أم المؤمنين على عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وغير ذلك مما ألفت فيه الكتب في حصره وبيانه.

والذي يهمنا أن وجودهن كان مصدراً من مصادر التعليم عظيماً وهو مصداق قوله تعالى في حقهن: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٤]، فالحكمة قبل هي السنة. والواقع أنها أعم ولكن مرجع كل حكمة هي آيات الكتاب وسنة الرسول ﷺ.

ومن جانب الصحابة أنفسهم ومن جاء بعدهم فإنهم كانوا شديدي الحرص، أقوياء الرغبة، أكيدي العناية بالتحصيل. ومن ذلك الآتي:

١ ـ التناوب على طلب العلم ورعاية مزارعهم: فهذا عمر رضي الله عنه كان له

بستان بالعوالي وله جار، فكان إحداهما ينزل إلى المسجد ليسمع ما يقوله ﷺ وما يستجد من نزول الوحي ثم يرجع مساءً فيذكر ذلك لصاحبه بينما يكون صاحبه في عمل البستانين له ولصاحبه. ومن الغد ينزل الذي كان قد جلس وهكذا حرصاً منهم على تحصيل العلم مع القيام بأمر معايشهم.

٢ ـ ومن ذلك ما كانوا يتهادونه من أحاديث رسول الله ﷺ كما جاء عن جابر رضي الله عنه جاء إلى أهل قباء فقال: ألا أهدي لكم بهدية؟ قالوا: بلى. قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله علمنا كيفية السلام فعلمنا كيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا. فقال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد»... إلى آخر الصلاة الإبراهيمية.

وهكذا كان أحدهم إذا سمع شيئاً أبلغه لقومه، كما جاء عن جابر أيضاً قوله: نهى رسول الله ﷺ عن أمر كان لكم فيه خير.

ولكن طاعة الله وطاعة رسوله أولى. نهى ﷺ عن تأجير الأرض بما ينبت في رؤوس الحوض وعلى المازبانات؛ يعني القناطر.

وذلك أنهم كانوا يؤجرون الأرض لمن يزرعها القمح على أن لصاحب الأرض رؤوس الأحواض وما على جانبي القناطر وكان هذا هو أفضل الزرع وفيه مضرة على الفلاح، فنهاهم عن ذلك ﷺ وسمع ذلك رجل منهم فنقل الخبر إليهم وأعلمهم أن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ أولى لهم.

٣ ـ ومن ذلك أن بعضهم قد كان يتبع رسول الله ﷺ على شبع بطنه متفرغاً لطلب العلم كأبي هريرة رضي الله عنه قال: تقولون: أكثر أبو هريرة نسمع منه أحاديث لم نسمعها من المهاجرين ولا من الأنصار، لقد كان إخواني من المهاجرين يشغلهم الضرب في الأسواق وإخواني الأنصار يشغلهم العمل في مزارعهم وكنت أتبع رسول الله ﷺ على شبع بطني. ولعل هذا مشعر بإيجاد المكافأة للطلاب ليتفرغوا لطلب العلم.

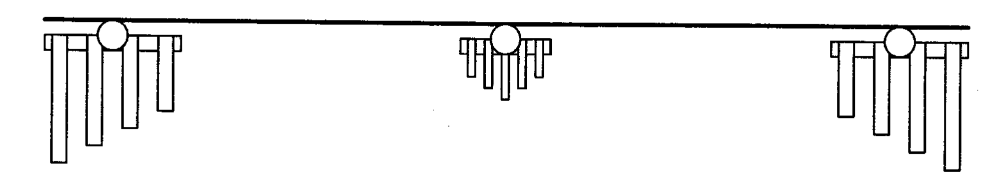
٤ ـ ومن ذلك صبرهم وجلدهم واحترامهم لمن يتعلمون منهم كما كان من ابن عباس رضي الله عنه قال: قلت لرجل صديقي: هلم نجمع أحاديث رسول الله ﷺ والناس متوفرون. فقال: أتظن أن الناس يأتي عليهم زمان يحتاجون فيه إلى علمك، فمضيت وقعد وقد كنت أتبع الرجل في المسجد لأسمع منه فيخرج من المسجد قبل أن أدركه فأتبعه إلى بيته لعله يلتفت فيراني فأسأله كراهية أن أوقفه

في الطريق. ولقد تبعت رجلاً إلى باب بيته فدخل ولم يلتفت فكرهت أن أناديه بعد أن دخل بيته فجلست على باب داره أنتظر خروجه، فلم يخرج حتى صلاة العصر وقد أخذني النوم على باب داره، فخرج فوجدني فسلم وقال: ابن عباس؟ ابن عم رسول الله ﷺ على باب بيتي؟ هلا أرسلت إلي فآتيك؟ فقلت: لا، إن الحاجة إلي أن أنا قد جئت أسألك عن حديث رسول الله ﷺ كذا وكذا. وقد ساق ابن عبد البر في كتاب جامع بيان العلم وفضله عن ابن المبارك أنه قال: أول العلم النية ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر ولقد كانت هذه كلها أوفر ما تكون آنذاك.

أما النية فهم أخلص الناس نية في طلب العلم فلم يطلبوه لرئاسة ولا لدنيا، وأما الاستماع فقد قال ابن عباس: أوتيت لساناً سؤولاً وقلباً عقولاً. وأما الفهم فلا شك أن الناس يتفاوتون في ذلك ولكن مثل ابن عباس حبر الأمة وصاحب دعوة رسول الله: «اللهم فقهه في الدين». وأما الحفظ فقد جاء عن علي في وصية رسول الله: قال: «ائتوني بطبق أكتب لكم»، فقال علي: قل: أسمع وإني لحافظ. وابن عباس يسمع قصيدة من عمر بن ربيعة ويلومه عليها بعض الخوارج فيقول له: ولقد حفظتها وإن شئت أعدتها عليك منكسة فأعادها عليه سبعة وتسعين بيتاً. وأما نشره فهذه بطون الكتب ومسامع العلماء شاهدة على نشره العلم رضي الله عنه.

٥ ـ ومن أقوى طرق تلقيهم العلم، الطرق العملية. فهذا مثلاً الوضوء يتوضأ لهم عثمان رضي الله عنه وضوءاً ويقول: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا.. الحديث. وهذه صلاته ﷺ على المنبر ويقول لهم: «صلوا كما رأيتموني أصلي». وهذا الحج في جميع مواقفه يقول ﷺ: «خذوا عني مناسككم». وتلك الأحداث طوال عشر سنين تطبق فيها الأحكام من حدود وعقود وحقوق الجوار، ونحو ذلك مما يتعلم فعله وينتشر خبره وهم يشاهدونه ويسمعون ويتعلمون، وقد نقلوا كل ذلك إلينا بأمانة كما روى مالك في الموطأ: أن صائغاً سأل ابن عمر عن بيعة الذهب بالذهب ويزيد مقابل أجرة عمله فنهاه، فلما أكثر عليه قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالذهب مثلاً بمثل»، هذه عهدة نبينا إلينا وهي عهدتنا إليكم، وبالله التوفيق.





وصول علمهم إلينا

قدمنا اختصاص علماء المدينة بهذا البرنامج وطريقة تعلمهم ويلوح لنا سؤال: كيف وصلت إلينا علومهم على بعد ما بيننا وبينهم؟

وإجابة على ذلك، فإن أصول علومهم كما أسلفنا هي القرآن الكريم والسنة المطهرة، أما القرآن فقد جاء به الروح الأمين من عند الله وألقاه على خاتم النبيين. وكان ﷺ كلما جاء الوحي بجديد دعا كتّاب الوحي فكتبوا أولاً بأول، وكانت الكتابة في أنواع متفرقة وكان البعض يحفظ عن ظهر غيب، ثم جمع هذا المفترق وكتب في صحف حفظاً من الضياع تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]. ولقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٧]. ثم جمع الجمعة الثانية عن الاختلاف في قراءته وذلك في خلافة عثمان رضي الله عنه في المصحف الأم، وكتب خمس نسخ وبعث للأمصار، لكل قطر نسخة ومعها مقرئ يقرئهم ويسمعون منه.

فأخذوا القرآن قراءة وسماعاً. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]، ولم يزل بحمد الله غضاً طيباً كأنه اليوم أنزل.

وقد نشأت علوم القرآن من بيان مجمله وتخصيص عمومه وبيان ناسخه من منسوخه، فكانت علوم التفسير وأصول التفسير وعلوم رسمه وقراءته وعنه أُخذ القصص وتاريخ الأمم. وأخذت العقائد وأخبار المستقبل وما بعد الموت من بعث ونشور وحساب ونشأت الرقائق ووجد القصاص؛ أي الوعاظ، وغير ذلك مما يحاول بعض المتأخرين إرجاع كثير من العلوم إلى القرآن مستندين إلى قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ولكن ينبغي أن يعلم أن القرآن لم يأتِ ليضع أسس ومناهج العلوم الحديثة، وإنما جاء ليضع منهجاً لحياة كريمة ويرسم سعادة دائمة، فهو إن أشار

إلى مبادئ بعض العلوم فهذا عرض للمناسبة كما في قوله تعالى لداود عليه السلام: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١].

والسابغات الدروع من زرد الحديد والتقدير في سرد أصل صناعة تلك الدروع، واتخذها البعض قاعدة لأصل جميع الصناعات في التقدير والتناسق لأن وقدر: بمعنى اجعل الحلق والمسامير التي تربطها أو الزرد الذي يصنع منه الدرع مقدرة كلها بمقدار واحد للتناسق بينها. وأضافوا لهذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، حتى قالوا في التفجير النووي: إن أساسه معرفة مقدار التناسب في جزئيات الذرة أو نحواً من ذلك.

ولكن لا ينبغي الإفراط في ذلك والذي يهمنا أن القرآن كان مصدراً للعلوم الدينية من عقائد وتاريخ ومعاملات، ونظام أمة من اجتماعيات واقتصاد وحرب وسلم.

ثم السنة المطهرة: لقد ربط الله تعالى بين السنة والقرآن في عموم الوحي في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]؛ يعني جبريل عليه السلام. وهي مفسرة وشارحة لما أجمل في كتاب الله وقال ﷺ: «ما من نبي إلا وأوتي ما على مثله أمن البشر وإنما الذي أوتيته وحي وإني أوتيت القرآن ومثله معه»؛ يعني السنة، وتقدم قوله تعالى عن أمهات المؤمنين: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

فقيل: الحكمة السنة. ولقوة علاقة السنة بالقرآن كانت عناية الله بها وحفظها من النهاية وحفظ القرآن. ففيض الله إليها جمعها وعلى نظام الإسناد في مسانيد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فكان جمع إحصاء أحصوا أحاديث كل صحابي على حدة أياً كان موضوعها وكيفما كانت درجته. ثم جاءت طبقة أخرى تنتقي وتنظم حسب أبواب الفقه ووحدة المواضيع فاختاروا الصحيح بناءً على صلاحية الرواة ونشأ مصطلح الحديث. ويمكن القول: بأن أصل وجوده من توجيهات القرآن في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ الآية [الحجرات: ٦]. وفعل عمر رضي الله عنه لما جاء أبو موسى يستأذن فلم يؤذن له فرجع فاستدعاه عمر وسأله: لماذا جئت ولماذا رجعت؟ فذكر له أن الرسول ﷺ قال: «الاستئذان ثلاثة» فإن أذن لك وإلا رجعت،

فقال: عمر وتقول: قال رسول الله؟ لئن لم تأتني بمن سمع هذا من رسول الله ﷺ وإلا أوجعتك ضرباً، فرجع إلى العلماء في المسجد وقال لهم: عمر يضرب الناس عن حديث رسول الله ﷺ، ولما أخبروه بسماع الحديث، فقال: والله لا أتهمكم عن حديث رسول الله ﷺ ولكن خشيت أن يطول الزمان بالناس، وكلما حدث لإنسان حدث قال: قال رسول الله ﷺ. أي أراد التثبيت، ولهذا فإن علم السند والرواية لا يوجد إلا في هذه الأمة وبهذا أحصوا كل ما كان عن رسول الله ﷺ في خاصة نفسه وعامته. ودونت السنة في الصحاح والسنة وهي بين أيدينا محفوظة حرفاً حرفاً، وما أتى إنسان بما يدعيه حديثاً إلا وأمكن علماء السنة الكشف عنه وعمن هو حتى يبينوا لنا صحته من ضعفه أو عدم صحة نسبته إلى النبي ﷺ.

ثم إن من علماء كتب التفسير والمسانيد والسنة وأعمال الأئمة الأعلام واجتهادهم كان الفقه.

وقد جاء في معاجم التراجم أن علم الصحابة كلهم قد انصب في جداول الفقهاء السبعة وهم علماء المدينة أبناء الصحابة وهم:

١ ـ عبيد الله بن مسعود.

٢ ـ عروة بن الزبير.

٣ ـ القاسم بن محمد بن الصدّيق.

٤ ـ سعيد بن المسيّب.

٥ ـ أبو بكر بن بشر.

٦ ـ سليمان بن يسار.

٧ ـ خارجة بن زيد بن ثابت.

وكلهم كما ترى من التابعين وقد جمعهم بعضهم في هذين البيتين:

ألا إن من لا يقتدي بأئمة ... فقسمته ضيزى عن الحق خارجة

فها هم عبيد اللّه عروة قاسم ... سعيد أبو بكر سليمان خارجة

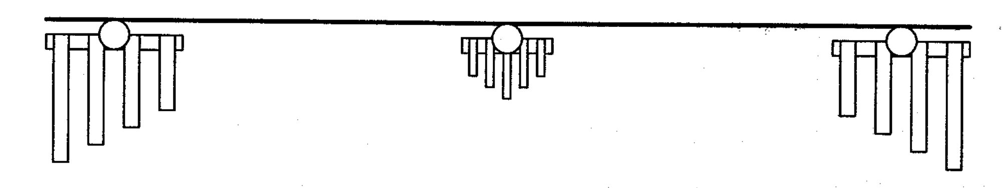
وعن هؤلاء وغيرهم تبلورت النصوص واستنبطت الأحكام وقعدت القواعد، ووضعت المناهج ونبغ أعلام أفاضل دونت أعمالهم وانتشرت

علومهم ثم استقرت لدى أئمة المذاهب الأربعة ومن عاصرهم ممن اتحد معهم أو انفرد عنهم. وها هي كتبهم بين أيدينا ناطقة بفضلهم شاهدة على أعمالهم.

وها نحن في رياض علومهم نغترف من بحار معارفهم مما سجل التاريخ لهم علينا من فضل وأوجب لهم عندنا من عرفان بالجميل. وتقدم بيان نشأة المدارس في الأمصار على .... الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم.

ولا ننسى العلوم الجانبية كعلم الفلك والأنساب وقد أوصى بها عمر رضي الله عنه فقال: تعلموا من الأنساب ما تصلون به أرحامكم وتعرفون مواريثكم، ومن الفلك ما تعرفون ساعات الليل والنهار. وذكر فرحون أنها كانت علوماً تدرس بالمسجد النبوي في القرن السابع الهجري على ما سيأتي إن شاء الله، وبالله التوفيق.





من أعلام علماء المدينة

مصعب بن عمير رضي الله عنه

لا شك أن جميع أصحاب رسول الله ﷺ أعلام هدىً ودعاة هداية وليس من الممكن إيراد التراجم لهم جميعاً، ولا بد من الاكتفاء بالبعض وعلى أساس موضوعي وما يقتضي التقديم من أثره العلمي. ومصعب بن عمير رضي الله عنه له قصب السبق إلى التعليم في المدينة المنورة وهو مبعوث رسول الله ﷺ إلى الأنصار يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن، ولهذا كان اختياره لأول من نترجم له رضوان الله تعالى عليه وعلى جميع أصحاب رسول الله ﷺ، وإن أهم أغراض الترجمة للشخصيات ذات الفعالية في التاريخ لهي بيان المؤشرات التي كونت شخصيته والآثار التي قدمها لأمته ومنهجه في مسلك عمله ودعوته.

أولاً: شخصية مصعب:

هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدارين قصي بن كلاب. ويلقب بمصعب الخير، ويكنى أبا محمد وزوجته حمنة بنت جحش بن رباب، وله ابنته زينب.

أمه خناس بنت مالك يتصل نسبها بلؤي. فهو في الذروة من النسب القرشي.

حياته قبل الإسلام:

يتفق المؤرخون أنه كان فتى مكة شباباً وجمالاً ووسيماً، وكان أبواه يحبانه وكانت أمه مليئة كثيرة المال تلبسه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه وكان أعطر أهل مكة.

قال ابن سعد في الطبقات: كان ﷺ يذكره ويقول: «ما رأيت بمكة أحد أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير».

بدء إسلامه:

لما بلغه أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام بدار ابن أبي الأرقم ذهب فدخل عليه فأسلم وصدق به وكتم إسلامه على أمه وقومه وكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سراً، فبصر به عثمان بن طلحة يصلي فأخبر أمه وقومه فأخذوه وحبسوه. ولم يزل محبوساً حتى خرج إلى الحبشة في الهجرة الأولى، ولما رجع المسلمون رجع معهم، ثم عاد إلى الحبشة في الهجرة الثانية، ولما رجع من الحبشة رجع متغيراً حاله حتى عذرته أمه وكفت عن عزله شفقة عليه، ثم هاجر إلى المدينة، وكان من أوائل المهاجرين إليها. قال ابن كثير: لما انصرف الأنصار بعد البيعة الأولى بعث ﷺ معهم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين.

عمله بالمدينة:

نزل مصعب على أسعد بن زرارة وكان يسمى بالمدينة «المقرئ» وكان يؤمهم في الصلاة. وروى ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كتب إلى مصعب يأمره بإقامة الجمعة. قال: وفي إسناده غرابة، ولكن أقام الجمعة بالمدينة قبل مجيء النبي ﷺ محل اتفاق. وقيل: إن أبا أمامة أول من جمع بهم وكانوا أربعين رجلاً رواه أبو داود.

منهجه في الدعوة:

كان منهج الحكيم العليم المتأثر بمنهج النبي الكريم، قال ابن كثير: خرج أسعد بن زرارة بمصعب رضي الله عنه يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، أي من دور المدينة ومنازلها وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة. فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر يعني بستاناً، فجلسا واجتمع إليهما رجال ممن أسلم. وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذٍ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل وكلاهما لم يسلم بعد. فلما سمعا به قال سعد لأسيد: انطلق إليهما؛ قد أتيا إلى ديارنا ليسفها صفنا ألا فازجرهما وانههما أن يأتيا ديارنا، فأخذ أسيد حربته فأقبل إليهما. فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمهُ. فوقف

عليهما متشتماً وقال: اعتزلانا إن كانت بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أَوَتجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره؟ قال أسيد بن حضير: أنصفت؛ فركز حربته وجلس فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فعرفا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم وذلك في إشراقة وجهه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قال له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهّد شهادة الحق ثم تصلي، فقام فاغتسل وتشهد شهادة الحق.

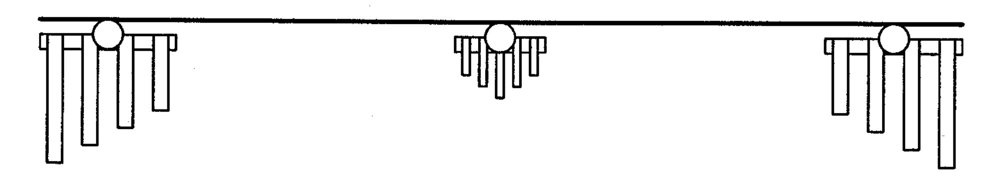
وقام وركع ركعتين، ثم انقلب هذا المتشتم المتوعد داعية إلى الله فقال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن وهو سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، وقال له سعد: ماذا فعلت؟ قال: كلمتهما فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقال: تفعل ما أحببت. ثم قال أسيد لسعد بن معاذ: لقد حدثت أن بني حارثة يريدون قتل ابن خالتك أسعد بن زرارة ليحقروك. فقام سعد بن معاذ مغضباً مبادراً خائفاً على ابن خالته من بني حارثة وأخذ الحربة وذهب إلى مصعب وأسعد بن زرارة ووقف عليهما متشتماً كما فعل أسيد بن حضير وقال لأسيد: والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا حتى، أتغشانا في دارنا بما نكره؟ وقد علم مصعب أنه سيد قومه فقال له: أَوَتجلس فتمسع فإن رضيت أمراً رغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفتما وركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. قيل: قرأ عليه أول الزخرف: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ الآيات. قال مصعب: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به في إشراقه وتسهله.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قال: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك. ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. فقام واغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين. ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا:

نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فوالله ما أمسى في دار بني الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة. ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقاما عنده يدعوان الناس إلى الإسلام حتى لم يتبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة مع الذين خرجوا من المدينة حجاجاً مع قومهم أهل الشرك، وتواعد المسلمون مع رسول الله ﷺ عند العقبة وكان ممن حضر أسيد بن حضير رضي الله عنه وتمت البيعة الثانية، واستوثق كلٌّ لجانبه وانفضوا إلى رحالهم ثم رجعوا إلى المدينة وبقي مصعب مع رسول الله ﷺ عدة أشهر على ما سيأتي إن شاء الله.





الدروس العملية من مواقف مصعب

لما نجحت وفادته لأهل المدينة وفي ظرف سنة واحدة ما بين بيعتي العقبة الأولى والثانية وإتيانه بسبعين من أهل المدينة رجال ونساء ومن ضمنهم أسيد بن حضير سيد قومه الذي أتى مصعباً في المدينة مهدداً متشتماً فانقلب مسلماً وداعياً ويبعث بسعد بن معاذ إلى مصعب فأسلم هو أيضاً.

بعد هذا النجاح ومجيئه بهؤلاء الأنصار ومن هذه النوعية خاصة، وانقضى الموسم ورجعوا إلى المدينة تخلف مصعب عدة أشهر كان يذكر لرسول الله ﷺ المدينة وأوضاعها العامة والخاصة وأنهم يستبطئون هجرة الرسول ﷺ. ثم سافر إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها النبي ﷺ. ومن مواقفه في تلك الفترة أنه لما قدم مكة ولقي القوم رسول الله ﷺ وتمت البيعة وانقضى الموسم نزل مصعب إلى مكة وأتى النبي ﷺ في بيته فعلمت أمه بمقدمه فأرسلت إليه، وتقول له: تقدم بلداً أنا فيه ولا يكون أول مجيئك إلى أمك يا عاقاً؟ فقال لها: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ. إن التلاحم بينه وبين رسول الله ﷺ مصداق لقوله ﷺ: «والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالديه وولده والناس أجمعين».

عاد مصعب إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها رسول الله ﷺ يواصل دعوته. وكتب إليه النبي ﷺ أن يقيم لهم الجمعة كما تقدم.

زهادته في الدنيا بعد ترفه فيها:

لقد زهد مصعب المترف المنعم المعطار، زهد حتى أن رسول الله ﷺ وأصحابه يُغْضون عنه رحمة به. قال ابن سعد في الطبقات بسنده عن عروة بن الزبير قال: بينما أنا جالس يوماً مع عمر بن عبد العزيز وهو يبني المسجد فقال: أقبل مصعب بن عمير ذات يوم والنبي ﷺ جالس في أصحابه عليه قطعة نمرة قد وصلها بإهاب قد ردَّنه ثم وصله إليها، فلما رآه أصحاب النبي ﷺ

نكسوا رؤوسهم رحمة له ليس عندهم ما يغيرون عنه، فسلم فرد عليه النبي ﷺ السلام وأحسن عليه الثناء وقال: «الحمد لله ليقلب الدنيا بأهلها، لقد رأيت هذا ـ يعني مصعباً ـ وما بمكة فتًى من قريش أنعم عند أبويه نعيماً منه». ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير في حب رسول الله ﷺ فنعم المثل الأعلى للشباب في علو الهمة والتعالي على كل مُتَع الدنيا الزائده وتقديم الباقي وإيثار الآخرة.

إنه لا يبعد عندي أن راوي هذا الخبر هو عمر بن عبد العزيز، قد تأثر أثراً فعلياً بذلك فهو كان ولا شك فتى بغداد، كان إذا مشى عرف الناس ممشاه لشدة تعطره وطيب ثيابه وكان الناس يرسلون ثيابهم إلى الغسال الذي يغسل عنده عمر بن عبد العزيز ثيابه لعلها يصيبها من طيبه، فلما ولي الخلافة فها هو يلبس الحلس والمسوح. وتعمل معه زوجته وهي زوج الخليفة بنت الخليفة. وها هو يروي ما آل إليه فتى مكة، ويقول رسول الله ﷺ: «ثم أخرجه من ذلك ـ أي النعيم والترف ـ الرغبة في الخير في حب الله ورسوله».

أخلاقه:

لم يغير شظف العيش الذي لحقه والظروف الجديدة غير المألوفة من أخلاقه. إنها أصالة الذات وقوة الثبات فقد كان أيضاً المثل الأفضل في سلوكه وأخلاقه، كما قال عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال: كان مصعب بن عمير لي خدناً وصاحباً ـ والخدن الصاحب في السر، يعني صاحباً وصديقاً سراً وعلانية يعلم حقيقة مسلكه ـ منذ يوم أسلم إلى أن نقل رَحِمَهُ اللهُ بأُحُد خرج معنا إلى الهجرتين بأرض الحبشة، وكان رفيقي من بين القوم، فلم أر قط رجلاً كان أحسن خلقاً ولا أقل خلافاً منه.

إنه أيضاً التطبيق العملي لقوله ﷺ: «اتق الله حيث كنت، وخالق الناس بخلق حسن». وبهذا يكون قد جمع كمال الإيمان: الزهد في الدنيا وحسن الخلق، وقد قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ومن مكارم أخلاقه عدم خِلافه مع الآخرين. وقد قال ﷺ: «من ترك المِراءَ وهو محق، بنى الله له بيتاً في الجنة».

جهاده وغزواته:

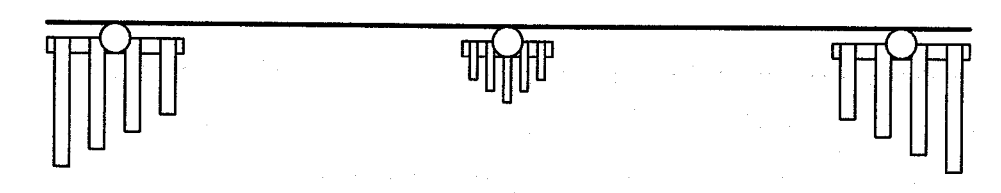
لقد شهد أول المشاهد في الإسلام يوم الفرقان يوم بدر وكان لواء رسول الله ﷺ الأعظم، ذلك اليوم لواء المهاجرين فكان مع مصعب بن عمير رضي الله عنه. وإذا استعرضنا الصورة العامة ليوم بدر كون اللواء مع مصعب وذلك أن المشركين لما تقدم منهم الطليعة وطلبوا المبارزة فخرج لهم شباب من الأنصار أثنوا عليهم وقالوا: نريد من بني عمومتنا، فأمر ﷺ كلاً من عمه حمزة وابن عمه علياً رضي الله عنهما.

إنهما أقرب وأعز عليه في القوم ومع ذلك يندبهما لمبارزة صناديد قريش وها هو اللواء، واللواء هو عصمة الجيش وشعاره فهو في يد مصعب.

وكذلك الحال في غزوة أُحُد. شهد مصعب غزوة أُحُد وكان معه لواء رسول الله ﷺ، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب فأقبل ابن قميئة، وهو على فرسه فضرب يده اليمنى فقطعها ومصعب يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ...﴾ [آل عمران: ١٤٤] إلى آخر الآية. وأخذ اللواء بيده اليسرى وضاعليه، فضرب يده اليسرى فقطعها، فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ الآية، ثم حمل عليه الثالثة، بالرمح فأنفذه واندق الرمح ووقع مصعب وسقط اللواء. قال ابن سعد: لم تكن آية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ قد نزلت آنذاك. ومما نقله أيضاً أن ملكاً حمل اللواء بعد مصعب على صورة مصعب، ومر به رسول الله ﷺ وقال: «تقدم يا مصعب»، فالتفت إلى النبي ﷺ وقال: لست بمصعب، فعرف النبي ﷺ أن هذا ملك جاء لنصرته. وقيل: إنه ترس على النبي ﷺ وقتله ابن قميئة وهو يظن أنه النبي ﷺ وذهب إلى قريش يخبرها أنه قتل محمداً. ولما قتل مصعب أعطى النبي ﷺ اللواء لعلي، هكذا في سير الأعلام شهادة رسول الله ﷺ لمصعب، بعد أن انتهت المعركة ومر ﷺ بمصعب وهو منجعف على وجهه فقرأ هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب ٢٣]، ثم قال: «إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة»، ثم أقبل على الناس فقال: «أيها الناس زوروهم وأتوهم وسلموا عليهم فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم مسلم

إلا ردوا عليه السلام». فسلام الله عليكم أجمعين وسلام الله عليك يا مصعب فقد ساهمت في نشر الإسلام بالمدينة، وكنت أول معلم لأهلها وكنت مبعوث رسول الله ﷺ إلى أهلها وسلكت مسلكه في عرض نفسه على القبائل في المواسم في حكمة وأناة، وخلفت للدعاة منهجاً حكيماً يدين لك به كل داعية ولك في ذمة كل مسلم عهد ولك يد، أعظم الله لك الأجر وأعلى لك المنزلة.





معاذ بن جبل

كانت الأولوية في هذا المنهج لمصعب بن عمير الهاشمي المهاجري للسبق الزمني، إذ كان هو أول من وصل من المهاجرين إلى المدينة، وكان مبعوث رسول الله ﷺ إلى أهل المدينة ليعلمهم الدين ويقرئهم القرآن، ويليه في الأهمية في تقدير هذا البرنامج المعلم الثاني والعالم الجليل إمام العلماء والأمة بنفسه معاذ بن جبل، الذي خلفه رسول الله ﷺ في أهل مكة يعلمهم الدين والقرآن والفقه. وذلك عام الفتح حين خرج ﷺ إلى حنين وأرسله ﷺ معلماً لأهل اليمن وقاضياً. وأوفده عمر رضي الله عنه لأهل الشام كذلك.

فكان رضي الله عنه بمثابة البعثة التعليمية للأقطار الإسلامية، وقد جاء عنه ﷺ قوله: «يبعث معاذ بن جبل يوم القيامة» أو قال: «يأتي بين يدي العلماء برتوة».

وكما قدمنا داعياً إلى الله من المهاجرين، فها هو ذا داعية وعالم من الأنصار وهو معاذ بن جبل رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

اسمه ونسبه:

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب بن عمرو بن أدي بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج، يكنى أبا عبد الرحمٰن الأنصاري الخزرجي المدني البدري، شهد العقبة شاباً أمرد، وذلك مع السبعين عند البيعة.

أمه: هي هند بنت سهل من بني رفاعة من جهينة.

وجاء في صفته: وكان طويلاً حسناً جميلاً عظيم العينين أبيض اللون، وأسلم وعمره ثماني عشرة سنة وجمع القرآن حفظاً رابع أربعة. قال الذهبي: وقتادة عن أنس قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كلهم من الأنصار، أُبيّ بن كعب، وزيد، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد أحد عمومتي، وهو

ممن أمر ﷺ أن يؤخذ عنهم القرآن كما قال الذهبي عن أحمد رحمه الله قال: حدثنا أبو معاوية وساق بالسند إلى عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وأُبيّ، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة»، قال المحقق: أخرجه البخاري في فضائل القرآن، وفي مناقب معاذ. . . إلخ.

معاذ أعرف الأمة بالحلال والحرام:

فعن أنس مرفوعاً في بيان خصائص بعض الصحابة رضوان الله عليهم: «أرحم بأمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة». رواه أحمد وإسناده صحيح.

ولو وقفنا عند هذا الأثر ونحن في معرض الترجمة لبعض العلماء لوجدنا مبدأ التخصص العلمي. وإن كانوا يقولون: إن التخصيص لا يقتضي التفضيل، ولكن نقول: إن هذا التخصيص له أثره العملي في هذا السبيل بحيث إن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كانوا عند النزاع في موضوع ما يقدمون ذوي الاختصاص وهكذا السلف، فمثلاً في الفرائض يقدمون رأي زيد بن ثابت رحمه الله، كما قال صاحب الرجية:

بأن زيداً خص لا محالة　　بما حباه صاحب الرسالة
من قوله في فضله منبها　　أفرضكم زيد وناهيك بها

وكذلك ابن عباس رضي الله عنه فيما خص بدعوته ﷺ: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، فكانوا يرجعون إليه فيما التبس عليهم من معاني القرآن الكريم، وقد اجتمع عند عمر مشيخة من الصحابة فدخل عليهم ابن عباس وهو شاب فرأى منهم شيئاً لصغر ابن عباس يغشاهم في مجلسهم ولهم شباب من أبنائهم لا يغشون مجلس عمر، فأراد عمر أن يبين لهم منزلته وسبب إدخاله على الشيوخ فسأل الجميع عن معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، فأخذوا يجيبون بأن هذا من الله لرسوله بشرى بالنصر وأنه إخبار عن فتح مكة. وابن عباس ممسك عن

الكلام حتى سأله عمر: ما تقول أنت يا ابن عباس؟ فقال: لقد نَعت إلينا رسول الله ﷺ وهو بين أظهرنا. فقال: وكيف ذلك؛ أي كيف أخذت هذا المعنى من هذه السورة؟ فقال: لأنه سبحانه أرسله برسالة وكلفه بمهمة فقام ﷺ بمهمته وبلغ رسالته وأدى أمانة الله، فبلغ الإسلام أطراف الجزيرة وفتحت مكة وقوضت دولة الشرك وأصبح الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فلم يبق من مهمة التبليغ تتمة وعلى صاحب الرسالة التهيؤ والتزود لملاقاة ربه سبحانه ليلقى حسن جزائه. ومن التهيؤ لذلك أن يديم التسبيح بحمد الله والاستغفار، رفعاً لدرجاته وتعليماً للآخرين. فقال عمر رضي الله عنه: وأنا كذلك أرى ذلك.

وهذا نتيجة دعوة رسول الله ﷺ لابن عباس: «اللهم علمه التأويل»؛ يعني التفسير.

فكذلك معاذ بن جبل رضي الله عنه في معرفته للحلال والحرام ودعاء النبي ﷺ ووصيته إياه، فقد ذكر الذهبي رحمه الله بسنده إلى عبيد بن صخر أن النبي ﷺ قد ودع معاذاً أو دعا له قائلاً: «حفظك الله من بين يديك ومن خلفك، ودرأ عنك شر الإنس والجن».

وقد كان هذا التوديع حين بعثه ﷺ إلى اليمن، فقد خرج معه ﷺ يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري»، فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ، فقال: «لا تبك يا معاذ...» إلخ.

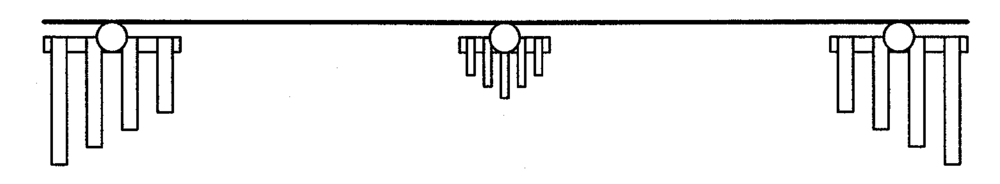
ومما جاء في وصيته هذه ما جاء لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: لما بعثنا أنا ومعاذ إلى اليمن قال لنا: «يسراً ولا تعسراً وتطاوعاً ولا تنفراً».

محبته ﷺ لمعاذ:

لئن بكى معاذ رضي الله عنه حين قال له رسول الله ﷺ: «يا معاذ؛ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي»، فبكى خشعاً لرسول الله ﷺ وتلك عاطفة غالبة وحق لمعاذ أن يبكي لذلك. ومثل هذا قد وقع من أبي عبيدة أو عبيدة بن الحارث حين انتدبه رسول الله ﷺ أميراً على ثمانية أشخاص إلى موقع نخلة بين مكة والطائف ليترصد له خبر قريش، فلما استلم الخطاب من رسول الله ﷺ نظر إليه وبكى صبابة إلى رسول الله ﷺ.

فعذره رسول الله ﷺ وأعفاه وبعث محله عبد الله بن حسن، تلك هي الروابط الروحية والعواطف الجياشة بين معاذ رضي الله عنه ومن على شاكلته لرسول الله ﷺ وهي المقياس في مدى قوة الإيمان بالله ورسوله ﷺ. أما آثاره العلمية فستأتي في الحلقة الآتية إن شاء الله، وبالله تعالى التوفيق.





معاذ بن جبل رضي الله عنه
وآثاره العلمية

لقد كان لمعاذ بن جبل رضي الله عنه آثاره العلمية مما لا تكاد تكون لغيره من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وقد تقدم في الحلقة السابقة العديد من خصائص وما تميز به من معرفة الحلال والحرام ودعاء النبي ﷺ إليه ووصية أبيه، وهنا نشير إلى بعض آثاره العلمية التي استشهد بها رضوان الله تعالى عليه والتي فيها المثل والمنهج لطلبة العلم، وفق هذا البرنامج المبارك إن شاء الله.

من ذلك ما رواه ابن سعد في الطبقات بسنده إلى فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن معاذ بن جبل كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين. فقلت: غلط أبو عبد الرحمٰن، إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، فأعادها علي فقال: إن معاذ بن جبل كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، فعرفت أنه تعمد الأمر تعمداً؛ فسكت. فقال: أتدري ما الأمة وما القانت؟ فقلت: الله أعلم. فقال: الأمة الذي يعلّم الناس الخير، والقانت المطيع لله ولرسوله. وكذلك كان معاذ كان يعلم الناس الخير، وكان مطيعاً لله ولرسوله.

وكان معاذ يفتي زمن رسول الله ﷺ ضمن ثلاثة من المهاجرين وثلاثة من الأنصار هم: عمر، وعثمان، وعلي؛ أي الخلفاء الراشدون الثلاثة. وأُبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت رضوان الله عليهم أجمعين، وتلك منزلة عظمى أن يكون في مصاف هؤلاء الخلفاء الراشدين، في إصدار الفتوى وفي عهد الرسول ﷺ. وهؤلاء الثلاثة من الأنصار كان يستشيرهم عمر رضي الله عنه إذا حز به الأمر مع أهل الشورى، فكان من أهل الحل والعقد.

ومعاذ رضي الله عنه من الستة الذين انتهى علم الصحابة إليهم، روى ابن سعد

بسنده إلى «مسروق» قال: شاممت أصحاب رسول الله ﷺ فوجدت علمهم انتهى إلى ستة: إلى عمر، وعلي، وعبد الله، ومعاذ، وأبي الدرداء، وزيد بن ثابت. . . إلخ.

ولئن كان الأمر على ما قال مسروق: انتهى علم الصحابة إلى ستة منهم: معاذ بن جبل، وكان أصحاب الفتوى ستة منهم معاذ؛ فإن الآثار جاءت عنه رضي الله عنه أنه كان مرجع كبار الصحابة فيما اختلفوا فيه ويصدرون عن رأيه.

روى مالك رحمه الله في موطئه عن أبي إدريس الخولاني قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتًى شاب بَرَّاق الثنايا وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شيء أسندوا إليه وصدروا عن قوله، فسألت عنه فقيل: هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغد هجرت فوجدته قد سبقني بالتهجر ووجدته يصلي قال: فانتظرته حتى قضى صلاته ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه ثم قلت: والله أني لأحبك لله. فقال: الله؟ فقلت: الله. فقال: الله؟ فقلت: الله. فقال: الله؟ فقلت: الله. فقال: فأخذ بحبوة ردائي فجذبني إليه، وقال: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ»، فهذه حالة العلماء الراسخين في العلم حيث يصدر الناس عنهم ويسندون إليهم ما اختلفوا فيه. ولا يكون ذلك إلا لثلاثة أمور هي ألزم صفات طالب العلم؛ منها غزارة علمه، ومنها ثقة الناس بما عنده من العلم وأمانته على الفتوى، ومنها محبتهم إياه. ومع هذا تهجيره إلى المسجد وتنقله حيث سبق هذا الشخص بالتهجير.

ولم يكن هذا حال عامة الناس معه فحسب بل وكذلك حال الشيوخ من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فقد ذكر «ابن سعد» الذهبي في سير أعلام النبلاء هذا الخبر بسنده إلى أبي سلمة الخولاني قال: دخلت مسجد حمص فإذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من الصحابة فإذا فيهم شاب أكحل العينين براق الثنايا ساكت، فإذا انترى القوم؛ أي اختلفوا وتماروا في مسألة، أقبلوا عليه فسألوه. فقلت: من هذا؟ قيل: معاذ بن جبل فوقعت محبته في قلبي. ومع هذا كانت له هيبة العلماء ووقارهم. روى الذهبي عن الأعمش بسنده إلى شهر بن حوشب قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ نظروا إليه

هيبة منهجه العلمي والعملي، أما منهجه العملي فقد سن في صلاة المسبوق سنة لم يسبق إليها في كيفية إتمام صلاته إذا فاته شيء مع الإمام. وذلك أنهم كانوا في أول الأمر إذا أقيمت الصلاة فجاء متأخراً مسبوقاً سأل الذي يصف بجواره: كم صليتم؟ فيشير إليه بأصابعه: واحدة أو اثنين، فيصلي المسبوق ما فاته من الركعات ويبقى مع الرسول ﷺ حتى يسلم فيسلم معه وقد أتم صلاته. حتى جاء معاذ ذات يوم وقد أقيمت الصلاة ووجد الرسول ﷺ ساجداً، فسجد معه ولم ينتظر رفعه من السجود ولم يسأل من بجواره كم صلوا؟ ولما سلم النبي ﷺ قام معاذ فقضى ما سبقه من ركعات، فقال له رجل: كيف صنعت؟ سجدت ولم تعتد بالركعة؟ يعني لم تقرأ ولم تركع ثم ترفع ثم تدرك السجود، فقال: لم أكن لأرى رسول الله ﷺ على حال إلا أحببت أن أكون معه فيها. فذكر ذلك للنبي ﷺ فسره ذلك وقال: «هذه سنة لكم». ويكفي في قبول هذا الخبر ذكر ابن كثير إياه في تفسيره والذهبي في كتابه أنه لا شك من فقهه رضي الله عنه كما علل له: ما كنت لأرى رسول الله ﷺ على حال إلا أحببت أن أكون معه فيها. وهذه السنة للمسبوق عند الجميع يدخل مع الإمام على الحالة التي هو عليها.

ومن منهجه العلمي الذي أصبح ميزاناً وهدياً للقضاء والقضاة ما جاء عنه حين بعثه ﷺ إلى اليمن قاضياً فقال له: «بم تقضي؟». قال: بكتاب الله، فقال له ﷺ: «فإن لم تجد في كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: اجتهد. فقال ﷺ: «الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله». وضرب ﷺ صدر معاذ. إنه المنهج العلمي الحق الذي أجمع عليه قضاة المسلمين وهو تقديم النص من كتاب أو سنة قولية أو فعلية ثم الاجتهاد. ومن الاجتهاد في الوقت الحاضر النظر في أقضية السلف زيادة في العلم والتأكيد. وختاماً نقول ما قاله ﷺ: «نعم الرجال أبو بكر، نعم الرجال عمر، نعم الرجال معاذ بن جبل».

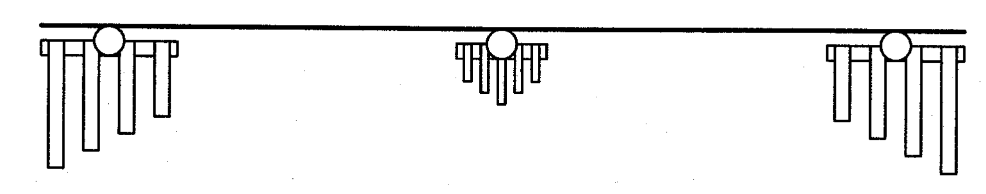
زهده وكرمه:

لقد لحقته ديون لكثرة إنفاقه حتى اشتكاه غرماؤه لرسول الله ﷺ وطلب منهم أن يضعوا له من دينه فلم يقبلوا فباع ﷺ ما يملك معاذ وسدد ما عليه قبل أن يبعثه إلى اليمن.

ومن زهده وكرمه أن بعث عمر ﷺ بأربعمائة دينار إلى أبي عبيدة وقال لغلامه: «تلد ساعة عنده» ثم انظر ما يصنع، فرآه قد فرقها في حينه. ثم ذهب غلامه مرة أخرى بأربعمائة دينار لمعاذ وقال له عمر أيضاً: تلد وانظر ما يصنع بها ففعل هو كذلك أرسل بها هنا وهناك فأطلت امرأة معاذ وقالت: ونحن والله مساكين فاعطنا، ولم يبق في الخرقة إلا ديناران قد حابهما إليها فقال عمر: إنهم أحق بعضهم من بعض.

توفي ﷺ ١٨هـ وعمره ٣٨ سنة، بعد أن رسم طريق العلماء العاملين والعباد المخلصين، جزاه الله أحسن الجزاء.





زيد بن ثابت رضي الله عنه

هناك أسماء تعتبر مترابطة متقاربة إذا ذكر أحدها حضر في الذهن الآخر منهما كأبي بكر مثلاً ما ذكر إلا وحضر في الذهن عمر، ولذا يقال: العمران. وكذلك الشمس والقمر ما ذكر أحدهما إلا وحضر الآخر في الذهن، ولذا يقال: القمران. وكذلك عثمان بن عفان ما ذكر إلا وحضر في الذهن زواجه بابنتي رسول الله ﷺ: رقية وأم كلثوم، ولذا يقال له: ذو النورين، وهكذا لقوة التلازم بين أولئك جميعاً.

وهنا ما ذكر زيد إلا وحضر في الذهن كتابة الوحي وجمع القرآن أعظم عمل في حياة الأمة الإسلامية، وأهم عمل وأثبته في تثبيت دعائم الإسلام وقد عنيت جميع كتب التراجم والرجال بالكتابة عن زيد رضي الله عنه، ونحن نورد نموذجاً يصور لنا حياته ويرسم لنا منهجه ويبرز لنا العوامل التي كان لها التأثير الفعلي لتكوين تلك الشخصية العظيمة والتي تركت لنا آثاراً عظاماً ومعالم جساماً منارات هدى ومنابع هداية تصاحب الأعوام وتساير الليالي والأيام آثار عمرت بها المدارس وقامت عليها المعاهد. وتدارستها حلق المساجد على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله، فنسوق الآتي:

نسبه ومولده:

قال الذهبي: زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار بن ثعلبة.

ومولده: قدم النبي ﷺ المدينة وعمر زيد إحدى عشرة سنة.

أمه: هي أم جميل. وقد نشأ يتيماً، قتل أبوه يوم بعاث وكان عمره ست سنوات.

كان رضي الله عنه ذكياً حافظاً حفظ سبع عشرة سورة وأتى به النبي ﷺ لدى

مقدمه إلى المدينة. فقالوا: يا رسول الله هذا غلام من بني النجار وقد قرأ مما أنزل عليك سبع عشرة سورة، فقرأت على رسول الله ﷺ فأعجبه ذلك. وقال: «يا زيد تقرأ كتابة يهود؟» قلت: لا. قال: «تعلم لي كتاب يهود فإني والله ما آمنهم على كتابي». فتعلمها في نصف شهر قال زيد: وكنت أكتب لرسول الله ﷺ إذا كتب إليهم.

كتابته للوحي؛ عن سليمان بن خارجة بن زيد عن أبيه عن جده زيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي بعث إلي فكتبته، وعن البراء قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ادع لي زيداً وقل له: يجئ بالكتف والدواة». تلك كانت نشأة زيد وهذه هي حياته، نشأ يتيماً متفرغاً وكان ذكياً حافظاً حفظ سبع عشرة سورة، وهو ابن إحدى عشرة سنة وقبل البلوغ كان في رحاب رسول الله ﷺ متفرغاً للقلم يقرأ ويكتب ويترجم، جمع اللغتين العربية والعبرية. والعبرية من اللغات السامية ولذا سهل عليه خدمتها في نصف شهر، فكان أميناً مأموناً عند رسول الله ﷺ يأتمنه على كتابة الوحي ويأمنه على المكاتبات مع اليهود.

وبالتالي فهو يتلقى عن رسول الله ﷺ العلوم والمعارف في أمور الدنيا والدين، فالدين من كتابة الوحي بين يدي رسول الله ﷺ مما يعلمه ويفسره له، والدنيا من كتابة لليهود في عهودهم ومعاملاتهم وسياسة الأمة أجمع ومن هذا وذاك معاً شتى العلوم والمعارف.

كتّاب الوحي:

وبهذه المناسبة فإن العلماء يوردون هنا بياناً بكتّاب الوحي خاصة وكتّاب الرسائل عامة، ويحمل ذلك ما جاء في كتّاب التراتيب الإدارية.

كان عثمان بن عفان وعلي يكتبان الوحي لرسول الله ﷺ فإن غاب كتب أُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت، وكان أُبيّ بن كعب ممن كتب الوحي قبل زيد ومعه أيضاً وكان زيد ألزم الصحابة لكتابة الوحي، وكان أُبيّ إذا لم يحضر دعا رسول الله ﷺ زيد بن ثابت، وكان أُبيّ وزيد يكتبان الوحي بين يدي رسول الله ﷺ، ثم ورد من عدة مصادر أعداد كثيرة ممن كانوا يكتبون لرسول الله ﷺ حتى أوصلهم البعض إلى ما فوق الأربعين. ثم نقل عن ابن

عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: كتب لرسول الله ﷺ جماعة، وكان كاتبه المواظب على الرسائل والأجوبة والذي كتب الوحي كله زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن هذه المواظبة كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوسع الصحابة معرفة واستيعاباً وكان من الراسخين في العلم.

علومه وما تميز به رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أول علومه علم القرآن وحفظه للقرآن وكان الحفّاظ على عهد رسول الله ﷺ أربعة فقط، وكانوا كلهم من الأنصار وهم: أُبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ذكرهم الذهبي وهم في صحيح البخاري في فضائل القرآن.

ومن علومه التي تميز بها علم الفرائض. جاء في حديث الترمذي في خصائص بعض أصحاب رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»، وفيه: «وأفرضهم زيد» وروي عن الشعبي أن زيد بن ثابت غلب على الناس باثنين: الفرائض والقرآن. وقال الذهبي في مستهل ترجمته لزيد: هو الإمام الكبير شيخ المقرئين والفرضيين، مفتي المدينة.

استيثار عمر به في المدينة: قال ابن سعد في الطبقات كان عمر يستخلفه في جميع أسفاره عن المدينة، وكان يفرق الناس في البلدان ويوجهه في الأمور المهمة، وكان يطلب إليه الرجال بأسمائهم فيقال له: زيد بن ثابت، فيقول: لم يسقط على مكان زيد؛ يعني لم أنس مكانته، ولكن أهل البلد يحتاجون إلى زيد فيما يجدون عنده فيما يحدث لهم ما لا يجدون عند غيره. وهذا صريح القول من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسعة علم زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ووجود مقومات الفتوى والعلم عند زيد مما لم يوجد عند غيره من نظائره في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما تميز به من جوانب علمية عملية.

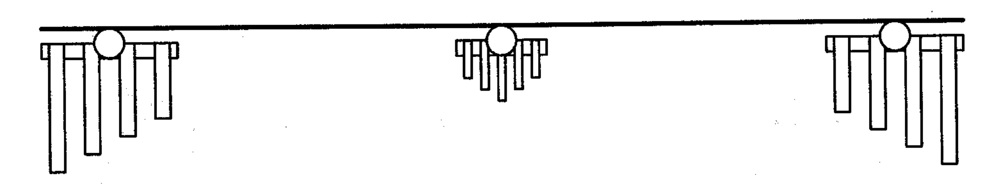
مجالاته العلمية:

قال ابن سعد: كان زيد مترئساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة، والفرائض في عهد عمر وعثمان وعلى مقامه في المدينة، وزيد هو الذي كان أسند إليه قسمة غنائم حنين، وهذا فضل مستقل حيث في زمنه ﷺ ووفرة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وكثرة تلك الغنائم ينتدب ﷺ زيداً ليقسمها.

فضله في علمه:

اتفق كل من ترجم له أنه كان من الراسخين في العلم، ومن معرفتهم لفضله رضي الله عنه أن ابن عباس رضي الله عنه قام فأخذ بركابه فقال له زيد: تنح يا ابن عم رسول الله، فقال ابن عباس: إنا هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا، فقال له زيد: أرني يدك فأخرج ابن عباس يده فقبلها زيد وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا. إنها آداب رفيعة ومكارم أخلاق عالية من كل منهما رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.





منزلة زيد بن ثابت في القضاء

قال ابن سعد عن بكير بن عبد الله بن الأشبح قال: جلّ ما أخذ به سعيد بن المسيّب من القضاء وما كان يفتي به عن زيد بن ثابت. وكان كل قضاء أو فتوى جليلة ترد على ابن المسيّب تحكى له عن بعض من هو غائب عن المدينة من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، إلا قال: فأين زيد بن ثابت عن هذا؟ يعني أن سعيد بن المسيّب كان يتوثق لما يبلغه من الفتاوى عن بعض الصحابة أو كبار التابعين بما يقوله زيد رضي الله عنه فيقدم قول زيد على أقوال الآخرين، وقد صرح بذلك في نهاية هذا الخبر بقوله: إن زيد بن ثابت أعلم الناس بما تقدمه من قضاء، وأبصرهم بما يرد عليه عما لم يسمع فيه شيء، يعني في مسائل الاجتهاد. ثم يقول ابن المسيّب مبيناً مكانة علمه ومدى قبوله أقواله في كل مصر من الأمصار وذلك بقوله: لا أعلم لزيد بن ثابت قولاً لا يعمل به فجُمع عليه في الشرق والغرب أو يعمل به أهل مصر، وأنه ليأتينا عن غيره أحاديث وعلم ما رأيت أحداً من الناس يعمل بها ولا من هو بين ظهرانيهم. وجملة هذا القول: أن ابن المسيّب يقول: لا أعلم قول لزيد متروك ولا علم أحد غيره يؤخذ بكل ما يقول.

إنها والله منزلة عالية وثقة عظيمة لزيد ولعلمه.

وها هو عمر رضي الله عنه مع أُبيّ بن كعب يختصمان في نخيل بينهما فيحتكمان إلى زيد. قال الذهبي: تنازع أُبيّ وعمر بن الخطاب جداد نخل فبكى أُبيّ فقال: أفي سلطانك يا عمر؟ قال: اجعل بيني وبينك رجلاً. قال أُبيّ: زيد. فانطلقا حتى دخلا عليه، فتحاكما إليه. فقال: بينتك يا أُبي، قال: ما لي بينة. قال: فاعف أمير المؤمنين من اليمين. فقال عمر: لا تعف أمير المؤمنين من اليمين إن رأيتها عليه. هكذا ساقها الذهبي مختصراً.

وقد جاء فيها ما يضع للقضاء منهج العدالة والمساواة بين المتخاصمين

أياً كان شخصهما، من ذلك أنهما أول ما دخل عليه ورآهما زيد وفي بيته أشار إلى عمر في صدر المكان قائلاً: هاهنا يا أمير المؤمنين. فقال عمر: ما جئتك أميراً للمؤمنين إنما جئتك متخاصماً مع هذا. فقال زيد: إذاً تجلس مع خصمك، فجلس هو وأبي مجلس الخصومة سواء. فقص أُبيّ دعواه وسأله زيد البينة فلم تكن لديه وطلب يمين المدعى عليه، فقال زيد: أَوَتعفي أمير المؤمنين من اليمين؟ فصاح به عمر وقال: أتشفع لكل خصم في اليمين ولماذا لا أحلف إن توجهت علي يمين وكنت صادقاً؟ فحلفه زيد اليمين فقضى على أُبيّ لعدم البينة وليمين عمر، ولما خرجا من عند زيد استوقف عمر أُبياً وقال له: انتهت الخصومة وحكم لي. قال: نعم. قال: النخل مني لك. فقيل لعمر: هلا كان ذلك قبل اليمين؟ يعنون ولماذا تحمّل نفسك مسؤولية اليمين وأنت تريد أن تعطي النخيل محل النزاع؟ فقال عمر: لئلا يتخذها الناس سنة.

فمن توجهت عليه اليمين وكان صادقاً حلف ولا يقول: عمر ترك اليمين. وهذا من عمر ﷺ بمنزلة التشريع. أما الورع فشيء آخر وبهذه المناسبة فقد يترك بعض الناس الحلف تورعاً. وقد يرد اليمين على المدعي وقد لا يردها فقد وقع من عثمان ﷺ حين خاصمه المقداد فقال: لي عندك تسعون ألفاً، وقال عثمان: بل هي سبعون، فقال له: تحلف وآخذ السبعين؟ فقال له عثمان: بل تحلف أنت وتأخذ التسعين، فحلف وأخذها. فقيل لعثمان: ولماذا لم تحلف ما دمت تعلم من نفسك الصدق؟ قال: خشيت أن يصادف قدر فيقال: قد كان حلف. وجاء عن عبد الله بن عمر أنه كان قد باع غلاماً بسبعمائة فادعى المشتري أنه كان به عيب أخفاه عليه فتوجهت عليه اليمين واسترد العبد فباعه بألف.

والذي يهمنا أن زيداً قضى على عمر ﷺ باليمين وعمر حلف اليمين أمام زيد رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وروي عن مالك ﷺ أنه كان يقول: إمام الناس عندنا بعد عمر زيد بن ثابت، وكان إمام الناس عندنا بعد زيد ابن عمر.

وكان ابن عباس يقول: لقد علم المحفظون من أصحاب محمد ﷺ أن زيد بن ثابت من الراسخين في العلم.

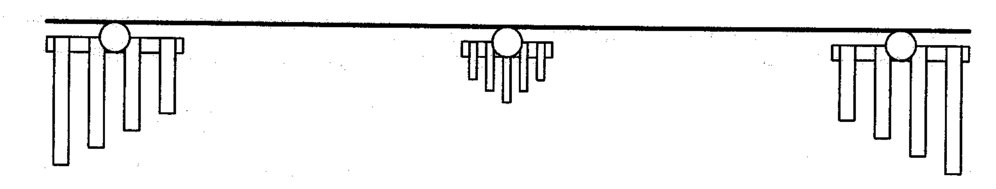
وعن سليمان بن يسار قال: ما كان عمر وعثمان يقدمان أحداً على زيد بن ثابت في الفرائض والفتوى والقراءة والقضاء.

فما أعظمها منزلة وأوسعه مجالاً. عمر الملهم والمحدث لا يقدم على زيد أحداً في تلك المجالات: الفرائض نصف العلم وهو أول علم يفقد يترأس فيه زيد ولا يقدم عمر عليه فيه أحداً.

الفتوى: ميراث الرسول ﷺ إذ هو صلوات الله وسلامه عليه لم يورث درهماً ولا ديناراً إنما ورث علماً، والعلم قسمان: رواية ودراية، فالرواية يقول فيها ﷺ: «رب مبلغ أوعى من سامع ورب حامل فقه لمن هو أفقه منه». فقد يحمل الحديث الصحيح أو الآية الكريمة ولكن لا يستطيع استيعاب فقه النصوص، ومن هنا كان الفقه هو العلم وهو الخير كله: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». وأما القضاء فإن مداره على هذين العلمين الفرائض والفقه وكان الولاة يمنحون من أرادوا توليته القضاء في الفرائض وفي السؤال عن بعض النوازل والقرآن وهي التلقي والسماع لقراءات رسول الله ﷺ وجميع ما أثر من قراءات ليس محل اجتهاد بل أخذت كلها توفيقياً عن رسول الله ﷺ، كما تلقاها رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام.

موقفه من السياسة العامة:

لم يكن هذا العالم الفاضل الراسخ في العلم بعيداً عن سياسة الأمة والنظر في مصالحها، فها هو أخطر موقف بعد حياته ﷺ حين اضطربت الكلمة واختلفت الآراء فيمن يتولى هذا الأمر وكان اجتماعهم في سقيفة بني ساعدة لتقرير المصير. فقال خطيب الأنصار: كان رسول الله ﷺ إذا بعث رجلاً من المهاجرين بعث معه رجل منا فمنكم أمير ومنا أمير إلى غير ذلك. فقام زيد رضي الله عنه فقال: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين وكنا نحن أنصاره. وإنما يكون الإمام من المهاجرين ونحن أنصاره وانتهى أمر السقيفة، بما قاله عمر: يا معشر الأنصار، ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قدم أبا بكر في الصلاة فأيكم يتقدم عليه يا معشر الأنصار؟ ألا تعلمون أنه كان مع رسول الله ﷺ في الغار ثاني اثنين. وانتهى الأمر بما بعثه رضي الله عنه وكما قال عمر: لقد وقى الله شرها؛ أي مخالفة الخلاف. وقد كان لكلمة زيد فيها عظيم الأثر رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.



زيد بن ثابت وتاريخ جمع القرآن

لعل من الإنصاف أن يقال: إن كل من قرأ في مصحف أو اقتنى مصحفاً أو باع أو اشترى أو طبع أو أهدى أو أوقف مصحفاً فإن كل هؤلاء مدينون بالفضل لإمامنا زيد بن ثابت رضي الله عنه.

وما من شك في أن جمع القرآن في صحف وجعلها مصحفاً يأتي في الدرجة الثانية من كتابة الوحي بين يدي رسول الله ﷺ، وأنه حقاً يقينٌ من آثار وعد الله الكريم بحفظ هذا القرآن العظيم في قوله وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، ولما كان صلوات الله وسلامه عليه يعاجل جبريل بالقراءة حرصاً على حفظه قال له المولى عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٧]. وقد كان وتم وعد الله وعلى يدي زيد.

على يديه الكتابة الأولى التي هي تقييد الوحي فقد كان لزيد الحظ الأوفى والملازمة الدائمة.

والجمعة الثانية: وهو تتبعه من اللخاف والعسب والأكتاف.

والكتابة الثالثة: وهي تجريده من أنواع القرآن أو إبعاد بعض التعليقات وبعثه إلى الأقطار كما أراده الله سبحانه على ما هو عليه اليوم من غير تبديل ولا تغيير لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كأن اليوم أنزل.

وقد شهد له جميع معاصريه بالحفظ والأمانة وشكروا له جهده وقيامه في شأنه على أمثل ما يكون وهذا بيان منهجه فيما قام به:

أولاً: كتابة الوحي بين يدي رسول الله ﷺ، كان ﷺ إذا نزل عليه الوحي بما ينزل من القرآن أمر الحاضر من كتّاب الوحي أن يكتبه. وكانوا كثرة إلا أن لزيد الحظ الأوفى.

ثانياً: جمعه في عهد الصدّيق رضي الله عنه ويمكن أن نسميها جمعه الحفظ والحفاظ على كتاب الله.

ثالثاً: جمعه في عهد عثمان ﷺ ويمكن أن تسمى هذه الجمعة لجمع الكلمة واجتماع الأمة على المصحف الأم، وعليها وصل المصحف إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي وتداولته أيدي المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على الصورة التي جاءت عليها بصمات إمامنا زيد ومن عاونه فيها رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وهذا بيان للخطوات التي خطاها تاريخ المصحف الشريف من أول جمعه إلى يومنا هذا وإلى الغد وما بعد إلى أن يعود من حيث بدأ يوم يرث الأرض ومن عليها:

الخطوة الأولى: أجمع العلماء على أنها كانت بين يدي رسول الله ﷺ وإذا نزلت آية قال: «ضعوها في السورة التي يذكر فيها كذا»، كالبقرة مثلاً أو النمل أو النحل أو الكهف وهكذا يكتبون الآيات؛ الآية تلوها الأخرى حتى تكتمل السورة وتنزل باسم الله الرحمن الرحيم وبداية سورة جديدة، وهكذا رتبت آيات السور حسب أوامر رسول الله ﷺ. وكانت الكتابة في مجموعات من الأكتاف مثل: كتف البعير أو البقر أو الشاة ومن اللخاف وعسب النخل: طرف الجريد العريض، والطلع الذي فيه اللقاح ونحوه لعدم توفر الورق. مع حفظ النص عند البعض وتوفي رسول الله ﷺ والقرآن محفوظ في صدور الرجال على تفاوت بينهم ومكتوب في تلك الوسائل. وكان زيد وعثمان وعلي ممن جمعوا حفظ القرآن كله.

الخطوة الثانية: بعد انتقال الرسول ﷺ وتوفر الحفاظ كانوا مكتفين بذلك وما رغبوا في آية إلا وحددها وتداولوها، حتى حدث في بعض الغزوات أن استشهد عدد ممن يحفظون القرآن وكانوا يسمون «القراء» وذلك في حروب أهل الردة وقتال مسيلمة ففزع لذلك عمر ﷺ، فجاء إلى أبي بكر ﷺ وطلب منه أن يعمل على جمع القرآن في صحف مخافة عليه من الضياع لاستشهاد كثير من الحفاظ. فتوقف في بادئ الأمر أبو بكر ﷺ وقال: كيف تطلب مني أن أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ولا أمر به؟ فلما أكثر عليه أرسل أبو بكر إلى زيد ولما حضر قال له: إن عمر يطلب مني أن أجمع القرآن في صحف، فقلت له: كيف أفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ولم يأمر به؟ فإن وافقت عمر جئت معكما وإن وافقتني تركت قول عمر.

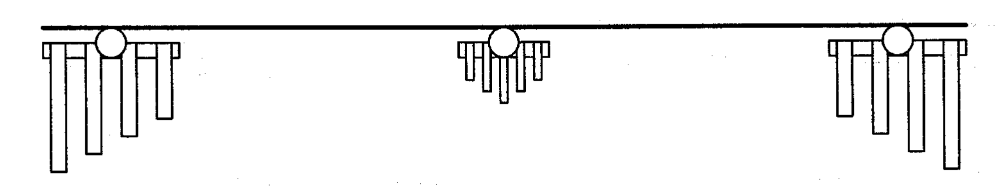
فقال زيد: حقاً يا عمر، كيف يطلب من خليفة رسول الله أن يفعل ما لم يفعله رسول الله ولم يأمر به؟

فقال عمر قولته التي وضعت قاعدة المصالح المرسلة في أصول التشريع إذ قال لهما: وماذا عليكما إن أنتما فعلتما؟ أي لم يفعله رسول الله ولم يأمر به. فلم ينه عنه وإذا قارنتما بين الفعل والترك فماذا عليكما من إثم ومضرة إن أنتما فعلتما؟ ومن ناحية أخرى كم ذا ستؤديان خدمة للمسلمين وتحفظون كتاب الله الذي هو أساس ومنهج هذا الدين الذي جعل الله لكم فيه العزة والسعادة. حقاً إنها عملية مقارنة بعيدة المدى عظيمة الأثر ما أن سمعها أبو بكر حتى شرح الله صدره لما قاله عمر.

وهنا تأتي المهمة العظمى حيث كلف الصدّيق زيد بن ثابت لجمع القرآن مبيناً موجب هذا التكليف ومؤهلاته في زيد. حين قال له الصدّيق ﷺ: «إنك رجل شاب، عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ»، بالإضافة إلى أن زيداً كان يحفظ القرآن كله جيداً. وكان يجيد القراءات كلها وكان قد حضر العرضة الأخيرة؛ أي بين النبي ﷺ وجبريل فعرف المحكم من المنسوخ وهذا كله ما لم يتوفر لأحد من كبار الصحابة ﷺ. ولعل عمر ﷺ كان يعاونه في ذلك. قال زيد: فلما كلفت بذلك؛ فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن.

عمله في هذا الجمع: كان يطلب المكتوب فإذا جاءه أخذ بشيء من ذلك توثق منه بشاهد من أنه مما كتب بين يديه ﷺ ومما وافق العرض الأخير. ولم ينسخ وطابق المحفوظ في الصدور، فلم يكن يعتمد على المحفوظ وحده ولا على المكتوب وحده. بل كان من المكتوب والمحفوظ يوثق أحدهما الآخر. وهكذا جمع القرآن في صحف وأودعت لأبي بكر ومن بعده لعمر ومن بعده لابنته حفصة زوج رسول الله ﷺ إلى أن تولى عثمان ﷺ وجاء دور الجمعة الأخيرة على ما سيأتي إن شاء الله، وبالله تعالى التوفيق.





زيد وكتابة المصحف الأم

كانت كتابة المصحف الأم في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ هي الكتابة والجمعة الأخيرة، والتي أرسلت إلى الأمصار لتكون هي الإمام للمصاحف وترك ما عداها مما كان في أيدي الأفراد لأنها كتبت بطريق يضمن الحفظ والسلامة يقيناً وبصورة قطعية وإجماع من أهل المدينة قاطبة، وكان سببها أنه لما اتسعت الفتوحات وتعددت الأمصار وخرج عدد من القراء في الجهاد، وأخذ كل قطر بقراءة من وصلهم من القراء أصحاب رسول الله ﷺ الذين تلقوا القرآن سماعاً منه ﷺ، فأخذ أهل الشام عن أُبيّ بن كعب وأخذ أهل الكوفة بقراءة عبد الله بن مسعود. وأخذ آخرون بقراءة أبي موسى الأشعري رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ثم حدث أن اجتمع الجند من عدة أقطار للقتال في أرمينية وأذربيجان فاجتمع من أهل الشام وأهل العراق وسمع كل من الآخر قراءة تخالف ما يقرأ عليها، وحدثت المجادلات حتى وصلوا إلى تغليط بعضهم البعض، فجاء حذيفة بن اليمان إلى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ وذلك في سنة خمس وعشرين من الهجرة فقال له: أدرك أمة محمد لا تختلف على كتاب ربها كما اختلف اليهود والنصارى وأخبره بما سمع فعزم على تدارك ذلك.

ويرى علماء القرآن أن سبب هذا الاختلاف لما جاء من أن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف. ومن المعلوم أن صورة هذا الخلاف قد ظهرت في حالة فردية زمن النبي ﷺ حين سمع عمر ﷺ هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما يقرؤها. قال عمر فيما رواه البخاري: فكدت أن أعجل عليه؛ يعني وهو يصلي. فأمهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه، فجئت به رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ سورة «الفرقان» على غير ما أقرأتنيها. فقال ﷺ: «أرسله اقرأ». فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ،

فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت»، ثم قال: «اقرأ» فقرأت. فقال: «هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه».

وذكر القرطبي رحمه الله عن هذا الحديث وفي معناه ما رواه مسلم عن أُبي بن كعب قال: كنت في المسجد فدخل يصلي، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فأمرهما النبي ﷺ فقرأ فحسن النبي ﷺ شأنهما فسقط ما في نفسي من التكذيب، ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى النبي ﷺ ما قد غشيني، ضرب في صدري ففضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فرقاً، فقال: يا أُبي أرسل، إلى أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن أهون على أمتي، فرد إلى الثانية أقرأه على حرفين، فرددت إليه أن أهون على أمتي، «فرد إلى الثالثة أقرأ على سبعة أحرف، فلك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليَّ فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام»، فهذا المبدأ في اختلاف القراءات واعتراض من لم تبلغه كعمر وأُبي فلأن يقع من غيرهما من باب أولى. ولهذا السبب لما رأى حذيفة رضي الله عنه وسمع اختلاف بعضهم على بعض وهم الرعيل الأول وصدر الأمة والسلف الصالح أدرك خطورة الأمر فأسرع للخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه قائلاً: أدرك أمة محمد لا تختلف في كتاب ربها. وعندها استجاب عثمان رضي الله عنه حالاً. ودعا أول ما دعا إمامنا هذا زيد بن ثابت رضي الله عنه. ومعه ثلاثة من أجلاء الصحابة رضي الله عنهم وهم: عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. وثلاثتهم قرشيون. وأخبرهم أنه قد أجمع أصحابه جميعاً على أن ننسخ مصاحف وترسل إلى الأمصار لتكون هي الأم والمرجع وأن يترك ما سواها من المصاحف عمل الأفراد، وأنهم اتفق هؤلاء النفر الأربعة بذلك، وكانوا جميعاً حفاظاً لكتاب الله.

ثم طلب من حفصة رضي الله عنها أن تعيرهم الصحف التي عندها والتي كانت قد جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه حتى يتموا مهمتهم ويعيدوها إليها فأرسلتها إليهم. وتم لهم ما أرادوا بحمد الله.

وقد كان لعثمان رضي الله عنه توصية هامة في هذه الكتابة وكان يشرف على هذه

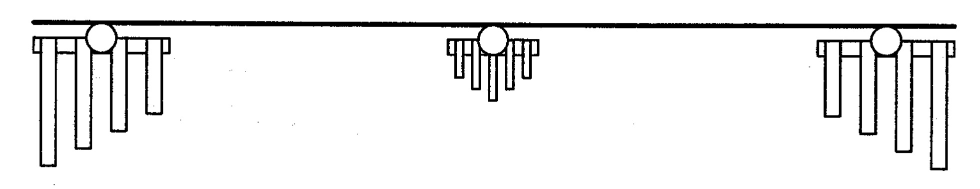
الكتابة بنفسه وأعلام الصحابة، حيث أوصاهم ألا يكتبوا شيئاً إلا بعد عرضه على الصحابة جميعاً للتحقق والتثبت. وألا يكتبوا إلا ما يثبت في العرضة الأخيرة وأن يجردوا تلك الكتابة من كل ما كان كتب معها من شرح أو تعليق. كتعليق كلمة «صلاة العصر» شرحها للصلاة الوسطى ونحوها.

فكتبوه بإجماع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وقد أوصاهم عثمان رضي الله عنه أنهم إن اختلفوا في كلمة بينهم وبين زيد أن يكتبوها بلغة قريش، وقد اختلفوا في كلمة «التابوت» فزيد يراها «التابوه» بالهاء والثلاثة الآخرون يرونها «التابوت» بالتاء وهي التي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

فرفعوا الأمر إلى عثمان فأمرهم أن يكتبوها بالتاء لأنها لغة قريش وبها أنزل القرآن.

وهنا لفتة كريمة: وهي إذا كانوا يتحرون إلى هذا الحد في شكل الحرف ما بين الهاء والتاء مع اتحاد المعنى فكيف بهم في غير ذلك؟! ثم تقديم لغة قريش مع أن الكل لغة عربية والقرآن بلسان عربي مبين.

لعل السبب في ذلك أن اللغة العربية وإن كانت لغة واحدة إلا أنها توجد فيها لهجات وتوجد فيها مترادفات وكان فيها الحوشي الغريب والسهل المتداول. فكان لقريش ما يسمى في كتب الأدب واللغة بالتهذيب القرشي. وهو أن قريشاً من سائر العرب قد اختصت برحلتها في الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام فتخترق الجزيرة شمالاً وجنوباً وتمر بقبائل العرب فتسمع منهم الكلمات فقد تستحسن بعضها فاستبدل بها بعض ما عندها فتطور لغتها من حسن إلى أحسن، وكذلك تفد عليها القبائل للحج فيكون عاملاً أيضاً للتهذيب، فما أن بعث ﷺ حتى تم لقريش تهذيب لغتها على أكمل وجه من لهجات العرب جميعاً. وبها نزل القرآن وقد كان لهم منهج خاص في كتاب ورسم الكلمات المتفقة نطقاً المتفاوتة دلالة كلفظة (كتاب) للقرآن. وللرسائل كرسالة سليمان إلى بلقيس وهو ما يعرف بالرسم العثماني والحفاظ عليه واجب بإجماع الأمة ثم أرسل عثمان إلى كل قطر مصحفاً ومعه قارئ فأخذ المسلمون القرآن تلقياً وتلقيناً، والحمد لله على التوفيق.



حبر الأمة وبحر العلم ابن عباس رضي الله عنه

قدمنا من أعلام علماء الصحابة رضي الله عنهم من لهم سابقة في الإسلام ومسبقات في العلم، فكان أول مصعب بن عمير لسبقه إلى المدينة يعلّم أهلها، ومعاذ بن جبل لابتعاثه إلى عدة أقطار يعلمهم الإسلام، وزيد بن ثابت لعظيم فضله في علمه وعظيم إثارة في جمع القرآن في صحف ثم على المصحف الأم وترؤسه في الفرائض والفتوى والقضاء والقراءة، وبينا مناهج هؤلاء الأعلام في تعلمهم وتعليمهم غيرهم. ونختم اختيارنا من الصحابة بحبر الأمة وبحر علومها ابن عم رسول الله ﷺ عبد الله بن عباس لما له من أكثر من منهج في حياة المسلمين وخاصة العلماء وطلبة العلم، سواء في تحصيله للعلم فله فيه منهج فريد، أو في تعليمه للناس فله أيضاً منهج وحيد، مما يستوجب تقديمه في هذا البرنامج إن شاء الله، بل إنه من أحق من يقدم وأولى من يترجم له في مقررات المعاهد والمدارس والجامعات لاحتوائه على كل صفات الكمال للرجال، واستمع إلى حسان شاعر رسول الله ﷺ يصف ابن عباس:

ذا ما ابن عباس بدا لك وجهه	رأيت له في كل أقواله فضل
إذا قال لم يترك فقال لقائل	بمنتظم لا ترى بينها فصل
كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع	لذي أرب في القول جداول هزل
سموت إلى العليا بغير مشقة	فنلت ذراها لا دنيا ولا وعلا
خلقت حليفاً للمروءة والندى	بليجا ولم تخلق لها مأو وحبلا

هذا ابن عباس في شعر حسان رضي الله عنهما وهو عند عمر بن الخطاب أنه كان إذا ذكره قال: ذلك فتى الكهول، له لسان سؤول وقلب عقول.

وهو عند عبيد الله بن عبد الله فيما قال عنه: كان ابن عباس قد فات الناس بخصال؛ بعلم ما سبق، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم، ونسب، ونائل وما رأيت أحداً أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أعلم بما مضى، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه.

ولقد كنا نحضر عنده فيحدثنا العشية كلها في المغازي، والعشية كلها في النسب، والعشية كلها في الشعر، فأي بحر هذا؟ إنه ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ.

اسمه ونسبه نشأته:

هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن شيبة بن هاشم، وكنيته أبو العباس كني بابن له هو اسم العباس.

ويكفي في سرد نسبه الهاشمي القرشي أنه ابن عم رسول الله ﷺ فهو من رسول الله ﷺ كعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية، قال ابن حجر في الإصابة: هي لبابة الكبرى؛ أي أن لها أختاً اسمها لبابة الصغرى وهي أم خالد بن الوليد ونقل عنها أنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة رضي الله عنها وروت عن النبي ﷺ، وروى عنها ابنها عبد الله بن عباس، وذكر أسماء من رووا عنها.

وأختها أيضاً ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها وأسماء زوج الصدّيق رضي الله عنها وسلمى.

مولده:

اتفقوا على أنه ولد بالشعب شعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين، انتقل مع أبويه إلى المدينة عام الفتح وكان بمكة هو وأمه من المستضعفين وكان يقول: كنت أنا وأمي من المستضعفين أنا من الولدان وأمي من النساء، يعني ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

فيكون إسلامه قبل الفتح وقبل أن يهاجر مع أبويه إلى المدينة إذا كان مولده قبل هجرة النبي ﷺ بثلاث سنين فيكون عام الفتح عمره أحد عشر عاماً.

وقد صح عنه أنه قال: أقبلت على إتان وقد ناهزت الاحتلام (يعني قاربته) ورسول الله ﷺ يصلي بالناس بمنى، أي أنه سنة عشر من الهجرة لم يكن بلغ الاحتلام.

مدة صحبته:

وبمقتضى ذلك تكون له صحبة مع رسول الله ﷺ من فتح مكة المكرمة إلى وفاته في صفر أو ربيع الأول بعد حجته التي وادع الناس فيها، فتكون له صحبة مع رسول الله ﷺ نحواً من ثلاثين شهراً تقريباً، وقد كان رضي الله عنه ذكياً حافظاً فكانت تلك المدة تعادل السنين العديدة بالنسبة لغيره في مجال التحصيل والحديث عن رسول الله ﷺ.

فقد ذكر العلامة (بقيُّ بن مَخْلَد القرطبي) من علماء القرن الثالث الهجري في جمعه أحاديث الصحابة، وصنفهم أصحاب الآلاف والمئين والعشرات والمقلين، أنه ذكر من أصحاب الآلاف: بدأ بأبي هريرة له فوق الخمسة آلاف ثم ابن عمر فوق ألفي حديث، وأنس بن مالك فوق ألفي حديث، وكذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فوق الألفين، ويأتي ابن عباس في المرتبة الخامسة فيذكر أن له ألفاً وستمائة وستين حديثاً.

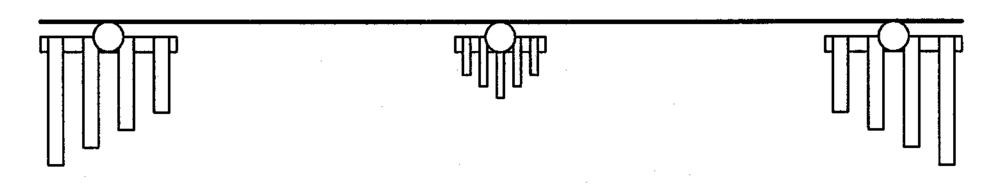
بينما يذكر علياً وعمر بن الخطاب في أصحاب المئين، ومعلوم أن هذه الأحاديث قد رواها ودعاها وهو لم يبلغ الحلم بعد وهذا أكبر شاهد على ذكائه وحفظه، وقد جاء في سنن الترمذي ما ينبئ بمكانته عند رسول الله ﷺ وذلك فيما رواه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال لي: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك؛ إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

وفي رواية لغير الترمذي: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً».

فانظر رحمنا الله وإياك أخي المسلم أولاً: أنه رديف رسول الله ﷺ فأي قرب بعد هذا؟ وانظر تقدير النبي ﷺ وتوسمه فيه الحفظ والفهم وهو لم يزل غلاماً فيكون محل ثقة لحفظ حديث رسول الله ﷺ، وفي أي شيء. إنها كما

سمعنا مهام الأمور كما سبق، وأعلى أسلوب في حفظ الله في أوامره ونواهيه في سؤاله واستعانته بالله وحده، في التوكل على الله والرغبة والرهبة منه وإليه، والحديث معه في شأن أقلام القدر وصحف المقادير والتحدث معه عن النصر والصبر والكرب والفرج والعسر واليسر، وكفى ابن عباس شرفاً وفضلاً أن يخصه رسول الله ﷺ وهو غلام أن يعلمه كلمات، فلا غرو أن يصبح تلميذ رسول الله ﷺ معلم العلماء وحبر الأمة على ما سيأتي إن شاء الله، وبالله تعالى التوفيق.





ابن عباس رضي الله عنه ونشأته

لا شك أن النشأة في البيئة لها الأثر الفعال في حياة كل ناشئ كما جاء في حديث الفطرة، وابن عباس منذ ولادته في الشعب ونشأته في بني هاشم وفي بيت عبد المطلب وهو في دفاعه وحمايته لرسول الله ﷺ لا شك أن يكون لهذا مردود جذري في نشأته.

فإذا كانت أمه لبابة رضي الله عنها ثاني امرأة في الإسلام أسلمت بعد خديجة رضي الله عنها ولها رواية عن رسول الله ﷺ وممن روى عنها إمامنا عبد الله بن عباس، وكذلك والده قبل وبعد الهجرة كم كان يتفاعل مع الأحداث الجسام في مكة وشهوده بدراً وما كان من شأنه وما آل إليه أمره بالمدينة بعد الفتح كل ذلك وإمامنا الجليل الذكي الفطن يشهد ويشاهد ويسأل ويتساءل، وقد حج مع رسول الله ﷺ وكان ممن قدمهم رسول الله ﷺ مع الضعفة في غلمان لقريش، وهو القائل: لقد كنت فيمن قدمهم رسول الله ﷺ ليلة المزدلفة مع الضعفة وضرب على فخذي وقال لي: «ترموا قبل الشمس أغليمة قريش»، كل ذلك مما جعله ينشأ ويشب في مرابع العلم والمعرفة من أعلى مصادرها وأصفى مراديها وأقرب مناهلها.

وقد منحه الله الذكاء والحفظ فكان نادرة في ذلك كما تحكي كتب الأدب، أن ابن عباس كان جالساً بمكة عند الكعبة فجاء ابن الأزرق وهو خارجي فوقف عليه فلم يلتفت له ابن عباس وجاء عمر بن أبي ربيعة فهش إليه ابن عباس وقال له: ابن يا عمر هل من جديد؟ فقال: نعم. وأنشده قصيدة تسعين بيتاً فاستحسن ابن عباس شعره فقال له ابن الأزرق: ويا عجباً يابن عباس جئناك نسألك في الحلال والحرام فتعرض عنا، ويأتيك هذا الشاعر الماجنة فتسمع له وأعجبك شعره؟ فقال له: نعم وحفظته. فقال: أحفظته لأول مرة؟ قال: نعم، وإن شئت أعدتها عليه منكسة. فقال له: قد شئت والله. فأعادها

عليه ابن عباس منكسة بدأ بآخر بيت ثم ما قبله حتى أتى على أولها، هذا كهل قريش له لسان سؤول وقلب عقول، يعني: يعقل ويحفظ، وهذه منة ونعمة من الله تعالى ليست مكتسبة له بجهده واجتهاده ولكنه فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن عوامل تأثير نشأته بعد هذا أيضاً صحبة والده العباس إياه في غدواته وروحاته، رغم أن له أبناء سواه وكان الفضل أكبرهم وهو صاحب حديث: رأيت شاباً وشابة، وذلك في حجة الوداع فلم يشتهر عنه من الحديث والعلم ما اشتهر عن عبد الله حتى أنه إذا قيل: عن ابن عباس أو ابن عمر لم يكن إلا لعبد الله رضي الله عنه كما اشتهر عبد الله بن عمر إذا قيل: عن ابن عمر، صرف إلى عبد الله بن عمر دون إخوته من عمر.

فكان لصحبة العباس لعبد الله أثر أيضاً في نشأته السامية، وقد سجل لنا التاريخ مشهداً لهما حين جاء العباس ومعه عبد الله إلى بيت رسول الله فاستأذن العباس ثلاثاً فلم يؤذن له فرجع مغضباً فأدرك ذلك عبد الله فقال لأبيه: لا تغضب يا أبي لعله مشغول مع الرجل الذي عنده، فقال له أبوه: أَوَمعه رجل؟ فأنا لم أره. وعاد راجعاً فاستأذن فؤذن له لأول مرة فدخل ولم يجد أحداً فقال لرسول الله ﷺ: قد أتيتك آنفاً فاستأذنت ثلاثاً فلم تأذن لي ورجعت مغضباً فقال لي الغلام: هذا لعله مشغول بالرجل الذي يحدثه، ولم أجد عندك أحداً فهل كان عندك أحد حقاً، فالتفت النبي ﷺ إلى الغلام وقال له: «أرأيته يا غلام؟» قال: نعم. فقال ﷺ: «إنه جبريل كان عندي آنفاً».

ومن المؤثرات في نشأته رضي الله عنه أنه نشأ مع الكهول والشيوخ وفي مجالس عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما يحدثنا هو فيقول: كان عمر رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر فكان بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣]؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه

له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١]، وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ٣]. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول، رواه أحمد وأورد الذهبي نحوها.

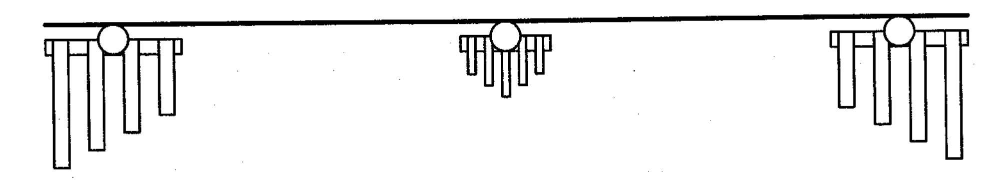
ولعل مستند ابن عباس رضي الله عنه في هذا هو أنه ﷺ أرسل لمهمة إبلاغ الرسالة من ربه للخلق وأمر بأداء الأمانة حتى تعم الدعوة ويظهر دين الله ويقضي على عبادة الأوثان ويكون الدين كله لله، وقد قام ﷺ في أداء مهمته فبلغ رسالة ربه وجاهد في سبيل الله لإعلاء كلمته حتى أظهر الله الدين، فإذا ما وصلت المهمة إلى نهايتها وجاء نصر الله وفتحت مكة وتحطمت الأصنام حول الكعبة وطهرت من رجس المشركين وأصبح الناس يدخلون في دين الله أفواجاً؛ أي عن قناعة ويقين وأصبح الإسلام في ازدياد ويدعو لنفسه بنفسه عن طريق تلك الأفواج التي تدخل فيه تباعاً، فحينئذ تكون مهمة الرسول ﷺ قد تمت ويكون الرسول ﷺ قد وفى ما عليه فلم يعد لبقائه معهم بعد ذلك ما كان من قبل، وعليه أن يتهيأ لملاقات ربه بالتسبيح والتحميد والاستغفار ليلقى حسن الجزاء على حسن البلاغ.

وهذا الفهم الذي فهمه ابن عباس قد روي عن الصدّيق رضي الله عنه لأنه حين نزلت هذه السورة بكى فقيل له: أتبكي وفيها البشرى بالنصر وبالفتح؟ فقال: لقد نعت إلينا رسول الله ﷺ وهو بين أظهرنا.

ومرة أخرى إلى نشأة ابن عباس في مثل تلك المجالس بين يدي عمر ومع شيوخ بدر، فإنه لم يعطنا تفسير السورة فحسب، بل أعطانا منهجاً في التفسير وهو التفسير الموضوع فيأخذ السياق للموضوع ككل ولا يأخذ المفردات منفكة بعضها عن بعض.

ثم إن عمر رضي الله عنه بهذا العمل أعطى الجميع درساً في مقاييس الرجال بالعلم لا بالسن ولا بالمنصب وهذا شبيه تماماً بتعليم الله للملائكة منزله آدم، فهم قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟

فهم لم يروا لآدم حق الاستخلاف وأنهم يؤدون حق الله في العبادة بالتسبيح والتحميد فأجابهم سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣١]، وكان ما كان فأمرهم سبحانه أن يسجدوا لآدم فما أظهر الله فضل آدم للملائكة إلا بالعلم وكذلك عمر أظهر فضل ابن عباس بالعلم، وبالله التوفيق.



ابن عباس رضي الله عنه وطلبه للعلم

إن أول ما يهيئ طالب العلم للتحصيل حقيقة لهو طاعة الله وتقواه كما قال تعالى في آية المداينة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقد نظم الشافعي رحمه الله هذا المعنى في قوله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

فأعلمني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاص

وابن عباس رضي الله عنه في نشأته غلاماً من أوائل من يصدق عليهم قوله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «وشاب نشأ في عبادة الله».

ثم هو مما ينقل لنا عن عبادته: أول مبيته عند خالته ميمونة كما حدّث عن نفسه قال: أتيت خالتي ميمونة فقلت: إني أريد أن أبيت الليلة عندكم، فقالت: وكيف تبيت وإنما الفراش واحد؟ فقلت: لا حاجة لي به أفرش إزاري وأما الوساد فأضع رأسي مع رؤوسكما من وراء الوسادة. قال: فجاء النبي ﷺ فحدثته ميمونة بما قال ابن عباس فقال: «هذا شيخ قريش». زاد أحمد رحمه الله في هذه القصة عن ابن عباس قال: أتيت رسول الله ﷺ آخر الليل فصليت خلفه فأخذ بيدي فجرني حتى جعلني حذاءه، فلما أقبل رسول الله ﷺ على صلاته فخنست فصلى رسول الله ﷺ فلما انصرف من صلاته قال: «ما شأني أجعلك في حذائي فتخنس؟». فقلت: يا رسول الله أَوَينبغي لأحد أن يصلي في حذائك وأنت رسول الله الذي أعطانا الله عز وجل؟ قال: فأعجبته فدعا لي أن يزيدني علماً وفهماً، قال: ثم رأيت رسول الله ﷺ نام حتى سمعت نفخه ثم أتاه بلال فقال: يا رسول الله الصلاة، فقام فصلى ما أعاد وضوءاً. ذكره ابن كثير.

وقد جاء في هذه القصة أيضاً أنه لما نام عند خالته لم ينعس ينتظر أعمال رسول الله ﷺ، فلما قام رسول الله من آخر الليل ودخل الخلاء قام ابن عباس

فأعدّ له وضوءه فلما خرج ﷺ سأل: من وضع هذا؟ فقيل له: ابن عباس. فدعا له: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، فلما توضأ ﷺ وذكر آيات من كتاب الله علم ذلك ابن عباس وذكرها لنا، قال المروزي في كتابه قيام الليل بسنده إلى ابن عباس أنه بات عند خالته ميمونة قال: فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل فاستيقظ ﷺ فجلس يمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران، يعني من أول قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ...﴾ إلى آخر السورة.

إن هذه الحادثة وحدها لابن عباس قد أعطتنا العديد من العلوم:

أولاً: استئذانه في المبيت عند خالته ليرقب عمل رسول الله ﷺ.

ثانياً: ثاقب فهمه بأن من دخل الخلاء يحتاج إلى الوضوء فيبادر بإعداده.

ثالثاً: لم تغلبه عينه بالنوم فيفوت عليه غرضه.

رابعاً: حفظ لنا عمل رسول الله ﷺ ليلاً في بيته حتى الآيات التي قرأها ﷺ أول قيامه من نومه.

خامساً: بيّن لنا مقدار ما نام ومقدار ما قام ﷺ.

سادساً: مدى فهمه واجتهاده في ما يجب من تكريم النبي ﷺ لما أعطاه الله، وأنه لا يحق لأحد أن يصافه.

هذا من حيث الغفل مع أن النبي ﷺ لم يعب عليه هذا الفهم وأن السنة في مثل هذه الحالة أن المأموم لا يصاف الإمام على حد المساواة بل يتأخر قليلاً بحيث تكون أصابع قدمي المأموم بحذاء كعب الإمام.

وقد جاء في أخبار تلك الليلة: أن ابن عباس لما رأى النبي ﷺ قام وتوضأ وشرع في الصلاة ذهب هو أيضاً فتوضأ وجاء وصف على يسار رسول الله ﷺ متخذاً رسول الله ﷺ على اليمين تكريماً له، ووقف هو على اليسار فأخذ رسول الله ﷺ بأذن ابن عباس وفتله من وراء ظهره وجعله على يمينه.

وقد أخذ بعض العلماء منهم الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ صحة صلاة المأموم إذا تقدم على الإمام لعذر الزحام، ووجهته رَحِمَهُ اللَّهُ أن كلاً من اليسار والأمام ليس موقفاً للمأموم وإنما الموقف إما عن يمينه إن كان فرداً، وإما وراءه إن كانوا عدداً، فلما وقف ابن عباس على اليسار وهو غير موقف فكبر وتلبس ببعض أعمال الصلاة وهو على اليسار، ثم أداره ﷺ إلى يمينه وهو الموقف الصحيح وقد اعتدله بما أوقفه من صلاته في غير الموقف الصحيح لعذر الجهالة، فكذلك صحح الإمام مالك صلاة المأموم أمام الإمام وهو غير موقف لعذر الزحام، كل ذلك أعطاناه ابن عباس في سعيه لطلب العلم ثم فوزه بدعوة النبي ﷺ كما تقدم، وقال ابن كثير: فيما يرويه أحمد والبخاري وغيرهما عن ابن عباس قال: ضمني إليه النبي ﷺ وقال: اللهم علمه الكتاب، وروي أيضاً أن النبي ﷺ حينما كانوا في الشعب حمل إليه ابن عباس بعد مولده فحنكه بريقه، وروى الذهبي أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لابن عباس: رأيت رسول الله ﷺ تفل في فيك ودعا لك، فكان عمر يقدمه للمعضلات.

ومن عباداته التي أشرنا إليه قيامه لله وصومه الاثنين والخميس، وكان يقول: أحب أن يرفع عملي وأنا صائم. وروى الذهبي عن ابن أبي مليكة قال: صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة، فكان إذا نزل قام شطر الليل فسأله أيوب: كيف كانت قراءته؟ قال: قرأ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩]، فجعل يرتل ويكثر في ذلك النشيج.

إن تلك العوامل كلها مجتمعة أعطت ابن عباس الإمكانيات للطلب بجد والتحصيل بقوة.

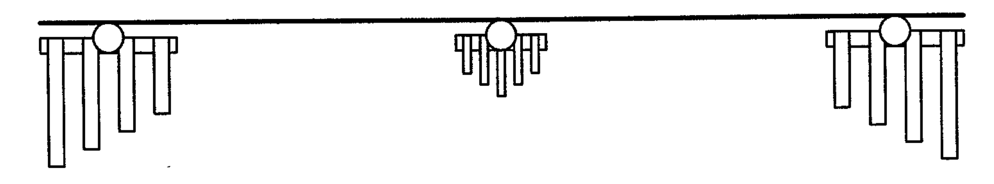
منهجه في طلب العلم:

روى ابن كثير أنه سئل: بم حصلت هذا العلم؟ فقال: بلسان سؤول وقلب عقول، وبهذا القلب العقول وهذا اللسان السؤول كون منهجه وقام به ولم يسبقه أحد عليه بل ولم يقدر عليه أحد بعده.

قال: لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم نسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجباً لك يا ابن عباس! أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله من ترى؟ فترك

وأقبلت على المسألة، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل: فأتوسد ردائي على بابه فتسفي الريح علي التراب فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ ألا أرسلت إلي فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك فأسألك، قال: فبقي الرجل حتى رأني وقد اجتمع الناس علي فقال: هذا الفتى أعقل مني. أورد هذا الذهبي، وقال المحقق: رواه البخاري في المناقب. فأي تعليق على هذا المنهج الذي اختطه ابن عم رسول الله ﷺ لنفسه مع حرصه وتواضعه في طلب العلم؟ إن تتمه هذا المنهج في الحلقة الآتية إن شاء الله، وبالله التوفيق.





تتمة تقديم منهج ابن عباس في طلب العلم

قدمنا أن ابن عباس رضي الله عنه خطط لنفسه منهجاً لطلب العلم لم يسبقه عليه أحد ولم يتابعه عليه أحد، وحصل به من المعلوم والمعارف ما لم يبلغه أحد.

وذلك حينما كان يسعى إلى العلم سعياً ولو شاء هو لسعى إليه العلم سعياً من ذلك ما تقدم أنه كان يأتي الرجل صاحب حديث رسول الله إلى بيته فيجده نائماً فينتظر خروجه ويتوسد رداءه على باب بيته حتى يخرج ويسأله ما رواه عن نفسه، فيما حكاه الذهبي وابن كثير قال ابن عباس: وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحي من الأنصار، إن كنت لآتي الرجل منهم فيقال: هو نائم فلو شئت أن يوقظ لي، فأدعه حتى يخرج لأستطيب بذلك قبله، إن الأدب الجم والتواضع العزيز والشعور المرهف الحساس، الجامع لمجامع المروءة والكمال.

ابن عم رسول الله يريد أن يسمع حديث ابن عمه رسول الله من أي رجل سمعه ودعاه فيذهب إلى بيته فيتوسد رداءه على باب البيت، وتسعى الرياح عليه التراب حياءً أن يزعجه، وانتظار الخروج حتى أن الرجل ليستحي من حسن صنيع ابن عباس ويقول له: لو دعوتني فآتيك. فيفهمه ابن عباس أن الحق لصاحب الحديث والطالب أحق أن يسعى لتحصيله، ويفيدنا مرة أخرى أنه يأتي لحامل الحديث فيجده نائماً ولو شاء لأوقظ له وهو حقيق بذلك، ولكنه يدعه حتى يستيقظ فهذا أدعى لحسن استقباله وأوفر لسعة عطائه، وهذا درس عظيم لطلاب العلم من جهات متعددة:

أولاً: مهما كانت منزلة الإنسان حسباً ونسباً فلن تصل إلى منزلة إمامنا هذا ابن عباس ابن عم رسول الله وجدّ الخلفاء العباسيين.

ومع هذه المنزلة العالية الرفيعة فلم تقف عندها همة هذا الإمام الهمام، بل سعى لما هو أعظم المنازل بجمع أحاديث رسول الله ﷺ، ومن أولى

بأحاديث رسول الله ﷺ من آل بيته وذويه وفي ذلك يقول مالك لهارون الرشيد: إن هذا العلم عنكم أخذناه.

ثانياً: تقدير ابن عباس لحملة الحديث، وإنه في الواقع لتقدير لعين حديث رسول الله وبالتالي تقدير لرسول الله ﷺ فيذهب إلى أحدهم في بيته ولو شاء للقيه في المسجد إذا لم يشأ أن يستدعيه إليه ولكنه يذهب إلى بيته وإذا وجده نائماً لا يوقظه بل يدعه حتى يخرج، ولقد كان للعلماء الرحلات من المدينة إلى الأقطار الأخرى للحديث الواحد، كما رحل أبو أيوب إلى مصر لحديث واحد ورحل غيره إلى الشام كذلك لحديث واحد.

ولقد زاد بابن عباس توفير من يأخذهم إلى حد قد يستعظمه شيوخه منه كما حدث منه مع زيد بن ثابت رضي الله عنه، قام زيد فركب راحلته فأخذ ابن عباس بركابه يماشيه فقال له زيد: تنح يا ابن عم رسول الله؛ أي عن مسايرتي أنا راكب وأنت تمشي، فيقول له ابن عباس: هكذا أمرنا أن نعمل مع علمائنا. وهنا يقول زيد: أرني يديك يا ابن عباس فيريه إياهما فيأخذهما ويقبلهما ويقول: هكذا أمرنا أن نعمل مع آل بيت نبينا. رواه الذهبي وابن كثير.

تلبيته في العلم:

يروي الذهبي عن طاووس عن ابن عباس قال: إني كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ. وأعتقد أن هذا ليس تشكيكاً فيما يسمع ولكن زيادة توثيق وسعة استطلاع ولقد جاء عن الإمام ابن تيمية رحمه الله أنه قال: إني كنت لأطالع للآية الواحدة مائة تفسير وأقول: يا معلم داود علمني. وروى ابن كثير عنه قال: كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فأسأل عن مغازي رسول الله ﷺ وما نزل من القرآن في ذلك، وكنت لا آتي أحد منهم إلا سر بإتياني إليه، لقربي من رسول الله ﷺ.

فها هو يكثر السؤال لأكثر من واحد، وها هو يلزم الأكابر من أصحاب رسول الله طلباً لعلو السند ووفرة العلم وقوة الضبط عند هؤلاء، ومن منهجه في العلم ترك المراء ولو كان محقاً: فمن ذلك ما وقع له مع عمر رضي الله عنه قال: قدم على عمر رجل، فجعل عمر يسأله عن الناس فقال: يا أمير المؤمنين قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا، فقلت: والله ما أحب أن يسارعوا في القرآن اليوم

هذه المسارعة فزجرني عمر، ثم قال: مه، فانطلقت إلى منزلي مكتئباً حزيناً، فقلت: قد كنت نزلت من هذا بمنزله، ولا أراني إلا قد سقطت من نفسه، فاضطجعت على فراشي حتى عاداني نسوة أهلي وما بي وجع، فبينا أنا على ذلك، قيل لي: أجب أمير المؤمنين، فخرجت فإذا هو قائم على الباب ينتظرني فأخذ بيدي ثم خلا بي، فقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إن كنت أسأت فإني أستغفر الله وأتوب إليه وأنزل حيث أحببت. قال: لتخبرني، قلت: متى ما يسارعوا هذه المسارعة يحتقوا، يعني: يقول كل منهم: الحق عندي، ومتى يحتقوا يختصموا ومتى يختصموا يختلفوا ومتى يختلفوا يقتتلوا، قال: لله أبوك، لقد كنت أكتمها الناس حتى جئت بها.

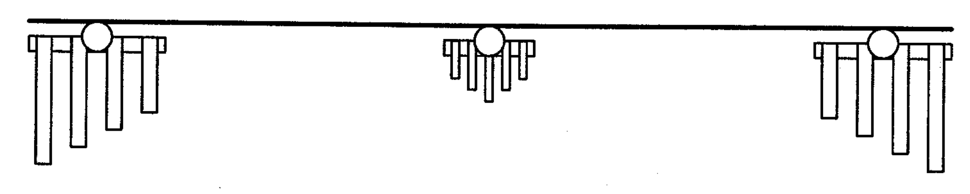
فها هو يرى الرأي الصواب فيزجره عمر فلم يراجعه فيه ويرجع إلى بيته فيعتريه من الهم ما يلزمه من الفراش، حتى أن عمر بنفسه ليأتيه إلى بيته ويستطلع ما عنده ثم هو يصارحه إن هذا الذي رآه هو عين ما رآه عمر ويمتدحه على ذلك.

وذكر ابن كثير في ذلك قال: قال البيهقي وذكر بسنده إلى صعصعة بن صوحان أنه ورد على علي رضي الله عنه من البصرة فسأله عن ابن عباس وكان على خلطه بها فقال صعصعة: يا أمير المؤمنين، إنه أخذ بثلاث وتارك لثلاث: أخذ بقلوب الرجال إذا حدث، وبحسن الاستماع إذا حدث، وبأسر الأمرين إذا خولف، وترك المراء، ومقارنة اللئيم، وما يعتذر منه.

ويتأمل هذه الخِلال: أخذ بقلوب الرجال إذا حدث، فهي أولى صفات العالم والواعظ، وصدق ﷺ أن من البيان لسحراً، وبحسن الاستماع إذا حدث وهذا من أعلى مكارم أخلاق طالب العلم في احترامه للآخرين، وقد روي عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أنه كان يقول: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأصغي إليه كأني أسمعه لأول مرة وإني والله لأعلم به منه وبأي الأمرين إذا خالفه غيره مع قدرته على الجدال وإقامة الحجة على من خالفه، كما قال طاووس حين سأله ليث ابن أبي سليم: لم لزمت هذا الغلام ـ يعني ابن عباس ـ وتركت الأكابر من الصحابة؟ فقال: إني رأيت سبعين من الصحابة إذا تماروا في شيء صاروا إلى قوله، ومع هذه المقدرة وتلك القوة فإنه إذا خالفه أحد أخذ بأيسر

الأمرين، وهذا هو عين السنة كما روت عائشة رضي الله عنها: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا واختار أيسرهما»، وكما أوصى ﷺ أبا موسى وصاحبه: «تياسرا أو لا تعاسرا وبشرا ولا تنفرا». وما أجوح الناس اليوم لذلك ما دام على منهج الحق.





منزلته رضي الله عنه في العلم

لقد بلغت منزلة ابن عباس رضي الله عنه في العلم ما لم تبلغها منزلة أحد من معاصريه ويعلي شأن تلك المنزلة شمول علمه وسعته واستيعابه لعلوم زمنه فقد كان يستوعب علوم القرآن ويكفي أنه لقّب بترجمان القرآن؛ أي الذي يترجم عن معانيه وقد حدث عن نفسه فقال: كل القرآن أعلمه إلا ثلاثاً: الرقيم وغسلين وحناناً وذكره الذهبي. مع العلم أن ابن عباس هو القائل: إن تفسير القرآن على أربعة أقسام: قسم لا يعذر أحد بجهله؛ يعني مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقسم تعرفه العرب من لغتها، كما قال عمر: ما كنت أعلم ما الأب، في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٣١] حتى جاء أعرابي فسئل عن ناقته فقال: تركتها ترعى الأب، وقسم يعرفه الراسخون في العلم يقصد ما جاء في أول آل عمران ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّٰسِخُونَ﴾ [آل عمران: ٧] الآية، وقسم استأثر الله تعالى يعلمه؛ يعني: حقائق معاني بعض المسميات كما جاء في أوصاف أنها الجنة ومسمياتها اللبن والعسل والخمر، فإننا نعرف أسماءها ولا نعرف حقائقها لأنها على حد ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وكذلك الحروف المقطعة في أوائل سور هذا تقسيم ابن عباس لأنواع تفسير القرآن، فلم يرد عنه أنه لم يعلم تلك الثلاث: الرقيم وغسلين وحنان، فهي من قبيل مفردات اللغة ولا أظن أنها تظل غير معلومة لابن عباس وقد بلغ به في علم العربية شعراً ونثراً ما يأخذها عنه الشعراء والبلغاء، كما يؤخذ عنه الفقه وعلوم القرآن.

سعة علومه وكثرة ما يأتي عنه:

روى ابن كثير بسنده عن أبي صالح قال: لقد رأيت من ابن عباس مجلساً لو أن جميع قريش افتخرت به لكان لها به الفخر، ثم يقول: لقد رأيت الناس

اجتمعوا على بابه حتى ضاق بهم الطريق فما كان أحد يقدر أن يجيء ولا أن يذهب، قال: فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابه، فقال لي: ضع لي وضوءاً. قال: فتوضأ وجلس. فقال: اخرج فقل لهم: من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أريد منه فليدخل، قال: فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم عنه وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر، ثم قال: إخوانكم. فخرجوا، فقال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل، قال: فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله أو أكثر. ثم قال: إخوانكم فخرجوا، ثم قال: اخرج فقل: من كان يريد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها فليدخل، فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم وزادهم مثله أو أكثر. ثم قال: إخوانكم، فخرجوا، ثم قال: اخرج فقل: من كان يريد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل. فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، ثم قال: إخوانكم. فخرجوا، قال أبو صالح: فلو أن قريشاً كلها فخرت بهذا المكان فخراً فما رأيت مثل هذا لأحد من الناس.

وروى الذهبي عن يزيد بن الأحيم قال: خرج معاوية حاجاً معه ابن عباس فكان لمعاوية موكب ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم.

فأي منزلة للعلم كهذه أن يسير العلم في موكب كموكب الخليفة، وأي غزارة علم كعلم ابن عباس يفيض به في حلّه وترحاله.

ولقد أثرت عنه نوادر في العلم لم تؤثر لغيره مما انفرد به سواء مما خالفه فيه غيره أو دافعه فيه، ويهمنا ما كان موضع الوفاق مما لم يأت عن أحد غيره.

من ذلك ما قدمنا في معنى سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] وقوله: فيها بما لم يأت به شيوخ الصحابة في مجلس عمر رضي الله عنه.

ومن ذلك ما جاء عنه في ليلة القدر مما قال فيه عمر: لقد علمت علماً فأعلمناه، وذلك حينما دعا عمر رضي الله عنه أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة

القدر فأجمعوا أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس: فقلت لعمر: إني لأعلم، أو إني لأعلمن أي ليلة القدر هي. فقال عمر: وأي ليلة هي؟ فقلت: سابعة بمضى أو سابقة تبقى من العشر الأواخر، فقال عمر: من أين علمت ذلك؟ قال ابن عباس: فقلت: خلق الله سبع سموات وسبع أرضين وسبعة أيام وإن الشهر يدور على سبع وخلق الإنسان من سبع ويأكل من سبع ويسجد على سبع والطواف بالبيت سبع ورمي الجمار سبع لأشياء ذكرها، فقال عمر: لقد فطنت لأمرٍ ما فطنا له، وقد فسر قتادة ما يأكل من سبع عما جاء عن ابن عباس نفسه في الآية الكريمة: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٧ ـ ٣٢]. فجاءت سبعة أصناف من المأكل، وقد أورد هذا ابن كثير وعزاه المصنف عبد الرزاق وسكت عنه وهو وإن كان في النفس منه شيء لأن ليلة القدر قد تدور في الوتر من العشر الأواخر فليست ثابتة في السبع وليست في سبع معيّن: إلا أن من الشواهد على مدى بعد النظر في الاستدلال والاستنباط.

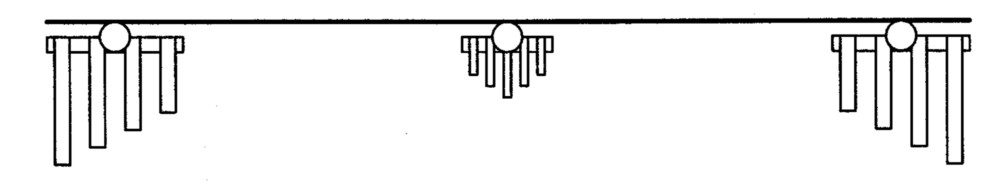
وقد كان لابن عباس رأيه في القول في الفرائض، وكان يقول: لو قدمتم ما قدم الله وأخرتم ما أخر الله لما كان يوجد عول وذلك في مسألة الزوج والشقيقتين، حيث يستحق الزوج النصف لعدم الولد وتستحق الأختان الثلثين، ولا يمكن إعطاء الجميع حقه كاملاً فتعول بالسدس، فقيل له: ولِمَ لَمْ تقل هذا لعمر؟ أي لأن أول مسألة عول كانت في عهده وتشاور فيها الصحابة، فقال له علي: اعتبر الورثة دائنين والتركة تقسم بحصصهم في الدين، فقال ابن عباس: إن عمر كان رجلاً مهاباً، ونحن قدَّمْنا أنه كان يترك المراء، ومما أثر من أخلاقه رضي الله عنه عن سعد بن أبي وقاص قال: ما رأيت أحداً أحضر فهماً، ولا ألبّ لُبّاً، ولا أكثر علماً، ولا أوسع حلماً من ابن عباس، ومما أوصاه أبوه في صحبته لعمر ما حدث به عنه قال: قال لي أبي: يا بني إن عمر يدينك فاحفظ عني ثلاثاً، لا تفشين له سراً ولا تفتأ منه عنده أحداً ولا يجرب عليك كذباً وكان مجلسه نزيهاً رفيقاً. قال القاسم بن محمد: ما رأيت في مجلس ابن عباس باطلاً قط، وكم كان كريماً رضي الله عنه كما جاء في أبيات لأبي الطفيل ساقها الذهبي؛ ومنها:

كنا نجئ ابن عباس فيقبسا فقهاً ويكسبنا أجراً ويهدينا
ولا يزال عبيد الله مترعةً جفانه مطعماً حنيفاً ومسكينا
فالبر والدين والدنيا بدراهما تنال منها الذي تبغي إذا شينا

وقد نقل ابن حزم أن فتاوى ابن عباس قد جمعها أبو بكر محمد بن موسى فبلغت عشرين كتاباً.

وقد روى أنه عند مماته بعد تجهيزه جاء طائر أبيض فدخل في كفنه وفسر بأنه علمه، وكانت وفاته رضي الله عنه سنة ثمان أو سبع وستين من الهجرة، ولما توفي قال معاوية: مات والله أفقه من ما.... وأفقه من عاش. وروى الذهبي أنه لما دفن سمعوا هذه الآية لا يدرون من تلاها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨]، رضوان الله تعالى عليه والحمد لله.





من أعلام علماء المدينة

(سعيد بن المسيّب)

قدمنا لمحة عن أربعة من أعلام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين لمكانتهم العلمية وجهودهم التعليمية وهم: مصعب بن عمير مبعوث رسول الله ﷺ لأهل المدينة يعلمهم الإسلام، ومعاذ بن جبل رضي الله عنه مبعوث النبي ﷺ لأهل اليمن، ثم هو مبعوث عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهل الشام وزيد بن ثابت رضي الله عنه كاتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ وجامع القرآن من اللخاف والأكتاف وإمام الفرضيين وشيخ القرآن ورئيس الفتوى والقضاء، وابن عباس حبر هذه الأمة، وقد تزود هؤلاء وارتووا من معين العلوم والمعرفة في عهد النبي ﷺ وعاصروا نزول الوحي ووضع قواعد الشرع فكانوا مصابيح هداية وأعلام رسالة.

ثم ننتقل إلى عصر التابعين الذين أخذوا عن هؤلاء الأصحاب ما ورثوه عن المصطفى ﷺ وورثوه لمن بعدهم، لئن كان الصحابة الأخيار تتلمذوا على المصطفى المختار فإن التابعين لهم بإحسان قد تتلمذوا على أولئك الأصحاب وجمعوا ما عندهم ونقلوه إلينا بكل أمانة ويقين.

وكما أن الصحابة قد تفاوتوا في الاشتغال بالعلم وكان لبعضهم زيادة عناية ووفرة تحصيل، كما قال ابن القيم: «والدين والفقه والعلم انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود، وأصحاب زيد بن ثابت وأصحاب عبد الله بن عمر، وأصحاب ابن عباس فعلم الناس عامتهم عن أصحاب هؤلاء الأربعة». وذكر علماء الأمصار الذين أخذوا عنهم.

فإن التابعين كذلك قد تفاوتوا في الاشتغال بالعلم تحصيلاً وتعليماً.

فكان المفتون بالمدينة باتفاق المؤرخين هم: سعيد بن المسيّب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام، وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عتبة بن مسعود؛ وهؤلاء هم

اختيار ابن القيم رحمه الله فإن غيره قد يستبدل شخصاً بآخر وهم المشهورون بعلماء المدينة السبعة أو الفقهاء السبعة وقد نظمهم بعضهم فقال:

إذا قيل من في العلم سبعة أبحر روايتهم ليست عن العلم خارجة
فقل هم عبيد الله عروة قاسم سعيد أبو بكر سليمان خارجة

وبتأمل هؤلاء جميعاً نجدهم أبناء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وممن يستحق أن يذكر في درجة هؤلاء عبد الملك بن مروان قبل الخلافة وكذلك عمر بن عبد العزيز رحمهما الله، إلا أن أولئك السبعة الفقهاء هم الذين اشتهروا بذلك.

وهم أيضاً فيما بينهم يتفاوتون وسيدهم بدون منازع علماً وورعاً وسلوكاً هو سيد التابعين سعيد بن المسيّب وهو الذي سنقدمه في أول هؤلاء فقهاء المدينة السبعة رحمهم الله.

اسمه ونسبه:

هو سعيد بن المسيّب على وزن اسم الفاعل القرشي المخزومي وكنيته أبو محمد، وجده اسمه حزن، ولما قدم على النبي ﷺ وسمع باسمه قال له ﷺ: «بل أنت سهل». فقال: هذا اسم سماني به أبي؛ يعني ولم يغيره. قال سعيد: فلم نزل نجد الحزونة فينا أهل البيت.

وأمه هي أم سعيد تكنى به، بنت حكيم بن أمية وهي سلمية فكان له في نسبه قوة وصلابة في دينه وجرأته في الحق.

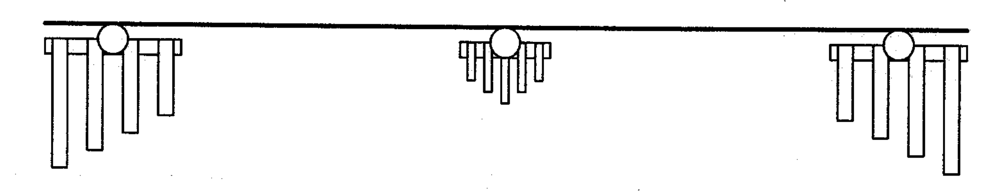
أورد ابن القيم في أعلام الموقعين: قال جعفر بن ربيعة، قلت لعراك بن مالك: من أفقه أهل المدينة. قال: أما أفقههم فقهاً وأعلمهم بقضايا رسول الله ﷺ وقضايا أبي بكر وقضايا عمر وقضايا عثمان، وأعلمهم بما مضى عليه الناس فسعيد بن المسيّب، وقال الزهري: كنت أطلب العلم من ثلاثة: سعيد بن المسيّب وكان أفقه الناس، وعروة بن الزبير وكان بحراً لا تكدره الدلاء. وقال الأعمش: فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيّب، وعروة، وقبيعة، وعبد الملك وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما مات العبادلة؛ عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه

في جميع البلدان إلى الموالي، فكان فقيه أهل مكة عطاء بن أبي رباح، وفقيه أهل اليمن طاووس، وفقيه أهل اليمامة يحيى بن أبي كثير، وفقيه أهل الكوفة إبراهيم، وفقيه أهل البصرة الحسن، وفقيه أهل الشام مكحول، وفقيه أهل خراسان عطاء الخرساني. قال: إلا المدينة فإن الله خصها بقرشي فكان فقيه أهل المدينة سعيد بن المسيّب غير مدافع.

إن قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذا يهمنا منه ما جاء عن سعيد شيخنا في هذه الحلقة فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع.

أما كون علم الأمصار انتهى إلى الموالي فهذا فضل الله سبحانه الذي جعل الفضل والكرم للتقوى، وقد قال عمر رضي الله عنه: لو كان سالم مولى أبي حذيفة ما تخطته؛ يعني الخلافة والإمارة، وهذا سلمان الفارسي رضي الله عنه يقول ﷺ في حقه: «سلمان منا آل البيت». ومعلوم أن الإسلام لا يعرف جنساً ولا موطناً إلا أن علو النسب للعالم يعطيه قوة وصلابة ومهابة، وكما جاء أن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من أعلى نسب في قومه، وكان والدنا الشيخ الأمين رحمه الله تعالى يقول: إن علو نسب الداعي والرسول مدعاة لقوته ونصرته، فهؤلاء قوم صالح قال تعالى عنهم: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل: ٤٩]. أي أنهم يخافون من وليه فيقولون: ما شهدنا مهلك أهله ولولا قوة وليه وقوته بنسبه ما كانوا يبالون لعملهم، ومثله قوله تعالى عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١]. فها هم أولاء يخافون رهطه وقوة أهله لرجموه، وكذلك في حق النبي ﷺ مدة حياة عمه أبي طالب حين كان يحيطه بالمتعة والعزة ويقول: والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفيناً ولما توفي عمه اشتد الإيذاء عليه وخرج إلى ثقيف وأخيراً كانت الهجرة إلى المدينة ووجود الأنصار.

فهكذا عالمنا الجليل سعيد بن المسيّب بالنسبة لبقية علماء الأمصار الذين كانوا من الموالي، وسنرى قوة وصلابة إمامنا هذا مع الخلفاء والأمراء مع زهد وورع وعلم وسعة فضل أحق ما يقتدى به طلاب العلم، وبالله تعالى التوفيق.



إمامنا سعيد بن المسيّب وعوامل البيئة

مولده:

كان مولده رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أصح الأقوال سنة خمس عشرة من الهجرة حيث أفاد هو عن نفسه أنه ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب. واسمه هو سعيد بن المسيّب بتشديد الياء المكسورة على وزن اسم الفاعل. وقد كان يقول: سيّب الله من سيّب أبي. يعني من ينطق الياء مفتوحة على وزن اسم المفعول.

ووالده صحابي مهاجر من أهل بيعة الرضوان كما حدث هو عن أبيه فيما رواه الشيخان وغيرهما. وأمه هي نسيبة بنت عثمان بن حكيم بن أمية وتكنى: أم سعيد بولدها هذا.

زوجته: كانت زوجته ابنة أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار قوام هذا البيت الذي نشأ فيه سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من صحبة أبيه وشرف نسب أمه وقرب زوجته للصحابة فهي ابنة صحابي جليل من أوسع الصحابة رواية: أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والبيئة: هي المدينة المنورة والمسجد النبوي عامر بحلق العالم ومليء برواة الحديث يفيض بالفقه والفقهاء لا شك يدرك مدى آثار تلك البيئة على إمامنا سعيد بن المسيّب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وإذا انضاف إلى ذلك قوة حفظه وذكائه يكون قد اجتمع له مقومات التحصيل وعوامل التفقه. روى صاحب الطبقات الكبرى ٥/ ٩٠: أن بعض من عرفه كان يقول: والله ما أراه مر على أذنه شيء قط إلا وعاه قلبه.

ولقد كان يسعى إلى الحديث ولو كلفه المشي أياماً وليالي كما روى ابن كثير عن مالك بن أنس قال: بلغني أن سعيد بن المسيّب قال: إني كنت لأسير

الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد. ومن المعلوم أن مثل هذا الإمام لا يسير في طلب حديث أياماً وليالي إلا إذا كان حديثاً هاماً وبعد أن يبحث عنه في المدينة فلم يجده. وإذا لاحظنا وجود كل من أبي هريرة وهو والد زوجته وزيد بن ثابت والعشرة المبشرين بالجنة ما عدا أبي بكر ﷺ وزوجات رسول الله ﷺ، ولم يجد الحديث عند هؤلاء جميعاً لا شك أن يكون حديثاً له أهمية يحمل على السير الطويل. ولا غرو فقد رحل بعض الصحابة إلى الشام وإلى مصر في طلب حديث واحد لأخذه وسماعه أو للتثبت منه.

وإذا كان قد تهيأ لإمامنا سعيد سبع سنين من حياة عمر، هي من التمييز فلا بد أن يكون قد سمع منه وقد سُئل أحمد رحمه الله عن راوية سعيد بن المسيّب عن عمر بن الخطاب: هل تقبل؟ فقال: نعم، أي أنه كان في سن تصلح للتحمل ومعلوم عند المحدثين أن العبرة بحالة الأداء، فإذا تحمل الرواية مثل البلوغ وأواها بعد أن بلغ سن التكليف فإن روايته تكون مقبولة لأنه بعد التكليف يحترز من الكذب ومن الزيادة والنقص. وعليه فروايته عن عثمان وعن علي ومن في عصورهم تكون من باب أولى.

وَأَخَصُّ من يروي عنه صِهرهُ أبو زوجته حافظ الصحابة رضي الله عنه أبو هريرة ولصلته بأبي هريرة امتاز عن غيره من بقية الفقهاء السبعة بأن مراسيله كلها مقبولة؛ كما قال الشافعي رحمه الله: تتبعت مراسيل سعيد بن المسيّب فوجدتها كلها موصولة. والمرسل في اصطلاح المحدثين هو الحديث الذي لم يذكر في سنده اسم الصحابي الذي سمعه عن رسول الله ﷺ وهو الذي قال فيه صاحب البيقونية في مصطلح الحديث: «ومرسل منه الصحابي سقط»، وكل غريب مما روى رواه فقط وقالوا: إن أكثر ما كان يرسله سعيد بن المسيّب هو ما كان عن صهره أبي هريرة رضي الله عنه وقبول مراسيله دليل على فقه ضبطه ووفرة علمه والثقة به. وقد قيل: إن الثقة إذا أرسل فقد كفاك المؤنة وإذا أسند فقد ألزمك البحث. وقالوا: إن كبار التابعين لا يكادون يرسلون إلا عن صحابي، ومعلوم أن عدم ذكر الصحابي في السند لا يضعفه لأن المقصود من سند الحديث. هو تتبع رجاله لمعرفة مكانتهم في الصدق والعدل. والصحابة كلهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين عدول لا يبحث عنهم في ذلك.

لقد كانت بيئة إمامنا الخاصة والعامة بيئة علمية، فأبوه صحابي شهد بيعة الرضوان على ما صححه علماء الرجال بدون منازع وبيئته العامة: مدنية المصطفى ﷺ مع وفرة الصحابة وعلمائهم الخلفاء الراشدين الثلاثة عمر في سن التمييز، وقد صح أنه سمع منه وروى عنه وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وابن عمرو هؤلاء من أعلام علماء الصحابة وزوجات رسول الله ﷺ.

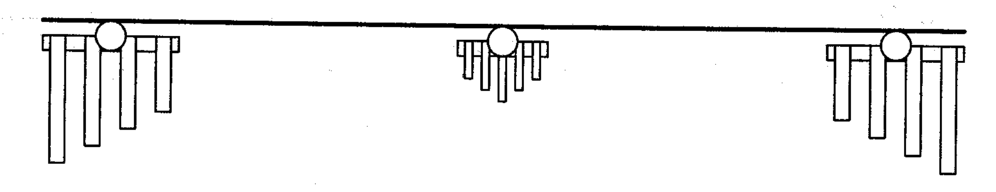
ولذا قيل: كان سعيد بن المسيّب أجمع لقضايا عمرو وعثمان وعلي، وكان عمر بن عبد العزيز يستشيره ولا يخرج عن رأيه وكان عبد الله بن عمر أشد الناس حرصاً على اتباع سنة رسول الله ﷺ وطبقاً يطبق، كان إذا أشكل عليه أمر أرسل إلى سعيد بن المسيّب وسأله وأخذ بقوله بل كان سعيد يفتي وكبار الصحابة موجود.

ويلاحظ أن المنهج العلمي في البيئة آنذاك كان مصطبغاً بالصيغة والرواية والأخذ بالحديث وبالآية وبأقوال السلف رضوان الله تعالى عليهم. إلا أنه وجدت بوادر أعمال الرأي وإلا فكان لإمامنا سعيد الموقف القوي في رد كل رأي أمام الرواية والنص كما جاء في موقفه مع ربيعة بن عبد الرحمن شيخ الإمام مالك وذلك فيما رواه مالك عن ربيعة قال: سألت سعيد بن المسيّب: كم في أصبع المرأة؟ يعني في الدية. فقال: عشر من الإبل. قلت: كم في أصبعين؟ قال: عشرون. قلت: كم في ثلاث أصابع؟ قال: ثلاثون. فقلت: كم في أربع؟ قال: عشرون من الإبل. فقلت: حين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها؟ فقال سعيد: أعراقي أنت؟ فقلت: بل عالم متثبت أو جاهل متعلم، فقال سعيد: هي السنة يا ابن أخي. إن ربيعة ليس عراقياً ولكن اشتهر أهل العراق آنذاك بأعمال القياس فصار ينسب إلى العراق كل من نصب القياس أمام النص. ومثل ذلك جاء عن أم المؤمنين: سألتها امرأة فقالت: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: أعراقية أنت؟ قالت: لا. فقالت: كنا نؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة.

وإذا تأملنا معقولية هاتين المسألتين وجدنا العقل السليم لا يتعارض مع النص السليم فموضوع جراح المرأة: الشرع أعطاها في الأصبع والاثنتين

والثلاث ضعف مالها جبراً لضعفها. لأن حقيقة دية المرأة على النصف من دية الرجل بالإجماع، فكان مقتضى ذلك توزيع دينها على إعطائها فيختص الأصبع بخمس من الإبل بل فقط، ولكن الشرع أعطاها مساوياً للرجل إلى الثلث فإذا ما جاوزت الجراح عندها الثلث ردها إلى الأصل، وكذلك الحائض لو أنها كلفت قضاء الصلوات، وهي في الغالب تعادل ربع الزمن لكانت مشقة عليها بخلاف الصوم نصف السدس من السنة فلا مشقة عليها، فجزى الله إمامنا في تقرير السنة وإبطال الرأي المعارض لها.





العلوم التي اشتهر بها سعيد بن المسيّب

لا شك أن مصدر العلوم آنذاك الكتاب والسنة وكل علم ظهر بعد المصدر الأول إما هو رافد من روافد هذين المصدرين، بمعنى أنه يسهم في استيعابهما وقوة تحصيلهما وقد توسعت علوم القرآن من قرآن ورسم وتفسير وقواعد أصول التفسير عنين بالمحكم والمتشابه والعام والخاص المطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ وغير ذلك مما يساعد على معرفة معاني القرآن واستنباط أحكامه.

كما توسعت علوم السنة في السند والمتن ومباحث المصطلح في ذلك ونتج عن هذين الفنين فن الفقه والفتوى في النوازل.

ثم تميزت تلك العلوم ووضعت لها قواعدها ومصطلحاتها ولم يكن منهج التخصص والانفراد قد تميز واشتهر مع وجود أوائله عند بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كتميز زيد بالفرائض: «أفرضكم زيد»، وعلي رضي الله عنه بالقضاء: «أقضاكم علي»، ومعاذ بمعرفة الحلال والحرام. ومع هذا التميز لم يكن معنى هذا تخليهم عن العلوم الأخرى وقد قدمنا ما كان زيد بن ثابت إماماً فيه من القرآن والقضاء والفتوى وهكذا.

وكذلك الحال في عصر سعيد بن المسيّب لأن الوقت قريب ولم يطرأ ما يمكن أن يغير في المنهج لاتصال العصرين عصر الصحابة وعصر كبار التابعين كسعيد مثلاً. ومن هناك لسعيد رحمه الله نصيب في عدة علوم من علوم عصره. والتي لم تبعد عن قطب رحاها الكتاب والسنة.

في علوم القرآن:

أ ـ القرآن:

ذكر ابن الجزري روايات عنه في حروف القرآن منها: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

قرأها نافع وابن كثير وغيرهما، يقص: من القصص الحق. وقرأها سعيد (يقضي) من القضاء بالحق. وهي قراءة علي وأبي عبد الرحمن السلمي.

وقد وجه بعض العلماء قراءة ابن مسعود مثل ابن زنجلة في حجة القرآن قال: قرأ نافع وابن كثير وعاصم: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ بضم القاف والصاد. المعنى: إن جميع ما أنبأ به أو أمر به فهو من أقاصيص الحق. واحتج ابن عباس على هذه القراءة بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٣]. وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦].

وبقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ [الأنعام: ١٣٠]. ثم قال: وقرأ الباقون يعني: باقي القراء: «يقضي الحق» بالضاد من قضى يقضي، إذا حكم وفصل. وحجتهم قوله هنا: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، والفصل يكون في القضاء لا في القصص. وكان أبو عمرو يعتبر بهذه، وقال: إنما الفصل في القضاء لا في القصص، وكان الكسائي يعتبرها بقراءة ابن مسعود قال: وفي قراءته (يقضي).اهـ. ويرشح لقراءة إمامنا ما جاء في مستهل السياق: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]. والحكم أقرب إلى القضاء وأنسب للحكم من القصص.

ومن علوم القرآن عند إمامنا سعيد معرفة أسباب النزول، وهذا العلم كان يعني به الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لأنه كما قال الإمام ابن تيمية يعين على فهم المراد من الآية. وكان ابن مسعود ﷺ يقول: والله الذي لا إله إلا هو أنه ما من آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت وفيما نزلت، ولو أني أعلم أحداً أعلم مني بذلك لضربت إليه أكباد الإبل. ومن عظيم فوائد هذا العلم أن خفي على البعض المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، حتى قالوا: رفع الجناح يسقط السعي فلا يكون واجباً. فقالت لهم أم المؤمنين عائشة ﷺ: ليس الأمر كذلك فقد كان في الجاهلية ضمان: إساف، ونائلة أحدهما على الصفا والآخر على المروة فكانوا يسعون بينهما في الجاهلية فلما جاء الإسلام وطهّر مكة من الأصنام وأزيل هذان الصنمان تأثم وتحرج البعض من السعي مخافة التشبه بالمشركين فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، فرفع الحرج الذي كانوا قد تحرجوه وقالت: لو كان هذا مسقطاً للسعي لقال:

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة: ١٥٨]. وهكذا أمثلة عدة في معرفة أسباب النزول.

هلال بن أمية أو عويمر العجلاني... إلخ. فكان إمامنا سعيد من علماء هذا الفن ورويت عنه آثار في ذلك. ولا نطيل بإيرادها.

فكذلك أيضاً علم الناسخ والمنسوخ وهو من أهم علوم القرآن وأجمعوا على أنه لا يحل لأحد أن يتكلم في التفسير إلا بعد معرفة الناسخ والمنسوخ.

ومع هذا كان يتحرج في التفسير إلا ما كان معلوماً لديه؛ أي عنده أثر فيه.

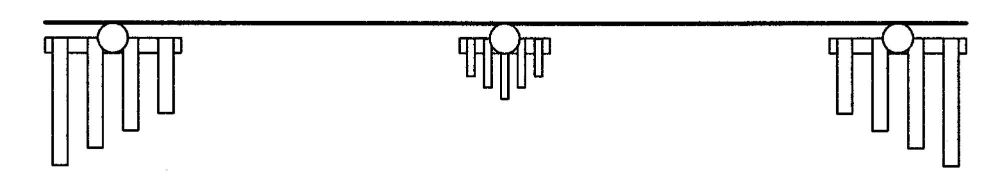
أما علومه في السنة:

فإن السنة تقوم على الرواية والدراية؛ وعماد الرواية على الثقة في الراوي وعماد الدراية فقه الحديث والقدرة على استنباط الأحكام من النصوص. فأما الرواية فإذا كنا قد علمنا أنه هو في نفسه ثقة ضابط وشيوخه أولهم أبو هريرة والد زوجته ثم زيد بن ثابت وابن عمر وابن عباس وأمثالهم فلا شك أن روايته تكون مأمونة سليمة. ولذا قال الذهبي: أصح الأسانيد الزهري عن ابن المسيّب عن أبي هريرة وهي تعادل ما قيل: «سلسلة الذهب» مالك عن نافع عن ابن عمر. وقد شهد أئمة الجرح والتعديل لروايته بالآتي: من ذلك ما روي عن أحمد أنه سئل عن سعيد فقال: ومن مثل سعيد؟ وقال أبو حاتم: ليس في التابعين أنبل من سعيد وهو أثبتهم في أبي هريرة. وقال أبو زرعة: هو ثقة إمام وهكذا علو مكانته في الرواية أما في الدراية والاستنباط فقد كان مكثراً حتى قيل: إنه جريء على الفتوى لكثرة إفتائه في النوازل وقد نشر ديوان الأوقاف بالعراق فقه سعيد في أربعة مجلدات. ومع هذه الكثرة فقد كانت فتواه سديدة موفقة.

ومن ذلك كانوا يتدافعون الفتوى حتى تصل إليه. قال ابن القيم في إعلام الموقعين ١/ ٣٥ ما نصه: وكان سعيد بن المسيّب واسع الفتيا وكانوا يسمونه كما ذكر ابن وهب عن محمد بن سليمان المرادي عن أبي إسحاق قال: «كنت أرى الرجل في ذلك الزمان وأنه ليدخل ـ يعني المسجد النبوي ـ يسأل عن الشيء فيدفعه الناس عن مجلس إلى مجلس حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيّب كراهية الفتيا وكانوا يسمونه سعيد الجريء. وصح أن ابن عمر رضي الله عنه

كان إذا جاءته معضلة أرسل بها إلى سعيد بل كان يرسل إليه يسأله عن قضايا عمر بن الخطاب. وروى المؤرخون عن ميمون بن مهران قال: أتيت المدينة فسألت عن أفقه أهلها فدفعت إلى سعيد بن المسيّب. قال الذهبي: هذا يقوله ميمون مع أنه لقي أبا هريرة وابن عباس. وقال عراك بن مالك: لما سئل: من أفقه أهل المدينة؟ قال: أما أعلمهم بقضايا رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وأفقههم فقهاً وأعلمهم بما مضى من أمر الناس فسعيد بن المسيّب. وهكذا علت منزلته في عصره أما سلوكه وورعه ففي المبحث التالي إن شاء الله وبالله تعالى التوفيق.





سلوكه وورعه وتعبّده وما أكرمه الله به

إن ألزم ما يتطلع إليه الدارس وطالب العلم في أي إمام وعالم إنما هو سلوكه ومنهج تعبده، أي محبطه الخاص وبعد أن عرفنا منهجه ومنزلته في العلوم نقدم نموذجاً في سلوكه ومحبطه الخاص كي يكون قدوة وسبيلاً لمن يأخذ عنه ليأخذ العلم والعمل معاً بإذن الله.

في خاصة نفسه:

كان على قدر كبير من سماحة الأخلاق من تواضع والكف عن الكلام فيما لا يعنيه موقر للعلم وأهله من شيوخه أو أقرانه أو تلاميذه. ولا يحمل في نفسه لمن يخالفه كما روي عن مالك قال: ما استوحش سعيد بن المسيّب إلى أحد قط خالفه.

وهذه من أهم أخلاق العلماء الأفاضل إذ تقوم العلاقة بينهم على صفاء الأخوة وتتحد عندهم الغاية في طلب الحقيقة وما من مسألة لا نص فيها أو النص غير صريح إلا وللعقل البشري مجال سواء في الحكم فيها أو في فهم من النص. وإذا لم يكن للباحث فرض شخصي في هذا الجانب أو ذاك فلا موجب للاستحسان عند المخالفة وما يدريك لعل من خالفك كان محقاً والصواب معه. وهكذا حين تكون الحقيقة هي الغاية والحكمة هي الضالة سعى الجميع إلى الحقيقة متعاونين معاً حتى يصلوا إليها والتقطت الحكمة أنّى وجدت وتبقى الصدور سليمة والنفوس طيبة، ويظل مورد العلم صافياً نقياً.

أما إذا دخلت الأهواء ورغبة الانتصار للرأي فهناك الفرقة ومن ثم احتجاب الحقيقة وذهاب الحكمة، بل وانتزاع البركة وانطفاء نور العلم. لأن البحث بعد أن كان بحثاً علمياً لمعرفة دين الله يصبح نقاشاً جدلياً لنصرة قول أو ترويج رأي، وشتان بين الأمرين.

ولقد أفاض هذا المنهج العلمي على حياة سعيد بن المسيّب في أمور

دنياه كما روى عن عمران بن عبد الله الخزاعي وجاء في الطبقات الكبرى قال: كان سعيد بن المسيّب لا يخاصم أحداً ولو أراد إنسان رداءه رمى به إليه. وروي عن عاصم بن العباس قال: رأيت سعيد بن المسيّب يصافح كل من لقية. وهذا أيضاً من تواضعه يصافح كل من لقيه، ومعلوم ما في المصافحة من أجر. وكذلك كان في سمته ومظهره على ما يليق بوقار العلم وكرامة العلماء فكان يعنى بلباسه ويتخير أنواعها ويعنى بنظافة جسمه ولباسه ولا يترك أظافره تطول. وهذا من العناية بالجسم والملبس من إظهار نعم الله والعمل بالسنة. وكما قال أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عجبت لمن يجد القطن والكتان ويلبس الخشن من الصوف، ويجد الخبز الليّن ويأكل ما يبس منه. وتلى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وكان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: أحب لطالب العلم البيض من الثياب. يعني لنظافتها. وقد قيل في هذا: «إن البياض قليل الحمل للدنس».

وروي عن عمران بن عبد الله قال: ما أحصي ما رأيت على سعيد بن المسيّب من عدة قمص الهروي. نسبة إلى هراة من خراسان. وكان يلبس هذه القمص الغالية البيض مع أنه لم يكن يأخذ من الأمراء شيئاً وكان يتكسب لنفسه في تجارة الزيت.

وكان له ذوق أدبي كما روى عنه أنه سمع الأخضر الحربي يتغنى في بعض بيوت مكة: «تضوع مسكاً بطن نعمان إن مشت» به زينب من نسوة عطرات. فأعجبه قوله وقال كما جاء في الأغاني ٧٥٩/٢:

وليست كأخرى أوسعت جيب درعها	وأبدت بنان الكف للجمرات
وعلت بنان المسك وحفاً مرجلاً	على مثل بدر لاح في الظلمات
وقامت ترائي يوم جمع فأفتنت	برؤيتها من راح من عرفات

وهذه الأبيات تعرض بأبيات عمر بن أبي ربيعة:

بدا لي منها معصم يوم جمرت	وكف خضيب زينت ببنان
فوالله لا أدري وإني لحاسب	بسبع رميت الجمر أم بثمان

يهمنا تذوق العالم الشعر وخاصة هذا النوع أو في أي غرض آخر، وقد كان ﷺ يقدر الشعر الرفيع ويجيز عليه كما أجاز كعباً على قصيدة: «بانت

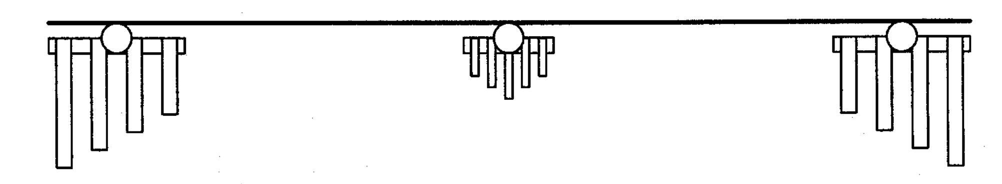
سعاد» وقد أنشدها في المسجد. فالشعر يرقق الشعور ويرهف الحس ويفتق الذهن ويلين الجانب لما فيه من خصال الأدب والمروءة.

ومن أغرب صور التسامح واللين والتواضع والزهد من سعيد قصة تزويجه ابنته؛ كانت له ابنة فاقت قريناتها أدباً وعلماً وجمالاً تحفظ كتاب الله والكثير من السنة والفقه حدث أن سمع بها الخليفة فخطبها لولي عهده قيل: يسترضي أهل المدينة فأبى أن يزوجها إياه، وزوجها على رجل فقير بدرهمين. ويروي ابن كثير قصة زواجها فيقول: زوّج سعيد بن المسيّب ابنته على كثير بن أبي وداعة وكانت من أحسن النساء وأكثرهم أدباً وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج وكان فقيراً فبعث إليه قيل: بعشرين ألفاً وقد ذكروا قصة زواجها كما رواها الزوج قال: كنت أجالس سعيداً فغبت عنه أياماً فسألني فأخبرته بوفاة زوجتي ثم سألني: هل أحدثت زوجة؟ فقلت: يرحمك الله ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين؟ ثم زوجه ابنته في المجلس. وفي الليل جاء فقرع بابي فعجبت لأنه لم ير أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد فظننت أن قد بدا له فاعتذرت فإذا معه ابنته وقال: قد زوجتك وأنت رجل أعزب فكرهت أن تبيت وحدك الليلة وهذه امرأتك ودفع بها إليّ. . . . إلى آخر القصة. وإني وإن كنت أجد فيها قوة زهد سعيد عن عظمة الخلافة وتواضع العلماء وبساطة بناء الأسرة مما يفتقده العالم المتحضر اليوم، وتجعل إمامنا في القمة من هذه الجهة إلا أني أيضاً أعجب كل العجب وأكبر وأجل تلك الابنة في هذه الطاعة وهذا القبول وتلك التنازلات من خطبة لولي عهد الخلافة إلى رجل لا يملك إلا درهمين. ومع كل مؤهلات الفتاة المثلى لأرفه وأمتع عيشة أدباً وجمالاً وعلماً. ومع هذا كله كانت أعرف الفتيات بحق الزوج فيسعد معها زوجها وتسعد هي معه.

ولست أريد التنقيب هل كان ذلك رداً على مواقف الأمراء والخلفاء منه حين امتنع عن مسايرتهم حين تشاحوا على الإمارة والخلافة فسفكت الدماء وانتهبت الأموال وأخذت البيعة بالسياط وداخل السجون فلم يجارهم في ذلك وتباعد عنهم كل التباعد وما سلم من الضرب ولا الأخذ بشدة حين هدد بالقتل. فمثل هذا كيف يرضى بمصاهرتهم، وكيف لا يعاجل تزويجها مخافة أن يغلب عليها؟

ولكن كما أسلفت أن موقف الابنة بل وموقف أمها لهو الموقف الذي ينتزع الإعجاب من كل إنسان لتكون المثال العملي لكل فتاة ولا سيما من ذاقت من العلم والفضل مما جمعته تلك الفتاة. وما كسبته من لباس الحماس والآداب. أما منهجه في عباداته فعلى ما سيأتي إن شاء الله.





منهج سعيد بن المسيّب في العبادة

يعتبر منهج العالم في عبادته في نظري أهم من منهجه في علمه لأن العبادة هي التطبيق العملي للتحصيل العلمي. والعبادة هي الغذاء الروحي الذي يرفع معنوية العالم والمنهج الذي يمكن أن يحتزي به كل مسلم عالماً أو متعلماً أو عامياً.

والواقع أن العبادة بالنسبة لطالب العلم وسيلة وغاية: فهي وسيلة تعينه على تحصيل العلم كما أسلفنا لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وكان الإمام ابن تيمية رحمه الله إذا صلى الصبح بقي في مجلسه يذكر الله حتى تطلع الشمس ويقول: هذه الجلسة هي غذائي طيلة يومي.

وقرأت عن أحمد رحمه الله قوله: عجبت لطالب العلم ليس له ورد من ليله ويكفي في هذا التوجيه ما جاء في قوله تعالى في حق المصطفى ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝﴾ [المزمل: ١ ـ ٦]، وما بعدها من الآيات فبين تعالى أن إلقاء القول الثقيل يحتاج إلى ناشئة الليل حيث إنها أشد على القائم وأقوم وأعدل في التأثير على النفس والتهيئة للتحصيل من هذا القول الثقيل في تكاليفه وفهمه وإبلاغه. فلئن كان هذا هو النبي المصطفى المرسل يتهيأ لتحمل أعباء الرسالة بناشئة الليلة وقد كان يقوم ﷺ حتى تتفطر قدماه. فإن غيره من باب أولى ممن ورث تركة محمد ﷺ التي ليس فيها دينار ولا درهم وإنما هي قال الله وقال رسوله.

ولكن إمامنا فهم معنى العبادة على نطاق واسع يمكن أن نجملها بالقول: إنها صرف الوقت في طاعة الله واجتناب معصيته. وقد حمل إمامنا نفسه على متن أقوى العزائم صلاة وصياماً وحجاً وطلباً للعلم ما عجز عنه الكثيرون أما

صلاته فكان في ليلة يقوم طويلاً، وهو القائل لنفسه: والله لأدعنك تزحفن زحف البعير، فيصبح وقدماه منتفختان. ويقول لها: بهذا أمرت ولهذا خلقت. ولكني أعتقد أن في هذا ما قد يعجزه عن واجبات أخرى وقد روي عنه أنه صلى العشاء والفجر بوضوء واحد خمسين سنة.

أما المنهج الصحيح السليم الذي لم يقوَ عليه غيره ولم يتوجه إليه أية تساؤلات إلا بالإعجاب والإكبار فهو في صلاة الفريضة في الصلوات الخمس. إذ كان يحافظ على أدائها في الجماعة كما قال عن نفسه: «ما فاتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة». يعني لقيامه في الصف الأول وكان يقول في ذلك: من حافظ على الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة، وهذا والله هو الحق. وقد جاء في الحديث: «خمس صلوات كتبهن الله في اليوم والليلة فمن حفظها وحافظ عليها كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة».

وبيّن لنا موقفه من الوقت وحرصه عليه حيث قال: ما دخل على وقت صلاة إلا وقد أخذت أهبتها ولا دخل على قضاء فرض إلا وأنا إليه مشتاق. يعني بقضاء فرض أداءه كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ . . .﴾ [الجمعة: ١٠].

وهذا هو عين ما جاء في السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة في قوله ﷺ: «ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حين يرجع إليه». فأي عزيمة هذه وأي عبادة تلك. لقد والله انفرد بها عمن بعده فيما تعلم قال الأوزاعي: كانت لسعيد فضيلة لا نعلمها كانت لأحد من التابعين: لم تفته الصلاة في جماعة أربعين سنة، عشرين منها لم ينظر في أقفية الناس.

ومما يذكر في هذا المجال وبهذه المناسبة أني سمعت عن إمام الحرم في نهاية الستينات وأوائل السبعينات فضيلة الشيخ صالح الزغيبي أنه لم تفته الجماعة ولا استناب أحداً مدة إمامته حتى مرض. وقد شهدت له مشهداً فريداً في صلاة الفجر ذات يوم أنه صلى الصبح ثم عجز عن القيام وأفاد أنه ضربته عقرب عند وضوئه وليس عنده من يخبره فيستنيب فتحامل حتى صلى. وفي الموعد المحدد كل يوم ثم انهارت قواه بعد الصلاة مباشرة وذهبت معه إلى بيته محمولاً وقدر الله أني قتلت ذاك العقرب عند محل وضوئه في بيته. فإذا كان

هذا في عصرنا الحاضر فلأن يكون لابن المسيّب من كبار التابعين من باب أولى.

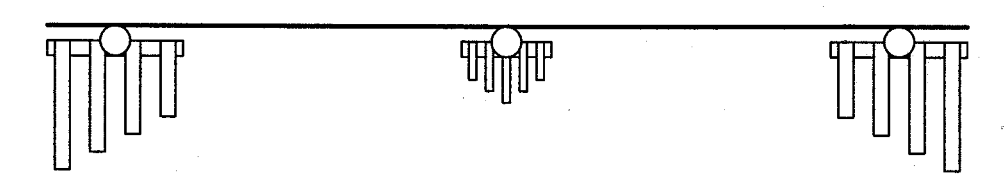
وقد كان لملازمته الجماعة وتبكيره إلى المسجد ما حدث له من خارق العادات في أيام وقعة الحرة. أيام اليزيد بسبب امتناعهم عن البيعة فيما روى عنه أبو حازم قال: سمعت سعيد بن المسيّب يقول: لقد رأيتني ليالي الحرة وما في المسجد أحد من خلق الله غيري، وإن أهل الشام ـ يعني جيش يزيد ـ ليدخلون زمراً زمراً، يقولون: انظروا إلى هذا الشيخ المجنون ـ يعنون أنه يعرض نفسه لسيوفهم لأنهم لم يبالوا بمن يقتلون أو يسلبون أو ينتهكون من الحرمات ـ ومع شدة خوف الناس فقد تعطل الآذان وتعطلت الجماعة قي المسجد النبوي عدة أيام ومع تلك الشدة والرهبة والخوف لم يتخلف إمامنا سعيد عن المسجد، وقد قال عما وقع له تلك المدة: وما يأتي وقت الصلاة إلا سمعت أذاناً من القبر، ثم تقدمت فأقمت فصليت وما في المسجد غيري.

ذكر هذا الخبر ابن سعد في الطبقات بسنده، وعزاها صاحب فقه سعيد إلى الكواكب الدرية ١/ ١١٤، وقد أورد شيخنا الشيخ عبد العزيز بن رشيد رحمه الله في شرحه العقيدة الواسطية ضمن إثبات كرامات الأولياء. ومعلوم أن العبرة في هذا الباب إنما هي بصحة النقل وإلا فلا غرابة ولا استبعاد في وجود خوارق العادات ولا سيما لمن لم تفته الجماعة خمسين سنة. وقد صح عن النبي ﷺ في ليلة الإسراء أنه قال: «مررت على أخي موسى وهو قائم يصلي في قبره». ثم هو يخبرنا أنه رآه في السماء السابعة أو قال: «في السادسة». فعالم البرزخ عالم غيب مبناه على صحة النقل كما أسلفنا وهذا في نظري من باب تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة وقد كان أيضاً رحمه الله يسرد الصوم. ومعلوم أن السنة في الصوم هي تفريقه وأقله ثلاثة أيام من كل شهر كما في وصيته ﷺ لأبي هريرة وفيها أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر وأن يوتر قبل أن ينام ثم صوم يومي الاثنين والخميس ثم خير الصيام صيام داود عليه السلام صوم يوم وفطر يوم.

وكذلك كان مداوماً على الحج فقيل: حج أربعين سنة وقيل: عشرين وتلك عبادات قد يشاركه فيها البعض ولكنه لنا منهج لطلبة العلم من أن التفكر

في العلم والبحث فيه من أفضل العبادات كما روى عنه أن صالح بن محمد بن زائدة رأى فقيهاً من بني ليث كانوا يتعبدون ويروحون إلى المسجد في الهاجرة فقال لسعيد: هذه العبادة لو تقوى عليها؟ فقال سعيد: ما هذه العبادة ولكن العبادة التفقه في الدين والتفكر في أمر الله. ولهذا ما يشهد له من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقوله ﷺ: «تعلم مسألة خير من عبادة ستين سنة». وهكذا فقد رسم لنا إمامنا سعيد منهج العلم والعمل فكان منهجه العلمي الجمع بين الرواية والدراية فإذا وجد رواية فلا يعدل عنها، وإذا لم يجد اجتهد وسعه وهو المنهج الذي أقره ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن لما سأله: «بم تقضي؟» فقال: بكتاب الله فإن لم أجد فبسنة رسول الله فإن لم أجد أجتهد رأيي ولا آلو، فقال ﷺ: «الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يحب رسول الله». كما أظهرت لنا سيرته وجود مجالس علم بالمسجد النبوي متعددة منها مجلس سعيد، وقد توفي رحمه الله سنة ٩٤هـ بعد أن خلف لنا ثروة فقهية لا يكاد يخلو منها باب من أبواب الفقه ومنهجاً علمياً لا يستغني عنه طالب علم فجزاه الله أحسن الجزاء وأعلى له في رفيع جناته، وبالله تعالى التوفيق.





سعيد بن المسيّب وتعبيره الرؤيا

كان سعيد بن المسيّب إماماً في هذا الميدان وقد أثرت عنه معايير في غاية الندرة أورد الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ منها نماذج عديدة.

من ذلك أن رجلاً قال له: إني رأيت كأن حمامة وقعت على المنارة. فقال: يتزوج الحجاج ابنه عبد الله بن جعفر.

وهذا النوع من أغرب ما ينقل في ذلك حيث يسمي الأشخاص وليس في المنام المذكور ما يشير لذلك.

ومن ذلك أيضاً ما جاء عن عمر بن حبيب قال: كنت جالساً عند سعيد بن المسيّب يوماً وضاقت بي الأشياء وأرهقني دين فجاءه رجل فقال: رأيت كأني أخذت عبد الملك بن مروان فأضجعته إلى الأرض وبطحته فأوتدت في ظهره أربعة أوتاد، قال: ما أنت رأيتها، قال: بلى، قال: لا أخبرك أو تخبرني، قال: ابن الزبير رآها، وهو بعثني إليك، قال: لئن صدقت رؤياه قتله عبد الملك وخرج من صلب عبد الملك أربعة كلهم يكون خليفة، قال: فرحلت إلى عبد الملك بالشام فأخبرته فسر وسألني عن سعيد وعن حاله فأخبرته وأمر بقضاء ديني. ومن ذلك أن رجلاً أتاه فقال: أراني أبوك في أصل زيتونة، فقال: إن نحتك ذات رحم، فنظر فوجد كذلك.

إلى غير هذا من النماذج العديدة لا نطيل بذكرها غير أنه من المعلوم عند السلف أن صدق تعبير الرؤيا من أدق الفراسة وحدة الذكاء، وتقدير أحوال الناس كما جاء عن ابن سيرين أنه أتاه رجل في مجلسه فقال: رأيتني أؤذن فنظر إليه وقال: تحج بيت الله، فذهب وأتاه آخر فقال أيضاً: رأيتني أؤذن فنظر إليه وقال: تسرق وتقطع يدك، فسأله أصحابه عن ذلك، الرؤيا واحدة والتأويل مختلف، فقال: أخذت ذلك من كتاب الله أما الأول فرجل صالح فأخذت تأويل رؤياه من قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]، وأما الثاني:

فعلى خلاف ذلك فأخذت تعبير رؤياه من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠].

ومن نوادر ذلك ما جاء أن مالك بن أنس وهو هو في العلم والفضل رأى ملك الموت فسأله: كم بقي من عمري؟ فأشار ملك الموت بيده تاروا أربعة أصابع، فظن مالك أنه لم يبق من عمره إلا أربعة أيام فاعتكفها للعبادة ولما مضت ظنها أربعة أشهر، ولما مضت ظنها أربع سنوات، فأرسل شخصاً يسأل ابن سيرين، فقال له: لست صاحب مثل هذه الرؤيا فأخبره أن صاحبها مالك بن أنس، فاشترط عليه دينارين فأعطاه فقال له: أين ذهب علمك يا مالك؟ لقد سألته عما لا يعلمه وأشار إليك بأن هذا ضمن أربعة أمور لا يعلمهن إلا الله وقرأ له قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

ومعلوم أن علم تأويل الرؤيا من علوم الأنبياء وهذا نبي الله يوسف عليه السلام يرى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين فيعرفها أبوه ويحذره أن يقصها على إخوته فيكيدوا له ومن جهة أخرى يرى صاحباه في السجن رؤياهما ويعبرها لهما، وأكبر من هذا وذاك رؤيا الملك سبع بقرات وسبع سنبلات وكان تعبيره عليه السلام لرؤيا الملك مدعاة خروجه من السجن وتنصيبه أميناً على خزائن الأرض.

وللرؤيا في الإسلام مكانة عالية كما قال ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة يراها الرجل الصالح أو تُرى له». وفسروا ذلك بأن مدة الرسالة المحمدية ثلاث وعشرون سنة يتلقى فيها ﷺ الوحي عياناً، سبقها فترة التحنث في حراء لمدة ستة أشهر كان أثناءها ﷺ يرى الرؤيا فتأتي كفلق الصبح، ومعلوم أن نسبة الستة الأشهر وهي نصف السنة إلى ثلاث وعشرين سنة، هي نسبة ١/٤٦.

إلا ما يكون من رؤيا الأنبياء لأن رؤيا الأنبياء وحي كما جاء في شأن الخليل مع إسماعيل عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فاعتبرها إسماعيل عليه السلام أمراً،

وجاء مصداق ذلك في آخر السياق، فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

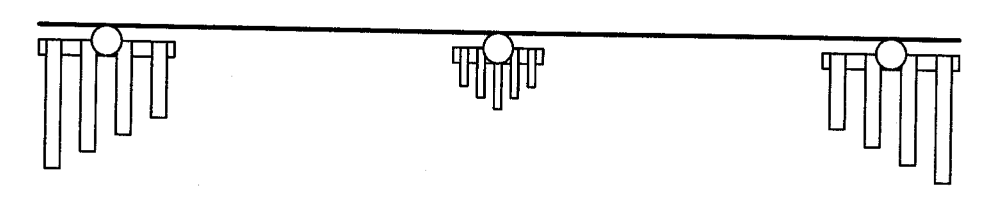
ومن ذلك ما جاء عنه ﷺ أنه رأى بعد الهجرة وقبل الفتح أنه أتى مكة معتمراً، فأخبر أصحابه وخرج بهم إلى مكة محرمين بالعمرة، ولكن عظم على المشركين أن يفاجئهم المسلمون في مكة فصدوهم وكان صلح الحديبية لحِكم عديدة بيّنها الله تعالى في سورة الفتح.

ولما تم الصلح بين الفريقين أمر النبي ﷺ أصحابه أن يتحللوا فأخذوا يتساءلون على مقتضى الرؤيا التي أخبرهم ﷺ بها، فأنزل الله تعالى تصديقه فيها في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧]، وأنزل الله تعالى سورة الفتح في صلح الحديبية، وكان في الصلح حقيقة فتح مبين، وبيانه أن الله انتزع لرسوله من أعدائه اعترافاً بالكيان الإسلامي حين جلسوا مع المسلمين على مائدة المفاوضة وتضم صحيفة الصلح توقيع كلا الفريقين معاً على قدم المساواة.

وأما غير الأنبياء فإن رؤيا الصالحين من عباد الله من أعظم المبشرات، وهذا ما لا يخفى على أحد ظهوره.

وختاماً وجّه الأنظار إلى توجيه النبي ﷺ بأن من رأى رؤيا أعجبته فليقصها على من يحب له الخير ليعبرها له على أحسن وجهها، وإن من رأى رؤيا تزعجه فليتفل عن يساره ثلاثاً ويستعذ بالله من الشيطان ويتحول على شقه الآخر فإنها لا تضره، وقد قالوا: إن طيب المطعم ونظافة الملبس وصدق الحديث مدعاة لصدق الرؤيا. وقيل: إن سعيد أخذ التأويل عن أسماء بنت الصديق وأخذته عن أبيها، وبالله تعالى التوفيق.





بقية الفقهاء السبعة

هذا العنوان (الفقهاء السبعة) يختص بفقهاء كانوا بالمدينة في عصر واحد، ولذا يقال لهم: فقهاء المدينة السبعة، ومن الغريب أن وفاة أكثرهم كان في سنة واحدة هي ٩٤، وسميت سنة الفقهاء.

وفي اعتقادي أنه لم يجتمع مثلهم في وقت واحد في بلد واحد قبلهم وكلهم من التابعين وأبناء الصحابة.

وكان لهم فضل كبير في إبراز علم المدينة لأن علم الصحابة جميعاً تبلور وانصب في حصيلة هؤلاء، وكانوا جميعاً يحرصون على جمع فتاوى النبي ﷺ وخلفائه الراشدين خاصة ثم فتاوى الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بصفة عامة.

واختلفت مناهجهم بالنسبة للحديث والفتوى جمعاً وروايةً فمنهم من غلب عليه الحديث وقلّت عنده الفتوى، ومنهم من كثرت منه الفتوى وقلّ عنده جمع الحديث ومنهم من عادل بينهما.

وفي الجملة كانوا بمجموعهم وحدة علمية متكاملة ومن هنا عُني بهم المؤرخون والعلماء وترجموا لهم مجتمعين ومنفردين.

وقدمناه ترجمة مفصلة لأكبرهم وأعلمهم بدون منازع وهو سعيد بن المسيّب ولا يتأتى لنا في هذا البرنامج المحدود أن نترجم لجمعهم على نحو ما قدمنا في سعيد بن المسيّب، وحيث قدمنا في ترجمة سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يعطي الصورة لذلك العصر منهجاً علمياً وسلوكاً، فإنه يكفينا أن نوجز القول عن البقية أداء لبعض الحق ووفاء لهذا المنهج فنقدم الآتي:

أولاً: نظراً لتشابه العديد من الأشخاص في هذا المجال ووفرة أمثالهم في عصرهم فقد اختلف المترجمون في تعيين بعضهم بدلاً من بعض والمتفق عليهم بعد سعيد بن المسيّب هم: عروة بن الزبير، أبو بكر بن عبد الرحمن،

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، خارجة بن زيد القاسم بن محمد، سليمان بن يسار، وهذه تعاريف موجزة لكل منهم؛ أما عروة: فهو ابن حواري رسول الله ﷺ وابن عمته صفية، الزبير بن العوام، وقد توفر له ما لم يتوفر لغيره، حدّث عن أبيه وعن أمه أسماء بنت الصدّيق، وعن خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ولازمها وتفقه عنها وعن عدد آخر، ولد عام ٢٣ على خلاف فيه، قد جمع حديث عائشة رضي الله عنها لدخوله عليها وملازمته إياها، وبلغ من شأنه في طلب العلم أن كان يأتي إلى بيت الصحابي ليأخذ عنه الحديث فيجده نائماً فيجلس على بابه حتى يراه فيسأله، وهذا نظير ما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنه، وبهذا كان آخر الفقهاء السبعة حديثاً قال عمر بن عبد العزيز: ما أجد أعلم من عروة وما أعلمه يعلم شيئاً أجهله، وقال ابن المديني: عن سفيان عن الزهري: عروة بحر لا تكدره الدلاء. وقال حميد بن عبد الرحمن: دخلت مع أبي المسجد، فرأيت الناس قد اجتمعوا على رجل فقال أبي: انظر من هذا. فنظرت فإذا هو عروة فأخبرته فتعجبت فقال: يا بني لا تعجب لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه، ولعل من عوامل صقله ووفرة تحصيله منهجه مع كتاب الله فقد كان يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف نظراً ويقوم به الليل فما تركه إلا ليلة قطعت رجله.

وذلك أن رجله أصيبت بالأكلة وقرر الأطباء قطعها وإلا قتلته، وعرضوا عليه دواء لا يحس معه بألم فأبى وقطعت ولم يتزعزع.

ومن أحسن التعازي في ذلك ما عزى هو نفسه بقوله، يخاطب ربه: (لئن أخذت فقد أبقيت ولئن ابتليت فقد عافيت).

ومما قاله له عيسى بن طلحة: إنا والله يا أبا عبد الله ما أعددناك للصراع ولا للسباق، ولقد أبقى الله منك لنا ما كنا نحتاج إليه رأيك وعلمك، فقال عروة: ما عزاني أحد مثلك.

ولعل في هذا العزاء والذكرى لكل طالب علم بأن في العلم عزاء من كل عزيز وكنت أسمع والدنا الشيخ الأمين رحمه الله في بعض حالاته: من أعطاه الله علم الكتاب ورأى أحداً أكثر منه عطاء فهو غلطان، نعم، لقد ذهبت رجل عروة وذهب عروة ولكن بقي علمه له فضله وأجره، وللمسلمين نفعه وهديه.

وقد رحل عروة إلى البصرة وبها ابن عباس، ثم رحل إلى مصر ثم عاد إلى المدينة وقد ابتنى قصره المشهور بالمدينة وحفر بئرها فكان أعذب ماء وقد قيل له في ذلك: جفوت مسجد رسول الله ﷺ إلى وادي العقيق؟ فقال: وجدت مساجدهم لاهية وأسواقهم لاغية والفاحشة في فجاجهم عالية، فكان فيما هنالك عما هم فيه ما فيه[1].

ويلاحظ أن ذاك العهد هو عهد فتنة قتل عثمان رضي الله عنه وكان عند مقتلة دون البلوغ فشهد ذاك اللفظ وتلك الفتن ولقد اعتزل رحمه الله تلك الفتن لانصرافه لطلب العلم.

وبين اتجاهه في حياته تلك الأماني التي تسائل عنها ذاك الرهط عند الكعبة كما ساق الذهبي عن أبي الزناد قال: اجتمع في الحجر مصعب، وعبد الله، وعروة بن الزبير، وابن عمر، فقالوا: تمنوا، فقال عبد الله: أما أنا فأتمنى الخلافة، وقال عروة: أتمنى أن يؤخذ علي العلم، وقال مصعب: فأتمنى أمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، وأما ابن عمر فقال: أتمنى المغفرة فنالوا ما تمنوا، ولعل ابن عمر قد غفر له.

انظر رحمنا الله وإياك تلك الجلسة الكريمة تضم ثلاثة من أبناء الزبير بن العوام عبد الله الذي بويع بالخلافة في الحجاز، ومصعب الذي ولي إمارة العراق وعروة صاحبنا هذا وعبد الله بن عمر، وفي ظل الكعبة في حجر إسماعيل فيتمنون ما يرجون من رغبات فتختلف أمنياتهم وتتحقق رغباتهم فأين خلافة عبد الله، وأين إمارة مصعب؟ لقد قتل كل منهم في غضون أمنيته، ولا نقول: قتلتهما أمنيتهما ولكن قضاء الله وأسباب مقدرة ولكن أمنية عروة صاحبنا ظلت باقية ولم يزل الناس يأخذون عنه العلم وحسن الظن به أن ينال أمنية ابن عمر إن شاء الله، وهو صاحب القرآن وصاحب الفقه والدين وقد أنشد أبيات معن بن أوس لما قطعت رجله وهي:

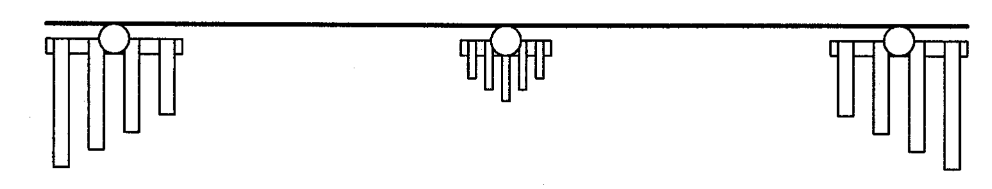
---

(١) ذكر صاحب حلية الأولياء أن عروة لما قطعت رجله تمثل بأبيات معن بن أوس: لعمرك ما أهويت كفي لريبة ولا حملتني نحو فاحشة رجلي. مهمة ذكر في الحلية أنه رضي الله عنه كان إذا كان زمن الرطب ثلم حائط بستانه وأذن للناس يأكلون ويأخذون وإذا دخله يقول: . . . . .

لعمرك ما أهويت كفي لريبة ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلني رأي عليها ولا عقلي

ولعل في هذا ما يثبت طالب العلم على المنهج القويم علماً وعملاً، وبالله التوفيق.





بقية الفقهاء السبعة رحمهم الله
(القاسم بن محمد)

تقدم الكلام على الإمام سعيد بن المسيّب وهو أفضلهم بدون منازع وقد حاولنا بسط الكلام في موضوعه. لتصوير عصره وبيان منهجه ليعطي الصورة العملية لطالب العلم ويقف على ما كان عليه علماء الأمة علماً وعملاً.

ثم قدمنا تعريفاً موجزاً لثاني الفقهاء السبعة وهو عروة بن الزبير رضي الله عنه لصلته بخالته عائشة رضي الله عنها وتفقهه عليها وصلته بأمه ووالده.

ووفاء بما وعدنا نحمل التعريف ببقية السبعة عى ما اختاره الإمام ابن القيم الذين جمعهم هذا النظم:

ألا كل من لا يقتدي بأئمة | فقسمته جبراً عن الحق خارجة
فخذهم عبيد الله عروة قاسم | سعيد أبو بكر سليمان خارجة

أما القاسم بن محمد فهو ابن محمد فهو ابن الصدّيق رضي الله عنه. كان فقيهاً ورعاً متعبداً قال صاحب الحلية: أن ابن أبي الزناد قال: ما رأيت فقيهاً أفضل من القاسم. وقال أيضاً عنه: ما رأيت أحداً أعلم بالسنة من القاسم بن محمد وكان الرجل لا يعد رجلاً حتى يعرف السنة. وقال جعفر بن عثمان: سمعت يحيى بن معين يقول: عبيد الله بن عمر عن القاسم عن عائشة، ترجمة مشبكة بالذهب. أي سند لا يعادله غيره صحة والمشهود عند المحدثين في علو السند وصحته ما يقال: مالك عن نافع عن ابن عمر، سلسلة الذهب.

ولد رحمه الله في خلافة الإمام علي، وتربى في حجر عمته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقال: كانت عائشة فما استقلت بالفتوى في خلافة أبي بكر وعمر إلى أن ماتت وكنت ملازماً لها مع ترهاتي. أي قبل أن يشتغل بالجد وطلب العلم وكنت أجالس البحر ابن عباس. توفي رحمه الله بين مكة والمدينة (بغدير)

فقال: كفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها هكذا كفن أبو بكر. وأوصى أن لا يبنى على قبره؛ رحمه الله رحمة واسعة.

وكانت وفاته ١٠٦ أما خارجة بن زيد فأبوه زيد بن ثابت الصحابي الجليل فهو إمام ابن إمام وهو أنصاري من بني النجار. وحده لأمه سعد بن الربيع الأنصاري أحد النقباء السادة.

قال مصعب بن الزبير: كان خارجة وطلحة بن عبد الله بن عوف في زمانهما يستفتيان وينتهي الناس إلى قولهما ويقسمان المواريث بين أهلها من الدور والنخيل والأموال ويكتبان الوثائق للناس. وهذا يعطينا ما كان عليه بعض السلف من التخصص في بعض المجالات. ولا غرابة على إمامنا هذا فهو ابن الجليل زيد الذي قال عنه ﷺ في باب الفرائض: «أفرضكم زيد». فها هو ابنه خارجة يصبح من الفقهاء السبعة ويتولى عملياً قسمة المواريث وكتابة الوثائق. وهذا هو التنظيم الإداري في كتابة الوثائق لحفظ الحقوق.

ولقد أثر عنه رضي الله عنه في مكارم أخلاقه حبه لإخوانه ما يحب لنفسه كما قال الذهبي: إن عمر بن عبد العزيز كتب أن يعطى خارجة بن زيد ما كان قطع عنه من الديوان فمشى خارجة إلى أبي بكر بن حزم، أي وكان أمير المدينة لعمر بن عبد العزيز فقال له خارجة: إني أكره أن يلزم أمير المؤمنين من هذا ولي مقاله نظراء، فإن عمّهم أمير المؤمنين بهذا فعلت، وإن هو خصني به فإني أكره ذلك له.

فكتب عمر: لا يسع المال لذلك ولو وسعه لفعلت.

إنها والله المروءة والعفة والنصيحة وصدق المحبة في الله.

توفي رحمه الله سنة ٩٩ وكان قد رأى في منامه كأنه بنى سبعين درجة قال: فلما فرغت منها تهورت وهذه السنة لي سبعون سنة قد أكملتها. فمات عنها، رحمه الله رحمة واسعة.

أما سالم بن عبد الله؛ فهو ابن عبد الله بن عمر رضي الله عنه وهو الإمام الزاهد الحافظ فهو قرشي مدني ولد في خلافة عثمان رضي الله عنه. وقد سماه أبوه عبد الله باسمه هذا سالماً؛ كما روى سعيد بن الميسب عن أبيه أنه قال له: أتدري لم سميت ابني سالماً؟ قلت: لا. قال: باسم سالم مولى أبي حذيفة في السابقين أو إعجاباً بما كان عليه ذلك الصحابي الجليل وقد قال فيه عمر رضي الله عنه: عند

اختيار النفر الست لاختيار الخليفة بعده. لو كان سالم مولى أبي حذيفة فما تخطيته. فيا سبحان الله. مولى من الموالي ترتفع منزلته عند أمير المؤمنين حتى على أولاده هو. ويقول: لو كان موجوداً لما تخطاه في أن يعهد إليه.

وعبد الله بن عمر يسمي ولده باسمه محبة له وتفاؤلاً لولده. حقاً: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال الذهبي في ترجمته: كان الفقهاء السبعة إذا أتتهم مسألة دخلوا فيها جميعاً فنظروا فيها. ولا يقضي القاضي حتى يرفع إليهم فينظرون فيها فيصدرون وكان رحمه الله من زهده لا يعنى بثيابه، وروي عنه أنه دخل على سليمان بن عبد الملك وعليه ثياب غليظة رثة فرحب به سليمان وأجلسه معه على سريره وكان في المجلس رجل عليه ثياب فاخرة وبجواره عمر بن عبد العزيز فقال: هذا الرجل لعمر: ما استطاع خالك - يعني لما - أن يلبس ثياباً فاخرة أحسن من هذه يدخل فيها على أمير المؤمنين، فقال له عمر: ما رأيت هذه الثياب التي على خالي وضعته مكانك ولا رأيت ثيابك هذه رفعتك إلى مكان خالٍ. إنه تكريم العلماء بعلمهم.

وكان من ورعه رحمه الله وزهده أن هشاماً دخل الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال هشام: سلني حاجة. فقال له سالم: إني أستحي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرجا قال: الآن فسلني حاجة، فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا. قال: والله ما سألت الدنيا ممن يملكها فكيف أمثالها ممن لا يملكها؟ توفي رحمه الله في ذي القعدة أو ذي الحجة سنة ١٠٦ وصلى عليه هشام بن عبد الملك بعد انصرافه من الحج رحمه الله رحمة واسعة.

أما سليمان بن يسار: فهو العالم الجليل وكنيته أبو أيوب، أو أبو عبد الرحمن وهو رحمه الله المثل الثاني هنا حيث لم يكن قرشياً ولا خزرجياً، بل كان مولى لأم المؤمنين ميمونة الهلالية وقد كاتبته يعني جعلت بينها وبينه كتاباً على مبلغ إن هو أداه صار حرّاً. فلم يمنعه رقه من التسامي إلى أعلى المنازل بالعلم وقد افتخر سلمان الفارسي من قبل بقوله:

أبي الإسلام لا أبا لي سواه ... وإن افتخروا بقيس أو تميم

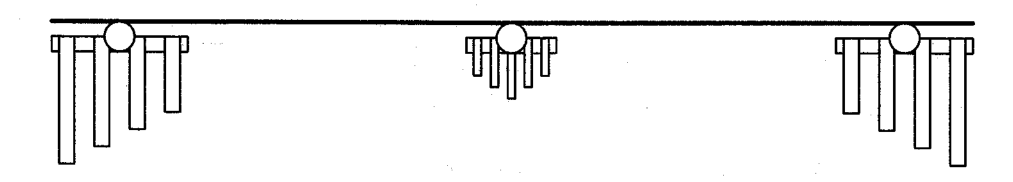
ولد في خلافة عثمان ﷺ وروى عن جمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وحدث عنه جماعة منهم أخوة عطاء بن يسار، وكان الحسن بن محمد بن الحنفية يقدمه على سعيد بن المسيّب. وروى الذهبي أن سعيد بن المسيّب كان يجعل عليه من يأتي يسأله ويقول عنه: إنه أعلم من بقي اليوم، وقد ولي سليمان سوق المدينة لأميرها عمر بن عبد العزيز وكان أعلم الناس بأحكام الطلاق كان أبوه يسار فارسياً، مات قبل سنة ١٠٧ رحمه الله رحمة واسعة.

أما عبيد الله بن عبد الله بن عقبة؛ فهو الإمام الهزلي المدني جده عقبة أخو عبد الله بن مسعود ولد في خلافة عمر تقريباً. وكان عبيد الله هذا هو معلم عمر بن عبد العزيز رحمهما الله. ولما ولي عمر الخلافة كتب إليه عبيد الله بهذه الأبيات:

باسم الذي أنزلت عنده السور	والحمد للّه أما بعد يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر	فكن على حذر قد ينفع الحذر
واصبر على القبر المحتوم وارض به	وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لامرئ عيش يسر به	إلا سيتبع يوماً صفوه كدر

إنها النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وما منهم وهذه جملة ما وعدنا به من تعريف موجز لبقية الفقهاء السبعة توفية لهذا البرنامج علماء الحرمين في عصر التابعين وسيأتي ما تيسر إن شاء الله من تراجم ما بعد التابعين ومن بعدهم بإحسان، وبالله تعالى التوفيق.





ما بعد الفقهاء السبعة

(ربيعة بن أبي عبد الرحمن)

ظلت الحركة العلمية بالمدينة المنورة بعد الفقهاء السبعة الذين كانوا من كبار التابعين ظلت في حلقات المسجد النبوي لصغار التابعين وتابعي التابعين ومن أشهر صغار التابعين: ربيعة بن أبي عبد الرحمن المشهور بفروخ، وزيد بن أسلم، ويحيى بن سعيد، وأبو الزناد، وخلق آخرون، وهم من شيوخ مالك رحمه الله ومن جاء في عصره. ونختار من أولئك الأعلام الإمام الجليل ربيعة بن أبي عبد الرحمن الذي تخرج عليه إمام دار الهجرة مالك بن أنس وفي ترجمته إلقاء الضوء على عصره إن شاء الله.

اسمه ولقبه وكنيته:

قال الذهبي: هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ الإمام مفتي المدينة وعالم الوقت، أبو عثمان ويقال: أبو عبد الرحمن القرشي التيمي مولاهم المشهور بربيعة الرأي من موالي آل المنكدر أدرك جماعة من الصحابة وكبار التابعين. قال الذهبي: كان من أوعية العلم وثقه أحمد بن حنبل وأبو حاتم وجماعة.

ولقب بربيعة الرأي لإكثاره من القول برأيه أعتقد أنهم يعنون كثرة الاستنباط والاجتهاد أكثر من الرواية. وقد روي عن مالك أن ربيعة كان يقول لابن شهاب وهو المستقل بالرواية: (إن حالي ليست تشبه حالك). قال: وكيف؟ قال: أنا أقول برأي من شاء أخذه ومن شاء تركه، وأنت تحدث عن النبي ﷺ فيحفظ.

فهو يرى أن الاجتهاد في مسائل الفقه المستبنطة أهون عليه من تحمل رواية الحديث عن رسول الله ﷺ فيحفظه الناس عنه. يعني وقد يخطئ، ولذا

قال عنه مالك: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة وليس معنى هذا أنه كان غير عالم ولا حافظاً للسنة بل كما قال الذهبي: وعاء علم.

ونقل عن ابن وهب عن عبد العزيز بن سلمة قال: لما جئت إلى العراق جاءني أهل العراق فقالوا: حدثنا عن ربيعة الرأي، فقلت: يا أهل العراق تقولون: ربيعة الرأي. والله ما وجدت أحداً أحفظ للسنة منه. وقال عبد العزيز ابن الماجشون: والله ما رأيت أحوط للسنة من ربيعة. وقال أحمد بن صالح: حدثنا بنفسه، عن يونس: شهدت أبا حنيفة في مجلس ربيعة مجهوده أن يفهم ما يقول ربيعة. وقال مالك: اعتممت وما في وجهي شعرة ولقد رأيت في مجلس ربيعة بضعة وثلاثين معتماً.

ولم يكن إمامنا ربيعة مختصاً في الفقه وحفظ السنة فحسب، بل كان من أئمة السلف في حفظ وتقرير العقيدة السلفية حيث جاء عنه أنه سئل عن: كيف استوى؟ فقال: الكيف غير معقول، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق. وقد أخذها مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث كان جوابه عن هذه المسألة: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب. وأمر بإخراج السائل قائلاً: والسؤال عنه بدعة. وجاء عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أنه قال عن ربيعة: إنه صاحب معضلاتنا وعالمنا، وأفضلنا. وقال أبو بكر الخطيب: كان ربيعة فقيهاً، عالماً، حافظاً للفقه والحديث.

وهنا وقفه مع هذه الصورة الجديدة لعلماء السلف حيث نجد الفقه والحديث يتلازمان. وهذا هو المنهج العلمي العملي الواقعي الذي يجمع الحديث ويستخرج منه الفقه لينظم حياة الناس ويقابل معضلاتهم كما قال عبيد الله.

وها هو تلميذه مالك بن أنس أمام دار الهجرة يجمع بين الأمرين في مصنفه الجليل «الموطأ» حيث أودعه الحديث والفقه معاً.

وهنا يأتي سؤال لطالب العلم حيث تميز الفقه عما كان سابقاً وأفرد بمجامع ومراجع كما تميز الحديث بمعاجم ومجامع بأي هذين يبدأ طالب العلم، وبأيهما يولي عنايته.

أما من حيث البداية فمما سمعت من شيخنا الشيخ محمد بن تركي حين

كنا نقرأ عليه شرح منتهى الإرادات في الفقه الحنبلي، وصحيح البخاري في الحديث.

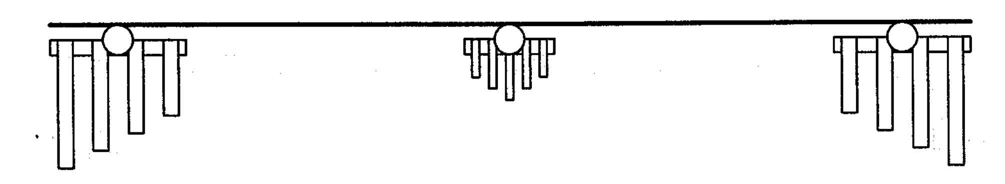
وجاء هذا السؤال بعينه فقال: أولى بطالب العلم أن يبدأ أولاً بالفقه ثم يأتي إلى الحديث فيطبق الفقه على الحديث ويسهل عليه فهم دقائق المسائل، لأن الفقهاء رحمهم الله أدق فهماً وأعمق استنتاجاً لمسائل الفقه من الحديث حيث يستنبطون ما لا يمكن للمحدث أن يستنبط في غالب الأحوال. ولعل ذلك والله تعالى أعلم هو أن المحدث جل همه ضبط الرواية ومعرفة حال الرواة.

ومن المأثور عن الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ أنه سئل عن سبب اشتغاله بالفقه في الوقت الذي كان علم الرواية وجمع الحديث وروايته كما كان علم الكلام على أشده. فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: أما رواية الحديث فإنك لا تأمن حاسداً أو مبغضاً يرميك بعلة تسقط روايتك وأما علم الكلام فلا تأمن كذلك من ينقل عنك قولاً يرميك فيه بالزندقة. أما الفقه فإني وجدت عامة الناس في حاجة إليه فاشتغلت به.

وبهذه المناسبة فقد كان لي مع فضيلة والدنا الشيخ الأمين بعض المباسطات في الحديث، ومن ذلك إني سألته ونحن في المسجد النبوي بعد درس التفسير تعرض فيه لمبحث أصولي في موضوع القياس فقلت له: رأيتك وقد فتح الله عليك في كثير من العلوم؛ ففي العربية يكاد يكون لك فيها اجتهادات. وفي الفقه: لا أخال مسألة من مذهب مالك تغيب عنك وفي الحديث رواية ودراية فأنت أحياناً تسرد رواة الحديث وتترجم لكل راوٍ بتوسع. والسيرة تحفظها بشواهدها شعراً ونثراً والعقائد والمنطق إلى آخر ما عددت عليه مما أعرفه وقلت له: لا إني رأيتك اقتصرت في تدريسك سواء في الرياض أو المدينة على علمي التفسير والأصول فقط، فلأي سبب؟ فقال: وما الباعث على هذا السؤال؟ فذكرت له ما كنت سمعته عن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ. فقال: أما علوم اللغة فهي كلها وسيلة لفهم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وليست غاية في ذاتها والعاقل لا يشتغل بالوسائل ويترك الغايات. وأما الحديث رواية ودراية فإنه يتطلب من طالب العلم مجهوداً مزدوجاً مجهود الرواة والبحث عن صحته، ومجهود الفقه والاستنباط والجمع بين النصوص والترجيح. وأما الفقه فإنك في

الحرمين بالذات تواجه أصحاب المذاهب الأربعة ويلزمك الإلمام بذلك كله. ومن طبيعة الخلاف في الفقه أنك مهما جمعت أطراف الخلاف واستحضرت أدلة كل جانب ثم غبت عن المسألة مدة فإنك إن عدت إليها تحتاج مثل ذاك المجهود لأنه سريع النسيان، وأما العقائد فليس من المصلحة إثارة غوامضها عند العوام والأحسن فيها بيانها عند مجيء مناسبتها. أما الاشتغال بالأصول والتفسير فإن الأصول ما لا يسع طالب العلم تركه؛ لأن جهله الأصول عوام العلماء ولا يتأتى استنباط الأحكام بدونه. وأما التفسير فلا يكلفك بحثاً عن سند ولا تنسى منه ما علمته ويأتي فيه جميع العلوم. وما من آية إلا وعندي ما قيل فيها، ولعل ربيعة هو أول من ميز الفقه والرأي عن بقية العلوم ووضع هذا المنهج العلمي العملي رحمه الله، وبالله تعالى التوفيق.





الجانب الشخصي لربيعة رَحِمَهُ اللهُ

عبادته وزهده:

قال عنه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مكث ربيعة دهراً طويلاً عابداً. يصلي الليل والنهار صاحب عباده ثم نزع ذلك إلى أن جالس القوم، فجالس القاسم فنطق بلب وعقل، وكان القاسم إذا سئل عن شيء قال: سلوا هذا لربيعة. فإن كان في كتاب الله أخبرهم به القاسم أو في سنة رسول الله ﷺ وإلا قال: سلوا ربيعة أو سالماً.

وإذا علمنا أن القاسم وسالماً من الفقهاء السبعة وها هو القاسم يقف عند نصوص الكتاب والسنة وأن سالماً وربيعة يجتهدان ويفتيان استنباطاً فإن الأصوليين يقولون: إن الاجتهاد من خصائص هذه الأمة ولا يمكن التوقف عنه ولا إغلاق بابه. لأن النصوص متناهية والأحداث غير متناهية فلا يمكن قصر غير المتناهي على المتناهي ولا بد من الاجتهاد لإدراج كل جديد إما تحت قاعدة عامة أو مع مثال سابق والأول عندهم هو تحقيق المناط والثاني هو الإلحاق بالقياس سواء كان قياس علة أو قياس دلالة.

ولعل مسلك ربيعة هذا هو الذي أكسبه إجلال العلماء وتوقيرهم إياه.

فعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: كان يحيى بن سعيد يجالس ربيعة فإذا غاب ربيعة حدثهم يحيى أحسن الحديث، وكان كثير الحديث فإذا حضر ربيعة كف يحيى إجلالاً لربيعة، وليس ربيعة أسن منه وهو فيما هو فيه، وكان كل واحد منهما مبجلاً لصاحبه.

وقال سوار بن عبد الله العنبري: ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة الرأي قيل له: ولا الحسن وابن سيرين؟ قال: ولا الحسن وابن سيرين.

عفته عما بأيدي الولاة وبذله ما في يده لإخوانه؛ فعن مالك: أن ربيعة

لما قدم على أمير المؤمنين أبي العباس أمر له بجارية فأبى أن يقبلها فأعطاه خمسة آلاف درهم يشتري بها جارية فأبى أن يقبلها.

وأما بذله ما في يده لإخوانه وسخائه، فقال عبد الرحمن بن زيد: قد صار ربيعة إلى فقه وفضل ما كان بالمدينة رجل أسخى بما في يده لصديق أو لابن صديق، أو لباغ يبتغيه منه، كان يستصحبه القوم فيأبى صحبة أحد، إلا أحداً لا يتزود معه؛ يعني أنه كان يتحمل زاد كل من يصحبه. ولقد شاهدنا مثل هذا من بعض مشايخنا رحمهم الله منهم فضيلة والدنا الشيخ الأمين والشيخ عبد الرحمن الأفريقي رحم الله الجميع.

وقد بلغ من إنفاق ربيعة على إخوانه ما حكاه ابن وهب أن ربيعة أنفق على إخوانه أربعين ألف دينار، ثم جعل يسأل إخوانه في إخوانه؛ أي يتطلب من موسري إخوانه للمحتاجين منهم. ولقد لمست هذه من أحد شيوخنا كذلك وهو سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حينما كنت معه في الجامعة الإسلامية طلب مني قرضه مائتي ريال فعجبت لهذا الطلب من مثله وقلة المبلغ، قد دفعني ذلك إلى سؤاله أن هذا طلب ملفت للنظر فماذا ستصنع لك مائتي ريال؟ وكيف يحتاج مثلك لهذا المبلغ القليل؟ فقال: جاءني بعض الإخوان وطلب مني هذا المبلغ وأرسلت لمأمور الصرف من يقرضني على راتبي فأجابني لقد نفد جميع راتبي في عدة قروض سابقة من أول الشهر ولم يبق منه ما يقرضني عليه.

لقد كان متباعداً عن السلطان؛ كما نقل صاحب وفيات الأعيان عن بكر بن عبد الله الصفاني قال: أتينا مالك بن أنس فجعل يحدثنا عن ربيعة الرأي وكنا نستزيده من حديث ربيعة، فقال لنا ذات يوم: ما تصنعوه بربيعة وهو نائم في ذلك الطاق؟ فأتينا ربيعة فأنبهناه وقلنا له: أنت ربيعة؟ قال: نعم. قلنا: أنت الذي يحدثنا عنك مالك بن أنس؟ قال: نعم. فقلنا: كيف حظي بك مالك ـ أي نال بك حظوة ـ وأنت لم تحظ بنفسك؟ قال: أما علمتم أن متقللاً من دولة خير من حمل علم. ولعله رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعني في محال الحظوة لأن الحظوة عند الدولة تجعل لصاحبها تأييداً ووجاهة ولقد أصيب ربيعة بسبب بعده عن الدولة أن وقع بينه وبين زيد بن أسلم شيء فكان سبباً لإلحاق بعض الأذى به. رحم الله الجميع وغفر لهم.

وينبغي أن يعلم أن العالم حقاً مهما كان له عند صاحب الدولة من حظوة وقربة لن يبيع دينه بدنياه ولن يتخلى عن تقديم النصح في كل مناسبة وفاء بحق العلم وقياماً لله في الدين.

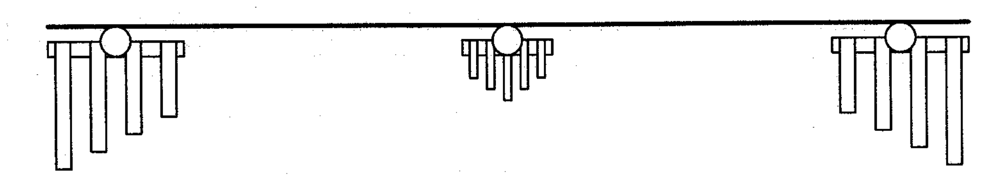
وله حكاية غريبة يسوقها المؤرخون وكتب التراجم وهي أن والده فروخاً كان قد خرج في بعثة إلى أفريقيا وخلف زوجة بالمدينة وغاب فوق العشرين سنة ثم رجع وعندما طرق باب بيته خرج إليه شاب لم يعرفه، فأخذته الغيرة على بيته واستنكره الشاب فتلاحى الطرفان وحضر مالك وقال فروخ: وهو لا يعرفه لك متسع في غير هذا البيت فصاح وقال: أنا فروخ صاحب هذا البيت، فسمعت الزوجة فخرجت وقالت: نعم، هذا فروخ زوجي وهذا ربيعة ولدي تركني حاملاً به، ودخل فروخ البيت فسألها عن مال كان قد أودعه إياها؟ فقالت: نعم، إني دفنته ولكن اذهب إلى مسجد رسول الله ﷺ وصل ثم عد حتى آتيك بالمال. وكان ربيعة قد خرج إلى المسجد والتفت حوله أعيان المدينة. فمر فروخ بتلك الحلقة ولم ير صاحبها، فسأل عنه فقيل له: هذا ربيعة. فأعجبه ما رأى، ولما رجع إلى بيته أخبر زوجته بما شاهد من مكانة ربيعة، فقالت له: أي الأمرين أحب إليك المال الذي تركته أم ما فيه ولدك؟ فقال: بل ما فيه ولدي، قالت: فقد أنفقته عليه. ولكن الذهبي يورد هذه القصة ويفند أحداثها ولكن يقول في نهاية كلامه: ولعله قد جرى بعض ذلك. هو ومهما يكن فإنها ليست مستحيلة وفيها عبرة وفضل الأم الفاضلة.

وبهذه المناسبة فإني أذكر مع فضل هذه الأم في تخريج هذا العالم الإمام فضل أم الإمام مالك رحمه الله. حيث يتحدث عن نفسه فيقول: كنت في صغري أتبع المغنين فقالت لي أمي ذات يوم: إن هذه الطريق لا يصلح لك وألبستني الطويلة وقالت: اذهب فاجلس في مجلس ربيعة وخذ عنه العلم. وكذلك وجدنا الإمام الشافعي تتولاه أمه بعد أبيه.

ولقد حضرت حفل توزيع جوائز لأمثل الشخصيات، من طوائف متعددة مزارعين موظفين مربين وذلك في أبها عام ١٣٨٤هـ فكان من ضمن أولئك امرأة تأيمت على ثلاثة أيتام فقامت بهم حتى حصلوا على الدكتوراه وجاء ثلاثتهم وتسلموا جائزة والدتهم...

وفي هذا قوله ﷺ: «وامرأة تأيمت على أبنائها حتى خرجتهم». وهكذا كما قدمنا في تراجم الرجال مدارس للأجيال. وقد توفي ربيعة رحمه الله سنة ١٣٦ رحمه الله بعد أن خرج لنا إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمهما الله رحمة واسعة. وبالله تعالى التوفيق.





من أعلام علماء الحرمين

(عطاء بن أبي رباح)

هو من كبار أصحاب ابن عباس رضي الله عنه وممن قامت عليهم مدرسة مكة المكرمة، ذكره ابن سعد في الطبقات ضمن الطبقة الثانية بعد الصحابة رضي الله عنهم ومعه مجاهد صاحب التفسير، وقال الذهبي في كتاب «الأمصار ذوات الآثار»: كان العلم بمكة يسيراً زمن الصحابة في بادئ الأمر ثم كثر في آخر عصرهم وكذلك كثر في أيام التابعين؛ كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير، وابن أبي مليكة؛ وعطاء من أئمتهم.

وهو عطاء بن أبي رباح، وأبو رباح اسمه أسلم قال ابن سعد: كان من مولدي الجند من مخاليف اليمن. نشأ بمكة وهو مولى آل أبي ميسرة بن أبي خشيم الفهري.

قال الذهبي في سير الأعلام: ولد أثناء خلافة عثمان وقال ابن سعد: عن عطاء نفسه أنه قال: أعقل قتل عثمان. وقد أدرك وروى عن كل من عائشة وأم سلمة وأم هاني وأبي هريرة وابن عباس وعدد من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وقال عن نفسه: أدركت مائتين من الصحابة.

وممن أخذ عنه مجاهد بن جبر صاحب التفسير والرواية عن ابن عباس رضي الله عنه وكذلك أخذ عنه الزهري وخلق من التابعين وأبو حنيفة رحمه الله.

وذكر الذهبي عدداً كبيراً ممن أخذ عنهم.

بدأ عطاء بتعليم كتاب ثم كان أعلم أهل مكة وخاصة بمناسك الحج وقد حج زيادة على سبعين حجة.

وعطاء وإن كان من أهل مكة إلا أنه كان خرج إلى المدينة ثم رجع إلى مكة وقد ظهر أثر ذلك فيما روى عمرو بن دينار ومجاهد وغيرهما من أهل مكة

أنهم كانوا متناظرين، يعني بعضهم نظراء بعض ومتساوين في العلم، فلما رجع عطاء استبان فضله عليهم.

وهذا ليس بمستبعد فجل الصحابة كانوا هاجروا من مكة إلى المدينة والحركة العلمية ازدهرت بالمدينة فلوفرة الأعلام بها استزاد عطاء واستبان فضله على نظرائه.

وقال الذهبي: لقد فاق أهل مكة في الفتوى وعن عمرو بن كيسان قال: أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون في الحج منادياً يصيح: لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، فإن لم يكن عطاء فعبد الله بن أبي نجيح.

وإنه ليؤيد هذا الخبر ما رواه مالك رحمه الله في الموطأ أن الخليفة أرسل إلى الحجاج، كان يحج بالناس أن الزم ابن عمر ولا تخالفه في الحج.

وإنه ليستوقفنا هذا المنهج العلمي الذي هو توحيد منهج الفنون للناس في الحج لأن المناسك مع اختلاف الناس في كثير من أحكامه لا يصلح فيه إلا توحيد الفنون لتتحد أعمال المسلمين ولا يشق عليهم.

بل ومن قبل هذا وذاك فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد أقام ابن عباس للناس يفتيهم في الحج وإن واجب المسلمين اليوم أن ينهجوا هذا المنهج العلمي والعملي، واليوم هم أحوج ما يكونون إليه مع تعدد المذاهب وكثرة من يرون لأنفسهم الحق في الإرشاد والإفتاء ويرون إجازة من شيوخهم أو أذن ممن يملكون ذلك مما قد يؤدي إلى التردد والحيرة في كثير من أعمال الحج، وقد سبق أن وقع التساؤل مع ابن عباس في كل من زمن تلبية رسول الله ﷺ: هل كان عقب صلاة الصبح وفي مصلاه أو بعد أن ركب راحلته متوجهاً أم على البيداء؟ وأجاب ابن عباس أنه كان في مصلاه. وكل أخبر بما سمع، وكذلك هل يغسل المحرم رأسه؟ وأفادهم أبو أيوب الأنصاري بأنه ﷺ كان يغسل رأسه وهو محرم. وغير ذلك مما يتطلب من مفتي المناسك أن يكون ملماً بأعمال المصطفى ﷺ عالماً بأحكام ما يقع مخالفاً فما يصح معه الحج أو لا يصح أنه منهج عطاء وابن عمر وابن عباس توحيد الفتوى في الحج.

وقد كان مع هذا عابداً، قال ابن جريج: كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وقال أيضاً: لزمت عطاء ثماني عشرة سنة وكان بعدما كبر

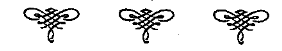
وضعف يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية من البقرة وهو قائم لا يزول منه شيء. وقال النوري عن كحيل: ما رأيت أحداً يريد بهذا العلم وجه الله غير هؤلاء الثلاثة: عطاء، وطاووس، ومجاهد. وقال أبو حنيفة رحمه الله: ما لقيت أحداً أفضل من عطاء بن أبي رباح ولا لقيت أكذب من جابر الجعفر ما أتيته قط بشيء إلا جاءني فيه بحديث وزعم أن عنده كذا وكذا ألف حديث من راوٍ عن النبي ﷺ لم ينطق بها.

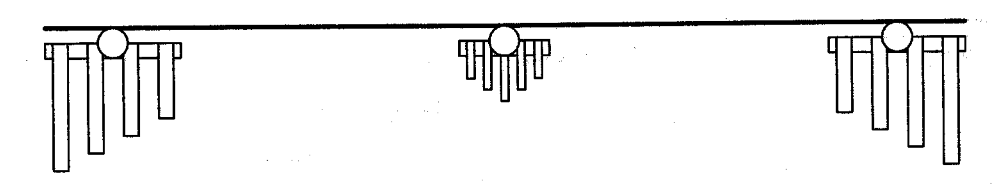
وهذا مقياس للإمام أبي حنيفة في موجب اتهام الجعفر. ومن قبله قال عمر رضي الله عنه: استأذن ثلاثاً فرجع بناء على حديث رسول الله ﷺ: تقول: حديث رسول الله؟ إن لم تأتِ معك عليه لأفعلن بك كذا وكذا فرجع إلى أصحابه منه وأرسلوا معه من سمعه رسول الله ﷺ. فقال عمر وهو محل الشاهد: والله لا أتهمكم على حديث رسول الله ولكني أخشى أن يطول بكم الزمن فيأتي الرجل كلما جاءه شيء يقول: قال رسول الله ﷺ. وها هو الإمام أبو حنيفة رحمه الله يطبق منهج عمر في ضرورة التثبت في رواية الحديث ويشهد لفضل عطاء رحمه الله.

ومع ضعف بنيته وأنه من الموالي فقد كان قوياً في الحق ناصحاً لولاة الأمر. روى الأصمعي أن عطاء دخل على عبد الملك وهو جالس على السرير وحوله الأشراف وذلك في مكة في وقت حجه في خلافته. فلما بصر به عبد الملك قام إليه فسلم عليه وأجلسه معه على سريره وقعد بين يديه وقال: يا أبا محمد ما حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين، اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس. واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين. فإنك وحدك المسؤول عنهم واتق الله فيمن على بابك، فلا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك. فقال له: أفعل. ثم نهض وقام، فقبض عليه عبد الملك وقال: يا أبا محمد، إنما سألتنا حوائج غيرك. وقد قضيناها، فما حاجتك؟ قال: ما لي إلى مخلوق حاجة. ثم خرج فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد.

وهذا والله هو النصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم حيث خص بالوصية وعم، وهذه والله العفة والزهد وموجب محبة الله ومحبة الناس

للحديث لما سئل ﷺ عن العمل الذي به محبة الله ومحبة الناس فقال ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس». وقد تحقق لأمانها عطاء رحمه الله هذا كما قال الأوزاعي: مات عطاء بن أبي رباح يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس. وقد خلف لنا منهج آداب العلماء في حسن الاستماع، قال: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه وقد سمعته قبل أن يولد. كما كان يتحفظ في الرأي سئل عن شيء فقال: لا أدري. فقيل له: ألا تقول برأيك؟ قال: إني أستحي من الله أن يدان في الأرض برأيي. توفي رَحِمَهُ اللهُ في رمضان ١١٤ وقد ناهز التسعين من عمره، وروى الذهبي أن أمه رأت النبي ﷺ في منامها فقال لها: سيد المسلمين عطاء بن أبي رباح. وجاء في ترجمة: لئن كان إيمان أبي بكر يعدل إيمان الأمة فإن إيمان عطاء يعدل إيمان أهل مكة، وبالله التوفيق.





من أعلام علماء الحرمين

الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ

إن الحديث عن هذا الإمام الجليل إمام دار الهجرة وعن أمثاله من أئمة المذاهب الأربعة رحمهم الله جميعاً ليس كالحديث عن أي أحد آخر من عامة العلماء مهما كانت منزلته، سواء كان من شيوخهم أو ممن أخذوا عنهم لأن هؤلاء الأئمة رحمهم الله صارت لهم شخصيات متميزة بذاتها، ولهم إمامة مستقلة عن غيرها ومنهج سلوك واتباع يقدمونه وطلاب يختارونه.

فعنه يتلقى العلم وعنه تصدر الفتوى وإليه تنسب الأقوال وتعزى المسائل وإن من لوازم ذلك كله أن يعرف كل متبع لإمام، وأخذ عنه ومسند إليه قول أو رواية أن يعرف كل الجوانب عنه التي تكسبه الثقة في أقواله، والطمأنينة لفتواه والقبول لروايته والارتياح لما يأخذه عنه كيف لا وقد ارتضاه في أمور دينه ودنياه لفضل علمه وعلو منزلته وما حباه الله به مما أوصله إلى القمة وهيأه لقيادة أمة. ولقد استقر عند الأمة الإسلامية صلاحية تلك المذاهب الأربعة وثبتت إمامة أصحابها: رغم ما كان يوجد من علماء أجلاء من معاصريهم وممن سبقوهم أو ممن جاؤوا بعدهم وأدركوا الشيء الكثير ولكن لم تقعّد وتتبلور سوى تلك المذاهب الأربعة، كما أن كل إمام من الأئمة الأربعة رحمهم الله قد اختارته أمة من الناس وناصرته أقطار من العالم الإسلامي وما ذلك إلا نتيجة لما أشرنا إليه من الوصول إلى وجود عوامل ثقة وطمأنينة وارتياح إلى هذا الإمام أو ذاك. ولو سئل أي طالب علم عن سبب اختياره لهذا الإمام دون ذاك لكان جوابه في حدود ما أشرنا إليه ولن يخرج عنه.

من هنا يتحتم على من يكتب عن أي إمام من الأئمة رحمهم الله أن يلم بكل الجوانب ذات الأثر الفعال في شخصيته، وعن إمامته منهجاً وتعقيداً

ومصدراً وتكويناً، وعن خصائصه في شخصه وخصائص منهجه، وبالتالي خصائص مذهبه مبيناً المؤثرات التي وصلت إلى خط سيره وأثرت فيه.

كما أنه يتعين على كل كاتب عن أي إمام من الأئمة الأربعة رحمهم الله أن يكون انطلاقة في كتابته بعيداً عن كل شوائب التعصب أو هفوات الفتور، وأن يكون أسلوبه في تعبيره خالصاً من عوامل الغموض أو حواجز الاستفهامات.

ولكن يكون أسلوباً يتألق بياناً وإيضاحاً، وحقيقة وصراحة، وبودي أن أنبه على حقيقة منهجية في هذا المجال وهي أن كل مسلم في أي زمان ومكان ليس بأولى بأحد من أي إمام من أي مسلم آخر وأن الصلة بين أفراد الأمة وهؤلاء الأئمة هي صلة علم واقتداء. والكاتب حينما يكتب من إملاء الواقع وتصوير الحقيقة، ومن هذا كله كانت مسؤولية الكتابة عن إمام دار الهجرة لها أهميتها ومتطلباتها نستعين الله ونستهديه فيما أردنا من ذلك.

علماً بأن مكتبات العالم الإسلامي تحوي العديد من المؤلفات العامة والخاصة المختصرة والمطولة المنفردة والمشتركة الشاملة والمتخصصة؛ أي عامة للأئمة معاً أو خاصة بإمام واحد مختصرة مجملة ومبسوطة مطولة تشتمل على مناقب وفضائل ومميزات شاملة لكل الجوانب أو متخصصة في جانب واحد كالمناقب مثلاً، أو عوامل ترجيح المذهب وتفضيله على غيره، وكل هذه المؤلفات ليست بمنحى من عرضها على ميزان التحرير والاعتدال إلا أنها بمجموعها وعلى وضعها قد حفظت لنا سجلاً حافلاً نستطيع من خلاله على صفحات ناصعة تنيره ومناهج واضحة مستمرة يترسم طلاب العلم خطاها ويجني كل مجتهد أطيب جناها.

وإذا كنا لا نستطيع تدوين كل ذلك فإنا لنأخذ الجانب العلمي والمنهج التعليمي تقريباً للسامع وتيسيراً للقارئ.

في حدود ما يسعه هذا البرنامج المبارك الذي أتاح لنا تجديد الائتناس بسيرة سلفنا وتجديد الصلة بعلمائنا والتذكير بحقوق أئمتنا، وإذكاءً لروح العلم ونشاط التعلم إن شاء الله تعالى، وخطة هذا الإيراد هي بيان عصره من مولده إلى وفاته من يمكن أن يكون عاصرهم وأخذ عنهم ومعرفة مناهج التعليم في عصره. والمؤثرات المباشرة أو غير المباشرة على حياته العلمية، ثم من أخذ عنه وقدم على غيره ثم آثاره التي خلفها لنا ومكانتها من غيرها.

وإمامنا مالك رحمه الله كما قال الذهبي: هو شيخ الإسلام حجة الأمة إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر بن الحارث.. إلى أن أوصل نسبه إلى حمير وأنه حليف بني تيم قريش، فهم حلفاء عثمان أخي طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة، نزح جده من اليمن إلى الحجاز ولأسرته صلة بملوك اليمن. لأن جده هذا أصبح من أذواء اليمن قبل الإسلام هاجر جده مالك ونزل بالقرب من المدينة المنورة.

مولده:

لقد ولد بمكان اسمه (ذو المروة) على بعد اثنين وتسعين ومائة كيلو متر، وهو مكان ذو عيون ونخيل واختلف في تاريخ مولده ما بين سنة تسع من الهجرة إلى سنة سبع وتسعين والبعض يرجح سنة ثلاث أو خمس وتسعين.

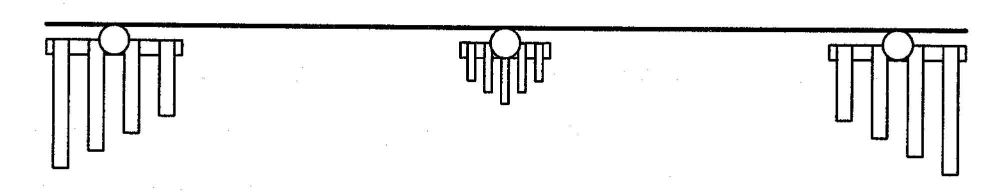
وهنا يذكر المترجمون للإمام مالك رحمه الله مدة حمله فقالوا: حملت به أمه أكثر من سنتين. وقال الأستاذ أمين الخولي: ليس مالك وحده من طالت مدة حمله وقال: إن بكار بن عبد الله الزبيري يروي الحمل به ثلاث سنين ويقول: أنضجته والله الرحم. وقال: إن ابن قتيبة عقد في كتابه: «المعارف» عنوانان: أحدهما من طال حمله، والآخر لمن نقص، وقد تمدح نساء آل الحجاف، من ولد زيد بن الخطاب بقولهن: ما حملت امرأة منا أقل من ثلاثين شهراً. وأنشد الطرماح:

يضن بحملنا الأرحام حتى تنضجنا بطون الحاملات

وكانوا يتمدحون بذلك ويتنقصون من نقص حمله أو كان معه توأم كقول الشاعر:

«تمطت به أمه في النفاس فليس بيتن ولا توأم»

واليتن الوليد المنكوس. وقيل للشعبي: ما لك نحيفاً؟ قال: زحمت في الرحم؛ أي كان معه توأم وكذلك كانوا يتهاجون برضيع الفيلة؛ أي أمه حامل: فوارس لم يغالوا في رضاع «فتنبو في أكفهم السيوف، ومالك رحمه الله لم يغال في رضاع ولم يزاحم في الرحم وأنضجته الرحم بطون فنضج عقله كما نضج جسمه على ما سيأتي». وبالله تعالىٰ التوفيق.



نسب مالك وأسرته

إن الإمام الذي تسنم منصب الإمامة وجلس مجلس الفتوى وينسب إليه القول بالحلال والحرام جرى أن تدرس سيرته بما في ذلك نسبه وأسرته ونشأته. بجانب دراسته ورعه وأمانته في دينه وعلمه وعمله وقد وضع هو نفسه هذا المبدأ فيما روي عنه. قال ابن عبد البر في الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفضلاء ص١٦: حدثنا عبد الوارث بن سفيان قال: أنبأنا قاسم بن أصبغ قال: أنبأنا محمد بن إسماعيل الترمذي قال: سمعت ابن أبي أوس يقول: سمعت خالي مالك بن أنس يقول: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين وأشار إلى مسجد رسول الله ﷺ فما أخذت عنهم شيئاً، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال المسلمين لكان أميناً إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن.

فقوله رَحِمَهُ اللهُ: إن هذا العلم دين فأنظروا عمَّن تأخذون دينكم، فحريٌّ بطالب العلم معرفة من يأخذ عنه وكذلك المستفتي لمن يستفتيه.

وقد حفلت بذلك المراجع، وعني بذلك المترجمون كالقاضي عياض في «المدارك» أربعة أجزاء وابن عبد البر في الانتقاء. وأبو زهيرة وأمين الخولي وغيرهم مما استفاضت مؤلفاتهم وفيها الغنية لمن أراد التفصيل بتوسع لما لا يسعه هذا البرنامج. وحسبنا هنا أن نعطي السامع والقارئ إلمامة يكون فيها التنبيه بالبعض على الكل إن شاء الله.

نسبه:

هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث، وساق الذهبي نسبه إلى حمير الأصقر ثم الأصبحي المدني، حليف بني تيم من قريش ولا يسعنا تتبع هذا النسب الطويل، وحسبنا التعريف بأبيه وجده وجد أبيه أي

من عهد الإسلام ومنزلتهم في الإسلام وهو الجانب الذي يهمنا في تاريخ وترجمة إمامنا رحمه الله تعالىٰ أبوه أنس: كان أبوه أنس رابع أربعة أخوة وكان أكبرهم وكان جده يكنى به فيقال له: أبو أنس. وكان أنس وإخوته من أهل العلم وروى أربعتهم عن أبيهم مالك بن أبي عامر وهو جد إمامنا مالك بن أنس، وقد قيل: إن الإمام مالك قد روى عن أبيه أنس، وقالوا: إن مالك روى عن أبيه عن جده عن عمر ولم يثبت ذلك. ووصف المقدسي الحنبلي أنساً هذا بأنه فقيه. والمهم رجحان إن كان من أهل العلم.

وإنه كان يعلم أولاده ويورد عليهم الأسئلة وكان لفقه أنس والد الإمام أثر في تنشئة إمامنا مالك على ما يظهر.

جده: وجده اسمه مالك مثل اسم حفيده، وهو مالك بن أبي عامر وهو الذي تحول إلى الحجاز من اليمن. ولهذا الجد آثار أيضاً قد أضفت على إمامنا صبغة العلم. إذ كان من كبار التابعين وعلمائهم، ولد رواية عن نفر الصحابة ويعد مصدراً لحفيده كما أورد السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «إسعاف المبطأ في رجال الموطأ». وقد وثقه النسائي ونسب إليه أنه كان ممن كتبوا المصاحف زمن الخليفة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنه كان ضمن الأربعة الذين حملوا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليلاً، ذكر ذلك الطبري في تاريخه.

وجد أبيه هو «أبو عامر» وقد اختلف في صحبته فقيل: كانت له صحبة وشهد المغازي إلا بدراً. وقيل: ليست له صحبة إلا أنه كان باليمن زمن النبي ﷺ، أي له معاصره، ولم تكن له لقيا فلم تثبت له صحبة.

ومن هذا يصرح ابن عبد البر والقاضي عياض وينقل عنهم الأستاذ الخولي أن أسرة مالك يمنية عربية صحيحة النسب لها ولاء وموالاة مع قريش. كما قالوا: إن لأسرته صلة بالملك لأن جدهم ذا أصبح من أذواء اليمن في الجاهلية لا في الإسلام. ويرى بعض المترجمين أن لهذه الصلة بالملك أثراً ظهر على الإمام في أسلوب حياته من حب للترف وعناية بالمظهر وعلو همة وكرم نفس وتكريم شخصيته.

حالة تلك الأسرة المادية:

كانت حالة تلك الأسرة مادياً كحالة عموم الأسر التي تهاجر من مسقط

رأسها إلى أرض الحرمين متوسطة الحال. فكان أبوه يصنع النبل، وأخوه يتجر في البز، وبدأ مالك رَحِمَهُ اللهُ مع أخيه في بيع البز ثم توجه إلى طلب العلم.

أول طلبه للعلم:

يترجح أنه بدأ طلب العلم من الصغر وقالوا: إنه دخل الكتّاب أولاً. وكان بالمدينة كتاب لعلقمة بن أبي علقمة بلال المدني. وكان علقمة هذا من موالي «تيم» وكان يعلم العربية والنحو والعروض. قال السيوطي عن علقمة هذا في «إسعاف المبطأ»: علقمة بن أبي علقمة واسمه بلال المدني روى عن أمه مرجانة، وهي كانت مولاة لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ويروي أيضاً عن أنس وجماعة، وروى عنه مالك، وسليمان بن بلال وآخرون، وثقه أبو داود والنسائي وابن معين قال السيوطي: وقال ابن سعد: له أحاديث صالحة.

وعليه، يكون مالك قد حفظ ما تيسر في هذا المكتب وعلى يد هذا المعلم الثقة. كما أخذ القراءة آنذاك على إمام القراء بالمدينة: نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، وقد ذكروا عن مالك تجويده للقرآن وإحسانه لحروفه.

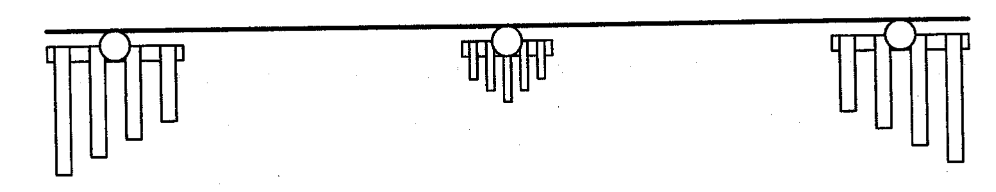
دور أمه في طلبه للعلم:

وأمه هي كما قال الذهبي: هي عالية بنت شريك الأزدية. كان لها دور كبير في توجيهه مالك لطلب العلم وأوصته بالذهاب إلى مجلس ربيعة وقد ألبسته ثياب طلاب العلم كما قال هو عن نفسه: قال فألبستني ثياباً مشمرة ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها.

وهذا يعطينا ما كان عليه طلبة العلم من تميزهم باللباس في الصورة التي تليق بوقار العلم وأهله، كما يعطينا مدى عقل وفطنة هذه الأم وعنايتها بولدها.

ومن هذا كله يتضح لنا أن أسرة الإمام مالك كانت أسرة على إخوته وآبائه بل وأمه. ومن محيط هذه الأسرة كان الانطلاق إلى طلب العلم، وسيأتي تفصيل طريقه الطويل في طلب العلم وما خلف لنا من عظيم التراث، وبالله تعالى التوفيق.





مدرسة مالك ومناهجها

إن الحديث عن مدرسة مالك رحمه الله ومناهجها يكاد يكون حديثاً عن المدرسة الإسلامية الأولى؛ لأن مالك بن أنس رضي الله عنه قد عايش العهد الذي ازدهرت فيه الدراسات ذات المناهج المتعينة من تفسير أو حديث أو فقه أو علوم عربية. . . إلخ.

ومن جهة أخرى فإن مناهج علوم السلف رحمهم الله قد تبلورت وانتهت إلى الأئمة الأربعة رحمهم الله وهم أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رحمهم الله جميعاً. وكلهم قد تخرجوا على تلك المدرسة وهذه المناهج إما مباشرة وإما بواسطة.

فهذا الإمام أبو حنيفة رحمه الله والمولود سنة ٨٠ للهجرة ووفاته سنة ١٥٠ قد جاء إلى المدينة وجلس إلى ربيعة، وقال الذهبي فيما روي عنه: إنه كان رحمه الله يجلس إلى ربيعة وجل همه أن يفهم ما يقول وجاء أيضاً أنه جلس إلى مالك. وسواء أخذ عن مالك أو لم يأخذ فقد اختلفت الرواية في ذلك لكنها اتفقت على مجالسة بعضهما بعضاً ومدارستهما فيما بينهما، وهذا أمر طبيعي كما يكون بين الأقران ما دام كل منهما قد أخذ عن ربيعة رحمه الله. وقد قال مالك عن تلك المدارسة: إن أبا حنيفة قوي الحجة لو أراد أن يجادل على أن هذه السارية من ذهب لاستطاع.

يهمنا في هذا كله تقرير مبدأ أن أبا حنيفة رحمه الله شارك مالكاً في الدراسة حيث درس مالك.

ومن بعد أبي حنيفة جاء محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رحمهما الله إلى المدينة. ومكث مع مالك ثلاث سنوات أخذ عنه الموطأ ومعروف الآن بموطأ محمد.

ثم الشافعي رحمه الله؛ وهو ولد سنة ١٥٠ في سنة وفاة أبي حنيفة رحمهما الله

جاء إلى المدينة وقرأ الموطأ على مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقصة ضيافته لمالك مشهورة وقد أوردناها فيما تقدم، وتوفي سنة ٢٠٤.

بقي الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ وقد ولد سنة ١٦٤ وتوفي سنة ٢٤١ فقد لقي الشافعي رحمهما الله وله معه مصاحبة طويلة، وجاء عن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: قرأت موطأ مالك سبع عشرة مرة من آخرها على الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث كان عندي أوثق الناس فيه.

فإن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن لم يدرس بمدرسة مالك مباشرة كما درس أبو حنيفة والشافعي رحمهما الله فقد درس بواسطة، سواء بلقاء الشافعي ودوام صحبتهما معاً أو بدراسة الموطأ وقراءته عدد تلك المرات.

إذاً، فما هي مدرسة مالك؟ لا شك أنها وبدون شك المدرسة الأم هي المسجد النبوي الشريف ولكن صاحبنا مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد جاء عنه أنه يكاد يكون قد بدأ العلم من بيته حيث إن أباه وحده وإخوانه كانوا جميعاً أهل علم كما تقدم، ويحكي هو عن نفسه كما جاء في المدارك وغيره قال: ألقى أبي مسألة علينا فأصاب أخي وكان أكبر مني وأخطأت أنا، فقال أبي: ألهتك الحمام عن طلب العلم فغضبت وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين لم أخلطه بغيره. وعليه، فمالك بدأ العلم في منزله ثم تتبع العلماء مع ملازمة دروس المسجد النبوي. وقد تقدم أن أمه ألبسته لباس طلب العلم وأرسلته إلى مجلس ربيعة. وقالت: تعلم من أدبه قبل علمه. ثم هو هنا يذكر لنا انقطاعه إلى ابن هرمز سبع سنين. وجاء عنه أيضاً أنه كان يذهب إلى نافع في بيته نصف النهار بل كان يصحبه إلى المسجد حين كف بصره؛ أي نافع رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويسأله في الطريق وفي المسجد.

أما شيوخه في المسجد ومن أخذ عنهم فلسنا في معرض تعدادهم ولا يسعهم هذا البرنامج وهم محفوظون في جميع تراجمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولكن يهمنا ما قاله عن نفسه: ما جلست للدرس حتى شهد لي سبعون عالماً. وقال: لقد تركت في هذا المسجد أكثر من سبعين رجلاً يجلسون إلى هذه السواري لم آخذ عنهم ولا حديثاً واحد، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت المال لكان مؤتمناً، لكنهم ليسوا من أصحاب هذا الشأن.

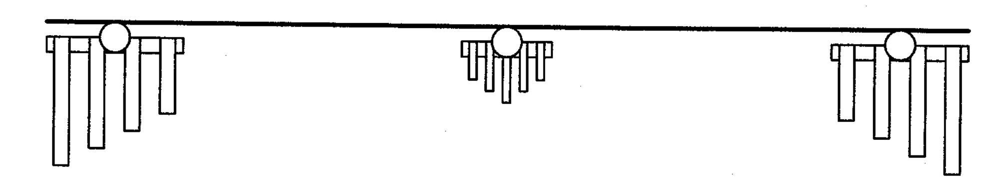
فهذا يعطينا مقدار كم كان بالمسجد النبوي ممن يدرس من العلماء فيه العلم وممن كان يؤخذ أو لا يؤخذ. وقد تجمع علم هؤلاء، وهؤلاء إلى من

كان في المسجد آنذاك سواء لمالك أو لغيره مما لم تشهده مدرسة آنذاك لا كمّاً ولا نوعاً، وتقدم ما كان للمسجد النبوي من أثر على مدارس الأمصار كلها. نسأل الله أن يعيد إليه سيرته.

أما المنهج والخطة:

فلا شك أن المنهج كان دراسة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما أثر من الفقه في مسائل حياة الناس وقد تكون علوم العربية، بل قد يذكر البعض أن علم الفلك فيما يتعلق بالتوقيت كان موجوداً مستدلين بما روي عن مالك أنه ألف في ذلك والمهم أن المناهج لم تعد كتاب الله وسنة رسوله وما يساعد على دراستهما.

أما الخطة: فيذكرون لذلك العصر خطتين: الأولى: خطة الحفظ والاعتماد على قوة الذاكرة، ومعلوم أن السلف كانوا مبرزين في ذلك. فهذا أبو هريرة وقصة بسط ردائه مشهورة فلم ينس حديثاً قط. وهذا ابن عباس يسمع قصيدة لعمر بن ربيعة تسعين بيتاً فيحفظهما لأول مرة بل ويعيدها منكسة. والثانية: خطة الكتابة والتعويل على الكتب ولعل إمامنا مالك قد جمع الخطتين فيروي عن نفسه كما جاء في المدارك. قال: قدم علينا الزهري فأتيناه ومعنا ربيعة فحدثنا نيفاً وأربعين حديثاً ثم أتيناه الغد. فقال: انظروا كتاباً حتى أحدثكم منه أرأيتم ما حدثتكم به أمس أي شيء في أيديكم منه؟ فقال له ربيعة: هاهنا من يرد عليك ما حدثت به أمس. فقال: ومن هو قال: ابن أبي عامر. قال مالك: فحدثته بأربعين حديثاً منها. فقال الزهري: ما كنت أرى أنه بقي من يحفظ غيري. وليس هذا بعجيب فابن شهاب قال: لقد ساء حفظ الناس لقد كنت آتي سعيد بن المسيّب وعروة والقاسم وأبا مسلمة وحميداً وسالماً وآخرين فأدور عليهم أسمع من كل واحد من الخمسين حديثاً إلى المائة ثم أنصرف وقد حفظته كله، من غير أن أخلط حديث هذا في حديث هذا. وقصة البخاري رحمه الله مع أهل بغداد في خلط الأسانيد عليه وتفصيله إياها مشهورة، وقد جمع العلماء مع الحفظ الكتابة. وروي عن مالك أنه قال: كتبت بيدي مائة ألف حديث. وهذا موطأه بين أيدينا قد حفظ لنا علماً واسعاً ومنهجاً قويماً رحمه الله تعالىٰ ونفع بعلمه.



مسلك مالك رحمه الله

إن آثار العالم والإمام الذي نال مرتبة الإمامة كمالك والأئمة الثلاثة رحمهم الله، والتي خلفوها للناس من بعدهم، إنها بحق أمارات ودلائل على جوانب طريق الرشد والهداية وهي سنن بها يقتدى وآثار تحتذى. وهي امتداد لآثار من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

والعلماء ورثة الأنبياء: وإن تلك الآثار لتطلب من ثلاث جهات:

أ ـ جهة المسلك الشخصي: من آداب وأخلاق وسيرة مع الناس.

ب ـ جهة المسلك العلمي: وهو المنهج الذي وضعوه لطلاب العلم بعدهم.

جـ ـ جهة التراث العلمي: الذي ورثوه للناس وأخذوه عنهم، وإن الكتابة عن الإمام مالك رحمه الله في برنامج علماء الحرمين لهي نموذج عن الأئمة رحمهم الله، وإن تميز كل منهم بما اختص به في مجال التفصيل رحمهم الله تعالى جميعاً وجزاهم الله عنا وعن الإسلام والمسلمين أحسن الجزاء. وسنلم بتلك الجهات الثلاث على سبيل الإجمال بما يسعه هذا البرنامج المبارك.

أما عن الجهات الأولى جهة المسلك الشخصي من آداب وأخلاق فقد أجمع العقلاء على أنها المنطلق الأساسي والقويم لكل صاحب أياً كان نوعها، وعند من كان يطلبها، فإنه إن لم يجمل طلبه الآداب فقلما يظفر بها، وطلب العلم أحق وأولى بذلك وقد أدركت والدة إمامنا هذا من أول لحظة يتوجه فيها ابنها لطلب العلم حيث ألبسته لباس طلبة العلم وقالت له: اذهب إلى مجلس ربيعة فتعلم منه الأدب قبل العلم.

ولقد جاء المثل الأعلى في ذلك مجلس رسول الله ﷺ بالمسجد النبوي الشريف مع أصحابه رضوان الله تعالى عليهم. فيما يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه

في حديث مجيء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ، فقال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد فجلس إلى النبي ﷺ وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه فقال: أخبرني يا محمد عن الإسلام... إلى آخر الحديث. إنها جلسة المتأدب ولِبسة المتعلم، يعلم أصحاب النبي ﷺ في مسجد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

والآثار عن مالك رحمه الله في ذلك تفيض بها كتب التراجم. وقد جاء في «المدارك للقاضي عياض ١/ ١٢٧» قال ابن وهب: الذي تعلمنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه. وقال أحمد بن حنبل: قال مالك: ما جالست سفيهاً قط، وهذا أمر لم يسلم منه غيره. وقال أحمد أيضاً: ليس في فضائل العلماء أجل من هذا. وقال ابن المبارك: كان مالك أشد الناس مداراة للناس وترك ما لا يعنيه. هو والأخبار في ذلك مستفيضة ويكفي ما جاء عن يحيى بن يحيى أنه بعد أخذه العلم عن مالك أقام عنده سنة يأخذ شمائله. فقيل له في ذلك فقال: أقمت مستفيداً لشمائله فإنها شمائل الصحابة والتابعين. اهـ. ١/ ١٢٨.

وقد أكسب مالكاً هذا السلوك مهابة وإجلالاً. كما جاء عن النوري أنه كان في مجلس مالك فرأى إجلال الناس له وإجلاله للعلم فأنشد:

يأبى الجواب فلا يراجع هيبةً ... فالسائلون نواكس الأذقانِ
أدب الوقارِ وعز سلطان التقى ... فهو المهيب وليس ذا سلطانِ

وكذلك قوله:

يقولون فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
ولو أن أهل العلم صانوه لصانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما

وهكذا يلزم طالب العلم أياً كان في أي زمان ومكان.

وأما المسلك العلمي: وهو المنهج الذي وضعوه لطلاب العلم بعدهم. فقد أعلنه الأئمة رحمهم الله في التزام الكتاب والسنة وسلف الأمة: فقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله، ليس كلما كتبناه أو جمعناه تأخذون بل أصل ذلك فاطلبوا، وقال الشافعي رحمه الله: إن صح الحديث فهو مذهبي وإن خالف قولي الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط. وقال أحمد رحمه الله، وقال مالك رحمه الله:

كل كلام فيه مقبول ومردود إلا كلام صاحب هذا القبر عليه الصلاة والسلام. تلك مناهج الأئمة رحمهم الله على سبيل الإجمال.

وقد كان الإمام مالك رحمه الله لا يقدم على الأثر غيره ولو كان خبر آحاد، وكثيراً ما كان يتمثل البيت:

وخير أمور الدين ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائعُ

وكان يحترم آثار السلف ويحذر من مخالفتها ويكره أهل الأهواء، ويقول: قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمور من بعده سنناً الأخذ بها اتباع لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله، ليس لأحد بعد هؤلاء تبديلها ولا النظر في شيء يخالفها من اهتدى بها فهو مهتد. ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى.

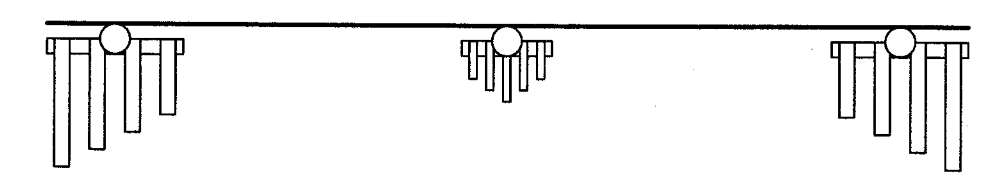
وكان يكره الجدال ولو صاحب سنة ويقول: عليه أن يبين السنة فإن قبلت منه وإلا سكت. ويقول: الجدال والمراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغن ويذهب بنور العلم من القلب.

وقد أوضح فساد الجدال في الدين في محادثة مع شخص كان يتهم بالإرجاء. أتاه فقال: يا أبا عبد الله، اسمع مني شيئاً أكلمك به وأحاجك وأخبرك برأيي. فقال له: احذر أن أشهد عليك. فقال: والله ما أريد إلا الحق. اسمع فإن كان صواباً فقل: (إيه) أو فتكلم. فقال مالك: فإن غلبتني؟ قال: تتبعني. قال: فإن غلبتك. قال: أتبعك. قال: فإن جاء رجل ثالث فكلمناه فغلبنا؟ قال: اتبعناه، فقال له: ما لك يا أبا عبد الله بعث الله محمداً بدين واحد وأراك تنتقل. وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل وكان مالك رحمه الله يحذر من طلب ما لا ينتفع به الطالب، ومن طلب الأغاليط والألغاز.

وإن أعظم ما يؤثر عنه رحمه الله أنه لم يكن يحدث بحديث ليس عليه العمل بين الناس، مخافة الفتنة. وجاء أنه بعد وفاته وجدت أحاديث عن ابن شهاب لم يكن يحدث بها. ونقل عنه أنه قال: سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط ولا أحدث بها. فقيل له: لم؟ فقال: ليس عليها العمل.

وجاء عنه قوله: إذا حدثت الناس بكل ما سمعت أني إذن لأحق. وفي رواية: إنني أريد أضلهم. وهذا والله المنهج الرباني يستضيء بأنوار السنة والأثر فقد جاء الحديث عن علي مرفوعاً: حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله. وما جاء عن عمر رضي الله عنه: أحرج على كل مسلم يحدث بحديث ليس العمل عليه. وهذا ما طبعه مالك في مؤلفاته حيث كان ينقحها مما ليس عليه العمل ويبقي ما فيه مصلحة الناس.





التراث العلمي عند مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ

إن الآثار العلمية لأي إمام من الأئمة كمالك وغيره من علماء الأمة رحمهم الله لهي تلك العلوم والمعارف التي حفظوها، وجمعت شتاتها، وصنفوا أبوابها، وثبتوا قواعدها، وأوضحوا مسائلها، ورسموا مناهجها، واستنبطوا وثائقها ودقائقها، وفجروا ينابعها فجرت صافية نقية ممهدة موطأة ينهل منها الطالب ويزداد منها الراغب، يتوارثها العلماء، ويتناقلها الأبناء عن الآباء وقد حوتها الأسفار العظام ونوهت بذكرها تراجم العلماء الأعلام.

وعلوم سلفنا الأوائل رحمهم الله يمكن تصنيفها إلى قسمين:

أ ـ نقلية. ب ـ وعقلية.

فالنقلية: هي الرواية للحديث والأثر، والعقلية: هي الفقه والاستنباط والرواية تبحث من جهتي: الكم والنوع. والفقه يبحث أيضاً من جهتي الطريقة والمصدر. وهذا قدر مشترك ومنهج متبع بالنسبة لكل إمام من الأئمة رحمهم الله.

فمنهم من اشتهر بالرواية وإن كان له في الفقه الشيء الكثير كالإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ اشتهر بمسند أحمد. وله من المسائل الفقهية ما رواها عنه جمع من تلاميذه منهم ابنه عبد الله، ومنهم أبو داود والكوسج. وما جمعه الخلال وغير ذلك.

ومنهم من اشتهر بالفقه وإن كان له في الحديث مشاركة كالشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ اشتهر له كتابه الأم في الفقه وله مسند في الحديث يروى عنه. وإمامنا مالك قد جمع بين القسمين رواية الحديث واستنباط الفقه، وإصدار الفتاوى. والرواية كما أسلفنا تبحث كماً ونوعاً.

ومعلوم أن الكم هو النوعية، ونوعية رواية مالك هي كالذهب الخالص في جملة المعادن وقد أجمع علماء الأثر على أنها أعلى وأوثق روايات

الحديث والأثر وقد أبان هو رَحِمَهُ اللهُ عن منهجه في ذلك حيث قال: لقد أدركت سبعين رجلاً يجلسون إلى تلك السواري يشير إلى مسجد رسول الله ﷺ كلهم يقول: قال فلان: قال رسول الله ﷺ؛ لم آخذ عن واحد منهم وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أميناً، فقيل له في ذلك فقال: لم يكونوا من أهل هذا الشأن.

وكان في زمنه إذا سمع من يحدث عن رسول الله ﷺ يأمر بسجنه حتى يصح ما يقول. من هذه الدقة وبهذا التحفظ كانت مرويات مالك موضع ثقة وقبول علماء الأمة، بل أصبح مصدر رواية لشيوخه ولأقرانه وقد سجلت لنا شهادات أفاضل السلف في ذلك. منها قول الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: مالك حجة الله تعالى على خلقة بعد التابعين. وقال: مالك معلمي وعنه أخذنا العلم. وجاء عن أحمد رَحِمَهُ اللهُ: قرأت الموطأ على بضعة عشر رجلاً من كبار أصحاب مالك وأعدته على الشافعي إذ هو أوثقهم فيه عندي، كما قال الشافعي: إذا جاءك الحديث عن مالك فشدد يديك. وإذا جاءك الآخر فمالك النجم.

وقال ابن عتيبة: كنا نتبع آثار مالك وننظر إلى الشيخ إن كتب عنه وإلا تركناه. وقال النسائي: ما عندي بعد التابعين أنبل من مالك ولا أجل منه ولا أوثق ولا أمن على الحديث منه، ولا أقل رواية عن الضعفاء ما علمناه حدث عن متروك قط... إلخ. وقال ابن حبان في الثقات: كان مالك أول من انتقى الرجال من الفقهاء بالمدينة أو عرض عمن ليس بثقة في الحديث ولم يروي ما صح ولا يحدث إلا عن ثقة. مع الفقه والدين والفضل والنسك وبه تخرج الشافعي.

وفي محادثة الشافعي مع محمد بن الحسين صاحب أبي حنيفة رحمهما الله ما يظهر فضله في علمه، قال الشافعي: قال لي محمد بن الحسن: أيهما أعلم صاحبنا أم صاحبكم؟ ـ يعني أبا حنيفة ومالكاً ـ. قلت: به على الإنصاف؟ قال: اللهم صاحبكم. قال: قلت: ناشدتك الله من أعلم بالسنة صاحبنا أم صاحبكم؟ قال: اللهم صاحبكم. قال الشافعي: فلم يبق إلا القياس وهو لا يكون إلا على هذين. وفعلاً فقد شهد مالك رَحِمَهُ اللهُ لأبي حنيفة أنه قوي الجدال

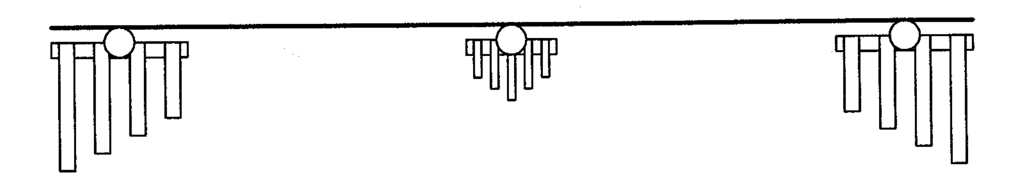
في القياس حين لقيه بالمدينة فقال عنه: لو أراد أن يجادل على أن هذه السارية من ذهب لاستطاع. والذي يهمنا ما أجمع عليه العلماء من صحة وثبوت مرويات مالك، وجودة نوعيتها.

أما كميتها فقال: هو عن نفسه كتبت بيدي مائتي ألف حديث. وسيأتي الكلام عنها ضمن بيان مؤلفاته إن شاء الله.

أما فقهه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فقد أفاض فيه كبار علماء مذهبه وذكروا له العجائب والدقائق. وكنت أسمع والدنا الشيخ الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: جل استنباط مالك من كتاب الله تعالى: ويؤيد هذا ما روي عندي أن الرشيد سأله عمن يسب أصحاب محمد ﷺ هل له في الفيء شيء؟ فقال: لا لأن الله يقول فيهم: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فمن كفرهم فهو كافر، والكافر لا يستحق في الفيء شيئاً. وكذلك قال: في مصرف الفيء للفقراء المهاجرين. ثم جاء بعدهم بالذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم جاء بعد هذين القسمين بمن جاء بعدهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠]. فمن كان في قلبه غل لأصحاب رسول الله لا يستحق في الفيء وهو خارج عن الأقسام الثلاثة. مما يشعر استيعابه فقه الكتاب والسنة وآثار السلف وجاء عنه أيضاً أي مالك أن ابن شهاب كان يطرح المسألة على الحاضرين وقد طرح مسألة وأجاب عليها ربيعة بن عبد الرحمن شيخ مالك، ومالك لم يتكلم. فقال له ابن شهاب: لم لا تتكلم؟ فقال: قد أجاب الأستاذ - يعني شيخه ربيعة - فعزم عليه ابن شهاب أن يتكلم فتكلم بما يخالف ربيعة، فقال ابن شهاب: عودوا بنا إلى ما قال مالك. وفي هذا التزام الأدب مع شيخه، والتصريح بالحق فيما يراه. ورجوع ابن شهاب إليه ولما أتم كتابه الموطأ طلب منه أبو جعفر أن ينسخ منه العديد من النسخ ويرسلها إلى الأمصار ويعلقه بالكعبة ويحمل الناس عليه وقال: رأيت علم أصحاب رسول الله ﷺ قد آل إلى هذا الحي من الأنصار، وإن علم علماء المدينة هو الأصل لعلوم علماء الأمصار. فقال له مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن أصحاب رسول الله ﷺ قد تفرقوا في البلاد وأخذ كل بلد بما بلغه من السنة

وتحوَّل الناس عما هو عليهم صعب. وأعظم ما كان من فقهه وبعد نظره ما كان منه عندما أراد الرشيد إعادة بناء الكعبة على بناية ابن الزبير التي سمعها عن رسول الله ﷺ فقال له مالك: لا تفعل إني أخشى أن تصبح الكعبة ألعوبة الملوك، وسيأتي تتمة ذلك في مؤلفاته رضي الله عنه.





مؤلفات مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ

إن أوثق ما يمكن أن ينسب لإمام من الأئمة من المؤلفات هو ما كتبه بنفسه أو أملاه على تلامذته. وأوثق ذلك عندنا مسند الإمام أحمد، والأُم للشافعي والموطأ للإمام مالك، والفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة.

ولا يمنع هذا أن تكون هناك مؤلفات أخرى لم تشتهر عند الناس يثبتها الثقات من المؤرخين سواء من أتباع الإمام أو من غيرهم. والبحث عن تلك المؤلفات والنظر فيها يعطي طالب العلم الثروة العلمية والطريقة المنهجية والوقوف على أنواع العلوم ومدى عمق السلف وشمولهم إياها.

سواء كانت علوماً تساعد العلوم الأساسية للكتاب والسنة أو كانت علوماً مستقلة لجوانب من المعرفة. وسواء أيضاً كانت مؤلفات علمية أو مؤلفات فنية أدبية أو اجتماعية.

وإمامنا مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يشتهر عنه إلا موطأ وهذا السفر الأوحد في اسمه ومسماه والذي ألفت عنه المؤلفات، وحقيقة مفردة بحلقة مستقلة إن شاء الله في سبب تسمتيه ومنهج تأليف وزمنه الذي ألف فيه وعدد نسخه وعدد رواياته ومروياته إلى غير ذلك مما يهم طالب العلم رواية ودراية.

أما بقية مؤلفاته فقد جاء في المدارك للقاضي عياض وغيره بيان عن جملة منها إلا أنه لا يمكن القول: بحصرها، فقد جاء في تزيين الممالك للسيوطي نقلاً عنه بواسطة كتاب (أبو زهرة) ما نصه: الذي دلت عليه الأخبار أن مالكاً صنف كتباً متعددة غير الموطأ، وقد رأيت له تفسيراً لطيفاً مسنداً أي عن السيوطي . . . إلخ.

وجاء في المدارك ٢/ ٩٠ في المقدمة عن مؤلفاته ما نصه: اعلموا وفقكم الله أن لمالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوضاعاً شريفة مروية عنه أكثرها بأسانيد صحيحة في غير فن من العلم. لكنه لم يشتهر عنه منها ولا واظب على إسماعها وروايته غير الموطأ. مع حذفه منه وتلخيص له شيئاً بعد شيء.

وجاء في كتاب «أمين الخولي ص٤٧٤»: أنه لما مات مالك رحمه الله خرجت كتبه فأصيب منها فنداق «وهو المعرب» بالجواليق عن ابن عمر. وقال ابن مالك: «لما دفنا» مالكاً دخلنا منزله فأخرجنا كتبه فإذا فيها سبق فنادق، من حديث: «ابن شهاب» ظهورها وبطونها ملأى. وعنده فنادق أو صناديق من حديث أهل المدينة فجعل الناس يقرؤون ويدعون ويقولون: يرحمك الله يا أبا عبد الله لقد جالسناك الدهر الطويل فما رأيناك ذكرت شيئاً مما قرأنا. وبصرف النظر عن سبب عدم ذكره لتلك الأحاديث وقد صرح بأنه ليس عليها العمل. فإنها لدليل على وجود مؤلفات وآثار علمية سوى الموطأ. وقد سمى منها البعض في صورة كتب أو رسائل؛ مجمل ذلك كالآتي:

١ ـ كتابه في التفسير: وهو تفسير غريب القرآن يرويه عنه خالد بن عبد الرحمن المخزومي.

٢ ـ كتاب في النجوم: وحساب مدار الزمان ومنازل القمر. قال القاضي عياض: وهو كتاب جيد مفيد جداً قد اعتمد عليه الناس في هذا الباب وجعلوه أصلاً. وذكر من اعتمد عليه في تأليف ذلك. وليس ببعيد أن ينسب إليه مثل ذلك إذ المدينة بلد زراعي والزراعة ترتبط بالنجوم لتحديد الفصول ومواعيد الزراعة وهو علم شائع عند المزارعين. وليس بعلم النجوم في التنجيم وما إليه المنهي عنه في هذا الباب.

٣ ـ ومن ذلك كتاب يسمى «كتاب السرور» وفي المدارك «السر» ويوجد عنوان «كتاب السير» جمع سيرة ولعله هو الصحيح. والسر والسرور تصحيف ولا سيما أنها تنسب إلى رواية ابن القاسم[1].

٤ ـ كتاب المناسك: ذكره السيوطي ولم يذكره عياض في المدارك.

٥ ـ كتاب المجالسات: قال السيوطي: إنه رآه وهو مجلد وهو رواية ابن وهب أحاديث وآثار وآداب.

٦ ـ كتاب السير: قال عنه الخولي ص٧٦٠: وأغلب الظن أنه في الفقه وليس

---

(١) ونص الخولي أن (سرور) ذكره السيوطي. ودائرة المعارف (السر). وقال: أكبر الظن أنه تحريف.

في التاريخ وهو أنه اجتمع مع الأوزاعي متناظراً فجعل الأوزاعي يجر مالكاً إلى المغازي والسير يقوى عليه، فلما رأى مالك ذلك جره إلى غيرها من الفقه يقوى عليه. . . إلخ.

٧ ـ الاستيعاب: وهو يشتمل على مسائل فقه مالك برواياته لا يشركه أحد بدأ تأليفه أحد التلاميذ للقاضي إسماعيل فجمع خمس مجلدات وبوبها ثم توفي وحملت إلى الحكم أمير المؤمنين بالأندلس فعمل على إكماله فأكمله له كل من: المعيطي والإشبيلي وفتح لهما الخزانة إذ فيها مرويات أهل المدينة وأهل الشام والعراق ومصر وأفريقية وغيرهم فأتموه في مائة جزء.

٨ ـ مسائل النيسابوري أبي العباس المتوفى سنة ٣١٣ من شيوخ البخاري ومسلم ضمنها سبعين ألف مسألة وذكرها الخطيب البغدادي وعياض.

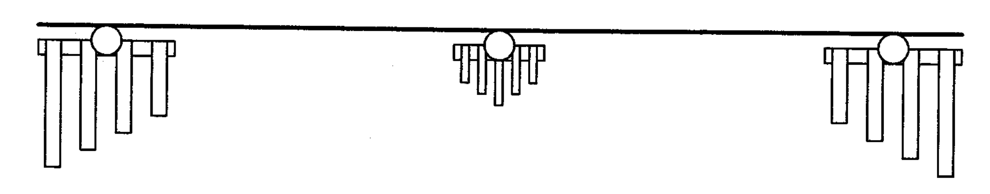
٩ ـ مسائل: عبد الله بن الحكم المصري. يقال: إنه توجد نسخة منها في (غوطا).

١٠ ـ رسالة في الفتوى: كتبها إلى أبي غسان من علماء المدينة.

١١ ـ رسالة في الأقضية: لم يعلم لمن كتبها، قال ابن فرحون ص٢٦ إنها عشرة أجزاء.

١٢ ـ رسالة في القدر: قال عياض: كتبها إلى ابن وهب في القدر والرد على القدرية وهو من خيار الكتب في هذا الباب الدال على سعة علمه بهذا الشأن رَحِمَهُ اللهُ.

والملاحظ أن مالكاً رَحِمَهُ اللهُ لم يكن يكثر من الكلام في هذا الباب وكان كثيراً ما يوجه السائلين إلى السؤال عما فيه العمل. ولكن مثله لا يمكن أن يتحفظ عن الكلام في هذا الباب وقد اشتهرت مقالته في الصفات حين سئل عن الاستواء: كيف استوى؟ فأطرق طويلاً وأخذه العرق الشديد ثم قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة. وثبت عنه أيضاً أنه تكلم في القرآن أنه كلام الله ليس مخلوقاً ونحو ذلك. ويهمنا بإيراد مؤلفاته بيان ما كان عليه سلفنا من استيعاب العلوم بل ومن المراسلات العلمية كرسالته إلى الليث وجواب الليث عليها وهي ميزان ونبراس في الآداب والحكم واحترام العلماء بعضهم لبعض وإن اختلفت وجهات نظرهم. وأهم وأعظم مؤلفات مالك إنما هو الموطأ وهو الذي بين أيدينا. وسنفرده بالحلقة الآتية إن شاء الله، وبالله تعالى التوفيق.



موطأ مالك

الموطأ اسم علم على كتاب مالك مثل: «الكتاب» علم على كتاب سيبويه، والمدينة علم على المدينة المنورة. وهو الوحيد الذي سمي بهذا الاسم، وقيل في سبب تسميته: إن الخليفة أبا جعفر المنصور قال لمالك: وطئ للناس كتاباً أو وطئ للناس هذا العلم. أو قال: لم يبق في الناس أعلم مني ولا منك، أما أنا فشغلتني الخلافة. وأما أنت فوطئ للناس كتاباً يسيرون عليه وتجنب رخص ابن عباس، وعزائم ابن عمر. وقيل: سمي الموطأ لأن مالكاً قال: عرضته على سبعين عالماً فكلهم واطأني عليه. يعني: وافقني.

أما مكانته العلمية فقد ألفت فيه مؤلفات ويذكر كثير من المتقدمين أنه أوثق كتاباً بعد كتاب الله. وممن صرح بفضله من الأئمة رحمهم الله ما نقله القاضي عياض عن الشافعي قوله: ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك. وعن أحمد رَحِمَهُ اللهُ: ما أحسن الموطأ لمن تدين به.

وقد حفظ الشافعي بمكة ثم رحل إلى المدينة وأخذه عن مالك وأحمد رَحِمَهُ اللهُ قال: قرأت الموطأ على بضعة عشر رجلاً من حفاظ أصحاب مالك، ثم قرأته على الشافعي لأنه أثبتهم فيه عندي. ومثل هذه الآثار كثير.

ولكثرة الآخذين عن مالك تعددت روايات الموطأ والمحفوظ منها عند العلماء نحو العشرين. وأشهرها رواية يحيى بن يحيى الليثي وهي التي عليها أكثر الشراح قديماً وحديثاً. وكذلك موطأ محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رحل إلى مالك ومكث عنده ثلاث سنوات أخذ عنه الموطأ، وموطأ أبي مصعب الزهري. والقعنبي وعبد الله التنيس، وقد اختار أصحاب الصحاح كالبخاري ومسلم والنسائي وأحمد وأبو داود، كل قد اختار ما هو أرجح فاعتمد على روايته عنه عن مالك. وكلها مع تعددها ترجع إلى أصل واحد وقد يوجد في بعض تلك النسخ ما لا يوجد في غيرها وقد عني العلماء بالموطأ بصفة عامة وبرواية يحيى بن

يحيى الليثي بصفة خاصة، وقال ابن عبد البر في مقدمته: لشرحه التمهيد والذي هو أوسع شرح وأدقه وأشمله من حيث الرواية فيجمع أطراف الحديث ويسوق ما يناسبه من غير رواية مالك. ومن حيث الدراية فيسوق أقوال العلماء وخاصة أصحاب المذاهب الأخرى ويبين أدلة كل قول فيما فيها الخلافة ثم يورد ما يراه راجحاً مبيناً سبب الترجيح، وقد قال في مقدمة هذا الشرح: إنه اعتمد رواية يحيى بن يحيى الليثي لأنه من تلك البلاد وهي المنتشرة عند الناس. وقد قيل: إن يحيى هذا لما فرغ من سماع الموطأ على مالك مكث سنة يأخذ سيرته وأخلاقه وقال: إنها سيرة السلف من صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان.

وقد استغرق مالك في تأليفه الموطأ أربعين سنة كما جاء عنه أن جماعة جاءت إلى المدينة فقرأت الموطأ في أربعين يوماً فأخبروا مالكاً بذلك فقال: علم جمعناه في أربعين عاماً تقرأونه في أربعين عاماً، لا فقهتموه أبداً. وفي هذا الصدد يقول الشافعي: ما قرأت الموطأ إلا ازددت علماً.

وقد بدأه مالك بعشرة آلاف وقيل: أربعة آلاف حديث ولم يزل ينقحه ويسقط منه حتى صفي إلى ألف وسبعمائة وعشرين أثراً.

ولم يكن تنقيحه إياه من جهة السند والصحة ولكن من جهة ما ينفع الناس، وقد جاء عنه أنه كتب بيده رحمه الله مئتي ألف حديث قال: إن كنت أحدث الناس بكل ما سمعت إني إذن لأحمق. وفي رواية: أريد أن أضلهم. ومثل ذلك ما جاء عن علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يفهمون أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟ فمروياته كانت كلها صالحة وما كان أودعه في الموطأ صحيح ولكن كان ينظر فيما عليه العمل وفيما هو أصلح للناس فيثبته.

وقد سلك منهجاً في تأليفه، فيذكر الحديث مرفوعاً أو موقوفاً ويذكر قول الصحابي وأقوال التابعين. وقد يتكلم برأيه على الاجتهاد وقال في ذلك، وعلى ما أدركت عليه أهل العلم ببلدنا ولم أخرج من جملتهم إلى غيره. وقد تناقل العلماء ما جاء في الموطأ من عبارات مثل: «الأمر المجتمع عليه. والأمر عندنا. أو ببلدنا». و«أدركت أهل العلم ببلدنا» مما ألزموا به مالكاً أنه اعتبر عمل أهل المدينة حجة وناقشوا إجماع أهل المدينة وحجيته وقد أجاب مالك نفسه عن ذلك كما نقله عياض:

فالعمري ما هو برأيي ولكنه سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المقتدى بهم الذين أخذت عنهم وهم الذين كانوا يتقون الله فكثر علي فقلت رأيي. وذلك رأيي إذ كان رأيهم مثل رأي الصحابة أدركوهم عليه وأدركتهم أنا على ذلك. فهذه وراثة توارثوها قرناً عن قرن إلى زماننا.

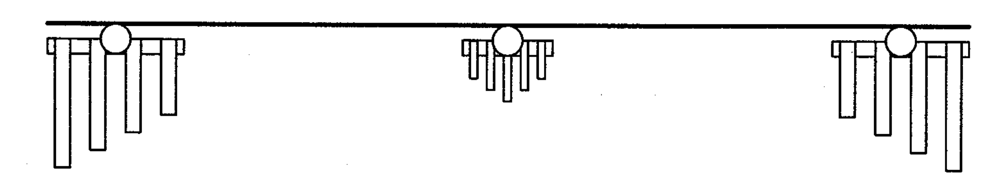
وما كنت أرى فهو رأي جماعة ممن تقدم من الأئمة. وما كان فيه «الأمر المجتمع عليه» فهو ما اجتمع عليه من قول أهل الفقه.. إلى آخر ما ذكره من اصطلاحه فيه مبيناً مراده بهذه العبارات وقد أوضحه للجميع.

وبهذه المناسبة فقد أوقفني ما كتبه محمد بن الحسن في كتابه «الحجة على أهل المدينة» منتقداً تلك الطريقة، ومنه كثير من التحامل وقرأت كتاب الإمام الجليل ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ «صحة مذهب أهل المدينة» يرد علىٰ محمد بن الحسن فأخذت الموطأ وأحصيت ما فيه مما أسند إلى عمل أهل المدينة فزاد على الثلاثمائة موضع، ثم أخذت تتبعة عنه غير مالك من الأئمة الثلاثة وقاربت النصف[1] من ذلك لأرىٰ من وافقه أو خالفه في هذه المسائل، وجميع ما انتهيت منه لم أجد انفرد بمسألة بل إما وافقه الثلاثة أو اثنان أو على الأقل واحد من الأئمة رَحِمَهُمُ اللهُ ويذكرون الدليل مما ثبت عندهم، ولم ينفرد مالك فيما وقفت عليه إلى الآن إلا في مسألة واحدة ولم يذكر لها دليلاً إلى قوله: الأمر عندنا وهي قوله: إن العبد له أن يتزوج أربعاً كالحر. وقال الباجي في المنتقى: إن مع مالك ظاهر الآية وهو قول داود بن علي، ومالك يرويها عن ربيعة.

وقال الزرقاني: وبه قال سالم والقاسم، وقد روى ابن وهب عن مالك أن لا يزيد على اثنين بما يوافق الجمهور. ومما تميز به منهج الموطأ أن يظهر للمتأمل أن يشرح بعضاً ببعضه فيأتي بالنص المجمل، ثم يتبعه بما يفصله ويأتي بالحديث المرفوع ثم يتبعه بعمل الصحابة أو التابعين ليبين أن هذا هو الذي عليه العمل. وله منهجه الخاص في ترتيب أبوابه ثم في ترتيب الآثار في الأبواب مما يساعد على فهم مراده مما ينبغي علىٰ الدارس ملاحظتهُ، وحظي الموطأ بعناية العلماء ما لم يَحْظَ بها غيره في جميع أقطار العالم الإسلامي كما عني به المهدي والرشيد وغيرهم.

---

(١) وقد تم هذا البحث في كتاب سماه «عمل أهل المدينة».



الفضيل بن عياض

هذا العالم الفاضل فريد في نوعه نمط عجيب من العلماء في الحرمين جاور بمكة توبة لله حتى مات بها.

واسمه الكامل: فضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي ويكنىٰ أبا علي، ولد بسمرقند وارتحل في طلب العلم. قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: الإمام القدوة، الثبت شيخ الإسلام. وترجمة هذا الإمام الثبت عظة وعبرة للعامة والخاصة، وآية للمنحرفين والمستقيمين على السواء فلا ييأس منحرف ولا يستكثر مستقيم وآية للجميع على أن الأعمال بالخواتيم.

ويصدق في هذا الإمام الحديث الشريف: «منكم من يعمل بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه القدر فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

نشأته الأولى:

يتفق الذهبي في سير أعلام النبلاء وابن حجر في التهذيب أنه كان في أول أمره من «الشطّار»، والشطّار اسم لقطّاع الطريق. كان يقطع الطريق بين مسقط رأسه وسرخس، وكان سبب توبته أنه تعلق بجارية فبينما هو يرتقي الجدار إليها إذ سمع تالياً يتلو قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]. فوقعت من قلبه موقعاً فقال: بلى يا رب قد آنا، فرجع. فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها سابلة ـ يعني: مسافرون ـ وسمعهم يتحدثون عن الرحيل فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: لا حتى نصبح. فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، وهم لا يعلمون أنه موجود يسمعهم. فلما سمع منهم ذلك وإلى أي مدى يتخوف الناس منه في الليل، فكر فقال في نفسه: قلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين

هاهنا يخافونني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة للبيت الحرام. تلك بداية حياته ونشأته وهذا سبب توبته، وقد كانت توبته صدقاً وأي إخلاص، هي والله هبة من الله إليه، تاب الله عليه ليتوب إلى الله.

ثم توجه إلى حرم الله وجاور بمكة وانقطع لطلب العلم والعبادة فروى عن خلق كثير ذكرهم الذهبي وروى عنه من أعلام الحديث وأئمتهم منهم من كان هو قد أخذ عنه وهو الثوري. فهو من شيوخة أول طلبه للعلم ثم عاد فأخذ عنه، وابن عيينة وهو من أقرانه، وابن المبارك ويحيى القطان وابن مهدي وعبد الرزاق والأصمعي وابن وهب والشافعي، وساقه ابن حجر عدداً كبيراً، وهؤلاء وأمثالهم أئمة الحديث وشيوخه في عهده وكان معاصراً لمالك، ولذا نجد كلّاً من الشافعي والقعنبي يشترك في الأخذ عنه بمكة وعن مالك بالمدينة.

وهنا وقفة مع كل مسلم طالب علم أو صاحب عمل وقفةٌ نجدد معها الإيمان بالله تعالى وبواسع فضله وسعة جوده وكرمه وحلمه على عبده وما خلق في هذه النفس البشرية فألهمها فجورها وتقواها، وهداها النجدين والسعيد من وفقه الله لطاعته وختم له بسعادته.

ولقد أصبح إمامنا هذا نموذجاً متميزاً عبادةً وزهداً، وهذه نماذج من حياته بعد توبته نقل ابن حجر عن هارون الرشيد وقد رآه ورأى مالك بن أنس رحمهم الله قال: ما رأيت في العلماء أهيب من مالك، ولا أورع من الفضيل. وقال ابن المبارك: رأيت أعبد الناس عبد العزيز بن أبي رواد، وأورع الناس الفضيل بن عياض، وأعلم الناس سفيان الثوري، وأفقه الناس أبا حنيفة.

وروى الذهبي عن الهيثم بن جميل قال: سمعت شريكاً يقول: لم يزل لكل قوم حجة في أهل زمانهم. وإن فضيل بن عياض حجة لأهل زمانه فقام فتًى من مجلس الهيثم فقال الهيثم: إن عاش هذا الفتى يكون حجة لأهل زمانه. قيل: من كان الفتى؟ قال: أحمد بن حنبل. فللّه العجب إنسان يكون في أول نشأته شاطراً يقطع الطريق يخافه الناس فيصبح بفضل الله عليه حجة لأهل زمانه. ولعل هذا الفضل كان بفضل الله تعالى أولاً ثم بفضل عمله بعلمه وتحريه أكل الحلال. كما قال ابن المبارك: إن الفضيل صدق الله فأجرى الحكمة على

لسانه والفضيل ممن نفعه الله بعلمه. وقال بشر بن الحارث: عشرة ممن كانوا يأكلون الحلال، لا يدخلون بطونهم إلا حلالاً ولو استفوا التراب وهم: سفيان، وإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض وابنه - يعني ابنه علياً - فإن أخباره في الزهد والورع قد تكون أكثر من أبيه، وذكر بقية العشرة. وابنه علي هذا سمع أباه يقول: لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق، وطلب الحلال. فقال ابنه علي: يا أبت إن الحلال عزيز. قال: يا بني وإن قليله عند الله كثير.

ومما أثر عنه الحكمة وداء القلوب وشفاؤها ما أجاب به السائل: ما الزهد؟ قال: القنوع. قال: ما الورع؟ قال: اجتناب المحارم. قال: ما العبادة؟ قال: أداء الفرائض. قال: ما التواضع؟ قال: أن تخضع للحق. وقال: أشد الورع في اللسان. وأثر عن قوله: لو أن لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلا في إمام، فصلاح الإمام صلاح البلاد والعباد.

وكان أشد الناس تحذيراً من البدع وأهلها فقد أثر عنه أنه قال: من أحب صاحب بدعة، أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه لا يرتفع لصاحب بدعة إلى الله عمل، نظر المؤمن إلى المؤمن يجلو القلب، ونظر الرجل إلى صاحب بدعة يورث العمى، من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة.

إنها والله الحكمة تفيض من قلب مليء نوراً وحكمةً وورعاً، كما قال ابن المبارك: إنه صدق الله فأجرى الحكمة على لسانه.

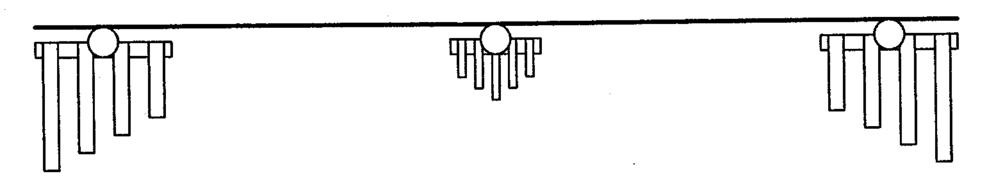
وله رَحِمَهُ اللهُ مع هارون الرشيد مواقف ومواعظ مسجلة في تراجمه، وقد مات سنة ١٨٧هـ عن عمر ناهز الثمانين، كما قال في نفسه:

بلغت الثمانين أوجزتها ... فماذا أؤمل أو أنتظر

علّتني السنون فأبلينني ... فدق العظام وكلّ البصر

رحمه الله رحمة واسعة فقد كان حقاً نموذجاً فريداً ونمطاً وحيداً علماً وفضلاً نفعه الله بمجاورته لحرم الله وبصدقه مع الله.





أ ـ الإمام الشافعي رحمه الله

بعد أن قدمنا بحمد الله نماذج عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله، كان في المقابل أن نقدم نماذج أيضاً عن الإمام رحمه الله حيث إن الشافعي رحمه الله هو العلم الأمثل في مكة في عصر مالك رحمهما الله تعالى أجمعين. ولئن كان لمالك رحمه الله قصب السبق الزمني والعلمي ورسم المنهج وتمركز العلوم وتمحيصها وبلورتها في كتابه وموسوعته «الموطأ»، وله الفضل بعد الله واليد الطولى على الشافعي خاصة. فإن الإمام الشافعي يعد هو أيضاً من مجموعة فقهاء الأمصار وثمرة تحصيل علوم الأقطار لما كانت له من رحلات في طلب العلم على أوسع المجالات، حيث رحل من مسقط رأسه بغزة فجاء إلى مكة ثم رحل إلى المدينة. ثم إلى اليمن ثم إلى العراق وأخيراً إلى مصر، وهو في رحلاته تلك يدرس ويحصل، ويأخذ عن كل من يجد عنده طلبه أياً كان هو وكيفما كانت وجهته، فأخذ عن أهل الحديث وعن أهل الفقه حتى عن أهل الكلام وإن خالفهم في وجهتهم. وعن أهل التشيع وإن لم يسلك مسلكهم إنه كمثل القائل: خذ الثمار وألق الخشب في النار، بل عين الحديث: «الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها». وفي قصة أبي هريرة رضي الله عنه قال له ﷺ: «صدقك وهو كذوب». وهكذا كانت رحلات الشافعي رحمه الله رحلات تحصيل وانتقاء على ما سبق في التنبيه عليه في مواطنه.

والذي يهمنا كما أسلفنا أن الكتابة عن إمام من الأئمة الأربعة رحمهم الله لهو بمثابة الكتابة عنهم جميعاً نشأةً وتحصيلاً ومنهجاً وتراثاً، والإمام الشافعي بموجب رحلاته تلك انتهى إلى جمعه علوم تلك الأمصار، فالحديث عنه وعن حياته وعن منهجه وعن تراثه العلمي حديث عن علوم ومناهج وتراث تلك الأقطار كلها.

فالشافعي بحق حلقة اتصال بعيدة المدى بين الأئمة الأربعة وهو بحق

قاسم مشترك يجتمعون عنده، وهذا ما يحتم وبدون تعصب ولا تزيد تقديم الدراسة إيجازاً أو إطناباً بقدر وسع الكاتب وبقدر ظروفه. وفي هذا البرنامج المبارك علماء الحرمين على ما يتسع من وقت نقدم ما تيسر بعون الله عن الإمام الشافعي نبراساً ومنهجاً لنا ولطلبة العلم.

لقد توفر للشافعي عامل القاسم المشترك بين الأئمة الأربعة رحمهم الله حيث إنه ابتدأ وتمرس في البادية على علوم العربية التي هي لسان العلوم الإسلامية، وانتهى به المطاف شاباً نابهاً إلى مكة المكرمة فبدأ بها طلبه للعلم ومن ذلك حفظ الموطأ، وهو لمالك، فرحل إلى المدينة وقرأ الموطأ عليه.

ومعلوم أن الموطأ هو موسوعة مالك وحصيلة تحصيله طيلة حياته. ثم رحل إلى اليمن وأخذ عن عبد الرزاق صاحب المصنف في الحديث، ولقيه باليمن ورحل إلى العراق فلقي أحمد بن حنبل صاحب هذا المسند هذا الفريد وصاحب هذا المذهب الذي نشأ من بعده نتيجة مسائله وفتاواه ورواياته، ولقي محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ومحمد من خواص أصحابه وإمامه. ومحمد لقي مالكاً وله موطأ محمد المشهور وكل من لقبه أخذ عنه قليلاً كان أو كثيراً، أقل ما يقال: أخذ المنهج والسلوك وناقش في الفروع وفي الأصول.

يدلك على هذا أنه لقي ممن لقيهم اختلافاً في وجهات النظر في الاستنتاج والإلحاق والاستنباط والمواقف المختلفة بين العام والخاص والمطلق والمقيد.

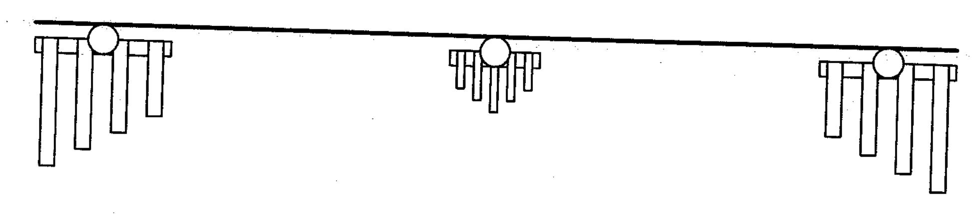
وبالتالي الاختلاف في التفريع على القواعد العامة من النصوص سواء في الكتاب أو السنة، وكانت نتيجة هذا التفاعل الفكري والتجاذب العقلي والترديد في النظر في الربط بين الأصول والفروع أن هداه الله ووفقهُ لوضع أسس علم أصول الفقه الذي يعتبر ميزان ومقياس الفقه عند كافة العلماء، وبدونه لا يستقيم بناء فرع على أصل، حتى قبل جهلة الأصول عوام العلماء. وأثر عن أحمد رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: ما عرفنا المجمل من المفصل ولا العام من المطلق حتى جالسنا الشافعي، وأثر عنه أيضاً أنه قال: ما حمل أحد قرطاساً وقلماً إلا وللشافعي مِنة في عنقه ولقد جاء عنه أنه قال لابنه أي لابن الشافعي: ما زلت منذ أربعين سنة وأنا أدعو لأبيك في صلاتي إنه والله وسمة المبالغات إلا أنها

إظهار لفضل السلف فضل القائل حيث الاعتراف بالفضل لأهله وفضل من قيلت فيه لإعطاء كل ذي حق حقه.

ومعلوم أن فضل السبق للشافعي في أصول الفقه ليس في إيجاد معدوم ولا ابتكار غير موجود، وإنما هو في إيضاح وتمييز أبوابه وفصوله بحيث أصبح علماً متميزاً عن سائر العلوم يسهل تعلمه ويتيسر الرجوع إليه والاستناد إلى قواعده عند التعارض والترجيح، مثله تماماً في علم النحو كان الإعراب موجوداً ولكن ليس مبرمجاً منظماً في أبواب وفصول وجاء سيبويه ووضع قواعده استنتاجاً من كلام العرب أنفسهم.

وكذلك المنطق كونت قواعده ولا تزال راسخة في عقول العقلاء، وهكذا أصول الفقه كان يوجد الناسخ والمنسوخ والعمل بالقرائن. وكان شبه التعارض بين الأدلة كما جاء عن عثمان رضي الله عنه في الأختين بملك اليمين قال: أحلتهما آية وحرمتهما آية. وتوقف في الحكم عليهما، ويعني بآية أحلتها قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المعارج: ٣٠]. فقد نصت على امتداح الذين هم لفروجهم حافظون إلا على الأزواج وما ملكت الأيمان، يعني: الإماء وبدون قيد إخوان أو غيرهن. والآية التي حرمتهما قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣]، في سياق المحرمات من النساء في عقد النكاح، فقد نصت على تحريم الجمع بين الأختين وأطلقت ولم تقيد بعد نكاح أم بملك يمين.

ولما توسع الكلام في الخلاف وترسخت قواعد الاستنتاج والاستنباط وظهرت دلائل القرائن للترجيح وقويت عوامل الجمع بين المتعارضين، رجح العلماء العمل بآية التحريم لما تقرر من تقديم درء المفاسد على جلب المصالح، ومن تقديم ما هو أحوط في التحريم احتياطاً للفروج، ومن دخول التخصيص على آية الإباحة فخصص عمومها بالأم والبنت والأخت من أنه لو ملك واحدة منهن لا تحل له قطعاً بملك اليمين. ومن هنا كانت القاعدة: إن من ملك ذات رحم منه عتقن عليه في الحال لا يسري عليها حكم الإباحة بملك اليمين. وهكذا أصبح لعلم أصول الفقه أثره الفعال وحدة الأئمة الثلاثة فوضعوا لمذاهبهم أصول فقه، وهكذا كان أثراً من آثار الشافعي رحمه الله على المذاهب كلها وكانت دراسة ملمة بدراسة تلك المذاهب، وبالله التوفيق.



ب ـ الإمام الشافعي

اسمه ونسبه ومولده ونشأته:

اشتهر الإمام بنسبته إلى جده الثالث من شافع بن السائب بن عبيد ولعله أنجب أولاً وهذا الحد إذ لا تتم الشهرة لفرد من مجموعة إلا بتميزه عن الآخرين، كما اشتهر عبد الله بن عمر بن الخطاب فصار هو المعني بقولهم: قال ابن عمر، مع أن لعمر رضي الله عنه العديد من الأولاد.

أما اسمه: فهو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع وهذا الجد الذي ينسب إليه.

ونسبه: يتصل نسب الشافعي بالنسب النبوي الكريم في عبد مناف، فشافع هو ابن السائب بن عبيد بن يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف وفي عبد مناف يلتقي الشافعي رحمه الله بالنسب الشريف. وقد حرص الشافعي رحمه الله على تجدد هذا النسب بطلبه أن يجعل له نصيب في سهم ذوي القربى لأن بني المطلب وبني هاشم لم يفترقوا في جاهلية ولا إسلام، وقد انضم بعضهم في الشعب عند المقاطعة وكتابة الصحيفة الظالمة. بخلاف بقية بني عبد مناف وهم بنو عبد شمس وبنو نوفل، فقد انضموا لحزب المقاطعة وعادوا بني هاشم في رسول الله ﷺ، ولذا فإن رسول الله ﷺ جعل لمن انضم معه من بني عبد مناف حصنهم في سهم الفيء الوارد في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الحشر: ٧]. وسهم الغنيمة خمسها في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ . . .﴾ [الأنفال: ٤١] الآية.

وقد روي عن جبر بن مطعم وهو من بني نوفل بن عبد مناف، قال: لما قسم النبي ﷺ سهم خيبر على ذوي القربى في بني هاشم وبني المطلب، ولم يعط بني عبد شمس ولا بني نوفل مشبثاً إليه أنا وعثمان بن عفان. وعثمان جده عبد شمس وجد الأمويين. قال: فقلت: يا رسول الله: هؤلاء إخوتك من بني هاشم لا ينكر

فضلهم لأن الله تعالى جعلك منهم، إلا أنك أعطيت بني عبد المطلب وتركتنا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة. يعني في درجة القرابة والنسب. فقال ﷺ: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد»، ثم شبك رسول الله ﷺ يديه في الأخرى. هذا هو النسب الأصيل لهذا الإمام الجليل.

أمه: وأمه كانت أزدية، من الأزد على ما يرجحه المترجمون له وليست قرشية؛ كما يذكره البعض، وليس الشافعي في حاجة إلى إلحاق نسب أمه بقريش فيكفيه الاتفاق على إلحاق نسب أبيه وقد جاء في فضل الأزد ما ذكر في ترجمته في مقدمة «كتاب الأم» نقلاً عما جاء عنه هو أن أنس بن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أن النبي ﷺ قال: «الأزد أَزد الله من شرف الإضافة الله» ونحوها.

أما مولده ونشأته:

فقد قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٥: «اتفق مولد الإمام بغزة، وغزة معروفة باسمها إلى اليوم في أقصى الشام من ناحية مصر وفلسطين. ويقال لها: «غزة هاشم» فيها مات هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ ودفن بها. وقال عنه: هو أبو عبد الله القرشي المطلبي الشافعي المكي الغزي. ونقل الذهبي عن ابن عبد الحكم قال: قال لي - يعني: الشافعي بنفسه -: ولدت بغزة سنة ١٥٠هـ وحملت إلى مكة ابن سنتين. قيل: إن الشافعي ولد ليلة مات الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ حتى قال الناس مات إمام وولد إمام. وقال الربيع المؤذن: سمعت الشافعي يقول: كنت ألزم الرمي وكنت أصيب من العشرة تسعة. ويروي أبو زهرة أن أمه قالت: اذهب إلى مكة في نسبك أخاف أن تغلب على نسبك، هنا أي نسبه الهاشمي، أما أهله وآباؤه، فقد توفي أبوه ونشأ يتيماً، وأما جده الرابع وهو السائب فكان صاحب لواء بني هاشم على دين قومه في بدر فأخذ أسيراً وفدى نفسه ثم أسلم بعد فداء نفسه، قيل له: لِمَ لم تسلم قبل الفداء؟ فقال: ما كنت أُحرم المؤمنين مطمعاً لهم فيّ. وجده الثالث «شافع» صحابي له رؤية ومعدود في صغار الصحابة وجده الثاني عثمان فهو تابعي.

وعليه فإنه قد اجتمع له شرف النسب وشرف المنشأ من ثبوت الصحبة لأجداده.

وقد هاجر أبوه من مكة إلى الشام فنزل غزة، وتوفي بها بعد مولد

الشافعي بقليل، وكان مولد الشافعي سنة ١٥٠هـ، وبعد سنتين من عمره رحلت به أمه إلى مكة حفظاً لنسبه ونزلت بجوار الحرم بشعب الخيف على نسيب له. وأصبح قرة عين أمه وموضع رعايتها، وينقل أنها رأت رؤية عنه زادتها عناية به. وكان بداية حياته مولعاً بالبادية وحياتها فتمرس في العربية والفروسية ثم اتجه إلى طلب العلم.

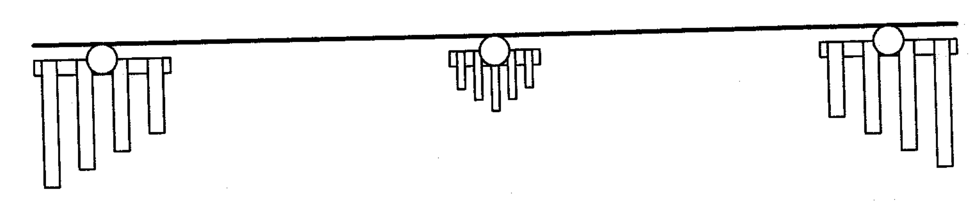
نقل عنه رحمه الله أنه قال: خرجت عن مكة فلازمت هذيلاً بالبادية أتعلم كلامها، وآخذ طبعها، وكانت أفصح العرب، أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم. فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار. وكانت مدة تبديد عشر سنوات بلغ فيها شأواً بعيداً في اللغة والرماية. حتى قيل: إن الأصمعي وهو الإمام في اللغة ليقول: صححت شعر هذيل على فتى من قريش.

ويقول هو عن نفسه: لقد كانت همتي في شيئين: الرمي والعلم فصرت في الرمي بحيث أصيب من عشرة عشرة. وبعضهم يروي: من عشرة تسعة. وقال له بعض الناس: أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي. ولعل هذه وجهته إلى العلم والانقطاع إليه حتى وصل إلى ما وصل إليه على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

زواجه وأولاده:

في ترجمته بمقدمة الأم أنه تزوج من السيدة حميدة بنت نافع حفيدة عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد وفاة الإمام مالك في رحلته الثانية إليه وكان عمره ثلاثين سنة، وقد نلاحظ على الكثيرين من طلبة العلم إما تأخر زواجهم وإما ترك الزواج نهائياً.

ولعل ذلك إما لقلة ما بأيديهم وإما عزوفاً وتفرغاً لطلب العلم، ولعل إمامنا هذا تأخر زواجه للسبب الأول فقد نشأ يتيماً وجاءت به أمه إلى مكة. وجاء عنه أنه تولى أعمالاً لسد حاجته. وقيل: إنه كانت له سرية من الإماء. أما أولاده فقد رزق من زوجته السيدة حميدة ولد كنيته أبو عثمان واسمه محمد وابنتان هما فاطمة وزينب وقد نبغ ولده محمد وتقلد المناصب إلى أن ولي قضاء حلب. أما أطوار حياة الشافعي رحمه الله في طلب العلم فسيأتي بيانها في الحديث عن رحلاته في طلب العلم التي طوف فيها من الحجاز إلى اليمن والعراق ومصر. وبالله التوفيق.



ت ـ الإمام الشافعي

طلبه للعلم ورحلاته في تحصيله:

قلّ أن نبغ عالم في العالم الإسلامي إلا وله رحلات في طلب العلم ولا سيما إذا كانت نشأته في غير المدينة المنورة كمالك بن أنس إمام دار الهجرة فلم يرحل عنها لوفرة الموارد واستفاضة السنة بها مما أغناه عن الرحلة. أما من عداه خاصة من أئمة العلوم فقد ثبتت لهم رحلات متعددة. كالأئمة الثلاثة: أبي حنيفة والشافعي وأحمد رحمهم الله رحلوا إلى المدينة وإلى مكة بل وأهل الحديث من بعدهم كالبخاري وغيره، وتدوين الرحلات في طلب العلم قد حوى لنا بعض الرحلات من الحجاز إلى مصر وإلى الشام في حديث واحد. وهكذا الشافعي رحمه الله قد جمع علومه في رحلاته وكانت بداية أمره حله وارتحاله مع هذيل حتى أثرى في العلوم العربية.

وبعد أن حفظ القرآن في الكتاب وجاء إلى الحرم المكي فأخذ عمن فيه من العلماء وحفظ موطأ مالك تاقت نفسه لقراءة الموطأ على صاحبه، فارتحل إلى المدينة ومكث بها ثمانية أشهر قرأ الموطأ من حفظه على مالك فأعجب به وكلفه قراءة الموطأ على الناس، فأخذه عنه بعض علماء الأقطار الإسلامية الذين كانوا يفدون إلى المدينة في مواسم الحج أو غيرها. ثم رغب في الرحلة إلى العراق واستشار شيخه مالكاً فزوده بما يلزم المسافر واستكرى له الراحلة وخرج مع الحج العراقي. وهناك اجتمع بصاحبي أبي حنيفة محمد وأبي يوسف في الرحلة الأولى رحمهم الله. ثم رجع إلى المدينة في أخريات حياة الإمام مالك رحمه الله حوالي سنة ١٧٤ مكث فيها هذه المرة أربع سنوات كان خلالها ربما ناب عن مالك في مجلسه ثم توفي مالك رحمه الله. وجاءت الأخبار بوفاة الإمام الليث بن سعد بمصر. وبعد وفاة مالك قدم والي اليمن إلى المدينة وصحب الشافعي معه وتقلد عملاً له فأحسن وعدل وعلّم ودرس ودرّس علم الفراسة وكان مشهوراً باليمن.

وفي أثناء عمله باليمن وقعت له محنة حمل بسببها إلى الرشيد ببغداد ولما كلمه عرف مكانته وظهرت براءته فأكرمه وأجزل له عطاءه. ثم عاد إلى مكة بما معه فقسمه على أهله وذريته ولم يطل مقامه بمكة حتى عاد إلى العراق وقد مات أبو يوسف فمكث مع محمد بن الحسن وأخذ عنه علم أبي حنيفة وأصحابه. كما لقي بالعراق أحمد بن حنبل وغيره ثم رحل إلى مصر واستقر بها إلى حين وافاه الأجل.

تلك هي رحلته في طلب العلم من حيث الزمان والمكان. أما مراحلُه في التحصيل والكيفية والتي تهمنا في الناحية المنهجية فتبدأ من حيث قال هو عن نفسه وتتلخص في الآتي:

لما توفي أبوه وكفلته أمه ولم يكن ذا مال وأُدخل الكتّاب فلم تستطع أمه أن تعطي لمعلم الكتّاب أجراً، فكان هو يساعده على تنظيم الأولاد ويخلفه فيهم إذا غاب عنهم. وهنا وقفة مع طلبة العلم الذين نسميهم عصاميين يكونون أنفسهم بأنفسهم ونقول لهم: لا بأس أن يعمل الطالب ولو أن يؤاجر نفسه في عمل شريف كهذا، سواء كان في المؤسسة التي يدرس فيها كان يعمل ساعات خارج الدوام في عمل كتابي أو حتى حراسي أو أي نوع كان يستعين بأجره على مواصلة دراسته فليس هو نفسه أعلى نسباً ولا أشرف قدراً من الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولقد حدثني طبيب مختبرات كيميائية كان مبتعثاً يدرس في ألمانيا. وفي أثناء الدراسة قامت الحرب العالمية الثانية وانقطعت الاتصالات، ولم يعد يتلقى مصاريفه من أهله فعمد إلى أحد الفنادق وعمل في المطعم بأجر يومي وواصل دراسته فما أن انتهت الحرب إلا وقد أكمل دراسته، وقال: إنه كان معه عدد من الزملاء هكذا فعلوا.

نقول: هذا على سبيل العبرة والعظة علماً بأن أغلب البلاد الإسلامية ولله الحمد فيها مجانية التعليم وخاصة في الحرمين الشريفين، ولكن قد تعتري طالب العلم بعض الحاجات فبدلاً من أن يقطع دراسته أو يمد يده فإن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ سن لنا هذه السنة وخاصة إذا كان العمل شريفاً كهذا؛ ليحافظ على كرامته وعلى سمعة الجهة التي ينتمي إليها إن وجدت.

ونحن في هذه الآونة وفي أرض الحرمين بصفة خاصة نعلم أن طلبة العلم قسمان: قسم مهاجر إلى الله ورسوله وهو مشتغل بطلب العلم وقسم بمقتضى مِنَح دراسية، أما القسم الأول وهم الذين يطلبون العلم بدون منح فقد شاهدنا بالمدينة المنورة في الستينات وقبل وجود المعاهد والجامعات، أن بعض الطلاب الذين يدرسون بالمسجد النبوي الشريف في تلك الحلق المباركة من الذين لا عمل لهم ولا موارد تكسب، كانوا يكونون من الصباح الباكر مع أصحاب السوق يتسببون كلٌّ فيما يقدر عليه.

وفيما بعد المغرب يكونون كالأقمار المنيرة في حلق الدروس المتنوعة. فجمعوا بين الحسنين عفة النفس عن ذل المسألة، وتحصيل العلم في مسجد رسول الله ﷺ. تلك هي السنة الحسنة التي قد سنها الإمام الشافعي رحمه الله لطلبة العلم. وقد جاء عنه أنها ضمن وصيته التي زود بها أحد طلابه عند سفره عنه إذ قال له هذا الطالب: بِمَ توصيني؟ فقال له: إن الله خلقك حراً فحافظ على هذه الحرية. وهو القائل في هذا المعنى:

العبد حر إن قنع — والحر عبد إن طمع
فاقنع ولا تطمع فلا — شيء يشين سوى الطمع

والقائل:

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديب — وفيضي آبار تكرور تبرا
أنا عشت لست أعدم قوتاً — وإذا مت لست أعدم قبرا
همتي همة الملوك ونفسي — نفس حر ترى المذلة كفرا

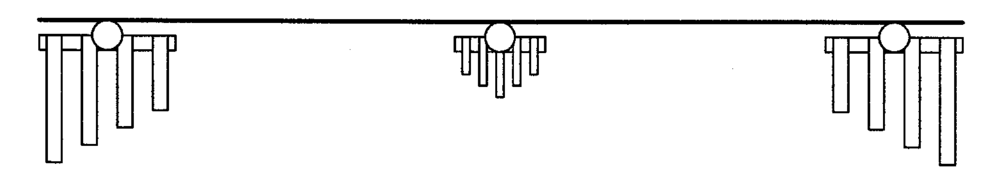
تلك هي الموعظة والدرس لطالب العلم من حياة إمامنا الشافعي رحمه الله يرسمها في نفسه ويوصي بها لطلابه. وهذا الذي يهمنا في هذا البرنامج علماء الحرمين الشريفين وهو منهج العلماء العاملين في كل عصر، وقد أورد والدنا الشيخ الأمين في مقدمة الأضواء الأبيات الآتية:

لا تسؤ بالعلم ظناً يا فتى — إن سوء الظن بالمعلم عطب
لا يزهدك أخي في العلم إن — غمر الجهال أرباب الأدب
إن تر العالم نضواً مرملاً — صفر كف لم يساعده سبب
وتر الجاهل قد حاز الغنى — محرز المأمون من كل أرب

قد تجوع الأسدُ في آجامها والذئاب الغبش تعتام القتب
جرع النفس على تحصيله مضض المرين ذل وسغب
لا يهاب الشوك قطاف الجني وأبار النحل مشتار الرطب

أراد الذل هنا التواضع في طلب العلم. وهكذا سن الشافعي للعلماء منهج الكرامة والعزة سواء كانوا مغتربين أو قاطنين فالحاجة قد تعرض لهم بأية حال، وبالله تعالى التوفيق.





المرحلة الثانية للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تحصيل العلم

كانت المرحلة الأولى مرحلة (الكتّاب) وما كان منه أثناءها وما أخذنا منها من مواعظ وعبر ومنهج الجد والعمل، وجاءت المرحلة الثانية ما بعد الكتّاب إلى حلق الدروس في المسجد الحرام يسمع المسائل ويحفظ الحديث ويكتبه، وقد حدث الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن نفسه في تلك المرحلة فقال ـ كما نقله أبو حاتم الرازي في كتابه عنه فقال: قال الشافعي: ـ «كنت يتيماً في حجر أمي، ولم يكن معها ما تعطي المعلم وقد كان المعلم رضي مني أن أخلفه إذا قام. فلما ختمت القرآن، دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء وأحفظ الحديث أو المسألة، وكان منزلنا بمكة في شعب «الخيف» وكنت أنظر إلى العظم يلوح، فأكتب فيه الحديث» لعل هذه المرحلة من مراحل تحصيل الشافعي هي أخطر وأشق المراحل عليه وعلى من يكون مثل موقفه، وذلك أنه شاب في مقتبل حياته.

له تطلعات أمثاله وطموحاتهم. وهو أيضاً غريب نازل على نسيب له وأمه لا تجد ما تعطي معلم الكتاب، فكيف به في تأمين لوازم حياته أولاً؟ وأين له توفير الورق؟ ولا نستطيع أن نقدر كم كانت قيمته آنذاك على ندرة الصناعة وقلة النوع. وأعتقد أن هذا موقف تعتمل فيه الأحاسيس وتتنازع في الرغبات فجانب الطموح والرغبات في الحياة تدعو لعمل الدنيا وتوفير الحاجيات وجانب العلم والتحصيل يدعو إلى الصبر وكبح جماح النفس والدأب على الطلب. وقد أخبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لما توجه إلى طلب العلم قال له أحد ذويه: أقدم على ما ينفعك، فقال: ولكني حبب إلي العلم. وما أعتقد أنه حبب إليه العلم إلا لعلو همته وصفاء معدنه وأصالة ذاته ونقاء جوهره وتبصير بصيرته وها هو يستعيض عن الورق الذي يكلفه ثمنه عنه بالعظم يلوح له. وليس بغريب أليس كتاب الله المنزل على رسوله ﷺ كان حين ينزل تكتب الآية والآيات على القطاع

واللخاف والأكتاف؟ إذاً، فلا غرو أن يسلك الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المسلك ليواصل السير في سبيل تحصيله للعلم. فلا الحديث مقدم على كتاب الله ولا الشافعي بأولى من أصحاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ورضي الله عن أصحابه ومن تبعهم بإحسان ورحم الله الشافعي وأمثاله الذين شقوا طريقهم وتخطوا كل عقبات زمانهم وخلّفوا لنا تلك الكنوز الثمينة، وهذا التراث النفيس. ثم هنا يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فكنت كلما امتلأ عظم ألقيت به في حب لنا فامتلأ حبان أو قال: جرتان.

وهنا مرة أخرى ونحن في عصر الطباعة والنشر وتبويب المطبوعات وترقيم الصفحات وعمل الفهارس المتعددة، ومع هذا نقضي وقتاً في البحث عن المسألة، وأين تكون؟ وفي أي باب؟ وفي أي صحيفة؟ بل إن بعض المبتدئين قد لا يعلمون المناسبة لبعض المسائل مع الأبواب فيضيق ذرعاً في البحث عنها، والحال أن الكتاب بين يديه مجلد الأوراق مرقم الصفحات مميز العناوين: الكتب والأبواب.

وها هو الشافعي يجمع الحديث ويكتبه في عظام ويلقي بها في الجرة فكيف به عند مراجعتها أو الاستفادة من كتابتها؟ كيف يهتدي لحاجته ويجد مطلبه وغايته؟ والحال قطع مكدسة لا تحمل أرقاماً ولا معنونة بعنوان ولا يجمعها ضبط ولا رابط ـ اللهم ـ إلا أنها تشتمل على العلم وتارة المسائل وتارة الأحاديث، إذ لا سبيل للاستفادة منها إلا بتحمل أنواع الصبر وسعة البال في البحث.

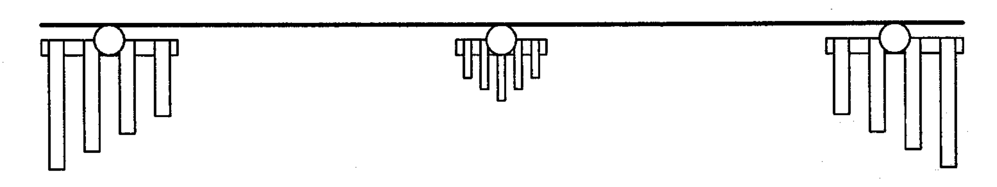
ونحن اليوم أمام المسانيد نجد الأحاديث في الصفحة الواحدة لا يجمعها باب ولا ترتبط بموضوع وإنما تعزى لصحابي واحد. ولا يمكن الاهتداء إلى الحديث إلا لتمرس في الرواية يعرف هذا الحديث من مرويات مَن من أصحاب رسول الله ﷺ. وحتى إذا عرف عمن روي هذا الحديث وجاء إلى مرويات هذا الصحابي في أي جزء من أجزاء المسند المعهود فإن بعض الصحابة له الألف والألفان والمائة والمئات، فأين مكان الحديث الذي يريده من مرويات هذا الصحابي؛ أهو في أولها أم في آخرها؟ أم يمر على مروياته كلها المائة أو الألف أو أكثر؟ فقد يقضي الطالب العادي الساعات العديدة يبحث عن

الحديث الواحد في مسند من المسانيد، والآن وقد قبض الله ذوي همم عالية وصبر جميل وصدور رحبة قاموا إما بترتيب المسانيد على أبواب الفقه، كما عمل الساعاتي رَحِمَهُ اللَّهُ في مسند الإمام أحمد أو عمل فهارس أبجدية للأحاديث تبين الجزء والصفحة، كما عمل خادم السنة المطهرة أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول.

يذكر الحديث مرتباً على الحروف الهجائية ويرمز له على الجزء والصحيفة فلا يكلف الباحث إلا تأمل تلك الصحيفة فقط. فأين هذا التيسير اليوم؟ علوم مؤلفة وكتب مجلدة وأبواب مرتبة وصفحات مرقمة ومسانيد مفهرسة والكمبيوتر في طريقه إلى برمجة هذه الكتب كلها حتى ليصبح باستطاعة طالب العلم أن يطلع على الحديث الواحد في جميع مراجع كتب السنة في ثوان معدودات. أين هذا كله من أحاديث منثورة في عظام مبعثرة في جرة مكدسة؟!

ومن ناحية أخرى، فإننا ولله الحمد والمنة لنستوقف طلبة العلم وخاصة في أرض الحرمين الشريفين، بل وفي بقية هذه البلاد كلها على مستوى المملكة في جامعاتها ومعاهدها ومدارسها. فإن كتب الدراسة مهيأة وفق مناهج الدراسة في جميع مراحلها من الابتدائية إلى الجامعة. ومراجع المواد متوفرة فدُوِّن الحديث ورتِّب الفقه ونسّقت العلوم، بل والفنون ومكتبات العالم الإسلامي زاخرة بأمهات ومراجع كل علم يفكر فيه طلبة اليوم وتمنح للطالب فترة دراسته.

بل إن المكتبات التجارية ومكتبات بعض الأشخاص ذوي اليسار أو العلماء عامرة بالمطبوعات المتنوعة؛ مما ييسر للطالب المجدّ الحصول على أغلب المراجع إما منحة من الجامعة أو إعارة من مكتباتها أو شراء واقتناء. ولم يبق على طالب العلم اليوم إلّا قوة العزيمة وعلو الهمة والجد والمثابرة. وإن الطالب المثالي اليوم لهو الذي يقرأ ويحصّل ليس كل ما كتب الأئمة كالشافعي وأمثاله وجمعوا في تلك العظام، بل إنما الطالب المجد المثالي اليوم الذي يقرأ أو يدرس بعض ما ألف وكتب ووصلنا من علم هؤلاء الأعلام وما حوته تلك العظام. وكما قيل: على قدر أهل العزم تأتي العزائم، ورحم الله إمامنا الشافعي على ما رسم لنا من مناهج التحصيل وأبرز لنا ما منّ الله علينا تيسير التحصيل، ووفّق الله الجميع لما يحبه ويرضاه.



المرحلة الثالثة للإمام الشافعي رحمه الله في طلبه للعلم

كانت مرحلته الأولى مرحلة الكتّاب، وكانت الثانية في المسجد الحرام، أما الثالثة فكانت في مسجد النبي عليه أفضل الصلاة وأتم السلام. وذلك بعد أن أتم أخذ بعض المسائل بالحرم المكي وحفظ الموطأ رحل من مكة إلى المدينة. وقال الشافعي عن نفسه فيما جاء في توالي التأسيس لابن حجر، قال: حفظت الموطأ ثم دخلت على والي مكة فأخذت كتاباً إلى والي المدينة وإلى مالك، فأتيت مالكاً فدفع والي المدينة له الكتاب، فلما قرأه رمى به وقال: «يا سبحان الله أَوَ وصار علم رسول الله ﷺ يؤخذ بالرسائل؟! يعني: بالوسائط.

وفي رواية أخرى يقول الشافعي رحمه الله: كان مسلم بن خالد الزنجي فقيه زمانه يقول: جالست مالك بن أنس في حياة جماعة من التابعين، قال: وسألت مسلم بن خالد حين أردت الخروج إلى مالك أن يكتب لي إليه فكتب لي إليه فأخذ مالك كتابه مني وقرأه. التوالي ص٥٥.

نأخذ من هذا أن العلم وتحصيله ليس يخضع للوساطة من ذوي المناصب العالية لأنه هبة من الله ونور يقذفه المولى في قلب من شاء من طلابه؛ أما كتابة العلماء بعضهم لبعض فبمثابة التعريف سواء بالطالب أو بدرجة تحصيله. وليس في ذلك وساطة. يقول الشافعي: إنه لما ألقى مالك كتاب الوالي قال له: أصلحك الله إن من قصتي كذا وكذا. قال: فنظر إلى ساعة، وكانت له فراسة فقال: ما اسمك؟ قلت: محمد. قال: يا محمد اتق الله فسيكون لك شأن. فقلت: نعم وكرامة. وكان عند قدومه هذا ابن ثلاث عشرة سنة.

كيفية أخذه عن مالك:

قال ابن أبي حاتم حدثنا الربيع بن سليمان ـ يعني: عنه ـ قال: سمعت الشافعي يقول: قدمت على مالك وقد حفظت الموطأ ظاهراً، فقلت: إني أريد أن أسمع الموطأ. فقال: أطلب من يقرأ لك يا غلام: قلت: لا، عليك أن تسمع

قراءتي، فإن سهل عليك سماعها قرأت لنفسي. قال: اطلب من يقرأ لك. قلت: لا، عليك أن تسمع قراءتي، فإن سهل عليك قرأت لنفسي. قال: اطلب من يقرأ لك. وكررت عليه. فقال: اقرأ. فلما سمع قراءتي قال: اقرأ، فقرأت عليه حتى فرغت منه. وقد روى عن نفسه أن مالكاً قد أذن له أن يقرأ الموطأ على القادمين عليه من أقطار الدنيا في موسم الحج أو غيره ثقة فيه وطمأنينة لحسن أدائه.

وهنا وقفة مع طلبة العلم في هذه المرحلة من عدة جهات:

أولاً: قوة هذه الحافظة لهذا الغلام يحفظ الموطأ عن ظهر غيب وهو يحوي نحو الألفي حديث مع العديد من الآثار ومع أقوال مالك وآرائه. ولا غرابة في ذاك الجيل فقد حفظ القرآن من قبل ذلك وحفظ أشعار الهذليين. وقد سمعت من والدنا الشيخ الابن رحمه الله أنه حفظ القرآن قبل البلوغ وقد أجمع علماء الأمة في العصور الأولى أن حفظ المتون بمثابة رأس المال يعمله التاريخ الحصيف. وقديماً قيل: من حفظ المتون حاز الفنون.

وأحب أن أقول: إن مناهج التعليم الأولى كانت مناهج تحصيل منظم يبدأون بالأوائل ثم يتدرجون إلى التوالي ولا يجمعون العلوم جمعاً؛ أي أن الطالب كان يفرد العلم الواحد فإذا أخذ غايته منه انتقل إلى ما يليه.

أما اليوم فإن الطالب يرهق بالجمع بين عدة علوم في وقت واحد معاً، يزاحم بعضها بعضاً. ففي اليوم الدراسي الواحد ينتقل ذهنه من النحو إلى الفقه إلى الهندسة إلى التوحيد إلى التقويم إلى الإنجليزية... إلخ. فمتى يركّز ومتىٰ يحفظ بل إن بعض الموجهين التربويين العصريين لا يحبذون الحفظ بقدر ما يدعون إلى الفهم. ونحن نقول: إن المواد العلمية ليست سواء فمنها ما يلزم فيها الحفظ ثم الفهم، ومنها ما يكفي فيها الفهم.

ومن المواد ما هو أساسي ومنها ما هو تكميلي أو بالأصح منها ما هو غاية ومنها ما هو وسيلة. نسأل الله التوفيق لرجال التربية والتعليم لتقويم مناهجنا لأقوم طريق.

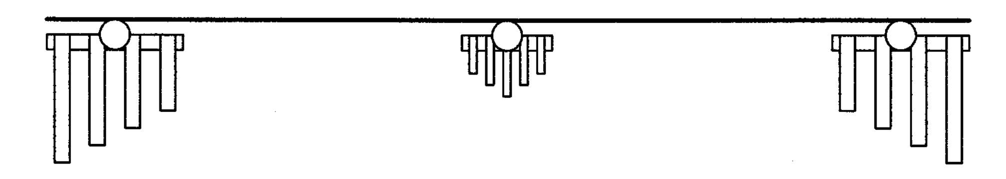
ثانياً: من جهة ما كان عليه الحال عند العلماء من لزوم جودة القراءة حتى إن مالكاً ليطلب من الطالب الجديد من يقرأ له. وهنا تظهر ثقة الطالب بنفسه وثبات جأشه وحسن تلطفه مع شيخه: أصلحك الله، لا عليك أن تسمع

قراءتي فإن أعجبتك فإن سهل عليك سماعها قرأت لنفسي. وهذا والله عين العقل والإنصاف ولذا رجع مالك وقبل منه وأذن له أن يقرأ.

ثالثاً: حسن القراءة: إن ألزم ما يكون لطالب هو في الدرجة الأولى جودة القراءة كجزء من معرفة العربية. ولا يكفي أن يلم بها إلمام العوام لأن عربية العوام عامية العربية. وعربية العلماء هي العلم بالعربية ومعرفة العربية هي مفتاح العلوم وهي التي تربي الملكة. ومن زمن قرأت لكاتب أظنه نمساوياً مستشرقاً قال: من أراد الطب والهندسة والأدب فليبدأ بتعلم العربية فإنها تربي الملكة. وقد كان الشافعي يرى أن تعلم العربية فرض عين على كل مسلم وقد صادف له أن تضلع من العربية الفصحى وكذلك عن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد جاء عنه ﷺ في حسن القراءة وحسن الأداء في حق كتاب الله نصوص عديدة: منها قوله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع العشرة الكرام البررة... إلخ». ومنها أنه ﷺ قال: «ما أذن الله لشيء يعني إذنه لنبي يتغنىٰ بالقرآن» يعني: تحسين الصوت به في حدود قواعد الأداء ومنها: «زينوا القرآن بأصواتكم». وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنه ﷺ سمع أبا موسى الأشعري يقرأ القرآن فقال: لقد أُتي من مزامير آل داود. ذكر هذه الآثار كلها النسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فضائل القرآن. بل حسن البيان من خصائص الإنسان وهو من أعظم الامتنان من الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ - ٤]. وقد امتدح النبي ﷺ الخطيب والمتكلم الذي مدح فأحسن وأشاد ثم ذم فرد وتنقص وما نقص ولا زاد، فلما سئل عن ذلك قال: والله يا رسول ما كذبت ولكني أحببت. فقلت: أحسن ما عرفت وكرهت. فقلت: أبغض ما عرفت، فقال ﷺ: «إن من البيان لسحراً». وذلك أن المتكلم استطاع أن يعبر أبلغ تعبير في حالتي الغضب والرضا.

والذي يهمنا أن ننبه على طلبة العلم أن يعنوا بتعلم العربية مفرداتها وتراكيبها وحسن الأداء. وأذكر مجيء الشيخ صادق عرنوس من أهل الحديث بمصر، جاء إلى دار الحديث بالمدينة فوجد طلابها لا يعنون بالأداء ولا بالإنشاء فرتب درساً بعد الظهر بالمسجد النبوي لذلك. وتلك هي حالة الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ شفع له حسن قراءته عند شيخه أن يقرأ لنفسه ويحظي بإعجابه، وكان أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: الشافعي حجة في اللغة.



المرحلة الرابعة
من مراحل التحصيل عند الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

كانت الأولى في الكتّاب فحفظ القرآن والثانية في المسجد الحرام أخذ مسائل الفقه وحفظ الموطأ والثالثة رحلته إلى مالك وقراءته الموطأ عليه.

وفيها كان مالك ينيبه عنه في قراءة الموطأ على بعض القادمين عليه، ومكث عنده في الأولىٰ ثمانية أشهر قدم عليه وعمره ثلاث عشرة سنة أملى الموطأ على الكثيرين وكانت المرحلة الرابعة في تحصيله هي مرحلة رحلاته بين الأقطار الأربعة: الحجاز والعراق واليمن ومصر تردد عليها مراراً. كالآتي: قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رأيت بين القبر المنير فتى جميل الوجه نظيف الثياب حسن الصلاة فتوسمت فيه خيراً فسألته عن اسمه وعن بلده فقال: العراق، فسألته: من العالم بها والمتكلم في نص الكتاب والسنة؟ فقال لي: محمد بن الحسن وأبو يوسف صاحبا أبي حنيفة. فعرف منه موعد سفره فرجع إلى مالك وقال له: قد خرجت من مكة في طلب العلم، بغير استئذان العجوز فأعود إليها أو أرحل في طلب العلم، فقال لي: العلم فائدة يعود منها إلي عائدة. ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب؟ قال: وزودني مالك بصاع من أقط وصاع من شعير وصاع من تمر وسقاء ماء ثم حمل بعض الأداوت وسار معي مشيعاً إلى البقيع، فصاح بعلو صوته: من معه كرى راحلته إلى الكوفة فقلت له: ولم تكتري ولا شيء معك ولا شيء معي؟ فأخبرني بأن عبد الرحمن بن القاسم المصري قد أهدى إليه البارحة مائة مثقال فقاسمتك إياها.

وهنا وقفة طويلة: شاب بل غلام لم يبلغ الحلم تعلو همته إلى هذا الحد في الرحلة لطلب العلم وها هو عند شيخه إمام دار الهجرة وقد حصّل خلاصة ما عنده موطأته فتتوق نفسه إلى الاستزادة. وهنا تبرز لنا تلك الصلة الأبوية بين

الطالب وشيخه في استشارته إياه، والحنان والعاطفة من الشيخ لتلميذه فينصح له بالمعني في الطلب ثم هو يزوده للسفر.

ومرة أخرى مع هذا الزاد إلى العراق. صاع من أقط وتمر وشعير وسقاء ماء رحلة طويلة وزاد كفاف، ثم ها هو مالك يشيعه إلى محل المكاراة ويستكري له الجمل ويتعفف الشافعي الغلام شفقة بشيخه على ما يعلم من قلة يده، ولكن الله تعالى أكرم الأكرمين يسوق بالليل هذا الطالب النبيل ابن القاسم ليهدي لشيخه، والشيخ الكريم يقاسم تلميذه. إنها حقاً وصية رسول الله ﷺ لأهل المدينة بطلاب العلم القادمين عليهم من أقطار الدنيا.

وبعد أربعة وعشرين يوماً وصل الشافعي إلى العراق إلى الكوفة واجتمع بالإمامين أبي يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي أبي حنيفة، استضافه الإمام محمد فكتب عنه الشافعي علم أبي حنيفة وكتب حمل بعير عن محمد بن الحسن رحمه الله، ثم طوّف الشافعي بالبلاد شمالاً وجنوباً زار بغداد ومنازل وربيعة ومصر والأناضول ثم حران وأخيراً عاد إلى فلسطين وأقام بالرملة.

ووقفنا هنا مع طلبة العلم لنزيل حواجز التعصب ونتخطى عقبات التحيز، فها هو الشافعي وكما قدمنا أنه برحلاته وفي مراحل تحصيله كان همزة وصل والعامل المشترك بين الأئمة رحمهم الله. فها هو يرحل عن مالك إلى أصحاب أبي حنيفة فيأخذ عنهم ويكتب كتبهم «حمل بعير»، وقد جرت له محادثات ومناظرات مع محمد بن الحسن أوردتها كتب التراجم حتى تطرق الحديث إلى الشيخين الكبيرين: مالك شيخ الشافعي وأبي حنيفة شيخ محمد وأبي يوسف وكانت بأدب رفيع وإنصاف عادل؛ إذ قال محمد للشافعي: صاحبنا أم صاحبكم؟ يعني: أبا حنيفة ومالكاً، فقال له الشافعي: على النصفة ـ أي العدل ـ دون محاب ومجاملة. قال: نعم. فقال الشافعي: أسألك بالله من أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ صاحبنا أم صاحبكم؟ فقال محمد: اللهم صاحبكم. قال الشافعي: لم يبق إلا القياس فعلام يقيس صاحبكم إلا على هذين؟ هكذا كانت رحلة الشافعي الأولى إلى العراق لقي فيها صاحبي أبي حنيفة. ثم عاد بكتبه إلى الرملة استغرقت تلك الرحلة سنتين، وقف منها عن كتب على أوضاع ذلك القطر الكبير.

ثم عودته إلى المدينة: وفي أثناء إقامته بالرملة لقي ركباً من المدينة سألهم عن مالك فأخبره بحسن حاله فتوجه إلى المدينة. فدخلها عصراً فدخل المسجد فوجد كرسياً وحوله طلبة العلم بدفاترهم قال: نحو الأربعمائة دفتر. فجلس في الحلقة وجاء مالك فأخذ يلقي المسائل وقال: من يجيب عليها؟ فأخذ الشافعي يلقن رجلاً بجواره الجواب فاسترعى انتباه مالك فسأل هذا الذي يجيب: من أين لك بهذه الإجابات؟ فقال: شاب بجواري فاستدعاه مالك فإذا هو الشافعي فتعانق معه وأكرمه. وأخذه معه إلى بيته ومكث الشافعي هذه المرة عند مالك بالمدينة أربع سنوات. حتى توفي مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في شهر ربيع الأول سنة ١٩٧ ودفن بالبقيع، وكان الشافعي قد بلغ من العمر ٢٩ سنة. وبعد وفاة مالك افتقد الشافعي الشيخ الذي كان يحنو عليه، وصادف أن جاء والي اليمن إلى المدينة وصحب الشافعي معه إلى صنعاء وقلده عملاً فأحسن إدارته ونال ثناء الناس وأحبه الوالي. وذلك أن من كان قبله في هذا العمل كان يظلم ويجامل ويأخذ الرشوة. أما الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ فأبعد الناس عن ذلك وقد تعلم علم الفراسة وكان مشهوراً باليمن حتى تفوق فيه عليهم. وهنا نعلم أن العمل الرسمي لا يمنع من مواصلة طلب العلم.

وفي اليمن حدثت له محنة أوشى به حاسدوه إلى الخليفة هارون الرشيد أنه يتزعم حرب العلويين، وأنه يعمل بلسانه ما لا يعمل المقاتل بسنانه وحسامه. فحمل العلويون إلى بغداد ومعهم الشافعي، فقدم العلويون وضربت أعناقهم ولما قدم الشافعي سلم على الخليفة وجرت محادثة جليلة أعجب بها الرشيد وأمر بفك القيد عنه وأخذ معه في الكلام عن كتاب الله وسنة رسوله والعلوم المتنوعة من طب وفلك وفراسة، وأخيراً طلب الخليفة من الشافعي أن يعظه، فوعظه حتى بكى، ثم أكرم الخليفة وفادته فعاد الشافعي إلى مكة.

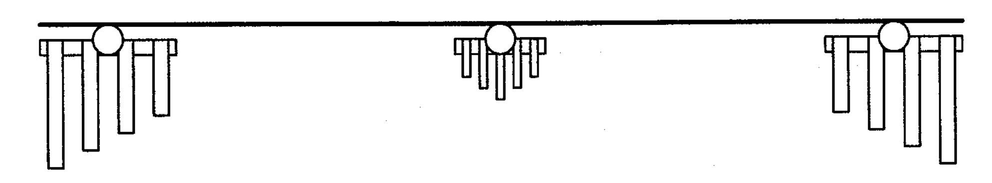
وهنا وقفة مع طلبة العلم ورجال السيادة والمسؤولين عن الأمة فهذا الشافعي ولي عملاً إدارياً، وأحسن إدارته فأبطل الباطل وأحق الحق وقضى على الفساد فلا يزهدن طالب علم أن يعمل لولاة الأمر عملاً إدارياً بل إنه أولى من يتولاه. وإلا قام فيه من لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً. ونبي الله يوسف طلب أن يكون على الخزائن لقوته وعلمه ومع ولاة الأمر بما قال

الشافعي للخليفة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦].
وليتق الله أولئك الظلمة في عباد الله الصالحين وليجتنبوا السياسة. مسلك الناس فإن أخوف ما يخافه المولى هو خطر السياسة؛ لأنه يهددهم في مناصبهم وكما قيل: إن هذا الملك عقيم.

ثم مع كل صاحب حق فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فهذا الشافعي اتهم ظلماً وها هو يتلطف مع ولي الأمر وإن كان قد سمع الوشاية فيه. فقد عذره الشافعي وألان معه الكلام ليجد منفذاً إلى قلبه فيعي ما يقوله، وقد كان.

وهنا نجد حسن العواقب مع حسن الأسلوب، فهذا متهم في السياسة يؤتى به مكبلاً بالحديد تضرب أعناق رفاقه. فيثبت رابط الجأش ويخاطب الخليفة بكل ثبات وتقدير، فينتهي بانتزاع براءته ويحصل على جائزة الخليفة ويتقدم إلى الخليفة بطلب الموعظة ويعود مكرّماً إلى مكة بالعطاء والهدايا موفور الكرامة رفيع المنزلة وقسم كل ما معه على أهله وذويه، وبالله التوفيق.





المرحلة الخامسة

والأخذ من مراحل تحصيل الشافعي وطلبه للعلم

بعد عودة الشافعي عن هارون الرشيد ووصوله إلى مكة ألقى عصا التسيار سبع عشرة سنة. كانت إقامته هذه إقامة تعليم وتدريس نتاج تطوافه وترحاله، وسأماً مما رمي به ظلماً. وقد أصبح آمناً في وطنه، ولكنه قنع بما حصل فقد أخذ علم المدينة عن مالك وعلم العراق عن أصحاب أبي حنيفة وعلم الفراسة في اليمن ولم يعد أمامه في الأمصار من تلزم الرحلة إليه، فمكث ينشر العلم على العالم كله بواسطة الحُجّاج الذين يأتون من كل فج عميق.

وهذه فرصة علماء الحرمين تكفيهم وفود الحجاج في نشر العلم عن الرحلة قي إبلاغه، حيث إنهم سينقلونه إلى بلادهم كما جاء في خطبة الوداع: ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

ولهذا نجد علماء الأقطار الإسلامية يفدون إلى الحرمين لطلب العلم والتزود من منابعه ومستقره. ولا نجد علماء الحرمين يرحلون إلى أي قطر كان مثل مالك وربيعة والفقهاء وأمثالهم ومن جاء بعدهم. وهذه فرصة ننبه عليها طلبة العلم والعلماء والدعاة بأرض الحرمين الشريفين وخاصة في مواسم الحج أن يبذلوا وسعهم للدعوة إلى الله وإرشاد الحجيج، سواء في شؤون الحج والمناسك وما يتبع ذلك، أم في غير ذلك من إحياء السنة.

وهنا الشافعي رَحِمَهُ اللهُ رحل لعدة أقطار وحصّل العلم على عدة مراحل. ومرحلته هذه هي الأخيرة فقد عاد من المدينة بعد وفاة مالك إلى العراق بعد أن تغير الموقف السياسي هناك.

فكان وجوده في هذا الأخير وللمرة الثالثة يجمع بين التعليم والمناظرة في العلم، فناظر محمد بن الحسن فيما يتعلق بمذهب أهل المدينة وغيره وناظر جماعة من العراقيين على بدعة كانوا عليها: قال حسين الكرابيسي: كنا

وجماعة من العراقيين ما تركتنا بدعتنا حتى رأينا الشافعي. وحكى صاحب حلية الأولياء عن أبي ثور قال: لما ورد الشافعي العراق جاءني حسين الكرابيسي وكان يختلف معي إلى أصحاب الرأي فقال: قد ورد رجل من أصحاب الحديث يتفقه فقم بنا نسخر منه، فذهبنا حتى دخلنا عليه. فسأله الحسين عن مسألة فلم يزل الشافعي يقول: قال الله وقال رسول الله حتى أظلم علينا البيت فتركنا بدعتنا واتبعناه. وفي هذا يقول أحمد: ما رأيت أتبع للحديث من الشافعي. وكان الشافعي يقول لأحمد: ما صح عندكم من الحديث فأخبرني لنعمل به.

ونحن وإن كنا نستبعد مقالة أبي ثور: «نسخر منه» إلا أن المستفيض عن الشافعي قوة الحجة، والذي يهمنا أنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان أشد الناس أخذاً بالحديث كما شهد له أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ.

كما يهمنا أن تلك المناظرات مما يشحذ الذهن ويقوي الملكة ويستوجب الاستيعاب وسعة الاطلاع مِن طالب العلم وخاصة في الحرمين وبالأخص في مواسم الحج إذ يفد من جميع الأقطار ومن أصحاب جميع المذاهب. وقد جمع الشافعي بين الحديث والفقه كما جاء عن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: ما رأيت اتبع للحديث من الشافعي. وقال: ما سبق أحد الشافعي إلى كتابة الحديث.

وأحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يقدم مجالس الشافعي في الفقه على مجالس ابن عيينة في الحديث، قال صاحب توالي التأسيس: «إن البزاز» حج مع أحمد ونزل معه منزلاً بمكة وخرج أحمد باكراً وخرج هو بعده. فقام يبحث عنه قال: وجدته عند شاب أعرابي وعليه ثياب مصبوغة...

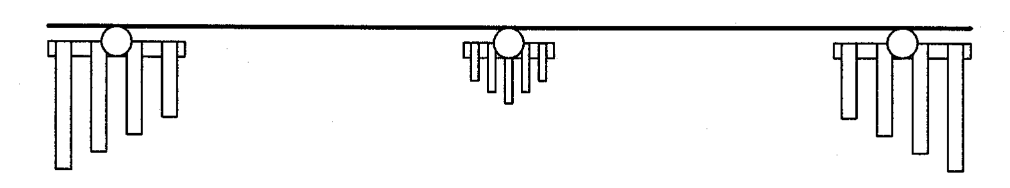
حتىٰ قعدت عند أحمد فقلت له: تركت ابن عتيبة وعنده من الزهري والتابعين ما الله به عليم. فقال له أحمد: اسكت فإن فاتك حديث بعلو سند تجده بنزول ولا يضرك في دينك ولا في عقلك ولا في فهمك: وإن فاتك عقل هذا الفتى أخاف أن لا تجده إلى يوم القيامة، ما رأيت أفقه في كتاب الله من هذا الفتى القرشي. قلت: من هذا؟ قال: محمد بن إدريس الشافعي.

ومن هنا، فإنا نرى أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يحتج بقول الشافعي: فيما ليس فيه نص كما روى صاحب حلية الأولياء ص١٠٣ أن حميد بن أحمد البصري قال: كنت عند أحمد فتذكرنا مسألة فقال رجل لأحمد: يا أبا عبد الله، لا يصح فيه

حديث. فقال: إن لم يصح فيه حديث ففيه قول الشافعي وحجته أثبت شيء فيه. ونقل أيضاً مقاله عن أبي العباس الساجي أنه قال: سمعت أحمد بن حنبل ما لا أحصيه في المناظرة تجري بيني وبينه وهو يقول: هكذا قال أبو عبد الله الشافعي.

ولعل الوقفة هنا طويلة لكننا نوجزها لضيق الوقت فنقول لبعض طلبة العلم المتأخرين الذين استمت تصرفاتهم بضيق الصدر من أصحاب المذاهب ورموا كل من أخذ بأقوالهم بالتقليد والتعصب وإني أردهم وبرفق إلى إمام المحدثين أحمد رَحِمَهُ اللهُ: وقد روي عنه أنه كان يصلي ويدعو في صلاته لوالديه وللشافعي. وروي عنه كلام عجيب إذ قال: ما عرفنا الناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد حتى جالسنا الشافعي. وقال: أهل الحديث كانوا نياماً فأيقظهم الشافعي وقال: كان الفقه مغلقاً على أهل الحديث حتى فتحه لهم.. إلى غير ذلك. وكان رَحِمَهُ اللهُ يحث على كتابة كتب الشافعي؛ روى صاحب الحلية أيضاً عن محمد بن مسلم بن وارة يقول: قدمت من مصر فأتيت أبا عبد الله أحمد أسلّم عليه فقال: كتبت كتب الشافعي؟ قلت: لا. قال: فرطت ما علمنا المجمل من المفصل ولا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه حتى جالسناه. قال: فحملني ذلك إلى أن رجعت إلى مصر وكتبتها.

وبخصوص كتب الشافعي فقد كانت له كتب بالعراق وكتب بمصر وله ما يسمى بالقديم والجديد، وقد بين لنا أحمد رَحِمَهُ اللهُ المنهج الأقوم في ذلك أنه سئل: ما ترى في كتب الشافعي التي عند العراقيين أحب إليك أو التي عندهم بمصر؟ قال: عليك بالكتب التي وضعها بمصر فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحلها. ثم رجع إلى مصر فأحكم ذاك. ثم أقول: إن العلماء متفقون على القول: بالأحدث. وعلى طالب العلم واجب إذا ألف أو كتب أو أفتى ثم بدا له في ذلك أن يمحص ويتبين. ولقد انتهت هذه المرحلة للشافعي إلى مصر وهناك حرر ونقّح كتبه وتأليفه مما استفاضت في أقطار الدنيا. وروي عن أحمد في حديث: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها». فقال أحمد: كان على المئة الأولى عمر بن عبد العزيز وعلى الثاني الشافعي. فرحمه الله وجزاه أحسن الجزاء. وبالله التوفيق.



مؤلفات الشافعي

إن مؤلفات العالم وآثاره العلمية هي نتيجة تحصيله ومرآة منهجه، وهي الثروة الإسلامية التي يورثها الأئمة من بعده وهي الأثر الباقي من بعده كما جاء عن أبي هريرة ﷺ أنه مر في طريقه بنفر يتحدثون فقال لهم: أنتم هنا وتركة محمد ﷺ تقسم في المسجد ولا حظ لكم منها؟ فذهبوا إلى المسجد وذهب هو إلى حاجته. وفي عودته وجدهم في مكانهم الأول ينتظرونه فقالوا له: ما هذا يا أبا هريرة أخبرتنا بأن تركة محمد ﷺ تقسم في المسجد فذهبنا فلم نجد شيئاً؟! فقال: وماذا وجدتم في المسجد؟ قالوا: وجدنا فلاناً وفلاناً يحدث عن رسول الله ﷺ فقال: هذه والله هي تركة محمد فإنه لم يورث ديناراً ولا درهماً. وقال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة». ومعلوم أن النبي ﷺ لم يكن ليجمع الدنيا ليورثها غيره من بعده. إنما ورث الكتاب والسنة. والعلماء ورثة الأنبياء وبالنظر في تركة الأئمة رحمهم الله نجد الآتي:

أولاً: لقد ترك لنا مالك رحمه الله موسوعته العلمية «الموطأ» وتقدم الكلام عليه، وإنه كما قال عنه الشافعي رحمه الله: أصح كتاب بعد كتاب الله وقد جمعه في أربعين سنة ونقّحه ولم يُدخل فيه أثراً ضعيفاً لا مرفوعاً ولا موقوفاً، ورتبه على أبواب الفقه وبناه على الكتاب والسنة وآثار الصحابة وأقوال التابعين وما اتفق عليه علماء المدينة قولاً أو فعلاً. وقد شمل أبواب الفقه وختمه بكتاب جامع ضمّنه آداباً وتوجيهات إسلامية عالية، وكان هو أصل مذهبه من بعده.

ثانياً: ترك لنا الإمام أحمد رحمه الله «المسند» وهو أوسع وأشمل موسوعة حديثية اشتمل على ثلاثين ألف حديث، سوى المكرر نحو عشرة آلاف حديث ولم يودعه حديثاً مجمعاً على تركه. وقد انتقى ما فيه من ٧٥٠٠٠٠ سبعمائة وخمسين ألف حديث.

بينما صحيح البخاري وصحيح مسلم كلاهما يشتمل كل واحد منهما على

نحو أربعة آلاف حديث، وأبو داود والنسائي كل واحد منهما يشتمل على نحو خمسة آلاف حديث، والترمذي وابن ماجه كل منهما في حدود الأربعة آلاف حديث، أي مجموع الصحاح الست سبعة وعشرون ألف حديث. فلم يبلغ مجموعها ما في مسند أحمد رحمه الله.

ومن خلال تلك الموسوعة الكبرى من الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله ﷺ كان مذهب أحمد رحمه الله. وذلك أنه كان رحمه الله يسأل عن المسائل الفقهية في الفروع العملية ويجيب استناداً لما جمعه من الأحاديث النبوية الشريفة حتى تكونت مجاميع مسائل «أحمد»؛ منها ما جمعه «الكوسج» عن أحمد وابن راهويه، ومنها مسائل ابنه عبد الله، ومنها مسائل النيسابوري، ومنها مسائل أبي داود سليمان بن الأشعث وهو صاحب السنن المشهورة بسنن أبي داود وتلك المسائل تعتبر موسوعات فقهية. دوّنها أصحاب أحمد عنه وعليها بنى مذهبه وقد اشتملت على ما فيه الرواية والروايتان. وقد حققت وطبع أكثرها وهي متداولة بأيدي طلبة العلم ولله الحمد.

ثالثاً: الإمام أبو حنيفة رحمه الله. لم يعرف على سبيل التحديد له مؤلف في الفقه كبيراً كان أو صغيراً، ولكن له كتاب بعنوان «الفقه الأكبر» وهو في أوراق قلائل وموضوعه في العقائد وليس فيه شيء من الفقه العملي شيء وله مسند في الحديث ليس فيه من مسائل الفقه وهو في خمسين صحيفة. ولكن لتلاميذه أبي يوسف ومحمد تآليف عديدة عليها بني المذهب الحنفي، سواء ما كان منها سماعاً عن أبي حنيفة رحمه الله أو اجتهاداً منهم فقد كان عصر الإمام أبي حنيفة عصر حفظ وتجميع، ولم يكن التدوين مستفيضاً وقد تبلور كل ما كتبه أصحاب الإمام في تلك المؤلفات العديدة مسائل وفتاوى مما هو مستفيض بأيدي الناس اليوم.

رابعاً: أما إمامنا الشافعي فإنه كان نموذجاً في تأليفه، ذا منهج متميز في ترتيبه يصور ذلك ما أثر عنه مما كتبه وأملاه من ذلك «جماع العلم» رسم فيه منهج الاحتجاج بالسنة وبين فيه الرد على رد الأخبار وادعى الاكتفاء بالقرآن فقط، وهو من أنفس ما ألف في ذلك. ويعد جامعاً بين الأصول والفروع حيث يناقش فيه الخصم ويحتج عليه. وكذلك كتاب الرسالة: وهي أول رسالة في

أصول الفقه نظمت قواعده وأرست أصوله وفصلت فروعه على نمط البحث والمناظرة. ثم له الموسوعة الكبرى ما يسمى «بالأم»، وهو فعلاً كالأم بالنسبة للمذهب يتكون من ثمانية أجزاء كله مسائل فقهية منثورة في أبواب الفقه؛ ابتداء من مباحث الطهارة فالصلاة والصيام إلى نهاية المعاملات فالجهاد وما يترتب عليه من رق وعتق... إلخ.

ويتميز إيراده للمسائل أنه يدعمها بالأدلة ويلاحظ أنه طالما يورد آثاره عن طريق مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ مما يقوي الارتباط بين الإمامين رحمهما الله.

ثم هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد ضمّن كتابه «الأم» عدة عناوين لعدة كتب هي في ذاتها مناهج علمية وتوجيهات منهجية لطلبة العلم سلك فيها مسلك النقد والبيان والتوضيح منها:

١ ـ كتاب: ما اختلف فيه أبو حنيفة.

٢ ـ ما اختلف فيه مالك والشافعي.

٣ ـ ما اختلف فيه علي وابن مسعود.

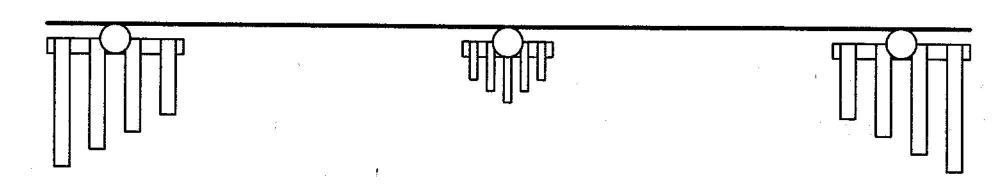
٤ ـ ما اختلف فيه ابن عباس.

٥ ـ ما اختلف فيه زيد بن ثابت.

فيورد المسألة التي اختلف فيها هؤلاء على الجمهور، ويورد القول الصحيح مع دليله كما له كتاب الرد على محمد بن الحسن. والرد على سير الأوزاعي وإبطال الاستحسان الذي يعتبره البعض أصلاً في أصول الفقه، وكتاب صفة نهي النبي ﷺ.

وبتأمل تلك العناوين نجد مؤلفات الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليست موسوعات فقهية فحسب، ولكنها مناهج توجيهية لطلبة العلم تزكي الفكر وتنمي العقل وقد جاء عنه قوله: ما ناظرت أحداً إلا وتمنيت إظهار الحق. وقوله: وددت أن هذا العلم وصل إلى الناس ولم يعلموا من أين أتاهم، ليكون لي أجره ولا أتحمل مسئوليته. إنه الإخلاص لوجه الله ولهذا انتشرت كتبه واستفاض علمه فرحمه الله ورحم أئمة المسلمين ولذلك انتشر علمه. وبالله التوفيق.





قرّاء الحرمين الشريفين

بعد أن قدمنا نماذج لعلماء الحرمين الشريفين بدءاً من صحابة رسول الله ﷺ ثم التابعين ومن بعدهم بإحسان إلى الأئمة الأربعة رحمهم الله منهم: الإمام مالك رحمه الله بالمدينة والإمام الشافعي رحمه الله بمكة، فإنه يتوجب علينا أن نقدم ما أمكن عن هؤلاء الصفوة الأجلاء من أئمة القراء الذين انفردوا وتفرغوا لخدمة كتاب الله حفظاً وتحفيظاً وتلاوة وأداء، ودونوا القراءات تلقياً وتلقيناً فتناً قلته الأمة صورة حية مضيئة نقية تساير الأزمان مشعة تضيء بأنوارها في كل مكان. تزيد التلاوة حلاوة لتاليه ومستمعيه تنشرح لها الصدور، وتميل إليها النفوس وتطمئن إليها القلوب: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ..﴾ الآية [الزمر: ٢٣]، وأعظم ما يساعد على هذا كله حسن التلاوة وجمال الترتيل: كما حثّ سبحانه عليه بقوله لصفيه وحبيبه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ② نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ③ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ④ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ⑤ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ⑥﴾ [المزمل: ١ ـ ٦]، لقد جاء ترتيل القرآن مقدمة لتحمل ما سيلقى عليه ﷺ من القول الثقيل في الوحي. وجاءت ناشئة الليل هي أشد وطءاً وأقوم قيلاً. وفي مقدمة الأقوم قيلاً هنا هو حسن الترتيل في صفاء الجو وهدأة الليل وحلاوة المناجاة.

وجاءت السنة النبوية بالحث على حسن التلاوة وبتزيين الأصوات للقرآن، من ذلك ما ساقه النسائي رحمه الله في فضائل القرآن ساق بسنده إلى النبي ﷺ أنه قال: «زينوا القرآن بأصواتكم». اهـ وهو موجود في صحيح البخاري وغيره.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ قال: «لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود»، وهو أيضاً في الصحيح وغيره. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما

أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به». وعن ابن مغفل أن النبي ﷺ قرأ يوم فتح مكة بسورة الفتح فما سمعت قراءة أحسن منها «يرجع» أي يرجع التلاوة، وكل ذلك لا يتأتى إلا بوجه من العناية والإتقان، كما جاء في خبر أبي موسى الأشعري المتقدم أنه ﷺ لما أصبح ذكر لأبي موسى أنه استمع إليه البارحة فقال أبو موسى: لو كنت أخبرتني (أي أنك تسمع) لحبّرته لك تحبيراً. أي جودته وزينته، كل ذلك وغيره من النصوص يحثنا على العناية بتلاوة كتاب الله على الوجه الذي يزيده تأثيراً وتحبيراً وهذا ما قام به علماء القراءة وأئمة القراء. فقعّدوا القواعد وبوّبوا الأبواب وأصبح علم أو فن القراءات متميزاً بذاته تدرس فيه كيفية الأداء، وتعرف منه صحة الوقوف والوصل وصنفت فيه الحروف باعتبارات مختلفة من حيث مخارجها لكمال صحة النطق بها فمنها الجوفي ومنها الحلقي ومنها الشفهي. ومن جهة صوتها فمنها أحرف الهمس ومنها أحرف الصفير ومنها المرققة ومنها المخففة ومنها حروف القلقلة. ومنها حروف الإظهار والإدغام والإخفاء وحروف المد ومقاديرها، ووضعت لهذا كله المقاييس التي لم تعرفها أمة من الأمم ولم يحظ بها كتاب من الكتب. وها نحن بفضل الله اليوم وإلى ما شاء الله ثم بفضل هؤلاء الأئمة القراء نقرأ كتاب الله غضّاً كأنه اليوم أنزل وهذا من آثار قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

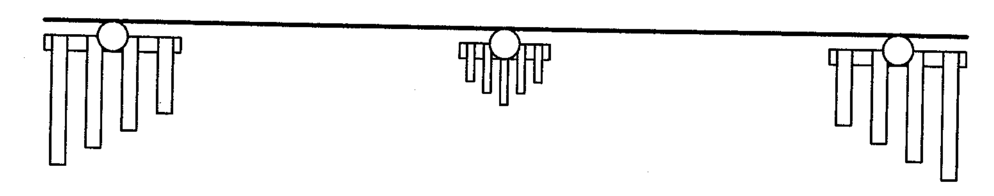
فكما حفظه سبحانه من الضياع والتغيير والتبديل بتوفيق الشيخين الجليلين والخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وعثمان رضي الله عنه لجمعهم من اللخاف والأكتاف والرقاع ومن صدور الحفاظ، فدوّنوه في صحف حفظته فكذلك وفق الله عثمان رضي الله عنه فدونه في الجَمعة الثانية صورة تلاوته وقراءته. وكانت عنها بداية علم القراءات علماً متميزاً استقى منهجه وقواعده من سابق نشأة تعدد القراءات وصورها على عهد رسول الله ﷺ.

نشأة القراءة:

معلوم أن الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم قد تلقوا القرآن عمن أنزله الله تعالى عليه ﷺ مشافهة وتلقيناً، فقد يتلقى بعضهم الآية أو السورة على نحو ثم يتلقاها البعض الآخر على نحو آخر. كما وقع لعمر بن الخطاب رضي الله عنه

مع هشام بن حكيم سمعه عمر يقرأ سورة «الفرقان» في صلاته على غير ما سمعها عمر من رسول الله ﷺ في أحرف كثيرة قال عمر: فكدت أساوره في صلاته. فانتظرته حتى سلم ثم لببته بردائه. فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأ فيها رسول الله ﷺ. قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها وأنت أقرأتني سورة الفرقان. فقال رسول الله ﷺ: «أرسله يا عمر اقرأ يا هشام» فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها. قال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت». وفي رواية قال: «اقرأ يا عمر» فقرأت كما أقرأنيها أولاً. فقال ﷺ: «هكذا أنزلت»، ثم قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه». وروى مسلم أن أبي بن كعب كان بالمسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرها كعب، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه. فلما قضوا الصلاة قال: دخلنا على رسول الله ﷺ جميعاً فأخبرته. فأمرهما فقرأ فحسّن ﷺ شأنهما فسقط في نفسي ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى ﷺ ما غشيني ضرب في صدري ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى ربي ﷻ فرقاً. فقال لي: «يا أبي أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حرف» فرددت إليه أن هوّن على أمتي فرد إلى الثانية: أقرأه على حرفين فرددت إليه أن هوّن على أمتي فرد إلى الثالثة. اقرأه على سبعة أحرف ولك بكل ردة ردتها مسألة تسألنيها. فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي. وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم عليه السلام. ثم كانت جمعة الخليفة عثمان رضي الله عنه وبعث المصاحف إلى الأمصار ومعها من يقرئهم القرآن على الوجه الذي أجمعوا عليه. ثم وجد القراء ودونوا علم القراءات.





نافع بن أبي نعيم مقرئ المدينة
كان في عهد النبي ﷺ وصدر الأمة

قد اشتهر بعض الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - بالقراءة والحفظ منهم: عثمان، وعلي، وأُبَي بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومن هؤلاء الصحابة الذين أرسلهم عثمان رضي الله عنه مع المصاحف إلى الأمصار يقرئون الناس كتاب الله.

ثم اشتهر من التابعين جماعة ما بين مكة والمدينة واصلوا السير بتعليم القرآن وتحفيظه.

فكان بالمدينة:

من الفقهاء السبعة: سعيد بن المسيّب، وعروة بن الزبير، وسليمان بن يسار، وعطاء بن يسار وزيد بن أسلم وغيرهم كابن شهاب الزهري، ومعاذ القارئ.

وكان بمكة:

عطاء وطاوس ومجاهد وعكرمة، وابن أبي مليكة وغيرهم وجلهم من أصحاب ابن عباس رضي الله عنه. وكذلك في بقية الأمصار الكوفة والبصرة والشام.

فكان هؤلاء ومن عاصرهم يجمعون مع الفقه بأوسع أبوابه صنوف القراءات كنوع من علوم القرآن كأصل الفقه والتشريع. لما يترتب على أوجه القرآن من أحكام فقهية كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣] بالمد على معنى: المفاعلة. والقراءة الأخرى بدون مد أو لمستم النساء. على معنى الانفراد. واختلفوا في الحالة التي بها ينتقض الوضوء هل هي بالملامسة من الجانبين المتضمنة القصد والمفاعلة بينهما؟ أم هي بمجرد اللمس بدون مفاعلة ولا قصد حتى لو كان أحدهما نائماً أو ناسياً؟ وغير ذلك من الأمثلة فكانت العناية بالقراءات ضمن العناية بفهم كتاب الله تعالى.

ثم من بعد التابعين تفرغ هؤلاء القراء السبعة أو العشرة أو غيرهم كما هو مدون في كتب القراءات، ومن هؤلاء الأئمة الذين آلت إليهم إمامة القراءات كان نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم بالمدينة وعبد الله بن كثير بمكة وابن عامر بالشام، وأبو عمرو بن العلاء بالبصرة وكان بالكوفة كل من عاصم وحمزة والكسائي. وهؤلاء هم القراء السبعة: المنعقد إجماع الأمة على أن القراءة المأخوذة عنهم متواترة. وألحق بهم تتمة العشرة وهم أبو جعفر ويعقوب الحضرمي وخلف البزاز. ولكل إمام من هؤلاء العشرة رواة يروون عنه وعنهم تؤخذ القراءة المنسوبة إليه.

وقد ترجم لهؤلاء، جميعاً وغيرهم في كتب هذا العلم، وأوسع ما وقفت عليه كتاب غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري المتوفى في القرن التاسع ٨٣٢هـ جمع فيه فوق ثلاثة آلاف وتسعمائة ترجمة للقراء وللرواة.

ويتعلق هذا البرنامج بإمامي الحرمين الشريفين: نافع وابن كثير.

أولاً: نافع: هو ابن عبد الرحمن بن أبي نعيم مولى جعونة الليثي حليف حمزة بن عبد المطلب المدني أحد القراء السبعة والأعلام الثقات ثقة صالح، أصله من أصبهان.

ذكروا في صفاته أنه كان أسود اللون، صبيح الوجه، حسن الخلق فيه دعابة. وقد أخذ القراءة عرضاً، أي يقرأ هو والشيخ يسمع له. فعرض قراءته على جماعة من التابعين بالمدينة. منهم ابن هرمز الأعرج، أبو جعفر القارئ، مسلم بن جندب، عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وغيرهم.

وقال موسى بن طارق: سمعته يقول: قرأت على سبعين من التابعين.

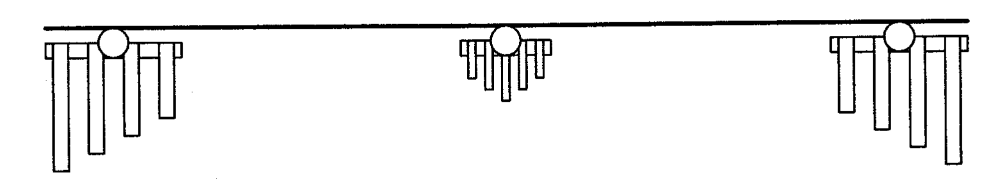
ثم نقلوا من أخذ القراءة عليه عرضاً وسماعاً، يعني: يعرضون عليه وهو يسمع، أو هو يقرأ عليهم وهم يسمعون. فذكر صاحب «غاية النهاية» عدداً كبيراً ثم قال: وأقرأ الناس دهراً طويلاً نيفاً عن سبعين سنة. وانتهت إليه رياسة المدينة ـ يعني: في القراءة ـ وصار الناس إليه. وقال أبو عبيد: وإلى نافع صارت قراءة أهل المدينة وبها تمسكوا إلى اليوم.

وقال أبو مجاهد: وكان الإمام الذي قام بالقراءة بعد التابعين بمدينة

رسول الله ﷺ هو نافع، وقال: كان عالماً بوجوه القراءات متبعاً لآثار الأئمة الماضين ببلده. ومن هنا كان مالك يقدم قراءة أهل المدينة ويقول: قراءة أهل المدينة سنّة. فقيل له: قراءة نافع؟ فقال: نعم. وكذلك أحمد بن حنبل رحمه الله يقدمها، فعن عبيد الله بن أحمد أنه سأل أباه: أي القراءة أحب إليك؟ قال: قراءة أهل المدينة.. إلخ. وكان مالك يحيل عليه ما يتعلق بالقراءة. فإنه لما سئل عن البسملة؟ يعني: كونها آية من كل سورة أو من الفاتحة فقط.. إلخ، قال: سلوا عن كل علم أهله ونافع إمام الناس في القراءة. ومما يذكره المترجمون له أن الشيباني قال: قال لي رجل ممن قرأ على نافع: إن نافعاً كان إذا قرأ يشم فيه رائحة المسك، فقلت له: يا أبا عبد الله: تتطيب كلما قعدت تقرئ الناس. قال: ما أمسّ طيباً ولكني رأيت رسول الله ﷺ فيما يرى النائم وهو يقرأ فيَّ، فمن ذلك الوقت أشم في فيّ هذه الرائحة. وكان صبيح الوجه حسن الخلق فقيل له في ذلك، فقال: فكيف لا أكون كذلك وقد صافحني رسول الله ﷺ وقرأت القرآن؟! يعني: في النوم. وكان زاهداً جواداً صلىٰ في مسجد رسول الله ﷺ ستين سنة توفي رحمه الله سنة تسع وستين ومائة. وقيل غير ذلك.

وهنا يأتي السؤال كيف تكونت لنافع قراءة تنسب إليه وقبله عصر الصحابة ثم عصر التابعين ولم تشتهر لواحد منهم قراءة خاصة تنسب إليه؟ وقد أجاب هو على ذلك بقوله فيما رواه الذهبي عنه أنه قال: أدركت عدة من التابعين فنظرت إلى ما اجتمع عليه اثنان منهم فأخذته وما شذ فيه واحد تركته حتى ألفت هذه القراءة، وروي عنه أنه قال: تركت من قراءة أبي جعفر - يعني: شيخه - سبعين حرفاً. أي أنه نقح القراءة فاستحق إمامة أهل المدينة في القراءة رحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله عن كتابه خيراً والحمد لله رب العالمين.





عبد الله بن كثير مقرئ مكة

تقدم أنه قد عرف بمكة من التابعين قراء: هم عطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وابن أبي مليكة، وعبيد بن عمير وغيرهم. ثم من بعدهم آلت إمامة القراء إلى عبد الله بن كثير. انفرد بها وكان المرجع إلى أهلها، وهو ما نقدمه في هذا المؤلف المبارك.

اسمه ونسبه:

هو عبد الله بن كثير بن عمرو بن عبد الله بن زادان بن فيروزان بن هرمز أبو معبد المكي الداري.

وقد أطلنا ذكر نسبه لأنه قد التبس على بعض المترجمين مع سميه عبد الله بن كثير بن المطلب القرشي وإمامنا هذا هو الداري، نسبة إلى دارين قرية بالبحرين وأصله من أبناء فارس الذين كان بعثهم كسرى في السفن إلى صنعاء فطردوا الحبش عنها.

ولد ابن كثير بمكة سنة ٤٥هـ. ولقي بها عبد الله بن الزبير وأبا أيوب الأنصاري وأنس بن مالك. ومجاهد بن جبر وروى وأخذ عنهم وأخذ القراءة عرضاً على عبد الله بن السائب فيما قطع به الحافظ أبو عمرو الداني. وبهذا يظهر أنه قد أدرك غير واحد من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم. وقرأ عليه الشافعي كما قرأ مالك على نافع مقرئ المدينة.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ: فصيحاً بليغاً مفوّهاً طويلاً جسيماً أبيض اللحية أشهل العينين يخضب بالحناء. وكان عليه السكينة والوقار. نقل صاحب غاية النهاية وهو ابن الجزري أن الأصمعي قال لأبي عمرو: قرأت على ابن كثير؟ قال: نعم، ختمت على ابن كثير بعدد ما ختمت على مجاهد وكان ابن كثير أعلم بالعربية من مجاهد. وهذا يعطينا صورة عن مدى علمهم رحمهم الله بالعربية التي هي لغة القرآن. ومما هو متفق عليه عند القراء العلم بالعربية هو أساس في معرفة

مواطن الوقف والوصل حيث ينبغي فصل الكلام أو وصله وهو باب من أهم أبواب علم القراءات ويساعد كثيراً على فهم المعنى.

ومن أهم قضايا الوقف والوصل في علم العقائد ما يجيء في قراءة أوائل سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧].

فقيل: إن الوقف على لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾. ويكون استئناف الكلام من جديد بقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾، وقيل: الوقف على قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾. فيكون إسناد علم تأويله إلى الله تعالى وعُطف على لفظ الجلالة الراسخون في العلم.

وباختلاف الوقفين يختلف المراد، فعلى الوقف الأول يكون علم تأويل المتشابه لله وحده وتكون الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ واو الحال. أي أن حال الراسخين في العلم من علم المتشابه هو قولهم: آمنا به الإيمان والتسليم كل من عند ربنا. وحكم المسألة مفصل في التفسير والتوحيد، وعلى الوقف الثاني يكون الراسخون في العلم قد علموه أيضاً بهذا تظهر أهمية العلم بالعربية لأئمة القراء.

ولما قصر تحصيل الناس للعربية وطبعت المصاحف على ما يسمى بالرسم العثماني، أي المصحف الذي طبع على الرسم المتفق عليه سواء في المشرق أو المغرب وضعت رموز في المصحف لأنواع الوقف اللازم والجائز وما فيه الوقف أولى أو الوصل أولى أو مستوى الطرفين.

وألفت الكتب في الوقوف في كل سورة سورة وآية آية. فكان إمامنا ابن كثير حجة في ذلك، وقال ابن مجاهد: ولم يزل عبد الله هو الإمام المجمع عليه في القراءة بمكة حتى مات سنة عشرين ومائة.

وقال الذهبي في طبقات القراء: وكان عبد الله بن كثير يقص للجماعة والقاص اصطلاح يعني: الوعاظ الذين يذّكرون الناس ويعظونهم بحال الأمم السابقة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف:

١١١]. وقال الذهبي: وكان ابن كثير ثقة وحديثه مخرج في الكتب والسنة. وقال ابن خلكان: كان قاضي الجماعة، وهذا خلاف ما ذكره الذهبي ومعلوم أن القاضي أفقه من القاص.

وعليه يكون ابن كثير قد جمع بين علم القراءات وعلم الفقه. ولا يتولى القضاء للجماعة إلا من كانت له منزلة في الفقه والأصول، ويكفي أن الشافعي قد قرأ عليه.

وكان لابن كثير راويان هما: البزي وقنبل. وعن البزي أبو ربيعة وابن الحباب ولكل منهما طريقان وهكذا تتسلسل الطرق. وقد توفي البزي سنة ٢٥٠هـ، وقنبل سنة ٢٩١هـ.

وابن كثير من القراء السبعة وهو من أوائلهم ويليه نافع مقرئ المدينة والسبعة هم:

ابن كثير مقرئ مكة، ونافع مقرئ المدينة، وابن عامر مقرئ الشام، وأبو عمرو بن العلاء مقرئ البصرة وكل من عاصم، وحمزة الزيات، والكسائي مقرئون بالكوفة.

تنبيه:

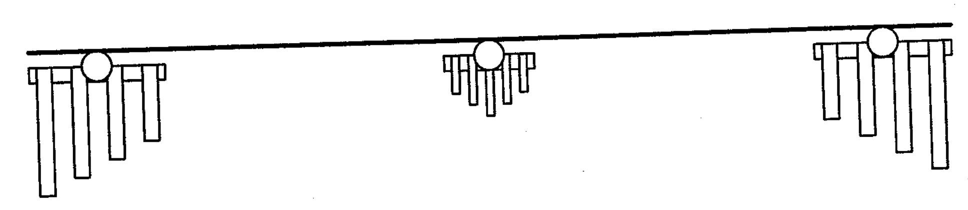
إن المصاحف المتدولة في العالم الإسلامي اليوم في المشرق وفي المغرب قد طبعت على النحو الآتي:

أما المصاحف في المشرق: الحجاز والشام والعراق ومصر. فإنها طبعت على القراءة التي برواية حفص بن سليمان الكوفي لقراءة عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة، وهو تابعي كوفي وقد أخذ عن ابن حبيب السلمي عن عثمان وَعلي وزيد بن ثابت وأبي بن كعب عن النبي ﷺ. وأحدث ما طبع على ذلك هو مصحف المدينة المنورة: طبع مجمع المصحف لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز. ورسم هجاؤه على ما رواه علماء الرسم عن المصاحف التي بعث بها الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ إلى الأقطار.

أما المصاحف في المغرب فهي على قراءة ورش عن نافع من طريق يوسف أبي يعقوب الأزرق عن ورش عن نافع.

وأحدث ما طبع على ذلك المصحف الذي كان قد أمر بطبعه المغفور له الملك فيصل في حياته وعهد بتصحيح طبعه إلى كلٍ من شيخ المقارئ المصرية علي عامر رحمه الله. وفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين بن المختار الشنقيطي صاحب أضواء البيان وطبع في دار الكتاب اللبناني وأرسل إلى المغرب وأفريقيا، وبالله التوفيق.





من عاصرت من القرّاء بالمسجد النبوي الشريف

لا شك أن المسجد النبوي الشريف هو مهد القراءات والمعهد الأول للقراء يؤمه في كل زمان قراء من أنحاء العالم؛ فمنهم المهاجر ومنهم الزائر ومنهم المقيم. وعلى رأس هؤلاء جميعاً أئمة المصلين وقد أدركت من أصحاب الفضيلة أئمة المسجد النبوي فضيلة الشيخ صالح الزغيبي إمام وخطيب المسجد النبوي يؤم الصلوات الخمس، ويخطب الجمعة. والعيدين كنت تستشعر لقراءته روحانية القرآن الكريم في مسجد النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وله رَحِمَهُ اللهُ نوادر ولطائف ستأتي - إن شاء الله - في ترجمة له خاصة مع علماء المدينة.

وقد كان في أخريات حياته يساعده سماحة الشيخ عبد العزيز بن صالح في الإمامة والخطابة. وبعد وفاة الشيخ صالح الزغيبي استقل الشيخ عبد العزيز بن صالح بالإمامة والخطابة يساعده فضيلة الشيخ عبد المجيد بن حسن والشيخ عبد الله الخربوش ثم الشيخ عبد الله الزاحم ثم الشيخ محمد نامي ثم الشيخ علي الحذيفي والشيخ إبراهيم الأخضر. وجميع هؤلاء حفظهم الله يمتعون المصلين بما أنعم الله عليهم من حسن الأداء وجميل القراءة كل بما أعطاه الله، متعهم الله تعالى بالصحة والعافية وأجزى لهم المثوبة والإحسان، وسيأتي لكلٍّ ترجمته مع علماء المسجد النبوي إن شاء الله.

أما القراء والمقرئون فعلى النحو الآتي: كان بالمسجد النبوي الشيخ الجليل شيخ القراء بالمدينة كلها ولعله شيخ القراء في الحرمين معاً الشيخ حسن بن الشاعر، كانت له حلقة تلاوة للإخوان المستمعين يسمعهم القراءات ويحضرها كل من يرغب الاستماع إليه بصفة عامة، وكان يقرأ قراءة ترتيل بأداء حق التجويد.

وكانت له حلقة للإخوان الحفاظ يأخذون عنه القراءات، كل على ما

يرغب من القرآن ويختار من الروايات. وكنت تراه في هذه الحلقة يجلس إليه العديد من تلاميذه ملتفين حوله وكل يقرأ من مقرئه الخاص على اختلاف سورهم وهو يستمع إليهم جميعاً ويرد كل من أخطأ إلى صوابه. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ ذا دُعابة وله ألطاف ولطائف تليق بمكانته، سيأتي بعض منها إن ـ شاء الله ـ في ترجمته الخاصة بصفته إمام القراء في عصره بالمدينة المنورة.

وكذلك كان الشيخ أحمد ياسين الخياري: له مدرسة في بيته لتحفيظ القرآن وتعليمه. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ شديد الحرص على تصحيح مخارج الحروف، وسمعتهُ يقول: لم أسمع من أحد صحة النطق «بالضاد» ـ يعني: أخت الصاد ـ إلا من إخواننا النجديين. وكان يشمئز من بعض قراء الإذاعات لسماع حروف القلقلة ويقول: يميلون بها إلى الكسر. وكان يطربه الشيخ رفعت ويعجبه مواقفه على الهاء الساكنة مثل: هاؤم اقرأوا كتابيه. وقد تلطف معي فأعطاني إجازة منه بسنده على قراءة عاصم براوية حفص كتبها بخطه، وكان يتمتع بجودة الخط أسماها «العب والمص» على قراءة عاصم برواية حفص. وقد درس القراءات على والده وتلقى عن الشيخ حسن الشاعر.

وكان في مدرسته بجانب تعليم القرآن يدرس الفقه الشافعي وكان رَحِمَهُ اللَّهُ جهوري الصوت طويلاً أشقر سريع الخُطى له مكانة عند الناس.

وممن أدركت المقرئ الشيخ عبد الستار بخارى. وكان مؤذناً بالمسجد النبوي الشريف حسن الصوت يتغنى بالقراءة في حدود قواعد التجويد دون تموّج في الصوت.

ومما كنت تعجب له أنك لا تراه إلا قارئاً محركاً لسانه بكتاب الله وقد تسمع له همهمة خفيفة جداً. إذا حادثته أصغى إليك ولسانه يتحرك بالتلاوة إذا جلس معك لتناول الشاهي تراه كذلك ففي مجلسه يقرأ وفي الطريق يقرأ وأثناء حديثك معه يقرأ. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ نحيلاً أبيض اللون طويلاً يمشي الهوينا لم يشتغل بالتدريس سوى تحفيظ أولاده هو رحمه الله تعالى.

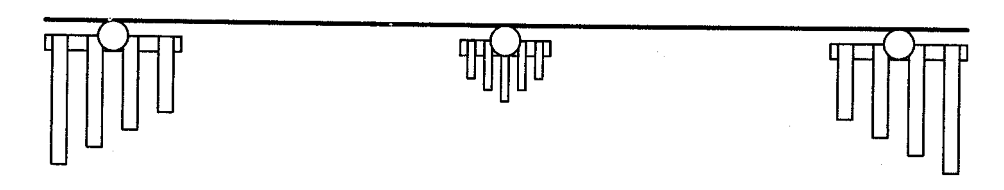
وكانت توجد حلق القرآن لبعض الأشخاص لتعليم المبتدئين القراءة وأخرى لتحفيظ الأولاد. وكان البعض يرتل كتاب الله للراغبين في الاستماع لكتاب الله، أحياناً بعد صلاة الصبح. وأحياناً بعد صلاة العصر أو المغرب

وكانت توجد رواتب مخصصة تجري من بعض جهات الأوقاف لجماعة يجتمعون لقراءة (الختمة) يجتمع العدد الكثير ويتناول كل واحد جزءاً من الثلاثين جزءاً تكون مفرَّقة في صندوق صغير، فإذا قرئت تلك الأجزاء في وقت فكأنما قرؤوا القرآن، وقد توقفت تلك القراءات.

وكانت بالمسجد النبوي وفي مؤخرة من الشمال كتاتيب لتحفيظ القرآن كانت هي الحركة العلمية قبل المدارس، وكان من أكبرها وأشهرها بل وأقدمها كتاب «ابن سالم». أما الصورة التي تهز المشاعر وتحرك الوجدان وتثلج الصدر فهي ما كنت تشاهده في شهر رمضان وبعد فراغ الإمام الراتب من صلاة التراويح فإنك تجد المسجد كخلية النحل من تلاوة المصلين، فقد كانت تقام جماعات عديدة متوزعة أنحاء المسجد وكان يكون أكثرها في الحصوة حتى لا يشوشوا على الذين يحيون رمضان في مقدمة المسجد بالصلاة أو بالتلاوة.

فكنت ترى أئمة تلك الجماعات غلماناً حول البلوغ دونه أو بعده يقرؤون حدراً أو استرسالاً ويأتم بهم من ذويهم النفر الثلاثة أو الخمسة. ومعهم شيخه يصلي خلفه أو يجلس يستمع إليه. ومن يكون منهم حافظاً القرآن كله يختمه وإلا فبقدر حفظه، وتُقدَّم له الهدايا وذلك تشجيعاً على حفظ القرآن. وقد خفت تلك الحركة ونشطت جماعة تحفيظ القرآن، وفي نهاية كل سنة تقيم حفل تكريم للحفاظ وتوزع جوائز للمتفوقين تشجيعاً لهم وبهذا يستمر تحفيظ القرآن الكريم وشيء من حسن التلاوة هذا، وصلى الله على نبينا محمد.





حول القرّاء والقراءة

في هذا البرنامج المبارك علماء الحرمين الشريفين قدمنا موجزاً عن قراء الحرمين نافع قارئ المدينة وابن كثير قارئ أهل مكة وفاءً بحق علماء التجويد وأئمة القراء رحمهم الله جميعاً.

ومن خلال المطالعات في تراجمهم تبين ما لم يكن في الحسبان. وهو أن هذا الصنف من العلماء وهذا النوع من العلم لم يعط حقه من العناية والدراسة كبقية العلماء وباقي العلوم، وإنما هو مقصور على أهله وذويه. فعلم القراءة بحر لا ساحل له. وقد ذكرت بعض المراجع: أن القراء وعلماء التجويد قد أحصوا المصحف كلمة وسَجّلوا ما فيها من قراءات. وما تناقلها من الرواة. والطرق التي أوصلتها إلينا وقد استرعى انتباهي أثناء ذلك عدة أمور أظنها موضع تساؤل عند الكثيرين تتطلب إيضاحها وهي كالآتي:

أولاً: تعريف علم القراءات.

ثانياً: أول تدوينه ومن الذي دونه.

ثالثاً: واضعه واستمداده.

رابعاً: شرفه وحكمه.

خامساً: موضوع القراء السبعة والاقتصار عليهم والعلاقة بينهم وبين حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف.

سادساً: اصطلاحاتهم في القراءة والرواية والطريق.

سابعاً: أهم أنواع تلك القراءات.

أما تعريفه: فهو علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية وصيانتها من التحريف والتغيير والعلم بما يقرأ به كل إمام من أئمة القراءات، والتمييز بين ما يقرأ به وما لا يقرأ به.

وأول من دون فيه هو أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ. وواضعه: هم أئمة القراءات. وقيل: أبو عمر حفص بن عمر الدوري. أما شرفه: فمعلوم أن شرف كل علم بشرف موضوعه، وموضوع هذا العلم هو جانب من كتاب الله وكفى. أما حكمه: فهو واجب كفائي تعلمه وتعليمه ويستمد من الرواية الثابتة والنقل الصحيح المتواتر من علماء القراءات الموصولة إلى رسول الله ﷺ. ومن ثم جبريل عليه السلام عن رب العزة والجلال.

أما موضوع أهم أنواع تلك القراءات: فقد حصرها ابن الجزري وغيره في قوله: تتبعت جميع القراءات صحيحها وشاذها، وضعيفها ومنكرها. فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه، وأقول: قد زاد غيره عليه ومجموع ذلك، كالآتي:

١ ـ اختلاف بتغيير في الحركات بدون اختلاف المعنى: يحسب بفتح السين وكسرها.

٢ ـ اختلاف في الحركات وتغيير المعنى: فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ. فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ، فعلى الأول آدم فاعل التلقي والكلمات مفعول به، وعلى الثاني العكس، بمعنى أن آدم لما أهبط إلى الأرض تلقته كلمات من ربه حتى هبط إليها.

٣ ـ اختلاف في الحروف بسبب النقط: فاليوم ننجيك. بالجيم من النجاة وننحيك بالحاء من التنحية. ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، فتثبتوا من التبين ومن التثبيت. وننشرُها. وننشرها وكل ذلك موافق لرسم المصحف العثماني لأن الحروف لم تكن منقوطة في الصدر الأول.

٤ ـ اختلاف الحروف مع اتحاد المعنى: لستَ عليهم بمسيطر بالسين، بمصيطر بالصاد.

٥ ـ تغيير الكلمة: إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا، فامضوا إلى ذكر الله.

٦ ـ التغيير بسبب تصريف الفعل: وهل يجازىٰ بياء المضارعة المضمومة مبني للمفعول، وهل نجازي بالنون ومبني للفاعل.

٧ ـ تأخير وتقديم بعض الكلمات على بعض: وجاءت سكرة الموت بالحق وجاءت بالحق سكرة الموت.

٨ ـ تغيير بزيادة أو نقصان: وتارة يكون بحرف وتارة يكون بكلمة:

أ ـ فزيادة الحرف: ملك يوم الدين ومالك، لامستم النساء ولمستم، والرسم في المصحف واحد والألف توضع صغيرة.

ب ـ زيادة كلمة مستقلة ومثبتة في المصحف: فإن الله (هو) الغني الحميد، فإن الله الغني الحميد. في سورة الحديد، سارعوا إلى مغفرة وسارعوا.

٩ ـ زيادة كلمة مستقلة ليست مثبتة في المصحف: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى (صلاة العصر) وهذه لم تثبت تلاوة ولا تجوز ولكنها تثبت رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فيعتبرها المفسرون مبينة لما أجمل من عين الصلاة الوسطى ما هي. فهي قراءة مرجحة لما اختلف فيه من تعيين الصلاة الوسطى من بقية الصلوات. ومثلها في قراءة ابن مسعود في كفارة اليمين بالصيام ثلاثة أيام متتابعات فهي مرجحة لمن يقول: بتتابع مع صيام كفارة اليمين. مع الإجماع على أنه لا يجوز التلاوة بها لعدم إثباتها في المصحف الشريف.

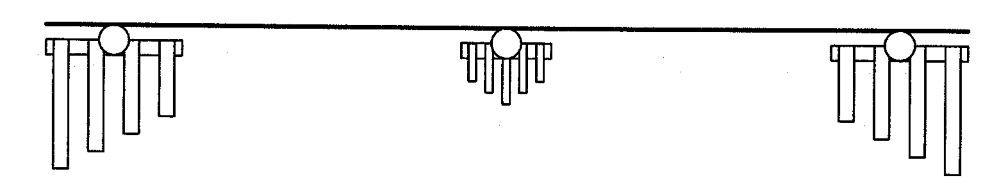
١٠ ـ الاختلاف في صورة النطق ببعض الحروف كاملة، كل ألف منقلبة عن ياء عند حمزة والكسائي مثلاً. وترقيق كل راء مفتوحة أو مضمومة بعد كسرة أصلية أو ياء ساكنة عن درس. وتسهيل أو تحقيق الهمزة أو قلبها مداً من جنس حركة ما قبلها والمد بأقسامه ومواطن الوقف بأنواعه وغير ذلك مما هو مدون ومحفوظ تلقاها الخلف عن السلف ضمن تلك الروايات وهذه الطرق.

ولما طبع المصحف عند ظهور المطابع كانت جل العناية بتحسين الطباعة ووضع علامات ترشد القارئ لهذا كله. ويقول الشيخ عبد الفتاح القاضي في كتابه تاريخ المصحف: إن أول مصحف طبع وفيه تلك العلامات كان سنة ١٣٠٨ كتبه الشيخ رضوان الشهير بالمخللاتي وعنى فيه بالرسم العثماني، وعدّ الآي لكل سورة ووضع معه مقدمة تبين الاصطلاحات المذكورة وضمنها تاريخ القرآن وطبع في القاهرة. ولم يسلم من بعض الملاحظات عليه.

ثم وجهت مشيخة الأزهر عنايتها بذلك فشكلت لجنة من كبار علماء القراءة فكتبت المصحف بدقة على الرسم العثماني وضبطته على ما يوافق رواية

حفص بن سليمان عن عاصم ووضعت عدد الآيات وعلامات السجود والتقسيم إلى أجزاء وأحزاب وأثمان، والسكتات وعلامات الوقف بأقسامه. ويوجد في المصاحف في آخرها عنوان: تعريف بهذا المصحف وتذكر كل تلك العلامات. وفاءً لحق التلاوة وحسن الأداء وخدمة لكتاب الله تعالى ومصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وبالله تعالى التوفيق.





الاقتصار على القرّاء السبعة

تقدم أن الاقتصار على القراء السبعة أوهم لبساً حول من عداهم من القراء، ولكن هذا الاقتصار لم يكن إلا من عمل أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤هـ.

أما حقيقة القراء فقد قال ابن الجزري وغيره: إن القرءات المشهورة اليوم عن السبعة والعشرة والثلاثة عشر فهي بالنسبة إلى ما كان مشهوراً في الأعصار الأُوَل قلّ من كثر، ونزرٌ بحر؛ لأن الذين أخذوا عن أولئك الأئمة المتقدمين كانوا أمماً عديدة والذين أخذوا عنهم كذلك. أقول: إن مصداق هذا القول أننا نجد في تراجمهم من الشيوخ لكل واحد منهم ومن التلاميذ الأعداد الهائلة حتى إن بعضهم ليذكر أنه أخذ من أكثر من ثلاثمائة عالم. فكم يكون عدد من يأخذون عنه هو؟ ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ولكن لما كانت المائة الثالثة، وقلّ الضبط وتفشى اللحن والخطأ وكان علم الكتاب والسنة ـ يعني: علم الرواية والتثبت في النقل ـ متوفراً تصدىٰ بعض الأئمة لضبط ما رواه من القراءات، وكان أول من جمع فيه من الأئمة المعتبرين ووضع كتاباً هو أبو عبيد القاسم بن سلام وجعلهم حوالي خمسة وعشرين قارئاً مع هؤلاء السبعة.

وهذا في نظري شبيه بما ذكر في تاريخ المصحف أنه لم يكن منقوطاً ولا مشكولاً فلا فرق بين حرف الباء والثاء ولا التاء والباء. وكذلك لم تكن توجد علامات الإعراب الأصلية: فتحة وكسرة وضمة، ووقع اللحن في الإعراب أولاً، وأول من وضع علامات الإعراب هو أبو الأسود الدؤلي زمن معاوية رضي الله عنه لما سمع قارئاً يقرأ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٣] بكسر لام رسول فجعله معطوفاً على المشركين، فاستعاذ بالله أن يكون الله بريئاً من رسوله. إذ القراءة الصحيحة ورسولُه بضم اللام عطفاً على لفظ الجلالة فاعل

البراءة. فالله ورسوله بريئان من المشركين فوضع نقطاً على وضع معين تدل على الإعراب. علماً إن ذاك القارئ كان مدسوساً عليه تحريضاً له على وضع تلك العلامات صيانة لكتاب الله من التحريف، ثم بعد ذلك وضعت تلك الحركات بدلاً من النقط.

وفي زمن عبد الملك وضع نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وقبل الحجاج بن يوسف وكان والياً لعبد الملك على العراق فندب لذلك أشهر وأعلم الناس بالعربية وبالقراءات، فكان هما نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر المذكورين، فوضعت النقطة أسفل الباء وأعلى النون والنقطتان أعلى التاء وأسفل الياء وهكذا. فلا غرو أيضاً أن يقع الاختلاط واللحن في الأداء والقراءات فيما بعد فيعمد الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ، فيجمع القراءات التي يرويها هو. فكان ما جمعه من القراءات وعن الأئمة خمسة وعشرين قارئاً، ثم جاء غيره بعده فجمع قراءة خمسة فقط اختار من كل قطر قارئاً واحداً وهو أحمد بن جبير المتوفى سنة ٢٥٨هـ. ثم توالت التآليف إلى سنة ٣٢٤هـ، فجاء أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد فاقتصر من كل ذلك على سبعة قراء فقط، واقتصر في ذكر الرواة عنهم على راويين فقط، لكل قارئ طريقان فقط.

وكان ناقشه الفقهاء كلهم على هذا الاقتصار لأنه بعمله، هذا أثار شبهة وأوقع بعض الناس في لبس من جهة القراء والقراءات.

أما الشبهة فهي في التساؤل عن بقية السبعة: ما حكمهم وحكم القراءة عنهم؟ وأما اللبس فهو في المشاركة العددية في ما عدا السبعة الوارد في الحديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف». علماً بأن العلماء مجمعون أن لا علاقة بحديث: «أنزل القرآن المذكور...»، وعدد القراء السبعة أبداً: كيف تكون هناك علاقة والقراءات لم تدون والقراء لم يخصصوا إلا بعد مئات السنين من صدور الحديث من رسول الله ﷺ. وقد قال علماء القراءات: لو أن ابن مجاهد زاد أو نقص واحداً لم يوجد هذا اللبس.

ثم هو أيضاً اقتصر على راويين فقط لكل إمام وطريقين فقط لكل راوٍ، وهذا ليس صحيحاً، لأن الراوي في اصطلاحهم هو من أخذ عن الإمام مباشرة

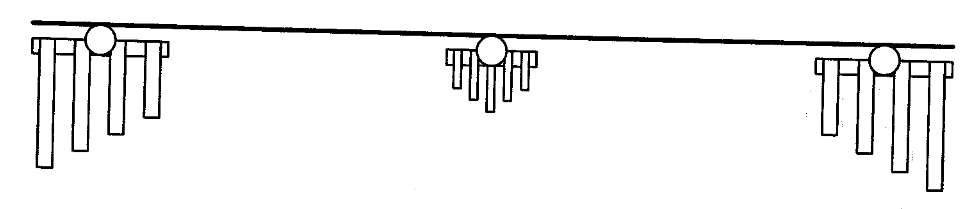
وليس بمعقول أن لا يأخذ عن إمام مشهور سوى اثنين فقط. والطريق عندهم في اصطلاحهم: هو من أخذ عمن أخذ عن الإمام. وليس معقولاً أن لا يأخذ عمن أخذ عن الإمام إلا اثنان فقط. فكان عمل ابن مجاهد هو بناء على اختياره هو لا على سبيل الحصر بدليل أنه جاء بعده من خالفه في هذا كله. قال ابن الجزري: جاء الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني وهو متوفى سنة أربعمئة وأربع وأربعين هجرية، وألّف في ذلك وفي القراءات السبع وعنده عنهم أكثر من خمسمائة رواية وطريق. وبعده أبو القاسم يوسف بن علي الهذلي المتوفى سنة أربعمائة وست وأربعين هجرية تقريباً، رحل من المغرب إلى المشرق وانتهى إلى ما وراء النهر قال: إنه لَقِيَ ثلاثمائة وتسعةً وخمسين عالماً في هذا الشأن، وألّف كتابه الكامل جمع فيه خمسين قراءة عن الأئمة وألفاً وأربعمئة وتسعاً وخمسين روايةً وطريقاً. وبعده أبو القاسم عيسى بن عبد العزيز الإسكندري المتوفى سنة ستمائة وتسع وعشرين هجرية ألّف الجامع الأكبر والبحر الأزخر يحتوي على سبعة آلاف رواية وطريق.

قال ابن الجزري: ولا زال الناس يؤلفون ويروون الصحيح والشاذ ولا يعيب أحد عليهم لأنهم في ذلك متبعون طريق السلف. حيث قالوا: القراءات سنة متبعة يأخذ الآخر عن الأول وما علمنا أحداً أنكر شيئاً قرأ بة الآخر. فلعل من هذا كله يرتفع اللبس ويزول الإشكال فليس القراء محصورون في السبعة وليس للقراءات السبع علاقة بحديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف». ولعل عمل ابن مجاهد هذا ناتج عن شهرة هؤلاء السبعة دون غيرهم، فاقتصر عليهم واختار النابهين الملازمين لهم رواة عنهم وهذا العمل حاصل مثله بالنسبة للفقهاء السبعة بالمدينة: سعيد وعروة وسالم إلى غيرهم. وكذلك أصحاب المذاهب الفقهية الأربعة: أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، فقد كانت في أوقاتهم مذاهب متعددة وأئمة أجلّاء. ولكن لم يكن لغير هؤلاء الأربعة من التلاميذ من يلازمهم ويأخذ عنهم ويدون علومهم وينقلها عنهم، فانتهت تلك المذاهب الأخرى بانتهاء أصحابها.

يؤيد هذا ما جاء في ترجمة ربيعة بن عبد الرحمٰن شيخ مالك رحمهما الله: إن وفداً أتى المدينة يسأل عن ربيعة فوجد حلقة مالك يحدث عن

ربيعة ووجدوا ربيعة جالساً وحده في جانب من المسجد، فقالوا له: أنت ربيعة هذا حالك وهذا مالك قد اشتهر باسمك. أي أن ربيعة لم يجد من يلازمه ويدون ما عنده، وهكذا غيره من الشيوخ، فهكذا كان القراء، فمنهم من اشتهر ونقلت القراءة عنه فاختار ابن ماجد هؤلاء السبعة واقتصر على البارزين ممن أخذوا عنهم اختصاراً وتيسيراً للدارسين وبالله تعالى التوفيق.





الحالة العلمية في الحرمين بعد مالك والشافعي

لا شك أن الحرمين هما مصدر العلم ومنبعه ومهد العلوم ومنطلقها إلا أن الأحداث السياسية والأوضاع الاجتماعية قد تطرأ على البلاد فتغير من أوضاعها، سنة الله في كونه. فهكذا الحال في الحرمين الشريفين. قال الذهبي في كتابه «الأمصار ذوات الآثار»: «كان العلم وافراً بالمدينة المنورة دار الهجرة من الصحابة رضي الله عنهم من القرآن والسنة، وفي زمن التابعين كالفقهاء السبعة، وزمن صغار التابعين، كزيد بن أسلم وربيعة، ويحيى بن سعيد، وأبي الزناد، ثم زمن تابعي التابعين، كعبيد الله بن عمر حفص، وابن أبي ذئب، وجعفر الصادق ثم الإمام مالك. ومقرئها الإمام نافع، وابن سعد وسليمان بن بلال قال: ثم تناقص العلم جداً في الطبقة التي بعدها، ثم تلاشى».

وعن مكة قال: «كان العلم بها يسيراً في زمن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ثم كثر في أواخر عصرهم. وكذلك أيام التابعين كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير، وابن أبي مليكة. وزمن أصحابهم، كعبد الله بن أبي نجيح، وابن كثير المقرئ، وحنظلة بن أبي سفيان، وابن جريج ونحوهم. وفي زمن الرشيد، كمسلم بن خالد الزنجي، والفضيل بن عياض وابن عيينة. ثم أبو عبد الرحمٰن المقرئ، والأزرقي والحميدي وسعيد بن منصور. ثم في أثناء المائة الثالثة تناقص علم الحرمين وكثر بغيرهما.

وقد علّق على ذلك الإمام السخاوي رحمه الله المتوفى سنة تسعمائة وعشرين هجرية، في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»، فقال: إن السبب في قلّة العلم بالحرمين وكثرته في غيرهما هو كثرة مساكنة الروافض أرض الحرمين وقد تحكموا بها وغلب أمرهم عليها، ثم قال: ولكن قد نشأ بها في القرنين الثامن والتاسع أفراد من العلماء في غالب المذاهب والفنون انتفع بهم أهل السنة. ومنهم ممن صنف وألّف عدداً يسيراً والسنة بحمد الله الآن ـ يعني: زمن السخاوي بالمدينة ـ معتضدة بمن شاء الله من فضلاء أهلها من قضاتها

وغيرهم». انتهى. وأعتقد أن ما قاله الذهبي من تناقض العلم ثم تلاشيه إنما هو أمر نسبي، أي بالنسبة لما كان عليه الحال من كثرة العلماء وازدهار العلوم، وقد تحولت العاصمة إلى غيرهما وتحولت بساطة العيش ورغد الحياة. ومن جهة أخرى غلبة الروافض عليها. وإلا فقد ذكر القاضي عياض في المدارك عدداً وافراً ممن خلفهم مالك رحمه الله وصنفهم في طبقات ثلاث. فلم تكن تخلو أرض الحرمين من العلماء. ثم إن ما علل به السخاوي ظل إلى القرن السابع، وقد سجل ابن فرحون في كتابه المخطوط حتى اليوم سجل فيه أشياء كثيرة عن الروافض حول العلم والعلماء والقضاة والقضاء. فذكر أنه من كان يوجد معه موطأ مالك يؤخذ منه ويسجن وربما عزر والقضاة يحصلون من المتقاضين أجراً برسم الكتابة والورق. والخطباء يجلس الواحد منهم على المنبر يوم الجمعة ممتنعاً عن الخطابة حتى يجمعوا له من الحاضرين ثياباً ونقوداً أو هدايا، ويُلقى أمام المنبر حتى يتجمع ما يرضيه فيقوم ويخطب وقد يطول جلوسه حتى يكاد الوقت يخرج، ويقول ابن فرحون: ف﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

تلك كانت الحالة العلمية والاجتماعية بالحرمين مما يحول دون ازدهار الحركة العلمية بل ولا تجد العلوم فيها متنفساً ولا سوقاً رائجاً.

وإن تلك الفترة ما بين القرن الثالث والسابع لتعتبر فترة (معتمة) في هذا الجانب. وسنحاول أن نقدم نماذج ولو لشخص أو شخصين في كل فترة من تلك الفترات.

ومما هو جدير بالعناية وما يستلفت النظر كلام السخاوي من أن الذين جددوا النشاط العلمي بالمدينة هم أهلها وقضاتها.

وسنحاول بإذن الله إيراد منهج لمن ولي القضاء بالمدينة منذ العهد الأول إلى عهد نبي الله إلى ما نحن عليه الآن ـ إن شاء الله ـ في برنامج مستقل باسم القضاء والقضاة بالمدينة المنورة.

أما الآن وفي هذا البرنامج المبارك سنلم ببعض الأعلام من علماء الحرمين من بعد إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله ممن ولي الفتوى والتدريس بالمسجد النبوي من تلاميذ مالك أوتلاميذ تلاميذهم إلى علماء القرن الرابع عشر، وكذلك بمكة إن شاء الله ثم إلى الوقت الحاضر، وقد ذكر القاضي عياض رحمه الله المتوفى سنة خمسمائة وواحد وأربعين هجرية في كتابه المدارك: من كان بالمدينة بعد

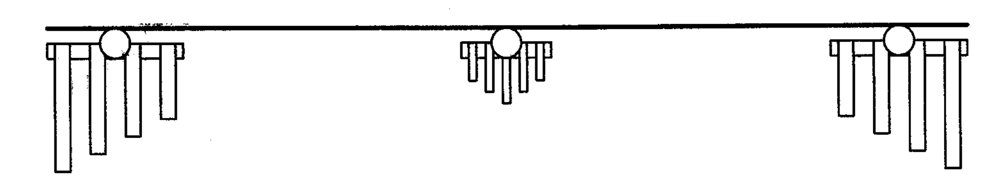
مالك رحمه الله وقسّمهم ثلاث طبقات، فذكر من أقرانه ممن أخذ عنه نحو الستين شخصاً: وهم من أقطار متعددة وهذا العدد يعطينا صورة ما كان عليه المسجد النبوي الشريف آنذاك من وفرة العلم والعلماء. وسبق أن مالكاً رحمه الله قال عن نفسه: لم أجلس للفتوى حتى شهد لي سبعون عالماً. بينما قال أيضاً: لقد أدركت في هذا المسجد عند هذه السواري من يحدث: قال رسول الله ﷺ: «ولم آخذ عنه وأنه لو ائتمن على بيت مال المسلمين كان أميناً وإن مثلهم لترجى دعوتهم ولم آخذ عنهم لأنهم ليسوا من أهل هذا الشأن». وهذا مما يصور كما قلنا: وفرة العلم والعلماء وقبل ومع وبعد مالك رحمهم الله جميعاً، وقد قسّم القاضي عياض من أخذ عن مالك وتفقه عليه أو لقيه وروى عنه كما أشرنا إلى ثلاث طبقات: كبرى ووسطى وصغرى.

فذكر من الطبقة الكبرى الذين أخذوا عنه ومن عدة أقطار العددَ الكثير ويخص المدينة منهم بعشرة وذكر أسماءهم.

ثم ذكر من أخذ عنه مع صغر أسنانهم وأوردهم على حروف المعجم العدد الكثير، إلا أن كل ما ذكره القاضي عياض لم يتجاوز عصره أي منتصف القرن السادس. ولم أقف بعده على مرجع يبين ويوضح إلا على مخطوط لابن فرحون، وهو من أعيان القرن السابع ولكن أورد فيه من لقيه بالمسجد النبوي الشريف حال حياته من مهاجرين ومجاورين وزوار وعلماء ومؤذنين وعباد وأعيان وغير ذلك.

وله الديباج المذهب في تراجم أعيان المذهب اشتمل على مدنيين وغيرهم نحا فيه نحو القاضي عياض في المدارك أوردهم على حروف المعجم. ثم يأتي كتاب السخاوي التحفة اللطيفة، وهو من أعيان القرن التاسع ظهر منه ثلاثة أجزاء على حروف المعجم وصلت إلى «الميم» واشتملت على أربعة آلاف وتسعين ترجمة مما يضطر الباحث إلى تتبعها كلها ليرتب منها ما أمكن على تسلسل السنوات، ومن بعده إلى اليوم لا يوجد ما يعول عليه من المراجع، وقد وجدت سجلاً بالمحكمة الكبرى بالمدينة يشتمل على أسماء القضاة الذين تولوا قضاءها من بداية تسعماية وثلاث وستين هجرية إلى العصر الحاضر سنة ١٣٦٣هـ.

ونرجو أن نتمكن من خلال ذلك كله أن نقدم عن كل عصر عالماً أو عالمين تصويراً للحالة العلمية بالمدينة إلى اليوم، وبالله التوفيق.



عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة

ذكر القاضي عياض في كتابه المدارك في الطبقة الوسطى الذين أخذوا عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وانتهت إليهم الفتوى بالمدينة فوق الستين شخصاً عدّ من أهل المدينة منهم اثنين وعشرين شخصاً، اخترنا منهم شيخنا اليوم عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، وكنيته «أبو مروان» واسم أبي سلمة «ميمون»، وقيل: «الماجشون» وهو مولى لبني تيم من قريش. وقال الباجي: الماجشون: «المورد بالفارسية». وقال الدارقطني: سمي بذلك لحمرة في وجهه. وقيل: إنها من شوني شوني، يعني: كيف حالك؟ لأنهم من أهل أصبهان وانتقلوا إلى المدينة فكان أحدهم إذا لقي الآخر قال: شوني؟ يعني: كيف حالك؟ أو أن «ماجش» موضع بأصبهان فنسب إليها.

نشأته:

يظهر من نشأته أنه نشأ في بيت علم فجده عبد الله يروي عن ابن عمر وغيره ويروي عنه مسلم. وأخو جده يعقوب كذلك يروي عن ابن عمر. وعمر بن عبد العزيز وهو عمه خرّج عنه مسلم. وأخوه يوسف بن عبد العزيز حدث عنه الزبير بن بكار ويوسف بن يعقوب يروي عن ابن المنكدر والزهري وخرّج عنه البخاري. وروى عنه أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وابن المديني وغيرهما، وأخوه عبد العزيز بن يعقوب أبو الأصبغ يروي أيضاً عن ابن المنكدر مراسيل يرويها عنه أحمد. وأبوه عبد العزيز ترجم له الذهبي وأثنى عليه فقهاً وتوثيقاً روى عنه أهل العراق وأهل الحجاز، وهذه الصورة لتلك الأسرة من أب وجد وعم وابن عم وإخوة كلهم علماء يؤخذ عنهم العلم والفتوى صورة حية لقوة الحركة العلمية بالمدينة بعد مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أما دراسة شيخنا عبد الملك بن عبد العزيز فمن البديهي أن يكون لأفراد أسرته الدور الأكبر، فقد نص القاضي عياض أنه تفقه على أبيه عبد العزيز

وكان أبوه صاحب مالك وكانت له الفتوى من بعد مالك. وأخذ كذلك عن مالك لأنه أدركه، وعن ابن أبي حازم وابن دينار وغيرهم. وكان فصيحاً ربما ذاكر الشافعي في الأدب لأنه تأدب في البادية في ضؤلته من بني كلب. وقد أشرنا في ترجمة الشافعي رَحِمَهُ اللهُ أنه تأدب في هذيل وقد أعانه ذلك على تحصيل العلم والتفقه في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وصاحبنا عبد الملك يحدثنا عن ذلك بقوله: أتيت المنذر بن عبد الله الحزامي وأنا حديث السن، فلما تحدثت وفهم عني بعض الفصاحة قال لي: من أنت؟ فأخبرته. فقال لي: اطلب العلم، فإن معك حذاءك وسقاءك. لعله يعني مؤهلات طلب العلم وما يساعده عليه ولهذا فإنا دائماً نؤكد على الإخوة والأبناء طلبة العلم أن يكثروا من تزودهم بآداب اللغة العربية. وقد عنى بها غير العرب لتقوم من ألسنتهم وترقق من أحاسيسهم وتنمي شعورهم وملكاتهم.

وقد أثنى عليه كبار أصحاب مالك. وقال سحنون: هممت أن أرحل إليه وأعرض عليه هذه الكتب. وكان ابن حبيب يرفعه على أكثر أصحاب مالك. عرضت عليه ولاية القضاء فامتنع. وقد امتنع كثيرون غيره ولكن كان يوجد في عصرهم من يصلح للقضاء أكثر منهم.

حبه للمدينة:

لقد عمي بصره فقيل له: لو خرجت إلى العراق فتعالج بصرك فإن هناك من يعالجه. وتنظر في شؤون أموالك التي خلفتها هناك، فقال: لا أفارق المدينة. بل حكي عنه أبعد من هذا تورعاً فذكروا أنه أتي بقادح يقدح بصره وهو في المدينة فقال له المعالج: إنك يلزمك أن تقيم كذا وكذا مستلقياً على ظهرك. فأبى وقال: ما كنت لألتمس ما جعل الله ثوابه الجنة بتعطيل فرض من فروض الصلاة. ويعني: بما جعل الله ثوابه الجنة هو فقد بصره للحديث «من أخذت حبيبتيه فصبر كان ثوابه الجنة» ويقصد بتعطيل فرض من فروض الصلاة، يعني: قائماً وفي جماعة.

وهذا الخبر بعينه مروي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قيل له: تبقى مستلقياً على ظهرك أربعين يوماً، فرفض وقال: أصبر وأحتسب ولا أترك الصلاة فرضاً واحداً. رحمهم الله فقد شقوا على أنفسهم ودين الله يسر وفيه الرخص عند الشدائد، عافانا الله وإياكم والمسلمين.

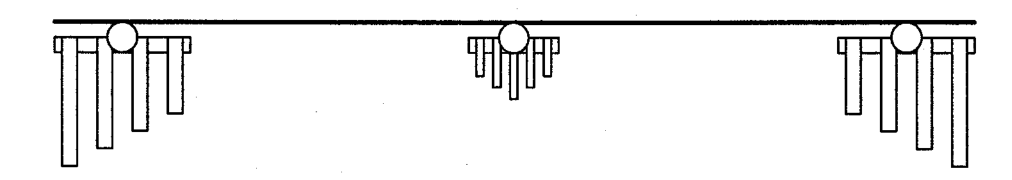
لقد ذكر رَحِمَهُ اللهُ أنه كان متميزاً في علم الفقه في باب الوقف. وهذا من شواهد العمل على وجود بعض الاختصاصات عند بعض العلماء كما كان عطاء متخصصاً في المناسك والآخر في الميراث وقسمة التركات وهكذا. ونحن اليوم نشاهد العالم قد عني بالدراسات المتخصصة لأنها أمكن من استيعاب المادة.

وذكر القاضي إسماعيل من صفاته الحميدة ونبل سلوكه قوله: ما أجزل كلامه! أي ما قلّ ودلّ. وأعجب تفصيلاته! يعني: استيعابه وتمكنه في مادته وقدرته على التمييز بين المسائل المتشابهة مما يكشف اللبس ويزيل الغموض. وأقل فضوله! يعني: قلّة كلامه فيما لا يعنيه وهو كما نعلم من حسن إسلام المرء، وتلك الصفات الثلاث من ألزم ما يتحلى بها العالم توقيراً للعلم وتكريماً لشخصه.

وقد تفقه عليه الكثيرون وقال ابن أكثم القاضي: ما رأيت مثل عبد الملك أيما رجل. لو كان له مسائلون، أي أن علم العالم يظهره ويستخرجه كثرة مساءلته، وذلك حينما يرتفع مستوى من يأخذ عنه فيحسن السؤال ويستوعب الجواب. وقال ابن أكثم: كتبت عن عبد الملك أربعمائة جلد أو مائتي جلد. نقول: ولو مائة جلد فكم حوت تلك المجلدات من علوم؟ وكيف لابن أكثم استخلاصها عنه مما يشعر بارتفاع المستوى من الجانبين ومما يشجع طالب العلم على كتابة ما يسمع من شيخه وخاصة بعض الفوائد الفرائد التي قد لا تسنح في كل وقت.

وقد أشاد به النسائي رحمه الله تعالى فقال: فقهاء الأمصار من أصحاب مالك من أهل المدينة عبد الملك بن الماجشون وذكر مكانته في الفقه ومؤلفاته وأشار إلى سلفيته في معتقده، فذكر أن له رسالة في الإيمان والقدر والرد على من قال: بخلق القرآن والاستطاعة، يعني: بالاستطاعة الجبرية والقدرية. وفي ذلك أيضاً صورة العلوم التي كانت متوافرة بالمدينة في عصر مالك وبعده مما حمله لنا إمامنا هذا عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون تلميذ مالك والمتوفى سنة مائتين وأربع عشرة، رحم الله الجميع، وبالله تعالى التوفيق.





من أوسط القرن الثالث

أبو مصعب أحمد بن أبي بكر

قال في المدارك تحت عنوان: الطبقة الصغرى من أصحاب مالك فمن أهل المدينة أبو مصعب هذا.

اسمه ونسبه:

اسمه مشهور بكنيته: أبو مصعب واسمه أحمد وأبوه القاسم بن الحارث بن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمٰن بن عوف القرشي الزهري المدني الفقيه قاضي المدينة..

مولده:

ولد سنة مائة وخمسين، وقال غيره: مائة واثنين وخمسين. وترجم له وكيع في أخبار القضاة.

علمه ومكانته:

قال القاضي عياض: قال أبو إسحاق الشيرازي: كان من أعلم أهل المدينة روي أنه قال: يا أهل المدينة لا تزالون ظاهرين على أهل العراق ما دمت لكم حياً.

ولعل هذه المقالة تستوقفنا فنتساءل: ما بال أهل العراق والمدينة؟ والجواب ما قاله بعض المعاصرين: إن أهل العراق كانوا يرون أنفسهم أهل فقه ومسائل واجتهاد وينظرون إلى أهل المدينة أنهم أهل نصوص لا يتجاوزونها. والحال بالعكس، أهل المدينة يرون أنفسهم أهل سنة واتباع، وأهل العراق أهل فقه وتقليد وقياس. وقد كان بين الجانبين منافسات علمية حتى نقل ابن عبد البر في كتابه بيان العلم وفضله ٢/ ٧٧ ما نصه: قال مسروق الوراق في ذم القياس وأصحابه:

كنا من الدين قبل اليوم في سعة   حتى ابتلينا بأصحاب المقاييس
قاموا من السوق إذ قلّت مكاسبهم   فاستعملوا الرأي عند الفقر والبؤس

أما العريب فقوم لا عطاء لهم وفي الموالي علامات المفاليس

قال: ثم لقيه أبو حنيفة رحمه الله فقال له: هجوتنا، نحن نرضيك وبعث إليه بدراهم فلما وصلته الدراهم قال:

إذا ما أهل مصر بادهونا بآبدة من الفتيا لطيفة
أتيناهم بمقياس صحيح صليب من طراز أبي حنيفة
إذا سمع الفقيه به وعاه وأثبته بحبر في صحيفة

فاتصلت هذه الأبيات لبعض أهل الحديث في ذلك الزمن فقال رداً على ذلك:

إذا ذو الرأي خاصم عن قياس وجاء ببدعة منه سخيفة
أتيناهم بقول الله فيها وآثار مبرزة شريفة

علماً بأن إمامنا هذا أبا مصعب كان يميل إلى الرأي كما نقل في المدارك، قال أبو بكر بن أبي خيثمة: خرجت في سنة تسع عشرة ومائتين إلى مكة فقلت لأبي: عمن أكتب؟ يعني: العلم والحديث. فقال: لا تكتب عن أبي مصعب واكتب عمن شئت، وأجاب القاضي عياض عن ذلك بأن أبا مصعب كان يميل إلى الرأي وأبو خيثمة من أهل الحديث وممن ينافر ذلك.

وقد نقل أيضاً عن أبي خيثمة نفسه قوله في أبي مصعب قوله: إن أبا مصعب ممن حمل العلم وولاه عبد الله بن الحسن قضاء الكوفة وولي قضاء المدينة وسنقف عند أعماله وقفة أخرى إن شاء الله.

وقد ذكر عنه الذهبي أنه لازم مالكاً رحمه الله وتفقه عليه وسمع منه الموطأ وأتقنه، وعدد من سمع منهم: العطاف بن خالد، ويوسف بن الماجشون، ومسلم بن خالد الزنجي، وحسين بن زيد بن علي وذكر عدداً كبيراً ثم قال: وطبقتهم: وحدث عنه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وعدد من روى عنه من أهل السنن ونقل عن الزبير بن بكار أنه كان في زمانه فقيه أهل المدينة غير مدافع.

وقال الذهبي: هو نادر الغلط كبير الشأن ثقة. وما أظن أبا خيثمة نهى عن الكتابة عنه إلا لدخوله في القضاء والمظالم.

وقد روى الموطأ عن مالك كما رواه غيره من أصحاب الموطآت، قال ابن حزم: آخر شيء روي عن مالك من «الموطآت» موطأ أبي مصعب،

وموطأ ابن أحمد بن إسماعيل السهمي، وفي هذين الموطأين نحو من مائة حديث زائدة من الموطآت الأخرىٰ. وجاء في رسالة أنوار المسالك إلى روايات موطأ مالك للشيخ محمد بن السيد علوي: أن الدارقطني قدمه على موطأ يحيى بن بكير. وبقي بن مخلد قدمه قال: بقي ابن لما وضعت مسندي أتاني عبيد الله بن يحيى ومعه أخوه إسحاق، فقال: بلغنا تقديمك لأبي مصعب وابن بكير وأخرت إيانا. فقال: قدمت أبا مصعب لقول رسول الله ﷺ: «قدموا قريشاً». وقدمت ابن بكير لسنه لقوله ﷺ: «كبر كبر».

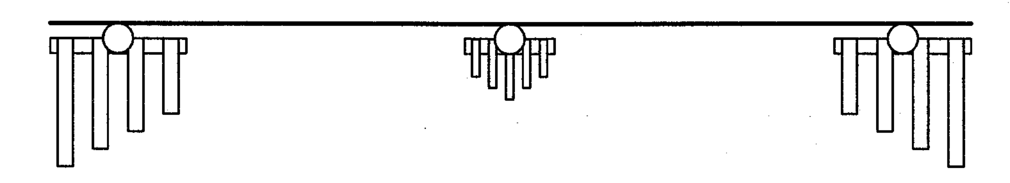
وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ سليم العقيدة سلفي المنهج كان يفتي بأن من توقف عن القول: بأن القرآن غير مخلوق أنه يقتل. وسئل عن رجل يقول: لفظي بالقرآن مخلوق. فقال: هذا كلام خبيث نبطي. وهذا منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ غاية في سد الذرائع عن صفات الله تعالى.

ومما يستوقفنا مع إمامنا هذا أنه قبل أن يلي عمل القضاء بالمدينة عمل على الشرطة لعبيد الله بن الحسن بالمدينة ثم ولي قضاءها.

والوقفة هنا تطول بنا إن نحن أردنا أن نستخلص منها معطياتها ولكن بإيجاز، نقول: لقد أعطانا هذا الإمام الثقة الجليل فقيه أهل المدينة غير مدافع راوي الموطأ عن مالك يتولى عمل الشرطة.

وإنه لحق يجب، أن لا يتولى الشرطة إلا عالم فاضل أعرف الناس بالحلال وأبصر الناس بالخطأ والصواب. إن الشرطة في الحقيقة سلم القضاء وإطار الأمن في البلاد، سلم القضاء حيث إن جميع القضايا الجنائية تصعد إلى منصة القضاء عن طريقهم وبمقتضى تحقيقاتهم ومدى إدانتهم للمتهمين، وقد لا يأخذ القضاة بذلك لقضية كقضية مسلّمة ولكن لا يلغي كل ما جاء في أوراق التحقيق. ولقد كان أمير المؤمنين عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يعس بالمدينة متفقداً أحوال الناس. واليوم نجد بوادر خير من وزارتي الداخلي والدفاع المدني في تخصيص منح دراسية في الجامعات الإسلامية لوجود ضباط دارسين فقهاً إسلامياً يكون عدة لهم في حياتهم العملية، فرحم الله صاحب الشرطة الأول أبا مصعب رحمة واسعة، وبالله تعالى التوفيق.

وقد توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ٢٤٠هـ.



من أوسط القرن الرابع

أحمد بن محمد بن عبد الله القاضي

كنيته ونسبه:

يكنى: أبا الحسن النيسابوري الحنفي ترجم له السخاوي في التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة الجزء الأول تحت رقم (٢٨١) ص٢٣٨. وقال: إن الفاسي والذهبي ترجما له كذلك.

قال السخاوي في ترجمته إياه: كان شيخ الحنفية في زمانه وقاضي الحرمين الشريفين. وليهما بضع عشرة سنة، ثم انصرف إلى نيسابور سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وولي قضاءها في سنة خمس وأربعين، وبها توفي في المحرم سنة إحدى وخمسين وله سبعون سنة.

فهو وإن مات في نيسابور إلا أنه قضى أكثر من ثلث قرن بالحرمين في عمل القضاء وله مكانة علمية، ولتوليه القضاء بالحرمين سبب يتناسب مع هذا البرنامج «علماء الحرمين» ومن لهم نشاط علمي يتأسىٰ به مع طلبة العلم أو يستفيدون من منهجه سنلم به بعد تمام التعريف به رحمه الله. ونظراً لعدم اكتمال حلقة تسلسل العلماء في هذا القرن بالذات لم أقف مع ضيق الوقت على أمثل منه.

دراسته وتفقهه:

تفقه على أبي الحسن الكرخي، وأبي طاهر بن الرياس، وبرع في المذهب وسمع أبا خليفة والحسين بن سفيان، وولي قضاء الموصل وقضاء الرملة.

من أخذ عنه:

لقد تفقه عليه أكثر علماء نيسابور، وروى عنه الحاكم وقال فيه: سمعت

أبا بكر الأبهري المالكي شيخ الفقهاء ببغداد بلا مدافع، يقول: ما قدم علينا من الخراسانيين أفقه منه.

وسمعت أبا الحسن القاضي يقول: حضرت مجلس النظر لعلي بن عيسى الوزير. فقامت امرأة تشتكي من صاحب التركات. فقال: تعودين إلي غداً. وكان الغد يوم مجلس للنظر. فلما اجتمع فقهاء الفريقين. وقال لنا الوزير: تكلموا اليوم في مسألة توريث ذوي الأرحام، فتكلم فيها إمامنا هذا أحمد بن محمد بن عبد الله النيسابوري وذلك مع بعض فقهاء الشافعية، فلما انتهت المحادثة قال له الوزير: صنف فيها ـ يعني: يكتب بحثاً حولها ـ وبكّر به غداً إلي، فلما جاءه به من الغد أخذه منه الوزير وانصرف عنه.

ومن الغد طلبه الوزير إليه. وأخذه الوزير لأنه عرض ما كتبه على أمير المؤمنين فتأملها وقال للوزير: لولا أن لأبي الحسين عندنا بعض الحرمات لقلدته أحد الجانبين، ولكن ليس في أعمالنا عندي أجلّ من الحرمين الشريفين، وقد قلدته إياهما.

وفي هذه الحادثة: إن إمامنا هذا لما علم بقضية ذوي الأرحام وسهمهم طلب من الوزير تنبيه الأمير بردّ سهم ذوي الأرحام إليهم، ففعل.

ولما كان الفرض الأول من هذا البرنامج هو الوقوف على مواطن العبرة والاستفادة من مناهج العلم والمعرفة فإن لنا عدة وقفات في هذه الحادثة:

أولاً: مجيء امرأة تتظلم من صاحب التركات ـ أي ممن يقسم التركات بين الورثة ـ، وهذا يثبت تخصيص شخص لدى الأمراء يختص بقسم التركات، لأن العامة بل بعض طلبة العلم لا يحسنون ذلك. وقد كان هذا العمل زمن النبي ﷺ إذ كان زيد بن ثابت يتولى ذلك، ومن بعده ابنه خارجة كان يقسم ويكتب الوثائق وهذا يتعين على وزارات العدل في العالم الإسلامي أن يخصصوا في كل بلد كبير فيه محكمة كبرى موظفاً خاصاً لذلك.

وأقول: لا يسند ذلك إلى القضاة لأنه عمل يتطلب جهداً وزمناً يشغل القاضي ويستفرغ وقته. ويكفي القاضي أن يثبت الورثة بالوجه الشرعي من أصحاب فروض أو عصبات أو ذوي أرحام وما يلحق ذلك من وصايا

ونحوها. أما قسمة التركة وبيان سهام الورثة وقراريط المسألة فيلزم أن يتفرغ لها شخص خاص بها.

الموقف الثاني هنا: إن معرفة إمامنا لهذه المسألة وكتابته بحثاً فيها كان المؤهل العلمي لتوليه قضاء الحرمين.

وهذا من ألزم ما يكون على من ولي القضاء. وقد كانوا في السابق يمتحنون من يرغب العمل في القضاء أول ما يسألون عن الفرائض. ولا شك أنه من أهم العلوم وأنه أول علم ينزع، وأنه نصف العلم. وأولى الناس به هم القضاة.

ثم من ناحية أخرى، لم تكن مؤهلات العمل القضائي شهادات ولا حتى إجازات علمية إنما كانت فقهاً وفهماً. وقد حدث في زمن أمير المؤمنين عمر ﷺ أن امرأة حضرت عنده فقالت: يا أمير المؤمنين إن لي زوجاً نهاره صائم وليله قائم. فقال عمر ﷺ: بارك الله فيك مثلك من يثنى بخير. فاستحت وذهبت. وكان كعب بن سور حاضراً فلما ذهبت المرأة قال: يا أمير المؤمنين، إن المرأة جاءت لتشتكي زوجها ولم تأت لتثني عليه فدعاها عمر فجاءت، فقال لها ما قال كعب. فقالت: نعم يا أمير المؤمنين إني امرأة شابة وأتطلع إلى ما تتطلع إليه الزوجة. فأحضر عمر زوجها وعرض عليه شكواها فاعتذر بالزهد والورع، فقال عمر لكعب: اقض بينهما حيث فهمت قضيتهما، فقال كعب للرجل وللمرأة: تكلما، فقالت المرأة:

يا أيها القاضي الحكيم رشده ... ألهى خليلي عن فراشي مسجده
هذه في مصحفي تعبده ... نهاره وليله ما يرقده
ولست في أمر النساء أحمده ... فاقض القضاء يا كعب لا تردده

فقال الزوج:

إني امرؤ أذهلني ما قد نزل ... في سورة النور في السبع الطول
زهّدني في فرشها في الحجل ... وفي كتاب اللّه تخويف جلل
فحَثَّها في ذا على حسن العمل

فقال كعب:

إن أحق القاضين من عقل ... ثم قضى بالحق جهداً وفصل

إن لـهـا حـقـاً عـلـيـك يـا بـعـل   نـصـيـبـهـا مـن أربـع لـمـن عـدل

فـأعـطـهـا ذاك ودع عـنـك الـعـلـل

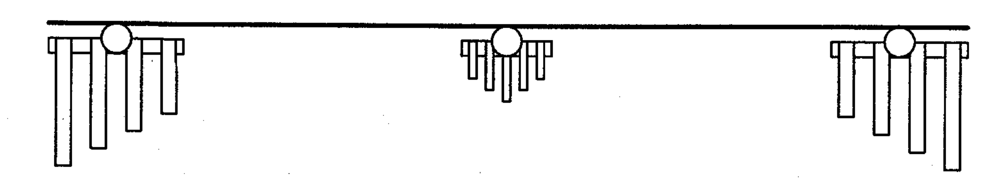
فقال عمر ﷺ: لا أدري أعجب من فهمك لمسألتها أم من حكمك فيها؟ اذهب فأنت قاضٍ لأهل البصرة. فكان فهمه لهذه القضية هو المؤهل لعمل القضاء.

وفي كتاب الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وهناك مواقف أخرى من هذه الترجمة كاجتماع العلماء للمذاكرة واهتمام الأمراء بالحرمين. وغير ذلك مما لا يتسع له المقام.

والله ولي التوفيق.





من القرن الخامس
الزمخشري صاحب الكشّاف

اسمه ونسبته وكنيته:

هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، وكنيته أبو القاسم.

ولقبه:

جار الله؛ لأنه جاور مدة طويلة بالحرم المكي، وشهرته بالزمخشري.

مولده:

٧ رجب سنة أربعمائة وسبع وستين هجرية بزمخشر قرية من قرى خوارزم.

رحلته في سبيل العلم:

قال صاحب «العقد الثمين»: دخل بغداد وسمع بها من أبي الخطاب وغيره، وتوجه إلى الحجاز فأقام هناك مدة مجاوراً بمكة يفيد ويستفيد، فقرأ على ابن طلحة اليابري الأندلسي، وكان رحل بسببه من خوارزم. ثم عاد إلى خوارزم فأقام بها مدة ثم قدم إلى بغداد. ولقي بها الشريف أبا السعادات هبة الله المعروف بالشجري والعلامة اللغوي أبا منصور الجواليفي وغيرهما واعترفوا بفضله وأنشده الشجري عند مقدمه قوله:

واستكثر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صدق الخَبَر

يعني: كان يستكثر الأخبار التي يسمعها عن الزمخشري فلما لقيه صدّق ما عرفه من الخبر الذي كان يسمعه. وهذا المدح عكس القول المشهور: سماعك بالمعادى خير من أن تراه.

ثم ذكر جميع المترجمين له كتبه وثناء العلماء عليه. ونقف هنا وقفة خفيفة في مدى وطول رحلاته من بغداد إلى خوارزم. وارتحاله إلى مكة من أجل عالم بها هو علي بن طلحة.

وقد كثرت مؤلفاته وتعددت في فنونها وأهمها كتابه «الكشاف». ونقل المؤرخون من أخذه عنه وآخر الرواة عنه وهي أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمٰن الشمرية ولها منه إجازة. وهنا أيضاً تنبيه على مشاركة بعض النسوة في طلب العلم والحصول على الإجازة في مثل هذه الكتب كثير. وقبلها منير راوية صحيح البخاري وقد رأيت توقيعاً لأخت صلاح الدين الأيوبي على نسخة خطية مصورة لسنن أبي داود عند آل المبارك بالإحساء، ولعل هذا القرن القرن الخامس مما انفسح فيه المجال للنساء أكثر من ذي قبل وكم روين من الأحاديث ونقل عنهن من الأحكام، ولعل حصول زينت هذه على الإجازة من الزمخشري يدل على كثرة من أخذ عنه من الرجال حتى وصل الأمر إلى النساء. وقال ابن خلكان في تاريخه «وفيات الأعيان»: الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان.

كان إمام عصره غير مدافع تشد إليه الرحال في فنونه وعددوا له ثمانية وعشرين تأليفاً في فنون العربية والحديث والتفسير، ثم قالوا: وغير ذلك. وأهمها عندهم الكشاف وأساس البلاغة.

مذهب الزمخشري:

كان في الفقه حنفي المذهب وأخذ عن الفقيه الدامغاني الحنفي ببغداد وعن غيره.

منهجه في العقائد:

كان معتزلي المنهج متعصباً ومتظاهراً بذلك، وكان مصاباً في إحدى رجليه أصابها الثلج، ولما قدم بغداد سأله الدامغاني عن ذلك فقال: أصابتني دعوة أمي. وذلك أنه كان اصطاد في صغره عصفوراً فربطه من رجله بخيط فدخل العصفور مكاناً ضيقاً فجذبه بالخيط فكسر رجله فدعت عليه أمه بكسر رجله. وهنا تنبيه وتحذير من سوء دعوة الوالدين تحذير الأبناء من التسبب في

إغضابهم إلى هذا الحد، وتحذير للوالدين من أن يطلقوا ألسنتهم بالدعوات بالسوء على الأبناء وقد نهى عن ذلك ﷺ مخافة أن تصادف قدراً وساعة إجابة.

وقد سمعنا الكثير من مثل ذلك، فقد حدثنا بعض كبارنا: إن شاباً طلب من والدته نقوداً في يوم السوق فلم تعطه فأغضبها فدعت عليه إن هو ذهب إلى السوق دعسه القطار، ثم ذهبت هي مع نسوة القرية إلى السوق وعند مرورها بطريق القطار وجدت شخصاً ملقى على الأرض فنظرت فإذا ولدها. وكفى في ذلك نهيه ﷺ. وعلى الوالدين بدل الدعاء بالسوء على الأولاد أن يدعوا لهم بالهداية والصلاح ففي صلاح الأبناء راحة للآباء.

ومع إصابته تلك لم يقعد عن الرحلات الطويلة بين بغداد وخوارزم ومكة وتحصيله العلم والأدب.

وقد جرت بينه وبين أحمد بن محمد السلفي من علماء الإسكندرية مراسلة من أجل رسائل العلماء أدباً وفضلاً كتب إليه السلفي بطلب إجازة بمروياته، نوجز منها قوله:

بعد البسملة والدعاء: إن رأي الشيخ الأجلّ العالم العلامة أدام الله توفيقه أن يجيز جميع مسموعاته وإجازاته ورواياته وما ألّفه في فنون العلم، ويذكر مولده ونسبه إلى أعلى أب يعرفه مع ذكر شيوخه وما سمع عليهم من أمهات المهمات، فعل مثاباً إلى آخر ما طلب منه.

فأجابه الزمخشري بجواب غاية في البلاغة والتوجيه العلمي: بعد البسملة والدعاء والثناء أما ما خطبت عندي من العلوم والدرايات والسماعات، فثياب خلقت على من بينهن الثياب، ثم دفنتهن وحثوت عليهن التراب. وذلك حين آثرت الطريقة الأويسية على سائر بنيات الطريق. وأخذت نفسي برفض الحجب والعوائق ونقلت كتبي كلها إلى مشهد أبي حنيفة فوقفتها، واصفرت يدي منها إلا دفتراً قد تركته تميمة في عضدي وهو كتاب الله الحبل المتين، والصراط المبين لأهب ما قعدت بصدده كلي، وألقي عليه وحده ظلي لا يشغلني عنه بعض ما يجعل الرأي مشتركاً، ويرد القلب مقتسماً، ولذت بحرم الله المعظم، وبيته المحرم وطلقت ما ورائي بتاً، وكفت ذيلي عنه كفتاً. ما بي إلا هم

خويصتي، أنتظر داعي الله صباحاً ومساءً، وذكر تخوفه من ذلك اليوم وأجاز له كل ما طلب منه وذكر له اسمه ونسبه، وإن الزمخشري نسبه إلى قرية من خوارزم وأنشده فيها لبعضهم قوله:

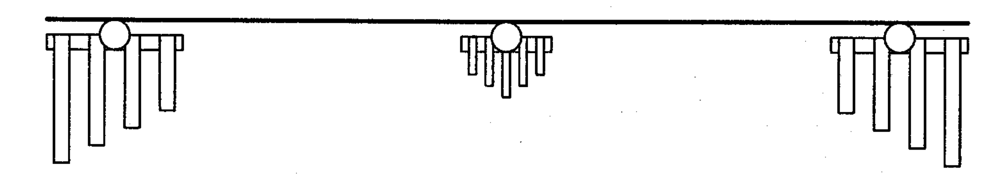
فلو وازن الدنيا تراب زمخشر   لأنك منها زاده اللّه رجحانا

وذكر لنفسه مقطوعة يشتكي فيها نفسه إلى الله ويحذر من هوى النفس فقال:

إلهي إليك المشتكى نفس مسيئة   إلى الشر تدعوني، عن الخير تنهاني
وما يشتكي الشيطان إلا مغفل   إلا أن نفس المشتهي ألف شيطان

والمتأمل في جوابه بالإجازة للسلفي يجد الزمخشري قد ترك كل مؤلفاته على كثرتها وكرس جهده على كتاب الله تعالى، ولهذا فإن شهرته بالتفسير غلبت على كل مؤلفاته، وقد اتجهت إلى هذا التفسير أضواء من جوانب متعددة نرى ضرورة إيراد ما يلزم حول هذا التفسير توجيهاً للناشئين إن شاء الله، وبالله التوفيق.





الزمخشري وتفسيره

أخذ تفسير الزمخشري مكانة مرموقة في عالم التفاسير ويرى بعض العلماء أنه لا غنى لمفسر ولا لطالب علم عنه، وأنه قلّ من يبرز المعاني اللغوية بلاغة مثله وقد أسماه «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون أقاويل في وجوه التأويل» وقال هو فيه مادحاً، حاثاً عليه:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمري مثل كشافي
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

وقد يقول قائل: إنه إعجاب بنفسه، ويقول آخر: بل تحدث بفضل ربه وقد تحدث غيره عن كتابه مبيناً مكانته من مادح وقادح. والمادح ينظر إلى علو الأسلوب ودقائق البلاغة، والقادح يبرز ما أخفاه من مبادئ مذهبه الاعتزال.

أما جانب الأسلوب فلم يجاره أحد وقد توفرت للمؤلف كل مقوماته أدباً ونحواً ولغةً وبلاغةً وله في ذلك كله العديد من التآليف. ومن هذا الجانب فإن كلا الطرفين المادح والقادح يستفيد من تفسيره في ذلك، أما جانب الاعتزال فإنه لم يتركه ولكنه استعمل تفوقه في الأسلوب لدس وإخفاء مبادئه، ولكنها لا تخفى على ذوي البصائر التي أنارها الله فقيض الله لهذا التفسير من تتبع مواطن الاعتزال فيه دقيقها وجليلها، فكشف عنها وقد طبع حاشية عليه وهو للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأسماه «الإنصاف في ما تضمنه الكشاف من الاعتزال»، وبهذه المناسبة لا ينبغي لطالب مبتدئ قراءة الكشاف بدون تلك الحاشية. ولأبي حيّان في البحر المحيط مواقف عديدة وشديدة في تفسيره «البحر المحيط» أغرق في بحره الكشاف وصاحبه وستأتي ـ إن شاء الله ـ كلمة فصل في تلك الخصومة في نهاية هذا.

تفسير الكشاف للزمخشري يقع في أربعة مجلدات معه حاشية ابن المنير المذكورة كل جزء ما بين خمسمائة وستمائة صفحة طبع عدة طبعات، وفي

طبعة الحلبية بالقاهرة سنة ١٣٨٧هـ. ألحق به حاشية تنزيل الآيات على الشواهد عن الأبيات للعالم الموفق محب الدين أفندي تتبع جميع الشواهد العربية الواردة في التفسير ببيان قائله ومحل الشاهد منه تتمة للفائدة.

منهج المؤلف في تأليفه:

من المعلوم أن مناهج التفسير قسمان: قسم نهج طريق الرواية عن شيوخه ومن أخذوا عنهم إلى السلف مرفوعاً أو موقوفاً، وإمامهم في ذلك الإمام ابن جرير الطبري ويسمى شيخ المفسرين. فهو يروي الآثار متفقة أو مختلفة وفي نهاية العرض يقول: والراجح عندي كذا. وهذا هو الأصل في تفسير كتاب الله، إما من كتاب الله كبيان بعض ما أجمل فيه بما فصل، وإما من سنة رسول الله ﷺ. ثم الصحابة فالتابعون... إلخ.

والقسم الآخر يسمى تفسير الدراية، وهذا غالب ما يكون فيما لا نص فيه ويكون المفسر قد اكتملت عنده جميع لوازم التفسير من علوم العربية وقواعد الأصول وأسباب النزول وأقوال من تقدمه. وفي هذا قد سمعنا من والدنا الشيخ الأمين قوله: وما من آية في كتاب الله إلا وعندي ما قد قيل فيها. ويشمل ذلك معرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمفصل إلى غير ذلك.

وأصحاب هذا القسم قد يكون أحدهم متمكناً في جانب من العلم، فلا بد أن يغلب على تفسيره ذلك الجانب مثل أبي حيان غلب فيه الكلام عن المفردات لغة وعن أنواع الإعراب وإن كان لا يهمل الأحكام.

والقرطبي مثلاً في تتبع الأحكام والمسائل الفقهية إلى حد يشبه الاستفضاء، والزمخشري غلب عليه جانبان: جانب الأسلوب والدقائق البلاغية وجانب معتقده الاعتزالي. والمتأمل مقدمة تفسيره يدرك أمرين:

أحدهما: أنه أورد كلام الجاحظ في حقيقة مؤهلات المفسر ـ أعني في نظره ـ حيث قصرها في علمي المعاني والبيان، ومع ذلك يكون أخذ من سائر العلوم بخط كثير المطالعات، طويل المراجعات إلى ما هناك من صفات قلّ أن تتوفر لإنسان.

الأمر الثاني في المقدمة: أنه إنما ألّف تفسيره هذا استجابة لجماعته المعتزلة

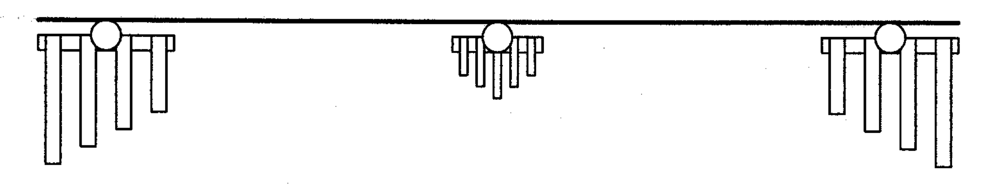
وقد أشاد بهم بادئ ذي بدء إذ يقول: ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلى تفسير آية أبرزت إليهم بعض الحقائق من الحجب. فألحوا عليه في وضع تفسير كامل فاعتذر، ثم أجابهم وجاء إلى مكة فأكمله في أقل من ثلاث سنوات بدلاً من ثلاثين سنة، وعودة إلى بادئ السبب في قوله: إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية. لنجد الادعاء والزعم المعتزلي حيث اعتبر العدلية وهم المعتزلة الذين بنوا اعتقادهم على عدة أمور فيها تمويه العامة، منها: التوحيد، والعدل. ويقصدون من التوحيد نفي الصفات هروباً من تعدد القديم، ويقصدون بالعدل نفي القدر وإثبات أن العبد خالق لأفعال نفسه وكل ذلك ناقشه أهل السنة وأثبتوا أن الفئة الناجية التي وصفها ﷺ بقوله: «ما أنا عليه وأصحابي اليوم»، والمعتزلة أبعدوا النجعة. يهمنا في هذا الموقف وهذا البرنامج التأكيد من التحذير من انعزالية الزمخشري وشدة دسه في كثير من مواقفه. وقد حذر منه الكثيرون وأشدهم وأقساهم عليه أبو حيان فنظم أبياتاً حذر القارئين، منها في ٧/ ٨٥:

لئن لم تداركه من اللّه رحمة　　　لسوف يرى للكافرين موافقا

إلا أن المنهج المعتدل هو أن المنصف وطالب العلم لا يهجر مثل هذا التفسير، بل يأخذ منه ما صح وأوضح ما يغمض عليه وليس عليه من اعتزال صاحبه، وفي المثل: خذ الثمار وألقِ الخشب في النار. وقال ﷺ في حق الشيطان: «صدقك وهو كذوب»، وقال رجل لأحمد: لقد أحصيت على الشافعي عدة أخطاء، فقال له أحمد: ألم تسمع منه ما ليس خطأ؟ قال: بلى، فقال له: خذ الصواب واترك الخطأ. وأعيد التنبيه على أن الطالب المبتدئ لا يبدأ بالكشاف وإن قرأ فيه فليلاحظ التعليق الموجود معه. وقد أنشد الزمخشري أبياتاً توحي بعظيم رجائه في الله فنكل أمره إلى الله وتلك الأبيات هي:

يا من يرى مد البعوض جناحه　　　في ظلمة الليل البهيم الأليلِ
ويرى عروق نياطها في نحرها　　　والمخ في تلك العظام النّحلِ
اغفر لعبد تاب عن فرطاته　　　ما كان منه في الزمان الأولِ

نسأل الله تعالى لنا وله المغفرة، كما نسأله الهداية والتوفيق لما يحبه ويرضاه آمين.



أدب المراسلات عند الزمخشري

لئن كان الزمخشري قد خلف تراثاً علمياً وفيراً فقد أثر عنه أسلوب أدبي مثير، وسجل لنا كلٌّ من تقي الدين الفاسي في «العقد الثمين» ٧/ ١٤٣، وابن خلكان في «وفيات الأعيان» ٥/ ١٧٠ نموذجاً عجيباً في أسلوبه ومضمونه فيما وقع بينه وبين الحافظ أبي الطاهر أحمد بن محمد السِّلفي، وكان مقيماً بالإسكندرية فكتب إلى الزمخشري وهو بمكة يستخيره في مسموعاته ومصنفاته ورواياته ومؤلفاته في فنون العلم، وأن يذكر مولده ونسبه إلى أعلى أب يعرفه وذكر شيوخه وما سمع عليهم من أمهات المهمات حديثاً كان أولفه أو بياناً، وسأله كذلك بعض أبيات من شعره في الزهد أو الحكمة أو أبيات من شيوخه عن شيوخهم وأن يكون كل ذلك بالإسناد المتصل، وسأله عن بعض أشخاص يحقق له صحة أسمائهم ودعا له بخير، وختم الرسالة بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وصحبه. إن هذا السؤال ليستوقفنا مع علماء السلف في حرصهم على الإجازة وعلى التثبت في الرواية والتوسع في العلوم والفنون وتراجم الشيوخ وشيوخهم مع وفرة الأدب في السؤال والتوقير في الطلب.

ثم يأتي الجواب وإن اختلفت الصيغة بين «العقد الثمين ووفيات الأعيان» فإن كلاً من النصين متميز بطابع حري بالاطلاع عليه والوقوف عنده. ففي العقد الثمين جاء الجواب بدءاً بالبسملة ثم قال: اللهم سفراً، أسأل الله أن يطيل بقاء الشيخ العالم ويديمه لعلم يغوص على جواهره، ويفتق الأفئدة على ذخائره، ويوفقه للعمل الصالح.. ولقد عثرت من مقاطر قلمه على جملة تنادي على غزارة بحره وتصبي القلوب إلى الدين بسموط دره وأما ما طلب عندي، وطلب إليَّ من العلوم والدرايات، والسماعات والروايات، فثياب خلقت على من بينهن الثياب، ثم دفنتهن وحثوت عليهن التراب، وذلك حين آثرت الطريق الإويسية على سائر الطرائق ـ ولعله يعني بالإويسية: طريقة (إويس القرني)

العابد الزاهد ـ وأخذ نفس يرفض الحجب والعوائق، ونقلت كتبي كلها إلى مشهد أبي حنيفة، فوقفتها واصفرت يدي منها إلا دفتراً، قد تركته قيمة في عضدي. وهو كتاب الله الحبل المتين، والصراط المبين، لأهب ما قعدت بصدده كلي، وألقي عليه وحده ظلي، لا يشغلني عنه بعض ما يجعل الرأي مشتركاً، ويرد القلب مقتسماً، ولذت بحرم الله المعظم وبيته المحرم، وطلقت ما ورائي بتاً، وكفت ذيلي عنه كفتاً، ما بي إلا هم خويصتي، وما يلهيني إلا النظر في قصتي، أنتظر داعي الله صباحاً ومساءً، وكأني بي وقد امتطيت الآلة الحدباء، قد وهنت العظام، ووهت القوى وقلّت الصحة وكثر الجوى، وما أنا إلا دماء تتردد في جسد هو هامة اليوم أو غد فما لمثلي، وما ليس من الآخرة لي شيء، ولقد أجزت له أن يروي عني تصانيفي وذكر له اسمه ونسبه ومولده.

وإن المتأمل هذا الجواب ليجد الزمخشري قد رسم منهجاً جديداً لحياته بحملها أنه قد أقلع عن كل كتبه، ولم يعد يشتغل بها وأنه أوقفها في ضريح أبي حنيفة رحمه الله ـ أي للطلاب الذين يدرسون هناك ـ ولم يبقِ لنفسه منها إلا ما يتعلق بكتاب الله ليقصر حياته وما بقي من عمره عليه، وأنه اشتغل بخويصة نفسه يتأهب إلى الآخرة مع زهده في الدنيا وإعراضه عنها.

أما نص الجواب في «وفيات الأعيان» ففيه أسلوب آخر وليس فيه أنه أجاز للسائل مروياته، وجاء أن أبا الطاهر كتب إليه مرتين فلعل كل جواب كان على حق، وكان جوابه في «وفيات الأعيان» الذي أرسل به في المرة الأولى على ما سيظهر من موضوعه، والجواب هو: قال: ما فعلي مع أعلام العلماء إلا كمثل السهي مع مصابيح السماء، والجهام الصفر من الرهام، مع الغوادي الغامرة للقيعان والأحكام، والسكيت المخلف مع خيل السباق والبغاث في الطير العتاق.

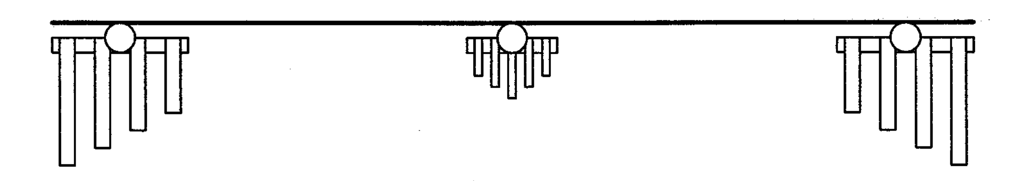
وما التقليب بالعلامة إلا شبه الرقم بالعلامة. والعلم مدينة أحد بابيها الدراية، والثاني الرواية، وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مزجاة، ظلي فيه أقلص من ظل حصاة، أما الرواية فحديثه المبلاة، قريبة الإسناد، لم تستند إلى علماء تحارير ولا إلى أعلام مشاهير، وأما الدراية فثمر لا يبلغ أفواهاً، ويرضى لا قبل شفاهاً، ثم كتب بعد هذا: لا يغرنكم قول فلان فيّ ولا قول فلان، يعني: الشعراء الذين امتدحوه، وقال: فإن ذلك ـ أي امتداحهم إياه ـ اغترار منهم

بالظاهر المموه وجهل بالباطن المشوه، ولعل الذي عزهم مني ما رأوا ومن حسن منصح للمسلمين وبليغ الشفقة على المستفيدين، وقطع المطامع عنهم، وإفادة المبار والصنائع عليهم ولعزة النفس والرب بها عن الأسفاف للدنيا والإقبال على خويصتي، والإعراض عما لا يعنيني، فجللت في عيونهم وغلطوا فيّ ونسبوني إلى ما لست منه في قبيل ولا دبير، وما أنا فيما أقول: بها ضم لنفسي كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى في أبي بكر الصديق رضوان الله عليه بقوله: «وليتكم ولست بخيركم» إن المؤمن ليهضم نفسه. . . إلى آخر جوابه. فذكر مولده وموطنه وختمها بقوله: والله المحمود والمصلى عليه محمد وآله وصحبه. قال ابن خلكان ولم يصرح بمقصوده فيها وهل أجازه بعد ذلك أم لا؟ وتقدم في الجواب الذي ساقه صاحب «العقد الثمين» أنه ذكر الإجازة المطلوبة ونبهنا على أن كل جواب كان عن طريق أحد الطلبة.

ويهمنا في هذا الجواب ما أعطانا الزمخشري عن نفسه من تواضعه وهضمه لحقه إذ جعل نفسه لا شيء مع العلماء الأعلام واعتبر كل ما لديه من علمي الرواية والدراية إنما هي بضاعة مزجاة، كما أعطانا بعض صفات أهل العلم في لطائف ملفوفة تشف عنها عباراته ولا تصرح بها وذلك في قوله عمن امتدحوه، فقال: لعل الذي عزه ما رأوا من حسن النصح للمسلمين وبليغ الشفقة على المستفيدين وقطع المطامع عنهم عزة النفس والرب بها عن الأسفاف للدنيا والإقبال على خويصتي إلى آخره، وهذه كلها لا شك تستوجب الثناء وألزم ما تكون لأفاضل العلماء وللزمخشري شعر رقيق وذوق في اختياره مما نقل عنه ما لا يتسع المقام لإيراده، ومن جيد ما ساقه في تفسيره ضراعة إلى الله قول القائل:

يا من يرى مد البعوض جناحه ... في ظلمة الليل البهيم الألْيَلِ
ويرى عروق نياطها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النُّحَّلِ
اغفر لعبد تاب عن فرطانه ... ما كان منه في الزمان الأولِ

وقبل أن أوصي أن تكتب على لوح قبره وبصرف النظر عن جوازه وعدم جوازه، فإنها مع ما تقدم من ترك جميع كنيته وتفرغه إلى كتاب الله فلعله يدركه قوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». أما معتقده فلخاصة نفسه، وبالله تعالى التوفيق.



ما بين السابع والثامن من القرنين الهجريين

تقدمت الإشارة إلى ما حدث في الحرمين بعد القرن الثالث من قلّة العلماء وتوقفت حركة التعليم بسبب الأحداث السياسية كما قال الذهبي وغيره، وقدمنا من يمثل القرنين الرابع والخامس في الحرمين الشريفين آخرهم جار الله الزمخشري وهو من عرف بتأثره بمنهج الاعتزال، وظهر ذلك في أعظم كتبه «الكشاف» وبيّنا نهجه فيه وما تعقبه عليه العلماء خاصة أبو حيان في تفسيره وغيره. وقد اشتدت المواجهة بين الفريقين فيما بعد ذلك تحت حماية السلطة الفاطمية ومناصرة الفاطميين، حتى تقلص العلماء المبرزون السنيون أمام الحركات السياسية والزحف الاجتماعي والضغط الفكري إلى كامل القرن السادس وما بين السابع والثامن، ومن ثم حدث رد فعل وقامت الجولة بين الفريقين ووُجد من أهل السنة من استطاع أن يوقف تيار البدع ويخمد نيران الفتن، وينتزع الخطابة والقضاء من المبتدعين وقد وجد في تلك الفترة عدد كبير من أهل السنة ترجم لهم ابن فرحون في مخطوطته. وكذلك جاء لعدد منهم في التحفة اللطيفة للسخاوي منهم: الشيخ عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح توفي سنة ٧٦٨هـ، وعبد الله بن محمد بن أحمد بن خليفة سنة ٧٦٧هـ، وعبد الرحمٰن بن عبد الملك القاضي المتوفى سنة ٧٨٨هـ وغيرهم. وبما أن هذا البرنامج «علماء الحرمين الشريفين» يهدف إلى تصوير مناهج العلماء في ميادين الدراسة والتعليم ومن كانت لهم آثار في هذا كله وبأن ابن فرحون هو أشد الناس صلابة وأقربهم مخالطة وأعظمهم أثراً، حيث نازعهم الخطابة والتدريس والقضاء والفتيا وقد ألّف عن تلك الفترة وصوّر واقع الحال آنذاك، فإننا نكتفي بترجمته في تلك الفترة لشمول ترجمته لكل مقاصد هذا البرنامج المبارك، ولأنه أوسع عطاء للسامع الكريم والقارئ الفاضل لإدراك ما واجهته المدينة وقاومه علماء أهل السنة وثباتهم أن الله سبحانه لم يتخل عن أهل الحق

ودعاته، وحقاً: إن الإيمان ليأرز إلى المدينة يجد المأوى والمعين، وهكذا ظلت الدعوة السليمة والسنّة المطهرة قائمة وكلمة الله هي العليا، إلى أن جاءت الخلافة العثمانية ثم عهد الأشراف ثم ما نحن عليه بحمد الله اليوم.

ابن فرحون: هو كما ترجمه السخاوي في التحفة اللطيفة: إبراهيم بن علي بن محمد بن القاسم بن محمد بن فرحون العلامة القاضي البرهاني أبو الوفاء ابن الإمام المحدث «نور الدين» بن أبي الحسن اليعمري المدني المالكي. قال السخاوي فهكذا قرأت نسبه بخطه: ولد بعد الثلاثين وسبعمائة بالمدينة المنورة، ونشأ بها. سماعه: سمع بالمدينة من الحافظ الجمال المطري والزبير علي الأسواني، والمحدث أبي عبد الله الواداياشي وغيرهم، وذكر في التحفة اللطيفة من شيوخه وتلاميذه العديد من الأشخاص.

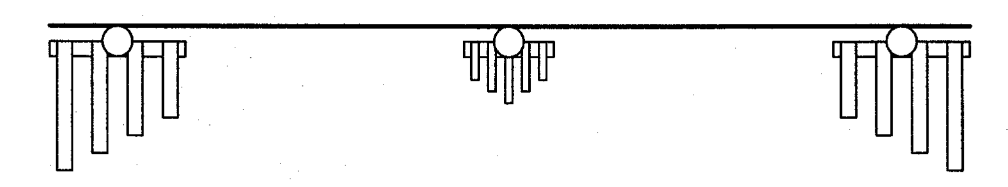
وقبل إيراد الترجمة فإن من طبيعة التراجم أن تربط الترجمة بالحالة العامة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية لما لها من أثر كبير، إما بتأثيرها فيه أو تأثرها منه. والحالة الاجتماعية بالمدينة في عصر ابن فرحون يمكن أن يصورها لنا واقع العالم الإسلامي عامة والمدينة خاصة، أما واقع العالم الإسلامي فمنذ أن قتل الخليفة الراشد عثمان ﵁ اشتعلت نار الفتنة وتفرقت الكلمة وتمزقت الأمة، فقامت خلافة في الشام وأخرى في العراق وثالثة في الحجاز، وتواصلت الحروب فكانت وقعة الحرّة بالمدينة ومقتل ابن الزبير بمكة ومقتل علي والحسين، بل وتنادى في كل قطر بخلافة حتى جاء الفاطميون من المغرب إلى مصر وأصبح منبر الحرمين غاية كل طائفة ترجح به كفتها ولو بالاسم والشكل. وكان من البديهي أن تتأثر الحالة العلمية وتضطرب الحالة الأمنية وتتقلص الموارد الاقتصادية وتبرز الاتجاهات المختلفة سواء في السياسة أو العقيدة أو غير ذلك. وبسقوط بغداد وبانتهاء الدولة العباسية في أواسط القرن السابع وقوة نفوذ الفاطميين بمصر ظهرت شعارات تستر خلفها بعض الطوائف للتأثير على العوام، وضاق الخناق على أهل السنة وانفسح المجال لأهل الأهواء وكان ذلك لصالح الحكام، فجاروا بل وشجعوا كل ما يرضي العوام ولو كان على حساب السنّة ولحساب البدعة فانتشر التشيع تحت شعار محبة آل البيت، وظهرت المعتزلة تحت شعار حرية الرأي وغير ذلك.

وأصبح العالم الإسلامي كله أشبه بزورق يتقاذف الأمواج أو بقرطاس يلوح بالرياح، والكل ينظر إلى من يضمن له سلطانه ويثبت له ملكه. أما الدين والعقائد والسنّة فعند هؤلاء أن للدين ربّاً يحميه. ولما قامت الدولة باسم الخلافة العثمانية وبسطت نفوذها على أكثر بلاد العالم الإسلامي، وأصبحت تلك الأقطار بمثابة ولايات لها تصدر تعاليمها من الباب العالي كان المجار وخاصة الحرمان الشريفان على غير ما كانت عليه في تلك الأقطار، وكان حكامه المباشرون من المواطنين وكان بين الحاضرة والبادية كما بين الطوائف المتعادية، ومن طبيعة تلك القلاقل والاضطرابات أن يصحبها مثلها في الحالة الفكرية والخطط المنهجية.

وقد كانت المدينة بالذات في عهد ابن فرحون في قبضة العلويين وفيهم من المتطرفين الذين لم يفسحوا لغيرهم المجال، ولم يمكنوا غيرهم من مزاولة مهام الأعمال فكانت بأيديهم الخطابة والأمانة والقضاء والفتوى، يساندهم الأمراء ويساعدهم ما بأيديهم من الأموال والمساعدات تأتي إلى أيديهم، فتميل إليهم العامة رهبة أو رغبة ولكن المدينة المنورة ومكة المكرمة حرسهما الله دار هجرة يقصدهما الأخيار من كل الأقطار ويختلف إليهما من الحجاج الكثير من بعض بعض الأفواج وفيهم العلماء والأدباء والفضلاء فتراجع العلم والتحصيل والدرس إليهما رغم مضايقة ذوي السلطة وتسلط أهل البدعة لكنهم ثبتوا واتحدوا. لقد كان أهل السنة يخفون كتبهم ومن وجد عنده موطأ مالك أو صحيح البخاري صودر منه وحبس حتى يتركه.

وكان ينادى في الأذان: حي على خير العمل، وكانت تقام صلاة الرغيبة بالروضة وكان بعض الطوائف في رمضان يجتمعون بعد صلاة العشاء، ويقرأون كتبهم ورسائلهم بأصوات مرتفعة حتى تنتهي صلاة التراويح في خلال تلك الأصوات وما يحدث من تشويشات، وكان ابن فرحون ومن معه ممن ساندوا أهل السنّة لا سيما وقد جلس للإفتاء وولي عمل القضاء وكانت له أخبار وآثار، سنأتي على جملة منها فيما يأتي إن شاء الله.





حالة المدينة في عهد ابن فرحون من خلال سيرته

تعتبر هذه الفترة التي شهدها ابن فرحون بالمدينة فترة مواجهة عصيبة بين اتجاهين مختلفين من جهة تضارب الآراء واختلاف المعتقدات فيما بين أهل السنة تلك الطائفة التي نوّه عنها ﷺ وبشّر بنصرتها بالحق، وبين الطوائف الوافدة مع الزحف السياسي الفاطمي، وبقايا تلك الاختلافات المتزاحمة في ذلك المجتمع الذي يمثل معظم طوائف العالم الإسلامي كما تعتبر تلك الفترة نقطة تحوّل وتطوّر بدأت فيها كفة الحق ترجح وشعار السنة يعلو.

وبحكم مولد ابن فرحون بالمدينة ونشأته بها وتلقيه العلم عن علمائها وتوليه أهم المناصب بها ومخالطته أهل الحل والعقد من أهلها ومواجهته الفعلية والمباشرة للتيارات المعاكسة، فهو أعرف الناس بتلك الفترة وأصدق الناس حديثاً عنها ولا سيما وهو العالم الفاضل والفقيه المدقق والمؤرخ المحقق فقد ظهر فعلاً تأثيره وتأثره، تأثيره في جمع كلمة أهل السنة ومجابهة أهل الأهواء وتأثره بالروح العامة التي امتدت ظلالها في آفاق العامة والخاصة في ميادين العبادات والزهادة والورع، والتي كانت لها سريان وتعمق في الشعور والإحساس دون ما شعور ولا إحساس كما لو خالط أعقل الناس وأعلمهم لقوم مختلفين عنه كل الاختلاف، ومهما تحفظ منهم كل التحفظ فإنه وبدون شعور منه ولا قصد تسري إليه بعض ما يكون لأولئك القوم. وهكذا في ذلك العصر وتلك الفترة فترة تحول وفترة تطور ورجحان كفة أهل السنة وتخلص من رواسب الماضي ومن خلال الشعارات الوافدة إلى المدينة.

يتضح كل ذلك من كتابة ابن فرحون عن تلك الفترة كتابة معاصر ومشاهد ومشارك ومتفاعل مع الأحداث، فكتابته بحق صورة ناطقة وبقدر تطلعي لمرجع في تاريخ المدينة على النحو الذي قرأته عن ابن فرحون لم أجد له مثيلاً لا مخطوطاً ولا مطبوعاً، رغم وفرة المؤلفات من بعده بل وإفراد بعض القرون

بمؤلف خاص كالقرنين الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، وما وراء ذلك كله من تأليف وللأسف كلها عامة في موضوعها وليس للمدينة فيها إلا النادر كما سنوضحه ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على تلك القرون.

والذي يهمنا هو إيراد القول: بقدر المستطاع عن حالة المدينة زمن ابن فرحون من الجوانب الهامة التي لها تأثير على الحركة العلمية، وهي السياسة من حيث الرئاسة والإمارة والاقتصاد، ومن حيث وفرة العيش أو قلّته والشرطة من حيث توطيد الأمن أو إشاعة الفوضى والحسبة، من حيث قيام الأمر بالمعروف أو إشاعة الرذيلة، وبالتالي الحركة العلمية من حيث مواصلة الدراسة وقيام حلق العلم بالمسجد النبوي ومن جانب العدالة من استقامة القضاء أو تضييعه، ومن حيث المناهج في الحياة والفتوى وعلى أي منهج، ثم علاقة من يسمونهم المجاورين بالأهالي والمواطنين.

ولا شك أن الحديث عن جميع تلك الجوانب بالتفصيل يستغرق المجلدات ويحتاج إلى سنوات، ولكننا نجمل ما به تتضح الصورة العامة والحركة العلمية الخاصة.

أما الحالة السياسية: فمعلوم أن العاصمة السياسية قد انتقلت إلى دمشق تبعاً للخلافة الأموية. ولكن المدينة ظلت هي العاصمة الدينية الروحية وظلت فيها الحركة العلمية على أشدها حتى العهد الأول من الدولة العباسية. وقد وفد الرشيد ومعه أبو يوسف صاحب أبي حنيفة وسمع من مالك وأخذ عنه مكيلة الصاع النبوي وترك أبو يوسف ما كان عليه في ذلك من قبل.

وفي آخر العهد العباسي حين كانت للجنس التركي يد في مساندة الدولة ومناصرتها وأخذوا الثمن غالياً بالتحكم في سير الخلافة وفي تولية أو عزل الخليفة، اضطرب السلك السياسي في العالم الإسلامي كله، واقتطعت ولايات من الدولة الإسلامية الكبيرة فاقتطع أحمد طولون مصر والشام واقتطع من بعده المهدي المغرب وزحف على أفريقيا وشغل المسلمون بأنفسهم، والباب العالي لم يستطع حلاً ولا ربطاً. وكانت حالة المدينة في الداخل أشد اضطراباً من مجموع حال العالم الإسلامي كله، فكانت سلطتها تابعة للولاية المصرية وكان ولاتها من الأشراف من أهلها وكانت لا تأمن إغارة من أي جهة في أي وقت،

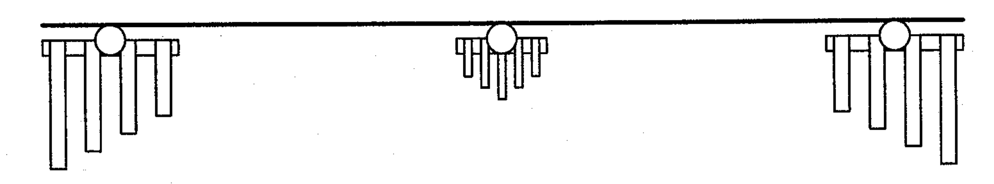
ونذكر صورة مما سجلها ابن فرحون بقوله: كان الأمير الكبير كنان بن منصور متولياً على المدينة نيابة عن أبيه، فبلغه أن عمه مقبل بن جماز مقدم من الشام يريد المدينة فأمر بالتحفّظ منه ونادى في الناس: لا ينام أحد في بيته ويذهبون جميعاً إلى القلعة يبيتون فيها وحولها، وإن تخلّف حل ما له دونه فلحق الناس من ذلك كرب عظيم، فكان الناس كلهم مجاورهم وخادمهم وضعيفهم وقويهم وعالمهم وجاهلهم مستوين في ذلك. وحبس الناس على ذلك أياماً طويلة حتى اطمأنوا وما شعروا بعد عودتهم إلى بيوتهم إلا ومقبل بن جماز دخل المدينة ليلاً متسوراً السور بسلم، واقتتل هو وأمير المدينة وعاونه أهل المدينة حتى قتلوه وكفاهم الله شره فمثل هذه الحالة وأكثر منها: نهب الأعراب، وقد حكى من ذلك أنه في بعض السنوات أثناء الموسم سنة ٧٥٠هـ نهبت جميع ودائع الحجاج في المدينة وحصل لأهلها إزعاج شديد ونهب غالب البيوت ولم يترك لهم أثاثاً ولا متاعاً، لم يجر مثله في زمنه ولم يسمع بمثله من قبله، أما هو فذهب إلى الأمير فأجاره وجيرانه.

قال: وكنت أخرج إلى المسجد للصلاة فأجده مغلقاً فآتي باب النساء فأستفتح فيفتح لي فأجد المسجد خالياً حتى من الخدم، كان يرى المفسدين وهو في طريقه يكسرون الأبواب وينهبون الأموال فلا يقدر على شيء، وقد حدث له ذات يوم أن لقيه بعض أولئك ويمشي أمامه تجار وبيده (قدوم) ومتجهاً إلى حارة ابن فرحون، قال: فقلت له: إلى أين هذه العزمة والهمة؟ فقال له: لي حاجة. فقال له: اجلس ها هنا وما هي حاجتك إنها ساعة مباركة أن تكون لك عندي حاجة. قال ابن فرحون: وما هي بعادتي، يعني أنه قال: مجاملة ومداراة فقال له: إني تزوجت وليس عندي (مفرشة أقدمها)، قال ابن فرحون: فدخلت بيتي وأخرجت فراشاً لي وأعطيته إياه.

ونقل عن المطري أنه حدثه بأن بعض الأشرار اتفقوا على نهب المدينة وأنهم بعد صلاة الصبح يغلقون الأبواب على المصلين ويخلفونهم إلى بيوتهم، ثم يقتلون كل من في الحرم فسمع المجاور بذلك فصاروا يحملون السلاح معهم، وبعد أيام قام بعض العلماء وحذر من الفتنة وإثارتها فخاف أولئك واجتمعت كلمة المجاورين وقويت جماعتهم فلم تزل لهم الهيبة. ولعلنا بهذا

نجدد شكر النعمة على ما أولانا مولانا من نعمة الأمن بظلها الوارف وفضيلة الطمأنينة، فله سبحانه الحمد والمنة، ولولاة الأمور خالص الدعاء بالنصر والتأييد والسداد والتوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.





أصالة المدينة والحالة الاقتصادية

تقدم في بيان الحالة الأمنية بالمدينة في عهد ابن فرحون وما كانت فيه من قلاقل واضطرابات وزعازع حتى كانوا يضطرون إلى الاعتصام بالمسجد النبوي ويحملون السلاح تحفظاً على أنفسهم. ومن المعلوم أن الحالة الاقتصادية مرتبطة في العالم كله بالحالة الأمنية والاستقرار والبلد الذي يستطيع أن يستجمع قواه بعد سقوط حالته يعتبر بلداً فيه حيوية كما حدث لكلٍّ من اليابان وألمانيا في العصور الأخيرة.

والمدينة قد سجلت على مدى التاريخ قديماً وحديثاً قوة وصلابة أمام أحداث جسام فتصمد، وبعد الأزمات تستجمع قواها وتعود إليها حيويتها ونهضتها. وأقدم ما عرفنا لها من أحداث ذاك الحدث الفريد زمن التبابعة حين حاصرها سعيد أبان واستمر الحصار طويلاً، وهو يريد استئصال أهلها أخذاً بثأر ولده الذي قتل فيها على تمر نخلة اعتدى عليها فكانوا يقاتلونه وجيشه نهاراً ويقرونه ليلاً، حيث نفد طعام الجيش المحاصر لهم فكان هذا الملك يتعجب ويقول: إن هؤلاء لكرام نقاتلهم نهاراً ويقروننا ليلاً، ثم خرج إليه حبران من أحبار اليهود وأعلماه أنه لن يسلط عليها لأنها مهاجر آخر نبي فقبل منهم وانصرف عنها.

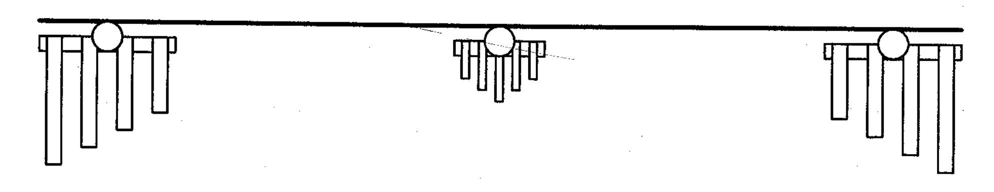
وقبل البعثة المحمدية تشهد المدينة حرباً ضروساً سميت حرب بعاث وتذكر كتب تاريخ المدينة، أن الأوس والخزرج كانت كلمتهم واحدة زمناً طويلاً. ثم وقعت بينهم فتن بسبب مقتل بعض الأشخاص وأنه قامت بينهم حروب مجموع مدتها فوق المائة عام وآخرها حرب بعاث، وهي التي أنهكتهم وأفنت رجالهم وكانت قبل الهجرة بخمس سنوات فقط. وقالت فيها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: إنه يوم قدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ماؤهم وقتلت سراتهم وينضاف إلى ذلك ما

كانت تهددهم به اليهود من بعثة آخر نبي ويهاجر إلى المدينة ويسبقونهم إليه فيقاتلونهم معه، ولكن بفضل الله كان الأوس والخزرج أسبق إلى الإسلام وبيعة العقبة الأولى والثانية. والمهم أن المدينة أيضاً صمدت أمام تلك الحروب المتعددة والمتتالية من مائة سنة، ثم استجمعت قواها وعادت إليها حيويتها فاستقبلت النبي ﷺ وقال عنها: «أمرت بقرية تأكل القرى ففتحت البلاد وأدخلتها في الإسلام طواعية وكرهاً». ثم بعد أن انطلق الإسلام منها وتمصرت الأمصار على أيدي أبنائها رزئت من أبناء الإسلام بقتال لم ترزأ به بلدة قبلها فكانت وقعة الحرة، ولم يرقبوا في أهلها إلّاً ولا ذمة ولم يرعوا للمسلمين عهداً ولا حرمة. قد أفضى كل ما قدم، ثم هي أيضاً تستجمع قواها وتعود إليها حيويتها وتزدهر الحياة فيها اقتصادياً وعلمياً فتعمر بحلق الدروس وتتعدد فيها المناهج ويتوفر فيها العلماء، حتى يقول مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم أجلس للدرس والفتوى حتى شهد لي سبعون عالماً أني أهل لذلك. ويقول: لقد تركت تحت تلك السواري رجالاً يقولون: قال الله قال رسوله ﷺ ولم أرو عنهم حديثاً واحداً فقيل له في ذلك فقال: «ليسوا من أهل هذا الشأن»، يعني: التدقيق في رجال الإسناد. فكم يكون عدد العلماء بالمسجد النبوي آنذاك وها هي المدينة في عهد ابن فرحون تشهد السلب والنهب سواء من الأعراب أم من غيرهم، ويُضيَّق على أهلها إلى أشد ما يكون ويتحكم الشيعة في أهل السنة ويحاولون نصر نحلتهم وإخفاء مناهج الكتاب والسنة. ولكن المدينة تصمد وتقاوم حتى إذا ما انتهت تلك الفترة تعود إليها حيويتها وتعود إلى المسجد النبوي روعته ورونقه وترفرف فيه نسمات رياض الجنة.

وفي الآونة الأخيرة أي فيما عاصره بعض المعاصرين وشهده بعض الحاضرين تعود الأزمة إلى المدينة وما يسمعه العامة بحرب (فخرى)، يشتد الحصار وتنعدم المؤن ويرجع الناس إلى ما كانوا تركوه يلتقطون منه ما يسد رمقهم، حتى وصل الحال بالبعض أنه كان يرجع إلى (نوى النمر) يمصه، وأشد من ذلك أن يأكلوا ما لم يكن يؤكل والمدينة صامدة، وصابرة، وفتحت أبوابها لأبناء العالم الإسلامي ونشطت فيها الحركة العلمية من كتاتيب للصغار وحلق التعليم بالمسجد للكبار، ومدارس للتعليم والسكنى ومساعدات للفقراء

وأرزاق للغرباء حتى غدت اليوم مهوى طلبة العلم من أنحاء العالم الإسلامي وصدق عليها في هذا العصر، كما صدق عليها في فجر التاريخ منطوق قوله ﷺ: «يا أهل المدينة، إن الناس لكم تبع ستفتح أقطار الدنيا ويأتيكم رجال يطلبون العلم فاقووهم»، فها هي الجامعة الإسلامية تزيد فيها جنسيات الطلاب على المائة جنسية أتى إليها أبناء أكثر من مائة قطر على اختلاف المراحل، وها هي جامعة الإمام محمد بن سعود كلية شريعة معهد عالٍ للدعوة، وهذ جامعة الملك عبد العزيز فيها كلية التربية والآداب، وهذه حلق الدروس بالمسجد النبوي في الحديث والفقه والتفسير والأصول والنحو والفرائض والمصطلح، وغير ذلك مما يقصده الدارسون وقد تحدث ابن فرحون عما عاد إليه المسجد النبوي بعد أن كان تغلق أبوابه في الفتنة. قال: وكان للحرم الشريف أبهة عظيمة ومنظر بهي. يقول: كنت أنا إذا دخلت المسجد الشريف وجدت الروضة المشرفة قد غصت بالمشايخ المعتبرين مثلي ومثل الشيخ أبي محمد السكري، والشيخ عبد الواحد الجزولي، والشيخ عز الدين الزيدي، والشيخ أبي بكر الشيرازي، والشيخ أبي العباس ابن الشريف أحمد الجزار، والشيخ علي الواسطي وذكر عدداً منهم المطري وغيره وذكر من حسن حال الخدام سمتهم في صفوفهم، قال: يستحي المرء أن يمر بين أيديهم وذكر من حال العلم والعلوم أن الطلاب كانوا يختبرون ويعطون مكافأة على إجادتهم. وكانوا يخصون رمضان بدراسة الشمائل المحمدية للحكيم الترمذي. وهكذا ثبتت للمدينة أصالتها وقوة ثباتها وهي كما قال ﷺ: «أمرت بقرية تأكل القرى» ، وقوله: «الناس لكم تبع»، وقوله: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة» في ترجمة إمامنا ابن فرحون، وبالله التوفيق.





من علماء القرن التاسع «السخاوي»

حفلت كتب التراجم بالعدد الكبير من تراجم الرجال بعد قلّتها في القرون التي سبقته وخاصة عن الحرمين الشريفين والمتتبع لكتب التراجم لهذا العصر بصفة عامة ولعلماء الحرمين بصفة خاصة، يجد بحمد الله وفرة ظاهرة في عواصم العالم الإسلامي كمصر والشام والعراق والحجاز، وقد يكون السخاوي والسيوطي أشهر علماء هذا العصر وأوفرهم إنتاجاً وأكثرهم عطاءً لطلبة العلم. وقد اخترنا السخاوي إذ استقر به الأمر بالحرمين وله عناية خاصة بالمدينة المنورة ومن أوسع ما جمع في علمائها كتابه «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» بدأها بموجز عن السيرة النبوية العطرة، ثم بحال المسجد النبوي الطاهر، ثم بولاتها وقضاتها وبعض آثارها ثم ساق التراجم على حروف المعجم ظهر من هذا ثلاثة أجزاء تضم فوق الأربعة آلاف شخص وصلت إلى حرف «الميم»، وقد ترجم لإمامنا هذا عدد من العلماء ولكن أكثرهم ينقل عن ترجمته هو لنفسه وهذا عمل للقليل من العلماء أن يترجم لنفسه ومنهم إمامنا السخاوي ترجم لنفسه في كتابه الجامع الشامل «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»، وهو عشرة أجزاء جاء أن ترجمته في أول الثامن منه وسنقدم بعون الله تعالى هنا المواقف التي فيها لطلبة العلم توجيه، أو تشجيع في سبيل الطالب بما يتفق مع منهج هذا البرنامج المبارك (علماء الحرمين).

اسمه ونشأته:

هو محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد، ولقبه: له عدة ألقاب أشهرها شمس الدين، كنيته: أبو الخير، أبو عبد الله بن الزين، الجلال أبو الفضل أبو محمد السخاوي.

مولده:

ولد بالقاهرة ونسبته السخاوي نسبة لقرية غربي الفسطاط اسمها: سخا. وكان ينسب إليها (سخوي).

تاريخ ولادته:

ولد في ربيع الأول سنة ٨٣١هـ، وهذا الموضع محل أبيه وجده ويقع بجوار مدرسة شيخ الإسلام البلقيني. ثم تحول بعد الرابعة من عمره مع أبيه إلى جوار شيخه ابن حجر. وسيأتي أن هذا الجوار كان له أثر في حياته.

بداية طلبه للعلم:

أدخله أبوه الكتاب عند المؤدب الشرف عيسى بن أحمد. ثم نقله عند زوج أخته الفقيه الصالح البدر حسين بن أحمد الأزهري، فقرأ عنده القرآن وصلى به للناس التراويح ثم نقله لأبي أمه الشيخ شمس الدين العدوي المالكي، ثم نقله أبوه إلى فقيهه المجاور لسكنه الشيخ المفيد القدوة الشمس محمد بن أحمد التحريري، مؤدب البرهان بن خضر والجلال بن الملقن وغيرهم من الأئمة.

وهنا وقفة مع منهج البداية من الكتاب وكانت هذه هي الطريقة المثلى يبدأ الطفل بالكتاب لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وليس ذلك فحسب بل ومع ذلك التأدب والسلوك، كما قال عن معلم الكتاب «المؤدب»: الشرف عيسى والمؤدب زوج أخته الفقيه الصالح. لأن الطفل في أول أمره على الفطرة سرعان ما يكتسب سلوك مؤدبه، وهكذا كان السلف يكلون أمر تأديب أولادهم لمن يختارونهم من العلماء. ومن الناحية الثانية: إن هذا المؤدب معلم الكتاب فقيه مفيد وليس مجرد حافظ مجوِّد لكتاب الله، فيكون بفقهه نعم المؤدب وبه يتخرج الطفل على نهج قويم. ومن الناحية الثالثة: وجود التطبيق العملي لمرحلة الكتاب أن يصلي بالقرآن للناس التراويح تأكيداً في تثبيت حفظه وإتقانه، وهذه الطريقة قد عاصرناها في الحرمين الشريفين، والآن فإن مدارس تحفيظ القرآن بالمملكة لتؤدي هذا الواجب، غير أنها لو طبقت عملياً صلاة هؤلاء الناشئين التراويح بالقراء إن لم يكن لعامة الناس فليكن لخاصة أهله وزملائه.

ثم ننتقل مع إمامنا إلى مرحلته الثانية وهي مرحلة تلقي العلوم، بدأت تلك المرحلة بعد زوج عمته في القراءات وأخذه القراءات السبع فانتقل إلى العلامة الشهاب بن أسد فأكمل حفظ «عمدة الأحكام» وحفظ عنده «التنبيه» وهو كتاب لعمه، والمنهاج وألفية ابن مالك في النحو والنخبة في المصطلح وقرأ عليه الروايات أفراداً وجمعاً وتدرب به في القراءات والمطالعة وبدأ يشارك غالب من يتردد إليه للتفهم في الفقه والعربية وللقراءات وغيرها. ونقف هنا مع تحصيله حيث بدأ بعلوم القرآن والعربية والفقه ومصطلح الحديث، ثم بدأ يطبق عملياً فيشارك غالباً من يتردد على شيخه فيدارسهم في إفهام تلك العلوم: الفقه واللغة والقراءات. وهذا يذكرنا موقف إمامه الشافعي من قبل حيث كان في الكتاب ربما ناب عن معلمه حال غيبته بمكة، وكذلك لما جاء إلى مالك بالمدينة وقرأ عليه الموطأ وأعجب به مالك كان ينيبه في قراءة الموطأ على من يقدمون في موسم الحج. وها هو السخاوي يشارك في إفهام من يتردد على شيخه في تلك المرحلة، إنه عمل أشبه ما يسمى اليوم «بالمعيد» يعيد دروسه بالتدريس للمستجدين.

وكان للسخاوي تحصيل شخصي فكان يحفظ الكتب وكلما حفظ كتاباً عرضه على من وجد من العلماء ولو لم يكن من شيوخه الذين يلازمهم فحفظ ألفية العراقي في مصطلح الحديث وشرح النخبة وغالب الشاطبية، وبعض جامع المختصرات ولعله جمع المتون ومقدمة الساري في العروض وقد عدد المشايخ الذين عرض عليهم حفظه ودروس الفقه التي تلقاها بالروضة على عدة شيوخ.

ومما حصل من العلوم الفرائض والحساب والميقات والبيان والمعاني وأخذ عن مشاهير العلماء في عصره منهم العز بن عبد السلام. وقد أثبتوا له من الشيوخ العدد الذي لم يثبتوه لأحد حتى قال طه حسين في تقريظه للتحفة: لقد بلغت شيوخه أربعمائة وألفاً، وذكر غيره دون ذلك. ولكنه هو نفسه يقول: لقد أخذت عن كل ما هب ودب، وذكر فوق الأربعمائة شيخ، وكان هذا بسبب كثرة رحلاته في طلب العلم وذلك كالآتي:

في الداخل بمصر رحل إلى دمياط والجيزة وبلبيس وصفط الحنة ومنية الدريني، ثم سافر للحج وأخذ عمن لقيهم بالطور وينبع وجدة، وفي مكة قرأ

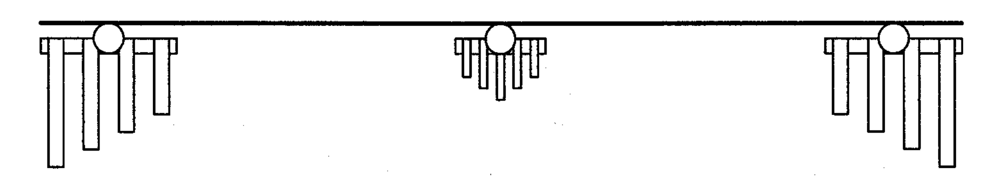
العديد من الكتب وداوم القراءة حتى بمنى ومزدلفة، وذكر أسماء من أخذ عنهم في رحلته هذه بمناسك الحج كذلك بالمدينة وممن أخذ عنهم ابن فرحون المالكي المتقدمة ترجمته، ثم عاد إلى القاهرة وبعد عودته جدد رحلته في الداخل إلى دسوق والإسكندرية وذكر أكثر من عشر مدن مشهورة الآن.

مما يعطينا الصورة المزدهرة للعلم آنذاك في مصر مدنها وقراها، ثم ارتحل إلى حلب وغزة وبيت المقدس ودمشق وعدد من المدن بالشام كثيرة وسجلوا له مرويات تكاد تشمل جميع علوم عصره، ثم حج سنة ثمانمائة وخمس وثمانين وتكرر مجيئه إلى الحج ثم استقر بالمدينة هو ووالداه وأولاده فشرع في التصنيف والتخريج وعددوا له من ذلك في جميع الفنون: الحديث وعلومه والتفسير والفقه الحديث ورسائل في موضوعات مستقلة، وفي الرجال ما يقصر عن استيعابه وذلك من كثرة تأليف جديد أو شرح مفيد، وكما أسلفنا لا نظير له في عصره إلا السيوطي رحمهما الله وكان بينهما ما بين الأقران والمعاصرين وقد امتدحه كثير من العلماء في خدمته للسنة وعلومها من ذلك قول ابن الحمص:

يا خادماً أخبار أشرف مرسل … وسخا فنسبته إليه سخاوي
وحوى السياسة والرياسة ناهضاً … منهاج حبر للمكارم حاوي

وكان جلّ تأليفه بالمدينة المنورة مما يصور حالتها العلمية في عهده مما سنسوقه في الحلقة الآتية إن شاء الله، وبالله التوفيق.





المدينة المنورة في عهد السخاوي

إن من يستوعب ترجمة الإمام السخاوي يدرك من خلالها حالة المدينة العلمية بصفة إجمالية، حيث سجّل له من مخطوط يده في مختلف الفنون ما أورده في ترجمته ملء ست صفحات بأسماء مؤلفاته ابتداءً من عدة أربعينيات في الحديث وتراجم وتخاريج على الصحاح وشروح لمتون في مختلف الفنون. وكان جلّ عمله هذا بعد أن استقر بالمدينة المنورة، وقد أورد هو عن المدينة في مقدمة كتابه الفذ النادر المتخصص «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» ما يلقي الأضواء على حالة المدينة آنذاك، وهي بالفعل امتداد لتحول حالة المدينة في عهد ابن فرحون، وقد تقدمت الإشارة إلى ما كانت عليه الحال في أوائل أمر القرن الثامن من قلق واضطراب وتضارب العقائد ومواجهات بين الشيعة وأهل السنة، إلى أن قيض الله مع ابن فرحون من توحدت بهم الكلمة واتحدت بهم الصفوف والجدير بالذكر أن في أواخر حياة الشيخ السخاوي كان مجيء السلطان سليم العثماني إلى مصر وسافر شريف مكة وسلمه مفاتيح الحرمين الشريفين، وتم الاستقرار والتمكين لأهل العلم كأحسن ما يكون ولم يعد للطوائف المختلفة سلطة لا في مصر ولا في الحجاز، وارتبطت المدينة ومكة بمصر ارتباط ولاية وبقيت السلطة والإمارة للأشراف. وقد نشطت الحركة وأنشئت المدارس في مصر والحجاز والشام... إلخ. فنشط التأليف وظهرت المؤلفات فالسيوطي في مصر، لا تكاد تحصى مؤلفاته والسخاوي في المدينة كذلك وقد كان أتباع كل منهما يدعي أن صاحبهم هو المعني بالحديث: «يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها»، حتى قال بعضهم في حق السخاوي في هذا المعنى الزين الأشليمي:

يا سيداً أضحى فريد زمانه ... ودليل ما قد قلته الإجماع

عندي حديث مسند ومسلسل ... يرويه ذو الإتقان لا الوضاع

ما في الزمان سواك يلغي عالماً صحت بذاك إجازة وسماع
الخير فيك تواترت أخباره وهو الصحيح وليس فيه نزاع

في الوقت الذي يقول عنه الشيخ حامد فقي رحمه الله على مقدمة التحفة بعد الثناء عليه وعلى علومه قال: إن عصره كان عصر تقليداً. وهذه العبارة لا تخلو من نظر وخاصة في حق السخاوي رحمه الله لأن التقليد عند المتأخرين الأخذ بكلام الفقهاء من غير معرفة الدليل، كما أنه قد يقصد بالتقليد عدم الابتكار، ويجاب عن ذلك كله من جانبين، الأول: أن ما أثبت للسخاوي من مؤلفات في الحديث وعلومه وإجازات في كتب الحديث من الصحاح والمسانيد والموطأ بل والمعاجم كالمعجم الكبير للطبري لا يجعله في صف المقلدين. ومن ناحية أخرى فإن الابتكار يكون في أوائل النهضات، وفي أوائل النهضة العلمية في الإسلام قد ابتكرت مبادئ العلوم كما في التفسير وعلومه والحديث وأصوله، بل وأصول الفقه وغيره بل تميزت بعض أبواب الفقه كالفرائض والخراج والوقف والدماء والقضاء، فأصبح لها مؤلفات مستقلة. ففي عصر السخاوي ومن جاء بعده لم يبق باب من أبواب العلم دُون تأليف فيه متناً أو شرحاً. وكان مجال الآخرين هو توسيع مدارك تلك العلوم وتبسيط تلك الكتب.

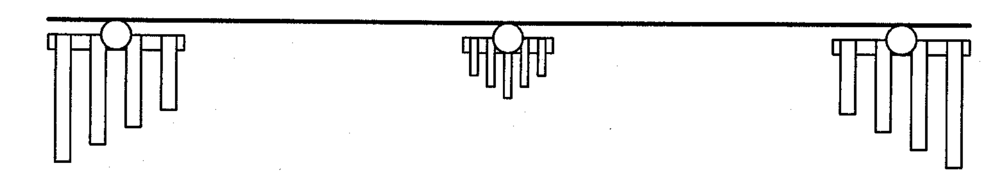
ومرة أخرى فإن الاجتهاد والتقليد في الفقه لا يكون في صفوف العلماء أي أن التقليد لا يكون إلا للعوام، وإذا نظرنا إلى ما يدعو إليه مثل الشيخ المذكور من الأخذ بالسنة والعمل بالحديث، فإنا نقول لهم: وهل شرح السنة وبيّن الأحكام من الأحاديث إلا الفقهاء وأتباعهم، فهذا فتح الباري شرح البخاري والعيني للقسطلاني وشرح مسلم للنووي والتمهيد على الموطأ لابن عبد البر لا توجد شروحات أوسع منها حتى قيل: لا هجرة بعد الفتح تورية بعظم شأن فتح الباري، وهذا شرح السنة للطحاوي الحنفي وغيرهم، وهل يعلم فقه الحديث إلا الفقهاء؟ وقد قالوا عن الشافعي رحمه الله: إنه استنبط أربعين مسألة فقهية من حديث لا يزيد عن جملتين: «يا أبا عمير، ما فعل النغير»، وهل فقه الكتاب والسنة مثل هؤلاء الفقهاء؟ أليس الشافعي القائل في مكة شرفها الله: يا أهل مكة سلوني عما شئتم أجبكم عنه من كتاب الله؟ إلى غير ذلك من دقائق

الفقه وهو الذي استنبط وجوب الترتيب في الوضوء من آية: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] إلى آخرها، بقوله: إن مسح الرأس جاء بين مغسولين فلو لم يكن الترتيب واجباً لكان المغسول أولى بالمغسول، إلى غير ذلك. وعليه فاتهام العلماء بالتقليد ليس في محلة ووصف العصر كاملاً بعصر التقليد كذلك، لأن الأرض لن تخلو من مجتهد قائم لله بأمر الدين. ولا سيما المدينة ومن ترجمة الإمام السخاوي لنفسه وبيان عدد من أخذ عنهم وعدد مؤلفاته وتعداد مؤلفاته وتعداد فنونه وكثرة تلاميذه وما أشعرت به في الجملة من وفرة العلماء ونشاط التعليم، وتحول حال المدينة عما كانت عليه في عصر ابن فرحون وظهور السنة واختفاء البدعة ونشأة المدارس السلفية يؤكد هذا كله أيضاً بعض تراجم الآخرين من الأعلام الذين ترجم لهم السخاوي في «التحفة اللطيفة» من علماء عصره، ومنهم الشيخ محمد بن أحمد عبد العزيز بن القاسم ولد بمكة وكان خطيبها وقاضيها ثم قدم المدينة، وتولى بها الإمامة، وقال عنه: إنه حضر ختم الصحيح في رمضان. وهذا يعطينا صورة المنهج العلمي في المدينة وعلو كلمة أهل السنة والمجاهرة بقراءة صحيح البخاري في رمضان بالمسجد النبوي. بينما ذكر ابن فرحون في عهده أنهم لم يستطيعوا الجهر بقراءة الحديث، وكانوا يقرؤون في رمضان السيرة النبوية. ومعلوم أن السيرة لم يخالف فيها أحد، وكذلك كانوا يقرؤون الشمائل الترمذية. وها هو السخاوي يذكر لنا قراءة الصحيح في الحلق بالمسجد النبوي الشريف.

وممن ترجم لهم أيضاً محمد بن أحمد بن عثمان الشهير «بالتستري» المولود بالمدينة وذكر شيوخه وأعماله وممن ذكر من شيوخه: زينب بنت شكر «مما يوسع نطاق الحركة العلمية حتى شملت فضليات النساء». وممن ترجم لهم من معاصريه الإمام العلامة «السمهودي» تحت ترجمة ٣٦٢٠: ولد بتونس وتنقل ورحل وانتهى إلى المدينة، وذكر من فنونه التفسير والأصلان والمنطق والعربية والفرائض والحساب والجبر والمقابلة، ووقع له أيضاً أن أخذ بمكة عن «الكمالية» بنت النجم المرجاني وشقيقها وله عدة تآليف من أهمها: «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى»، وقد ذكر السمهودي مجيء السلطان قايتباي إلى المدينة وأنه حضر أيضاً ختم البخاري وجرت مسألة معه عن الآية المنقوشة في

القبلة: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وهل نزلت قبل المعراج أم بعده؟ وقد فرق السلطان أموالاً عظيمة بالمدينة وكلمه السمهودي في رفع المكوس عن أهلها ثم أوقف السلطان بمصر أوقافاً عديدة لأهل المدينة، وكل ذلك مما يشعر بتحسن الحالة بالمدينة اجتماعياً وأدبياً ونشاط الحركة العلمية وازدهارها، ولله الحمد والمنة.





من التاسع بالمدينة

الشيخ عبد القادر بن عبد اللطيف

هو الشيخ عبد القادر بن عبد اللطيف الأصغر بن أبي الفتح محمد بن أحمد الملقب: المحيوي، الحسيني، الفاسي الأصل، المكي الحنبلي المذهب قاضي الحرمين الحنبلي.

مولده:

في ١٦ رمضان سنة ٨٤٢هـ بمكة. أمه مستولدة لأبيه تسمى تفاحة.

نشأته:

نشأ يتيماً مات أبوه وهو ابن إحدى عشرة سنة. ولم يخلف له أبوه شيئاً، قال السخاوي: لم يجدوا ما يحجج به هذه السنة.

إن يتيماً كهذا يصل إلى مرتبة قاضي الحرمين ليعطي دلالة واضحة على تيسير الله طرق طلب العلم وإن معدماً فقيراً مثله، ليعطي كذلك الدليل على أن تحصيل العلم ليس قاصراً على الأغنياء، بل إن جل النابهين في ذلك فقراء في بداية أمرهم، وقد تقدم لنا من حياة الشافعي رحمه الله أن أمه وهي التي قامت على تعليمه لم يكن لديها ما تعطي معلم الكتاب أجرته، فكان الشافعي يعوضه أن يقوم على الأولاد في غيبة المعلم.

بداية طلبه:

بدأ بحفظ القرآن الكريم، وصلى به التراويح. وهذه الطريقة هي المثالية حيث يبدأ الطالب في صغره واستعداده للحفظ فيحفظ كتاب الله تعالى جامع كل خير، ثم يثبت حفظه بالصلاة به على مسمع ومشهد من الناس وقد شاهدنا ذلك إذ بحضرة شيخه وبعض زملائه وخاصة أهله، فإذا ختم عملوا له.. احتفالاً به تكريماً وتشجيعاً له. ثم بدأ يحفظ بعض المتون فحفظ جانباً من المحرر لابن عبد الهادي وهو في الحديث. وحفظ الشاطبية في القراءات والمختصر لابن الحاجب والتلخيص. ثم

سمع الكتب الكبار فسمع صحيح البخاري على أبي الفتح المراغي، وكذلك سمع سنن النسائي وابن ماجه والعلل للترمذي، وسمع المسلسل والترغيب للأصبهاني وجزءاً لأيوب السختياني وبعض (الشفا) وأربعين حديثاً على الشهاب أحمد بن محمد الزفتاوي، وسمع مسند أحمد بن حميد على التقي ابن فهد، وأجازه خلق كثير.

شيوخه:

لا شك أن أمثال هذا العالم الجليل أن تتعدد شيوخهم لوفرة تحصيلهم وتنوع علومهم، ولكن الجديد في شيخنا هذا هو نوعية الشيوخ. فمما ذكر من شيوخه: أبوه ومعلوم أن أباه توفي وهو ابن إحدى عشرة سنة، يعني: أنه أخذ عن أبيه قبل سن البلوغ وهذا من علامات النبوغ وعلو الهمة، ولا غرابة إذ كان أبوه عالماً وقد نشأ في رعايته. ثم من شيوخه: زينب ابنة اليافعي، وسارة ابنة جماعة وهذا يعطينا مؤشراً لوفرة العلم آنذاك ومشاركة النساء الرجال في التحصيل وبلوغ درجة التدريس والإجازة، ومنهم ابن الفرات والزركشي وكلاهما من مشاهير العلماء. ومنهم محمد بن يحيى الحنبلي ولعل هذا كان أخص به من غيره حيث تفقه عليه ووصل إلى منزلة القضاء بالحرمين للحنابلة، ومنهم الشهاب بن ناظر الصاحبية، وأبو جعفر بن العجمي، والمحب الطبري، والبدر العيني وغير ذلك ممن ساقهم السخاوي في التحفة وفي الضوء اللامع.

يستوقفنا هنا ثبت شيوخه وحرصه على الأخذ ممن تيسر له ومعلوم أن لكل شيخ منهجاً في درسه وإفادته، فهو يستفيد من كل واحد منهم مما يبين لنا أن طالب العلم لا يوقف نفسه على شخص واحد بل يحاول أن يستفيد من علماء عصره ويأخذ أحسن ما عند كل منهم.

رحلاته:

رحل إلى القاهرة صحبة الحاج سنة ثمانمائة وثمانٍ وخمسين هجرية، وهناك ولي إمامة مقام الحنبلي بالمسجد الحرام عوضاً عن والده وباشرها جمادى الأولى من تلك السنة. وفي سنة ثمانمائة واثنين وستين رحل إلى القاهرة مرة أخرى، وفيها ولي قضاء الحنابلة بمكة المكرمة في منتصف شوال سنة ثمانمائة وثلاث وستين هجرية.

وهنا وقفة طويلة مع هذين المنصبين الجليلين، الإمامة والقضاء حيث إنهما مختصان بالحنابلة ويستلزم ذلك أن هناك إمامة قضاة لغير الحنابلة، وقد شاهدنا في أوائل الستينات قبل تجديد وتوسعة المسجد الحرام عدة محاريب ومقامات، فكان للمالكية تجاه باب العمرة، وللشافعية فوق قبة زمزم وللأحناف تجاه باب إبراهيم، وللحنابلة تجاه الصفا وبعد التوسعة الجديدة القائمة حالياً، وبالتالي توسعة صحن المطاف أزيلت كل تلك المقامات بحمد الله توحدت الصلاة بإمام واحد. وقد يجد الإنسان حرجاً أن يتكلم على تلك الحالة مع إجماع واتفاق الأئمة الأربعة بوجوب صلاة بعضهم خلف بعض، أي من حضر منهم الصلاة في أحد المسجدين الشريفين أو غيرهما صلى وبدون تردد خلف الإمام الذي أقيمت له الصلاة، وما عرف هذا التعدد في القرون الأولى المشهود لها بالخير ومن فضل المولى سبحانه على الأمة أن عادت السنة إلى طريقها فاتحدت الصلاة وتوحدت الإمامة، فله سبحانه الفضل والمنّة وإنا لندين لله أنه لا مفاضلة بين إمام وإمام توجب عدم صلاة أحدهم خلف الآخر، وندين لله بأن الإمام الراتب له حق الإمامة ولا يجوز التخلف عنه ما لم يظهر ما يمنع إمامته وندين لله بصحة إمامة المفضول للفاضل ما دامت صلاته وإمامته صحيحة، كيف لا وعبد الرحمٰن بن عوف قام يصلي بالمسلمين في غيبة رسول الله ﷺ وقد حضر رسول الله ﷺ بعد أن قام للركعة الثانية من الصحيح وكان المغيرة ﵁ مع رسول الله ﷺ فأراد أن ينبه عبد الرحمٰن ليتأخر ويتقدم رسول الله ﷺ فمنعه رسول الله ﷺ وكبّر في الصف، ولما سلم الإمام قام رسول الله ﷺ وأتم ما كان قد فاته، علماً بأن الحق لرسول الله ﷺ بصفته الإمام الأعظم والإمام الراتب ولكنه ﷺ وقف موقف أي إنسان آخر وصحت إمامة المفضول لمن هو أفضل منه. أدام الله علينا وعلى المسلمين نعمة الإسلام في وحدة الصف واتحاد الكلمة.

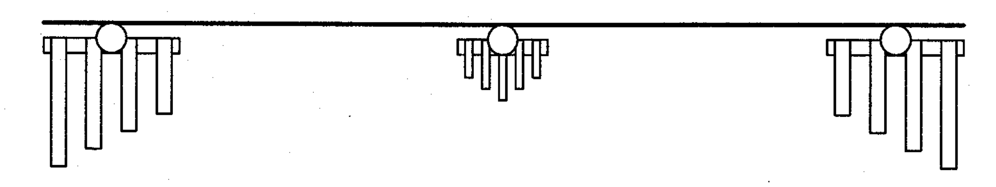
وكذلك الحال مع القضاء لأن تعدد القضاة ومناهج القضاء لهو أخطر من تعدد الإمامة وتعدد الصلاة لأن تعدد الصلاة غاية ما فيه الشعور بالتفرقة، ولكن عين الصلاة هي هي بدون زيادة ولا نقصان.

أما تعدد القضاء، فكم في الأحكام القضائية من اختلاف؟ وكم للعلماء

فيها من خلاف؟ ويستلزم من تعدد القضاء اختلاف الأحكام في حالة واحدة تتكرر فعند هذا جوازها وعند ذاك منعها، فكم تكون النتائج عكسية عند المتقاضين؟

ولا شك أن وحدة القضاء وعلى مدى اجتهاد القاضي فيما يبرئ ذمته أدعى للعدالة والمساواة بين الأمة، فللّه الحمد والمنّة، وأدام الله علينا ما نحن فيه من فضل ونعمة، وبالله التوفيق.





من أعلام مكة المكرمة في القرن التاسع (الفاسي)

كان هذا العهد عهد انتعاش العلم واستقرار الأمن وسعة العيش بالحرمين الشريفين بعد أن تقلصت سلطة البدع وقويت جماعة أهل السنة وحج الملك قايتباي ملك مصر آنذاك على ما تقدم في ترجمة الإمام السخاوي، وذلك بعدما كانت عليه في العهد السابق والذي ألممنا به في ترجمة ابن فرحون. وقد ترجم السخاوي لعدد من العلماء بالمدينة ممن عاصرهم وأخذ عنهم مما أوضح صورة الازدهار والانتعاش العلمي وقوة أهل السنة وإظهار قراءة كتب الحديث كلها والموطأ بعد أن كانت تصادرَ ويحبس من يظهرها.

وقد صحب هذا الانتعاش بطبيعة الحال قوة تواصل أهل الحرمين فكانت مكة المكرمة كذلك علماً وأمناً ومعيشة.

وإن من أبرز علماء مكة المكرمة في هذا العصر والذي خلف لنا عدة مؤلفات عنها في مختلف المجالات هو الإمام الشهير بالفاسي، وقد ذكر في كتابه «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» بالجزء الأول: إن بمكة من المدارس الموقوفة «إحدى عشرة مدرسة» جلها داخل المسجد الحرام أو بجواره، أوقفها أمراء وملوك ما بين المائة السادسة والسابعة، ومنها على الفقهاء الشافعية ومنها على الفقهاء المالكية، ومنها على فقهاء الحنفية، ومنها على درس الحديث مع الشافعية، ومنها على فقهاء المذاهب الأربعة. وكلها كانت آهلة بالدروس وبعضها درس فيها إمامنا «الفاسي» مما يشعر بالتأكيد تجدد الحركة العلمية وتوسعها.

وقد ترجم الفاسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لنفسه ترجمة مستفيضة في كتابه العقد الثمين كما فعل صاحبه الأسبق السخاوي. وترجم له العديدون إلا أن ترجمته لنفسه لا شك أنها أوفى وأشمل والكل نقل عنه.

وقد أوردها على أحداث حياته فوقع فيها تفريق ما يلزم جمعه وسنحاول

إيراد صورة لترجمته مع ما يعطي مؤشرات عن الحالة بمكة في عهده من جوانبها الاجتماعية وأحداثها الهامة وبيان مراجعها إن شاء الله.

اسمه ونسبه:

ذكر عن نفسه أنه محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن محمد، وساق من أجداده أكثر من عشرين شخصاً حتى وصل إلى إدريس بن الحسن بن الحسين علي بن أبي طالب ﷺ. ويكنى بأبي عبد الله وبأبي الطيب وبها اشتهر أخيراً. ويلقب: تقي الدين الحسيني الفاسي، المكي، المالكي قاضي المالكية بمكة المكرمة.

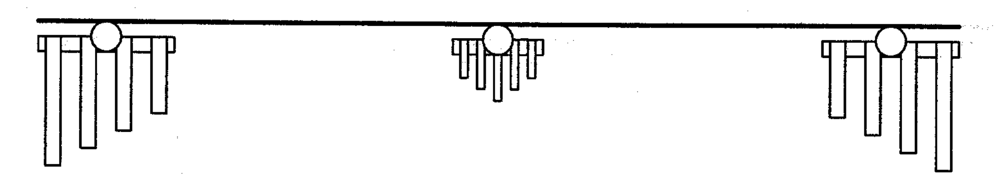
ولد في ليلة الجمعة عشرين من ربيع الأول سنة سبعمائة وخمس وسبعين هجرية بمكة، ثم نقل مع أهله إلى المدينة النبوية حيث كان خاله محب الدين النويري بها قاضياً وذلك سنة ٧٧٩هـ، وقد سمع بالمدينة الحديث وممن سمع عنه أم الحسن فاطمة بنت الشيخ شهاب الدين الحرازي سنة٧٨٣هـ، يعني وعمره ثمان سنوات ثم كانت له رحلات في كل من مصر ودمشق ومكة والمدينة واليمن، وتكررت رحلته إلى القاهرة ودمشق والحجاز، وفي كل رحلة يذكر من أخذ عنهم وما أخذ حتى عد نحو خمسمائة شخص في كل ذلك.

وممن ذكر أنه أخذ عنهم ويستحق التنويه عنه.. أم عيسى مريم بنت أحمد بن القاضي شمس الدين الأذرعي، ولا يتسع هذا البرنامج لا يراد كل من أخذ عنهم في كل تلك الرحلات ولا كل ما حصله عنهم إلا أنه يهمنا أنه ذكر من تحصيله في جميع الفنون والعلوم الأساسية. في الفقه للمذاهب الأربعة والحديث للصحاح كلها ولموطأ مالك برواية يحيي بن يحيى أخذه على ابن فرحون بالمدينة والتاريخ على الطبري والعربية وغير ذلك وحاز على إجازات من كثير ممن أخذ عنهم. وأفاد بأنه أذن له بالإفتاء والتدريس سنة ٨٠٠هـ؛ يعني: وعمره ٢٥ سنة، وفي سنة ٨٠٢هـ قرأ مسند أحمد على ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي. وولي أعمالاً بمصر وغيرها وأخيراً ولي قضاء المالكية بمكة المكرمة في عهد الملك الناصر بن الملك الظاهر برقوق. ولم يكن أحد قبله ولي قضاء المالكية مستقلاً بمكة وكذلك درس بالمدرسة التي أقامها الملك المنصور غياث الدين بن المظفر أعظم شاه صاحب (بنجالة) من بلاد الهند التي

كانت على فقهاء المذاهب الأربعة قال: إنه درس فيها للمالكية سنة ٨١٤هـ، يعني: وعمره ٣٩ سنة، ومع هذه الأعمال والمناصب فقد كانت له عناية بتاريخ مكة المكرمة فوضع عنها عدة مؤلفات تتبع فيها أحداث البلد الحرام قديماً وحديثاً؛ منها المطولات، ومنها المختصرات، ومن أهمها «شفاء الغرام في تاريخ البلد الحرام»، وكتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين»، وفي هذا الأخير ترجم لكل من عرفه أقام بمكة ورتبه على الحروف المعجمة في ثمان مجلدات متوسط كل مجلد فوق الأربعمائة صفحة، مجموع التراجم فيه ثمانية وأربعون وخمسمائة وثلاثة آلاف ترجمة. وتعرض في الجزء الأول منه لبعض حالات الشدة والرخاء بمكة وحالة التعليم ضمناً بتعداد المدارس التي مر ذكرها.

فمن ذلك ما سمع وشاهد من السيول التي دخلت الحرم وفاضت إلى الكعبة وأطفأت القناديل. ومنها ما اقتلع عتبة الكعبة وهدم بعض الأعمدة من المسجد. ومن الشدائد ما بلغ بهم الجهد حتى كاد الخبز لا يوجد ومات بعض الأشخاص جوعاً. وقال: واستقوا في تلك السنة أدخلوا الحيوانات الحرم في جانب منه زيادة في طلب السقيا. قال: ولكنهم فاسقوا وسمع بذلك مدير المملكة بمصر فجهز إلى مكة من القمح براً وبحراً ما أنعشهم به فالله تعالى يثيبه. ثم ذكر من الرخاء ووفرة المعيشة أن القمح المصري بيع الأردب منه بثمانية عشر درهماً كاملية وغرارة القمح «اللقيمية» بأربعين درهماً. والمن و(السمن) باثني عشر درهماً، وهو فوق ٢٥ رطلاً مصرياً من العسل بدرهمين وهو ثلاثة أرطال مصرية، ومن اللحم بأربعة مسعودية وهو سبعة أرطال إلا ثلثاً. وقد أوردنا هذا هنا لبيان رغد العيش وما يتبعه من تفرغ للعلم من جهة ولبيان اختلاف مسمى «المن» في كل من السمن والعسل واللحم.

أما الحالة العلمية واستقرار العلوم السلفية فمما ذكره من المدارس للمذاهب كلها لكل مذهب العديد من المدارس وتدريس الحديث واجتماع المذاهب الأربعة. كما يفهم كذلك من أنه أول من ولي القضاء مستقلاً بمكة وولي قضاء المالكية، وقد كان فيما قبل منصب القضاء للإمامية فأصبحت مكة مركزاً لجميع العلوم والسلطة فيها لأهل السنة والحالة الاقتصادية فيها رخاء وسعة، وبالله تعالى التوفيق.



الشيخ عثمان بن محمد فخر الدين التوزري

جمع بين القراءات والحديث وقرأ على مشاهير عصره وزاد من أخذ عنهم عن الألف شيخ، وذكرت قراءاته في تحصيله ما لم يكد يذكر لغيره واشتهر مع العلم بالصلاح والزهد وكثرة الذكر لله تعالى وكثرة من أخذوا عنه.

ولد بمديرية منوف من مصر ورحل إلى الشام ثم الحجاز وكثر حجه ثم جاور بمكة حتى توفي بها ودفن بالمعلاة.

سماعاته بقراءته غالباً يعني: ما أخذه إجازة عن شيوخه ولكن قراءة عليهم بنفسه. قال صاحب «العقد الثمين»: رحل إلى مصر وسمع بها بقراءته غالباً ما لا يحصى كثرة من الكتب والأجزاء. ثم عدد من الكتب الآتي:

١ ـ موطأ مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: رواية يحيى بن يحيى على جماعة منهم أبو القاسم وأبو بكر بن سراقة الأنصاري، عن ابن بقي والموطأ رواية أبي مصعب الزهري عن عبد الحافظ أبي حامد الصابوني. عن قاضي دمشق أبي القاسم ابن الحرستاني وعن الطوسي إجازة، والملخص مختصر الموطأ للقابسي على جماعة وعدد أسماءهم. وهنا وقفة مع طلبة العلم في قراءة المطولات حيث لم يكتف هذا العالم الجليل من الموطأ برواية يحيى وهي المشهورة في المشرق والمغرب والتي اختارها ابن عبد البر ليعمل عليها التمهيد على الموطأ. ونذكر بهذه المناسبة ما رويناه عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قرأت الموطأ أربع عشرة مرة آخرها على الشافعي لما رأيته أثبت الناس فيها. فإمام جليل كأحمد وعنده المسند وكفاه فإذا هو يقرأ موطأ مالك بهذا العدد. وهذا إمامنا عثمان في القرن السابع يقرأ الموطأ بعدة روايات مطولات ومختصرة. ويستكثر الطالب اليوم أن يقرأ الكتاب مرة ومرتين بل إن بعضنا قد لا يجد سوى رواية واحدة لهذا الكتاب. ولا شك أن مرجع ذلك لقوة العزيمة وعلو الهمة والتفرغ لطلب العلم. ثم ذكر صاحب العقد من تحصيل هذا الإمام بعد الموطأ فقال:

٢ ـ صحيح البخاري وذكر شيوخه فيه بسندهم إلى «العالمة الجليلة كريمة» بسندها عن البخاري وهي أم الفضل بنت عبد الوهاب القرشية الزبيرية توفي سنة ٦٤١هـ.

٣ ـ ثم صحيح مسلم: على جماعة..

٤ ـ جامع الترمذي: على عدد من الشيوخ.

٥ ـ سنن النسائي.

٦ ـ مسند الشافعي.

٧ ـ مسند الإمام أحمد.

٨ ـ مسند الطيالسي.

٩ ـ مسند الدارمي.

١٠ ـ معجم الطقراني.

١١ ـ دلائل النبوة.

١٢ ـ الشفا للقاضي عياض.

١٣ ـ العوارف للسهروردي.

ثم ذكر من الأجزاء والأربعينات المتنوعة عدّد منها أربعة عشر مسمى على العديد من المشايخ. والوقفة هنا طويلة مع تلك المراجع وهي تعتبر كتب السنة كلها بما فيها المعاجم والمسانيد. ثم هو لم يقتصر على قراءته الكتاب على شيخ واحد ولكن على عدة شيوخ، يعني: قرأها عدة مرات. ومن هنا يظهر عظيم الفارق بين متخرجي جامعات اليوم والدراسات العليا وبين أعلام علماء سلفنا الصالح. ولئن كنا نشيد بمجهود السلف ونعظم فيهم علو الهمة ووفرة التحصيل فإنا نحث طلبة هذه الجامعات وعموم طلاب العلم أياً كانوا نحثهم وبقوة على تكريث جهودهم وتجديد نشاطهم والدأب المتواصل في التحصيل. وإنا لنذكرهم بما سقناه عن الشافعي رحمه الله أنه كان يقوم من نومه فيستدعي جاريته تشعل له الفانوس (السراج) ليقيد مسألة خطرت بباله. وقد بات عنده صاحب له وشاهد هذه تتكرر منه فقال له: لقد أرهقت الجارية في إبقاء السراج فلم لم تعالجه أنت؟ فقال: إن معالجة السراج تشغل ذهني.

فيا سبحان الله! الشافعي يعطي العلم كل ذهنه ولا يشغل نفسه بشيء غيره، وطالب العلم اليوم وإن لم يشغله السراج فقد أشغلته شواغل الحياة العديدة كان الله في عون الجميع، ولعل بهذه المناسبة نجد أكثر أعلام العلماء لم يتزوجوا ومن تزوج منهم فلم تكن له كثرة الأولاد.

ولعل ذلك لتأخرهم في زواجهم بعد أن يحصلوا من العلم والمعرفة ما يؤهلهم للتدريس والفتور ونحو ذلك.

ومن ناحية أخرى نقول لطلاب العلم اليوم الذين لو قيست حصيلة تحصيلهم لكانت كما قال الزمخشري: ما فعلي مع أعلام العلماء إلا كمثل السها مع مصابيح السماء، والجهام الصغر من الرهام مع الفوادي الغامرة للقيعان والأحكام إلى آخر ما وصف به نفسه. بل ويصدق علينا مع أعلام العلماء قول الشاعر:

وابن اللبون إذا ما لز في قرن   لم يستطع صول البزل القناعيس

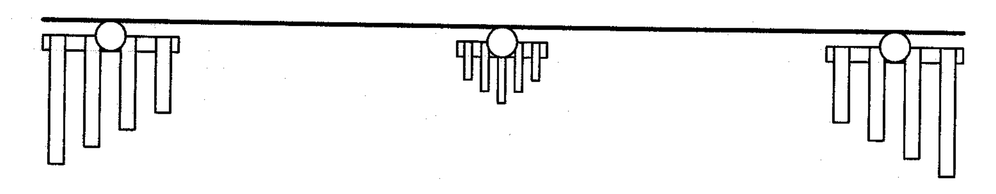
أذكر كل من هذه حاله اليوم بحرمة ومكانة علماء السلف حين يتذاكر الطلاب مسألة خلافية ويعرض فيها قول أحد الأئمة الأعلام ولم يكن موافقاً لرأي أحدهم، فإذا به وبكل جرأة وعدم مبالاة يرد هذا القول ويرفض هذا الرأي بسخافة قوله: إنه مقلد، إنه كذا وكذا في العقيدة. ولو كان الحق ضالته والحكمة غايته لتمهل حتى يعرف مستند هذا الإمام أو ذاك العالم، ثم ينظر هل لديه ما يدفعه به؟ وتكون الحجة مقارعة الحجة والعمل بالأرجح، حتى ولو كان صاحب هذا القول له أخطاء في مسائل أخرى فإن العبرة بالمسألة التي هي محل النظر، وقد جاء عن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سمع الشافعي بمكة فقال لصاحب له: هلم أريك فتىً لم تسمع من مثله قط، وبعد السماع قال لصاحبه: ماذا وجدت؟ قال: لقد أحصيت عليه عدة أخطاء. فقال له: ألم تجد شيئاً صواباً؟ قال: كثير، فقال له: خذ الصواب ودع عنك ما تراه أخطأ فيه. وهكذا الإنصاف والعدالة وإنزال الناس منازلهم. ولعلي أطلت هذه الوقفة مع إخواني وأبنائي طلبة العلم لأني عانيت الكثير من هذا النوع من العديد من الطلاب وكتبت رسالة بعنوان: موقف الأمة من اختلاف الأئمة، وكان الغرض من كتابتها هو إرجاع الأخوة والأبناء في مباحثهم في المسائل الخلافية إلى منهج

السلف في توقير العلماء وعدم التسرع وأخذ الصواب والتوقف عما يبدو له أنه خطأ، وقد يكون هو المخطئ ولكن بقدر ما وسع. أقول: إن واجب طالب العلم حينما يسمع عن إمام ولا سيما مثل هذا الإمام الذي زاد تعداد شيوخه عن الألف شيخ، وزاد ما سمع بنفسه من الشيوخ ما لا يحصى عدده وإن حياة إمامنا هذا عثمان بن محمد فخر الدين التوزري، وهي في مرحلة الإعداد ومنهجه في طلب العلم لهو المنهج المثالي لطلبة العلم اليوم وفي كل يوم. وقد جمع العلم والحديث والقراءات السبع فاستكمل حلقة العلم بقدر الطاقة الكبرى.

وقد نقل عنه في «العقد الثمين» أنه رأى زمزم تفيض في نصف شعبان سنة ٧٠٦هـ، وعلق الفاسي على ذلك بقوله: إنها تصدق ما يقوله الناس عن زمزم في ليلة النصف من شعبان.

وبهذه المناسبة فإني أسجل ما شاهدته شخصياً وبالتحديد ليلة الثامن من ذي الحجة سنة ١٣٨٤هـ، كنت منتدب بالمؤتمر الحديث بباكستان وعدت يوم السابع من ذي الحجة. وكنت متمتعاً وبعد الفراغ من العمرة قبل الفجر جئت إلى بئر زمزم فوجدت الماء يفيض من حافتها بارتفاع عرض الكف فتناولت بيدي وظننت أن هذا من آثار السيل الذي دخل مكة فإذا الماء صافٍ وأخذت (علبة جيكوز) وتلقيت فيها الماء فكان كذلك فشربت فلم أجد تغيراً في الطعم. فسألت الجندي: منذ متى هذا الفيضان؟ فقال: أكثر من ساعتين. فسألته: هل شهادته قبل ذلك؟ فقال: لي ٢٥ سنة هنا لم أشاهده إلا هذه الليلة. وأهل مكة يقولون: إنها تفيض كل ليلة نصف شعبان، فالله أعلم.





من أعلام القرن العاشر

الإمام أحمد بن حجر الهيثمي

الإمام العلامة أحمد بن حجر الهيثمي مفتي مكة المكرمة في وقته ترجم له كل من الشيخ نجم الدين الغزي في الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة الجزء الثالث ص١١١ والشيخ محيي الدين عبد القادر ابن شيخ ابن عبد الله العبدروس في تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر. وهذا الأخير أطال فيه وأطنب، بتفصيل نشأته ودراسته ونهايته. ملخص هذا كله الآتي:

اسمه ونسبه ونسبته:

هو أحمد بن حجر الهيثمي، شهاب الدين أبو العباس السعدي الأنصاري. وكني بابن حجر واشتهر بكنيته وقيل: سببها أن أحد أجداده كان ملازماً للصمت لا يتكلم إلا عن ضرورة أو حاجة فشبهوه بالحجر فقالوا: حجر لا ينطق. فاشتهر به. والهيثمي نسبة إلى قرية بالغربية من مصر كان قد انتقل إليها عن مسقط رأسه. والسعدي، نسبة إلى مولده «سعد» بإقليم الشرقية من أقاليم مصر. ومسكنه بالشرقية كان مولده سنة إحدى عشرة وتسعمائة. وقيل: سنة تسع وتسعمائة.

نشأته:

مات أبوه وهو صغير، فكفله الإمامان العارف بالله شمس الدين بن أبي الحمائل، وشمس الدين الشناوي. ثم نقل إلى طنطا فأخذ مبادئ العلوم ثم نقل إلى الجامع الأزهر وهو عمره أربع عشرة سنة. قال في النور السافر: وسلمه كفيله إلى رجل صالح من تلامذة شيخه الشناوي وابن أبي الحمائل فحفظه وجمعه بعلماء مصر في صغر سنه فأخذ عنهم.

وهنا وقفة في نشأة هذا اليتيم وما وصل إليه من إمامة وإفتاء مكة المكرمة

فإن أول ما يستوقفنا هو حال الكفلاء الشيخين الجليلين فيصدق عليه في الجملة مضمون قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه كذا وكذا . .»، فهذان الشيخان كانا له عوض الوالدين فكانت رعايتهما إياه رعاية إسلامية فاضلة على سبيل طلب العلم، وثاني ما يستوقفنا هو موقف الإسلام من رعاية اليتيم وحق القوامة عليه وما أوجب على كافله من حقوق وواجبات، ويكفي مبدأً أو منهجاً قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى: ٩ ـ ١٠]. وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء: ٩].

فنتيجةً لهذا التوجيه الإسلامي الفاضل نشأ وينشأ يتامى المسلمين على ما أراده الله. وقد ينال اليتيم رعاية أكثر مما لو كان والده موجوداً بفضل تعاليم الإسلام الحنيف.

تعليمه:

إن ما يهمنا في الدرجة الأولى من تراجم هؤلاء الأعلام هو منهج تعليمهم وكيفية تحصيلهم ومكانة شيوخهم وعلومهم وفنونهم ومدى الاستفادة منهم. وإمامنا هذا بدأ تعلمه بحفظ القرآن وكان هذا هو المنهج العام وخاصة في إقليم الشرقية الذي ولد فيه، فإنا نعلم أن كل بيت لا بد أن يكون أحد أبنائه على الأقل إن لم يكن اثنان أو ثلاثة يفرغون لحفظ القرآن، ثم يلتحقون بالأزهر وكان رواق الشراقوه أكبر أروقة الأزهر لذلك. وبالأزهر تلقى علومه على أكابر شيوخه، قال صاحب تاريخ «النور السائر»: ومن مشايخه الذين أخذ عنهم: شيخ الإسلام القاضي زكريا الشافعي والشيخ الإمام المعمر الزيني عبد الحق السنباطي، والشيخ الإمام فقيه مجلي النفس الشافعي، والشمس بن أبي الحمائل، والشمس الشهدي، والسمهودي، والرملي، والطبلاوي واللقاني، والسنباطي، والبلقيني، وابن النجار الحنبلي، وابن الصائغ رئيس الأطباء. وذكر نيفاً وعشرين شيخاً له في مختلف العلوم والفنون وتعدد المذاهب الفقهية.

علومه: من المعلوم أن من لوازم كثرة مشايخه وتنوع علومهم وتخصصاتهم وتعدد مذاهبهم الفقهية أن تتسع دائرة علومه وتتنوع فنونه وتفرز مادته، وقد سجلت له البراعة في علوم كثيرة منها: التفسير، والحديث، وعلم

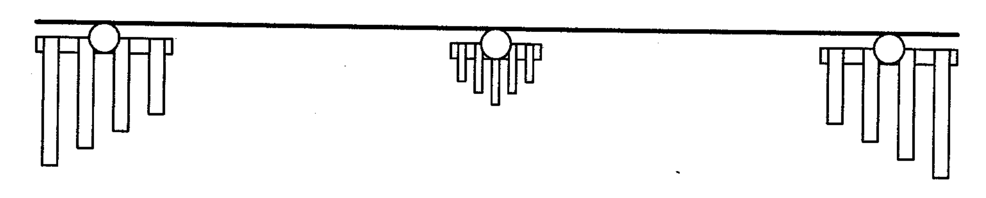
الكلام وأصول الفقه، وفروعه، والفرائض، والحساب، والنحو والصرف، والمعاني والبيان والمنطق. قالوا: والتصوف.

ونقف هنا مع علومه وتحصيله: إن ما سجل له من علوم يأتي فيها علوم الآلة العربية بفروعها؛ نحوها وصرفها وبيانها ومعانيها. وهذه العلوم هي مفاتيح علم الكتاب والسنة وألزم ما يكون لطالب العلم أن يبدأ بتحصيلها بعد حفظ كتاب الله. ثم نجد المنطق: وهذا العلم كما قيل عنه: والمنطق للجنان كالنحو للسان؛ يعني: كما أن النحو يقوّم اللسان عن اللحن والخطأ وبه تعرف صحة النسبة الإسنادية من نسبة الفعل لفعاله أو علاقة الفعل بمفاعيله ونسبة المبتدأ مع الخبر، فكذلك المعاني تعرف به نسبة الجملة بما قبلها من وصل وفصل وقطع وبيان... إلخ.

فالمنطق ينظم الجنان وهو العقل الملكة المفكرة في ترتيب الأدلة وتركيب الأقيسة السليمة واستخراج النتائج من المقدمات. وهذا الفن كما كان والدنا الشيخ الأمين يقول: هو علم مركوز في الفطر السليمة. لكن توسع فيه علماء الكلام بقضايا افتراضية وصار هو عمدة كل من لجّ غمار الجدال في آيات الصفات. مما ينبغي التنبيه عليه أن جل طلبة العلم اليوم يعزف عن تعلمه بناءً على أنه يوناني النشأة. ولكن هذا في الواقع تفريط منهم فجميع كتب العقائد الحديثة مليئة من قضاياه والإمام الجليل ابن تيمية ﵀ لم يقف موقف أولئك المتعلمين عن تحدياتهم إلا بأسلوبهم المنطقي. وكذلك جميع كتب أصول الفقه الأساسية لا تخلو من مقدمة منطقية في حدود تعريف القضايا والمقاصد. فالدارسون اليوم لهذا الفن إنما يدرسونه لا على أنه يوناني أو فارسي ولكن على أنه منظم للعلوم مصحح للقضايا. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا شك أن الرد على المجادلين في قضايا الصفات واجب لكشف شبههم، واجب كما فعل الإمام الجليل ابن تيمية في كتبه وخاصة كتابه «الرد على المنطقيين». وفعل والدنا الشيخ الأمين في كتابه «آداب البحث والمناظرة» من جزأين خفيفين، وقررت دراسته في الجامعة الإسلامية وهكذا يرتبط المنهج المعاصر بالمناهج القديمة. وهذا مما تعطينا تراجم هؤلاء الأعلى من مناهج وعلوم.

كما ورأينا متى كانت الفرائض والحساب. لقد كانت الفرائض في الصدر الأول باباً من أبواب الفقه في جميع المذاهب وتسلك منهج الأشخاص: ميراث الأم، ميراث الأب، ميراث الزوج... إلخ. وبعد تفرع العلوم انفردت الفرائض عن عموم الفقه وسلكت منهج الفروض المقدرة في كتاب الله فرض النصف مثلاً ومن يستحق، وفرض الربع وأصحابه، ثم الحجب والتعصيب ثم الحساب وللفرائض حساب خاص. ولكنه لا يختلف في النتيجة عن الحساب العام وكل من أتقن الحساب العام سهل عليه الحساب الخاص للفرائض والمهم أن فن الحساب ضروري للفرضيين. وقد توسع الفرضيون المتأخرون حتى كانوا يحلون مسائل الفرائض بالحساب على قواعده الأربع: الجمع والطرح والضرب والقسمة، وبالجبر والمعادلة وبهذه المناسبة نتقدم بكل رجاء وتوجيه إلى الإخوة والأبناء طلبة العلم أن يعنوا بالفرائض فإنه أول علم ينسى. وأن يتعلموا له الحساب كما فعل إسلامنا ليخدموا الإسلام والمسلمين كما فعل أسلافنا، وستأتي تتمة ترجمة إمامنا الهيثمي فيما بعد إن شاء الله، وبالله التوفيق.





تتمة ترجمة الإمام ابن حجر الهيثمي
(أحمد بن حجر الهيثمي)

محفوظاته ومؤلفاته:

تقدم بيان مولده ونسبه ونسبته ونشأته وشيوخه وعلومه وتحصيله وعدة وقفات معه في ذلك كله.

ومن المعلوم أن محفوظات ومؤلفات كل عالم هي نتيجة تحصيله وثمرة دراساته ومنهم المكثر ومنهم المقل. والمقياس الحقيقي هو في الكيف لا في الكم. فابن حجر العسقلاني واسمه أيضاً أحمد بن علي بن حجر خلف لنا أمات الكتب وأصول المراجع؛ كفتح الباري شرح صحيح البخاري لم يأت قبله ما يغني عنه، ولا بعده ما يحاكيه ومثل ذلك الإصابة في أسماء الصحابة، وغيرهما. وإمامنا هذا أحمد بن محمد بن حجر الهيثمي لم يفرق بينهما إلا النسبة العسقلاني والهيثمي ذكر له من محفوظاته: المنهاج للنووي في الفقه الشافعي. وهذا الكتاب شرحه مؤلفه بشرح اسمه مغني المحتاج قال صاحب تاريخ النور الساري: في مجلدين ضخمين، ولم أقف عليهما. قال: وشرح على الإرشاد للمقري كبير وهو المسمى بالإمداد، وشرح صغير المسمى بفتح الجواد، وشرح الأربعين النووية، والصواعق المحرقة في الرد على إهل البدع والضلال والزندقة، وكف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع، والزواجر من اقتراف الكبائر ونصيحة الملوك، وشرح المنهج القويم في مسائل التعليم والأحكام في قواطع الإسلام وغير ذلك، ومنها: تحذير الثقات من أكل الكفتة والقات. وذكر في عداد مؤلفاته الشيء الكثير، ومنها قصيدة في أصول الدين.

ولنا الوقفة هنا مع تلك المؤلفات من حيث النوعية فنجد الشمول:

أولاً: من حيث الأسلوب نظماً ونثراً:

مما يشهد لقوة الأداء وصحة التعبير. ثم نجد من الفقه حفظ المتن وعمل الشرح الأصل من أصول الفقه الشافعي، وبجانبه شرح الحديث. ومما هو معروف له ولم يذكره المترجمون عنه مجموعة الحديث في الصيام خاصة اسمه: إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام. قال عنه مصححه الشيخ محمود النواوي المفتش بالأزهر وقد طبع ولأول مرة سنة ١٣٨٠ قال: أورد المصنف في هذا الكتاب ما يقرب من سبعمائة حديث ما بين صحيح وحسن وغير ذلك مما أشار إليه أو بينه في كثير من الأحايين ويدل على مخرج الحديث ومرجعه. وذكر المعلق من خصائص هذا الكتاب أن المصنف له فيه تعليقات على بعض الأحاديث فيها فوائد علمية جليلة وذكر بياناً بمؤلفاته التي تربو إلى الثلاثين. ويهمنا من بيان المؤلفات تأليفه المسمى تحذير الثقات عن أكل الكفتة والقات؛ لأنه يقيم الدليل العلمي على حكم القات، الذي طالما اختلف فيه المتأخرون ودافع عنه البعض.

أما «الكفتة» فليست معروفة والمتبادر أنها من جنس المتعاطيات كتعاطي القات «وفي كتاب «القات» للدكتورين حمد المرزوقي، وأحمد نبيل أبو خطوة المطبوع سنة ١٤٠٧ جاء فيه ما يسمى «بالقهوة القاتية» أو كافتاه. مما يشعر أن كلمة «كفتة» قد تكون تحريف: كفتة، أو نسكافة، أو كوفي، يعني: قهوة. وذكر أن هناك قهوة من بذرة غير معروفة وأن القانون قد حرمها لمضرتها على المخ. وأما القات فهو نبات معروف يتعاطى أخضر غضاً. ومركز زراعته بمساحات واسعة منطقة (هرارجي) بأثيوبيا وعلى منحدرات جبل سور، قرب تعز باليمن، وفي كينيا. ويأخذ أسماء مختلفة حسب البلاد التي يستعمل فيها. وتاريخ بداية استعماله يكاد يكون مجهولاً، والقات مصنف في قائمة «المخدرات» والأبحاث حوله قد بدأت حوالي سنة ١٨٨٧ ميلادي وفي عام ١٩٣٥ أثير موضوعه لأول مرة في عصبة الأمم.

وقد عقد المؤتمر الدولي المتخصص الأول «للقات» بمدغشقر في المدة من ١٧ ـ ٢١ يناير سنة ١٩٨٣، وشارك في المؤتمر عدد من دول أفريقيا وآسيا وأوربا وأمريكا.

والهيئة الصحية العالمية. وأشرف على المؤتمر المجلس الدولي للمسكرات والمخدرات وخرج المؤتمرون بتوصيات عديدة. وقد أحيط المجلس علماً بنتائج البحوث المقدمة إليه عن الآثار الضارة لتعاطي القات على المستويات الصحية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية. وأشار المؤتمر إلى أن القات محرم بحكم الشريعة الإسلامية نظراً لأن آثاره الضارة تفوق قرباه (عند من يتعاطونه) وأذكر أن مؤتمر مكافحة المخدرات الذي نظمته الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في الأعوام الماضية أصدر أيضاً قرار بتحريمه وبتحريم «التبغ» بجميع أنواعه. وكانت لي المشاركة في دراسة وصياغة ذلك القرار، ولعلي أسهبت هنا في موضوع «القات» وهو ليس من جزئيات الترجمة إلا أنني قصدت ذلك لما لإمامنا هذا ابن حجر الهيثمي من تأليف خاص بهذا العنوان: «تحذير الثقات من أكل الكفتة والقات» وهو من أعيان القرن العاشر؛ أي من قبل أربعمائة سنة؛ بينما علماء الغرب وخبراء الكيمياء لم يبحثوه إلّا منذ حوالي مائة سنة فقط ولم يكتشف ضرره عندهم إلا منذ أقل من ستين سنة، فحيّا الله علماءنا وأجزل لهم المثوبة وحسن الجزاء. وهذا الجانب ربط مناهج الحياة بجهود العلماء الأعلام هو أهم ما نحرص عليه في برنامج من أعلام علماء الحرمين وهذا مما نسجله لابن حجر الهيثمي من عيون مؤلفاته ومشاركته بعلمه في المستحدثات والمستجدات، وقد أشار إلى تلك الدقائق العلمية من ابن حجر الهيثمي الشيخ عبد العزيز بن علي الزمزمي المكي في شعره ممتدحاً إياه:

منك المعارف فاضت عذبة ولكم ... عذباً زلالاً فاض من حجر

يشير إلى حجر موسى ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ..﴾ الآية [البقرة: ٦٠]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ ...﴾ الآية [البقرة: ٧٤].

أما تصوفه فليس هو ذاك ادعاء المتصوفة بل هو حقيقة العلم والمعرفة، وكما قال صاحب تاريخ النور السافر: لا طريق أقرب إلى الوصول إلى الله من العلوم الشرعية المنزهة من أن يشوبها أدنى شوب من المطامع الدنيوية، ومن

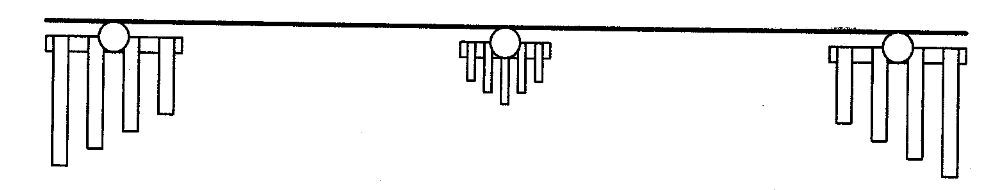
ثم قال أئمة الفقه والعرفان؛ كالإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان: إن لم يكن العلماء أولياء فليس لله ولي في زمن من الأزمان. وقد دعا لهم النبي ﷺ بأعظم دعوة في قوله ﷺ: «نصر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها».

ثم ندد إمامنا الهيثمي بفتور الهمة عن الرحلة في طلب العلم وتمثل قول الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ثم يشيد بمشايخه الذين أخذ عنهم من بقايا أهل الفضل كشيخ الإسلام زكريا الأنصاري والزيني السنباطي، وكانت وفاته رحمه الله في آخر القرن العاشر سنة تسعمائة وتسع وتسعين، وقيل تسعمائة وأربع وسبعين، ودفن بالمعلاة بمكة بعد ثلاثين سنة قضاها في التدريس والإفتاء، رحمه الله تعالى، وبالله التوفيق.





من علماء القرن العاشر بالمدينة

«علي بن محمد الشامي»

اسمه:

علي بن محمد بن علي بن عبيد الرحمن. قال صاحب الكواكب السائرة هو الشيخ العلامة الفقيه المقرئ سعد الدين الشامي، ثم الحجازي الشافعي. وقال صاحب تاريخ النور السافر: هو العلامة الجد الفهامة، قدوة وقته في المعقول والمنقول والمعول عليه في الفروع والأصول. شيخ الأنام بطيبة النبوية ومرجع الخاص والعام بالحضرة المصطفوية، وكان من كبار أهل العلم وله مصنفات عديدة.هـ، وفي ترجمته على بعض مؤلفاته، قال محققوها الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف والأستاذ عبد الله محمد الصديق: هو أبو الحسن سعد الدين علي بن محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عراق الكناني الدمشقي الشافعي نزيل المدينة وإمامها وخطيبها، أبوه من أمراء الجراكسة.

مولده ونشأته:

ولد سنة ٩٠٧، قال صاحب الكواكب السائرة: هذا التاريخ كما ذكره والده العلامة محمد في السفينة العراقية بساحل بيروت.هـ، وقد نشأ في رعاية والده محمد بن علي وكان والده كما ترجم له صاحب النور السافر: العارف بالله الرباني شافعي زمانه، وجنيد أوانه وولي الله بالاتفاق، وشيخ المشايخ على الإطلاق، توفي بمكة. وكان وصوله ـ يعني: والد عالمنا علي بن محمد بن علي ـ المدينة إلى مكة سنة ٩٣٢ بعد أن أطفأ الفتنة بين الشريف أبي نمي بن بركات والأروام. . إلى آخر أخبار والد علي رحمه الله.

مما يشعر بمكانة والده الذي قام على نشأته علماً ومنزلة وجاهاً هيأه للسفارة الموفقة للإصلاح والقضاء على الفتن.

طريقة تعلمه:

قالوا: حفظ القرآن في سنتين بدأ في الخامسة وانتهى في السابعة ولازم والده وهو من تقدم علماً وصلاحاً. فكان يقرأ المصحف كل جمعة ولمدة ست سنوات. إنها طريقة مثالية في الحفظ وفي الحفاظ على ما حفظ، ثم أخذ القراءات أولاً عن تلميذ أبيه الشيخ أحمد بن عبد الوهاب خطيب قرية (مجدل)، وأفرد عليه القراءات، وثانياً على تلميذ والده أيضاً الشيخ محمود بن حميدان المدني في أربع ختمات، ثم عن شيخه الخطيب شمس الدين بن زين الدين القطان ختمة العشرة. وهنا وقفة مع عالمنا علي بن محمد بن عراق الكناني في بداية تعلمه حفظ القرآن ابن سبع ولازم والده ست سنوات يختم كل جمعة؛ ففي السنة الواحدة ٣٦ جمعة، وفي الست سنوات ست عشرة ومائتا جمعة، ثم أخذ القراءات على تلميذ والده أحمد بن عبد الوهاب مفرداً الختمة، ومعنى مفرداً؛ أي أنه أخذ القراءات كلها ولكل قارئ على حدة؛ أي قرأ الختمة بعدد القراء كل قارئ حتى يستكمل الختمة كلها لقارئ ثم يعيدها لقارئ آخر، وهكذا يأخذ القراءات مفردة غير مجموعة في وقت واحد. ثم هو يقرأ على شيخه القطان ختمة العشرة؛ يعني: القراءات العشر مجموعة كأنها تطبيق عملي وهذا الجمع طريقته أن يقرأ الآية فإن كانت فيها عدة قراءات أتى بها في وقت قبل أن يتجاوز إلى الآية التي بعدها. كما يمثلون بقراءة: قالت: ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: ٢٣]، ومرة بإبدال الياء همزة (هئت) إلى غير ذلك، ومعلوم أن طريقة الجمع محدثة. ولم يكن السلف يفعلونها ولكن تقاصرت الهمم عن أن يقرؤوا القراءات عمدوا إلى جمعها.

وعلى كل فقد أعطانا عالمنا هذا منهجاً مثالياً يجمع بين القديم والحديث في أخذ القراءات العشر مفردة ومجتمعة مع كثرة مداومته لجمع القرآن الكريم، رحمه الله وغفر له.

علومه:

قال صاحب الكواكب السائرة: حفظ كتباً عديدة في فنون شتى وكان له قدم صدق في الفقه والحديث والقراءة، ومشاركة جيدة في غيرها وله اشتغال في الفرائض، والحساب، والميقات وقوة في نظم الأشعار.

مؤلفاته:

قال صاحب النور السافر: وله جملة مصنفات منها: شرح على العباب في الفقه إلا أنه لم يتم، ومنها الصراط المستقيم في شرح ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وغيرها من الرسائل، وأهم مصنفاته كتابه: تنزيه الشريعة عن الأحاديث الموضوعة، وهو كتاب جليل عظيم الفائدة. اهـ. ولنا وقفة مع مؤلفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشرح على العباب:

وإنه لم يتم؛ هذا حال بعض العلماء قد يشرع في المؤلف ثم هو يتوقف عنه ويشرع في غيره إذ قد يراه أولى منه، ولكن قد يقال: إن في ذلك إضاعة جهد فيما سبق من عمل في المؤلف الأول. فإذا لم يكن مقتنعاً بأنه أهل للتأليف فيه فلا يشتغل به ابتداء، وإن كان عند البدء مقتنعاً بصلاحيته ولن يخلو من فائدة لطلبة العلم فيلزم إتمامه ولو مختصراً. وقد يكون عدم الإتمام بسبب موافاة الأجل، وهنا أيضاً يقال لطالب العلم: اغتنم الوقت قبل الفوت.

أما كتابه تنزيه الشريعة عن الأحاديث الموضوعة؛ فهو من أجل ما وضع وألف في هذا الفن قال محققه: هو أجمع كتاب في الأحاديث والآثار الموضوعة لخص فيه ما كتبه ابن الجوزي والسيوطي وزاد من المسانيد وغيرها والكتاب مطبوع في مجلدين ولا يستغني عنه طالب علم فجزى الله مؤلفه أحسن الجزاء.

أخلاقه وآدابه: قال صاحب الكواكب السائرة: كان ذا همة باذلاً طارحاً للتكلف وكان كريم النفس، وقد سجلت تراجمه له طرفاً أدبية منها مساجلة في (القهوة) والسبب أن والده محمداً كان قد أفتى بمكة بتحريمها وكسر حوانيتها. فكتب ابن الحنبلي يستفتيه فيها قائلاً:

أيها السامي بكلتا الذروتين ... بجوار المصطفى والمروتين
والعلي القدر علماً ... وكذا عملاً فوق علو النيرين
من له في الزهد باع ... ويد فلذا يرمقه صفر اليدين
أفتنا في قهوة قد ظلمت ... حيثما شيب فتعاطيها بشين
من تله ها هنا لسامعه ... واقتراف لأقاويل ومين
ومراعاة أمور شاهدت ... فعلها في ألحان كلتا المقلتين

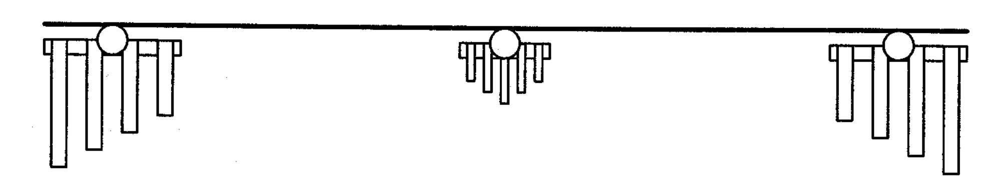
وحكي شرابها أهل الطلا | فالتداني بين تين الفرقتين

فأجابه رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أيها السامي سمو الفرقدين | وإمام العلم مفتي الفرقتين
جاءني منك نظام قد حكي | في نصوع اللفظ مسبوك اللجين
قلت فيه إن في القهوة | قد خلطوها بتله وبمين
وبمطعوم حرام وغني | وبرقص وبصفق الراحتين
فطلبت الحكم فيه بعد ما | قد رأيتم ما ذكرتم رأى عين
وعلى هذا الأمر إذا كان الذي | شأنها حتى تصفي دون رين
والتداني من حماها وهي | في وصفها المذكور شين
أي شين والصفا في شربها مع فتية | أخلصوا التقى وشدوا المنزرين
ثم ناجوا ربهم جنح الدجى | بخشوع ودموع المقلتين
فابتداء الأمر فيها هكذا | قد حكوه عن ولي دون مين
ذاجوا بي واعتقادي أنه | في اعتدال كاعتدال الكفتين

إنها صورة أدبية سامية تعالج مستحدثاً جديداً في ذاته وملابساته، وفي ترجمة الهيثمي بمكة فتواه بتحريم القات والكفتة مما يشعر بمعالجة علماء ذلك العصر لمستحدثاته، وبالله تعالى التوفيق.





من أعلام علماء الحرمين في القرن الحادي عشر
(غرس الدين)

أجمع ما وقفت عليه من تراجم لهذا القرن هو كتاب خلاصة أثر في أعيان القرن الحادي عشر للعالم الفاضل المولى محمد المحبي في أربعة مجلدات يزيد كل مجلد على خمسمائة صحيفة، ويعد هذا السفر من أواخر ما كتب في عصره. أبان مؤلفه عدد ما استقاه منه نحو العشرين كتاباً بالإضافة إلى سماعة حين قدم مكة المكرمة وشافه علماء الأقطار في موسم الحج الوافدين من مصر والشام واليمن والبحرين وما ألفه علماء تلك البلاد.

وأعتذر عن التقصير قائلاً: إن المرء ولو بلغ جهده فالإحاطة لهذا الشأن لله وحده. وقد أشاد بعمل التراجم بما قيل: إن الاشتغال بنشر أخبار فضلاء العصر ولو بتواريخهم من علامات سعادة الدنيا والآخرة إذ هم شهود الله تعالى في أرضه. وتقدم في مقدمة هذا البرنامج المبارك أن نبهنا على أن تراجم الرجال مدارس للأجيال. ولا سيما من كانت لهم مناهج خاصة في التعليم والتعلم وقد بذل مؤلفه جهداً غير قليل قدم فيه نحواً من ألف وخمسمائة من علماء عصره فقط، ولم يتعداه إلى ما قبله جاء فيه لعلماء الحرمين وهو الثمانية عالماً ما بين موجز فيه ومكثر.

والذي تصلح ترجمته أن تقدم في هذا البرنامج عشرة أشخاص ما بين مكة والمدينة، فمن أهل مكة عبد الرحمن العمري مفتي مكة توفي سنة ١٠٣٧، وابن علان توفي سنة ١٠٥٧، ومحمد مكي رئيس الحرمين وتوفي بالمدينة سنة ١٠٧٦، وزين العابدين بن الطبري توفي سنة ١٠٧٨.

ومن علماء المدينة:

غرس الدين المدني المتوفى سنة ١٠١٤، وعبد الرحمن الخياري توفي

سنة ١٠٥٦، وزين جمل الليل المتوفى سنة ١٠٥٨، ومحمد إلياس المتوفى سنة ١٠٧٦، ومحمد الخياري ابن عبد الرحمن الخياري المذكور توفي سنة ١٠٨٣، وسنحاول أن نلم بتراجم هؤلاء العلماء بما يتفق مع هذا البرنامج المبارك حسب التاريخ المذكور والتقسيم المتقدم.

علماء المدينة فأسبقهم تاريخاً هو غرس الدين:

اسمه ولقبه ونسبه:

هو غرس الدين بن محمد بن أحمد بن غرس الدين، جده الثالث والعشرون: هو الخزرج من حارثة بين ثعلبة بن عامر بن امرئ القيس.

مولده:

ولد بالخليل وانتهى إلى المدينة، شافعي المذهب تولى خطابة المدينة.

علومه:

كان محدثاً فقيهاً وأديباً مشهوراً ومن تأليفه يظهر أنه كان ذا علوم كثيرة وفنون متنوعة، منها: كتاب كشف الالتباس فيما خفي على كثير من الناس ألفه في الأحاديث الموضوعة، قال المحبى: إنه جمّ الفائدة رأيته ونقلت منه، وذكر من سبقه إلى مثل ذلك كالزركشي والسيوطي وغيرهما ولكن تأليف عالمنا هذا أسهل مأخذاً من الجميع ومن تأليفه: نظم الكنز ونظم مراتب الوجود للإمام عبد القادر الجيلي. وقد رحل إلى القاهرة وحضر دروس السنهوري في البخاري والشفا وعن الشيخ زين العابدين البكري والحافظ محمد حجازي الواعظ.

وذهب إلى الروم وأخذ خطاب أهل المدينة فسكن المدينة وتزوج بها، وصار منهل الواردين. وكان واسطة أهل المدينة إلى السلطان عند الحاجة.

وقد اجتمع في بعض سفاراته بوزير السلطان مصطفى باشا وكتب إليه قصيدة يحثه فيها على إزالة العبيد الخصيان من المسجد النبوي وهذه هي:

يا مصطفى بالمصطفى العدنان ... وبأي قرآن عظيم الشان

لا تجعلن على المدينة أسودا ... شيخاً على حرم النبي العدنان

وكذلك الحبشان أيضاً فهمو ... فهمو همو لا خير في الحبشان

بل جاء في خبر رواه بعضهم ... ها لفظه لا خير في الحبشان
قوم لهم طمع شديد زائد ... لا يشبعون من الحطام الفاني
لولا المخافة منهم لأتاكم ... شاكون من هم ومن أحزان
إذا أردتم أنكم تتيقنوا ... أحوالاً لكم من غير ما بهتان
فلتسألوا حنفي أفندي عنهم ... يخبركم عن خلة الغربان
ما كل ما يدري يقال وأنتم ... أدرى بطيش السادة الخصيان

إلى قوله:

فانظر لنا شيخاً تقياً صالحاً ... مستنزهاً عن ذا الحطام الفاني
إن لم يجز لا خصياً أسوداً ... فاخصوا لنا شيخاً من البيضان
يا ويحكم إن لم تراعوا حقنا ... يوم الحساب بحضرة الديان
يوماً تكونوا مثلنا ما إن لكم ... في الناس من أمر ومن سلطان

هذه نصيحة غرسكم في روضة الهادي إلا الإسلام والإيمان وهذا الشعر، وإن كان لا يرتفع إلى منزلة عالية إلا أنه يتكلم عن مسألة معينة عانى منها ما يتسوجب الشكوى، ومعلوم أن وجود هؤلاء الخدم من هذا النوع حادث بعد سلف الأمة الصالح وله تاريخ قديم قد نلم بأمرهم عند الحديث على علماء القرن الرابع عشر إن شاء الله؛ لأنه كان منهم علماء أصحاب دروس وتدريس وبهذه المناسبة فإن شكوى عالمنا هذه كانت في عهد انطلقت فيه أيدي هؤلاء في الأمر والنهي والسلطة ما لم يكن لغيرهم حتى الأمراء، وكانوا يكرمونهم ويتحملون منهم تكريماً لهذا المقام الجليل، وشرف تلك الخدمة الجليلة وقد كان سلطانهم أن لهم الخدم والحشم ولهم الضبط والحل والعقد، وكانوا من أوفر أهل المدينة أموالاً وأوسعهم أملاكاً في الوقت الذي ليس لديهم الأولاد ولا التبعات، وكان عددهم وفيراً ولهم محلة خاصة بهم، حتى أنه من كان يجني جناية ويحتمي عندهم منعته عبيدهم من أن ينال بأذى، وقد كان غرس الدين هذا رحمه الله عظيم الشأن عند أهل المدينة ونال محبتهم وتزوج منهم، ولعل تقدمه بهذه القصيدة لرفع الأذى عن أهل المدينة مما كان ينالهم من تلك الطائفة من نوع اهتمامه بمصالحهم والتضامن معهم.

ولعالمنا هذا سهولة في النظم فقد جاء عنه أنه نظم الشمائل في ليلة

واحدة وله قطع عديدة منها في القهوة ما يشعر بأنها في عصره والعصر الذي قبله كانت قد أثارت جدلاً حولها فقال:

دع الصهباء واشرب صرف قشر ... مشعشعة تدور بكف بدر

ويقول:

فما الياقوت في لون نضير ... وما لون النضار ولون تبر
كأن حبابها المنظوم عقد ... من الياقوت يدلى فوق نحر

إلى قوله:

ساد من شربها ما دمت حياً ... ولا أصغي إلى زيد وعمرو
وأجلو عين أغياري وهمي ... بصافيها سحيراً قبل فجر

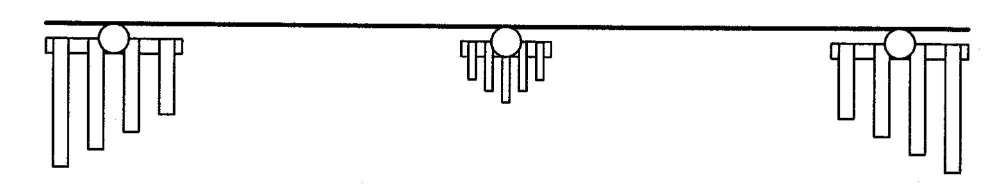
وقوله:

ولم لا وهي مشروب العوالي ... من السادات في بحر وبر
هي الراح المريح لكل روح ... ولم تمزج ولم توجد بعصر
فلا غول ولا تأثيم فيها ... وليست مرة بل طعم تمر

إلى آخرها. وهنا وقفة منهجية تقدم لبعض علماء القرن العاشر تحريم القهوة وتكسير حوانيتها بمكة. فجاء ابنه واستفتى فيها فأباحها، وهنا يدعو إليها أحد علماء القرن الحادي عشر. تلك حالة كل جديد مستحدث التسرع في الحكم عليه وباسم الإفتاء، فتتناقض الفتوى ومعلوم أن الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد نص أو وصف يقتضي التحريم ولا سيما أن هذا الجديد غير معلوم، ومن قبل كل موقف نبي الله سليمان من خبر الهدهد عن ملك بلقيس التأني والنظر.

حيث قال: سننظر. وهكذا الواجب على طلبة العلم إزاء كل جديد لا يشمله نص صحيح صريح، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء القرن الحادي عشر بمكة المكرمة
(ابن علان)

هو محمد بن علي بن محمد علان وهو من أبناء الصديقي، يعني: من سلالة علم وهو علوي سبط آل الحسن، كان شافعي المذهب.

مولده ونشأته:

ولد ونشأ بمكة المكرمة سنة ٩٩٦، يعني: في نهاية القرن العاشر.

بداية طلبه للعلم:

بدأ بحفظ القرآن بالقراءات ثم حفظ بعض المتون. ويظهر أنه كان يقرأ العلوم فأخذ علم النحو عن عدد من الشيوخ وسلك منهج التدرج فبدأ بالأجرومية وشرحها وشرح القواعد ثم الألفية لابن مالك ثم علم العروض، والمعاني والبيان. وأخذ الحديث والفقه عن عمه أحمد وذكر عدة مشايخ ممن أخذ عنهم وذكروا من مروياته: صحيح البخاري وعموم السفن، منها إجازة عن كثير من الشيوخ الوافدين إلى مكة من كل من الشام ومصر والعراق والمغرب.

وهنا وقفة خفيفة مع طريقة تحصيل هذا الإمام حيث أتيحت له فرصة لقائه بالعديد من علماء الأمصار الإسلامية وما كان ليتهيأ له ذلك إلا بفضل الله ثم بفضل سكناه بالحرمين. فكما أنه يجبى إليه من ثمرات كل شيء، فكذلك ثمرات العقول والعلوم يجنيها مجاورو الحرمين الشريفين وقد باشر الإفتاء وله من العمر أربعة وعشرون عاماً. وتفوق في علمي الدراية والرواية، وكان إماماً في أهل زمانه حتى شبهوه بالسيوطي في معرفة الحديث وكثرة المؤلفات وذكروا أنه حضر بناء الكعبة، وأنه قرأ صحيح البخاري في حوض الكعبة وذلك حين هدمها السيل من جهة الحطيم سنة ٩٣٩ وألف رسالة في جواز تدريس الصحيح من الحديث في جوف الكعبة، وذكروا له من التأليف في التفسير وشرح

الحديث والعقائد وأنه نظم البراهيم، وعقيدة النسفي ومختصر المنار في أصول الحنفية. ونظم أيسا غوجي وغير ذلك في النحو والبلاغة وشرح الأذكار للنووي ورياض الصالحين وله مؤلف في المنع من التنباك. ومؤلف آخر في نفس الموضوع سماه إعلام الإخوان بتحريم الدخان، والعديد من المؤلفات في مواضيع مختلفة والذي يلفت النظر هو أن أكثر مؤلفاته وقع بمناسبة أحداث معاصرة كعمارة مقام إبراهيم وإصلاح سقف الكعبة وبنائها وفي مسجد قباء وعمل المولد وفي ماء زمزم حتى أنشدوا له شعراً في ماء زمزم فيه طرافة وملاحة، منها:

وزمزم قالوا فيه ملوحة ... ومنه مياه العين أحلى وأملح

فقلت لهم قلبي يراها ملاحة ... فلا برحت تحلو لقلبي وتملح

وكان له مقطعات في الوعظ سهلة لطيفة من ذلك في معنى الحديث: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح». فقال:

إذا أمسيت فابتدر الصباحا ... ولا تمهله تنتظر الصياحا

وتب مما جنيت فكم أناساً ... قضوا نحباً وقد ناموا صحاحا

ويعني بقوله: الصياح. يعني: صياح أهله بالبكاء عليه لموته.

ومما أنشدوه له في الوعظ:

الموت بحر موجه طافح ... يغرق فيه الماهر السابح

ويحك يا نفس قفي واسمعي ... مقالة قد قالها ناصح

ما ينفع الإنسان في قبره ... إلا التقى والعمل الصالح

وختاماً فقد كان عالمنا هذا الفاضل فقيهاً محدثاً أديباً شاعراً واعظاً مرشداً مؤلفاً مكثراً، وكانت وفاته آخر ذي الحجة من سنة ١٠٥٧ ودفن بالمعلاة، رحمه الله رحمة واسعة.

* * *

ومن أعلام مكة المكرمة في هذا القرن رئيس الحرمين العلامة محمد بن ولي الدين، حنفي المذهب وقاضي البلدين مكة والمدينة. قال صاحب خلاصة الأثر: كان أوحد العصر ومفرد الدهر كان رئيساً نبيلاً فاضلاً كريم النفس والأخلاق عالي الهمة.

مولده ونشأته:

ولد بالمدينة ونشأ بها وولي قضاء الحرمين، فكان يباشر القضاء بمكة بالأصالة والمدنية بالنيابة وأنشد الشيخ أحمد عبد الرؤوف المكي أبياتاً في ذلك منها قوله:

وأنت إليك خلافة مقرونة	بفرائد التسديد يقدمها الأمان
بقضاء مكة والمدينة مفرداً	إذ لا يكون لنجم سعدكم قران
فلذاك ناديت الغداة مؤرخاً	يا حاكم الحرمين في وقت وآن

وتوفي سنة ١٠٧٤.

* * *

ومن أعلام علماء مكة المكرمة في هذا القرن الإمام العالم الفاضل: زين العابدين بن عبد القادر الطبري الحسيني المكي الشافعي إمام المقام الإبراهيمي.

مولده ونشأته:

ولد ونشأ بمكة المكرمة. وكانت بداية دراسته حفظه للقرآن الكريم. ثم أخذ عن والده وعن أكابر علماء الحرمين الشريفين وأجازوه في كثير من العلوم، كما أخذ عنه العديد من الشيوخ وهكذا كانت دراسته وتحصيله على أيدي علماء الحرمين الشريفين مما يبين لنا توافر العلماء في الحرمين في هذا القرن.

وقد نقلوا له أبياتاً في الغزل منها:

غارت بدور التم من كاعب	هام بها المفتون بين الأنام
رنت بطرف فاتر ناعس	يرشق من ألحاظه بالسهام
بديعة الشكل ولكنها	بعيدة الوصل على المستهام
يود لو زار حماها على	رغم العدا مختفياً في الظلام
هذا ورؤياه إلى وجهها	غاية ما يحظى به والسلام

وتوفي رحمه الله سنة ١٠٧٨ بمكة.

ويتحصل لنا من ترجمة هذا العالم الجليل هذه اللطائف الآتية:

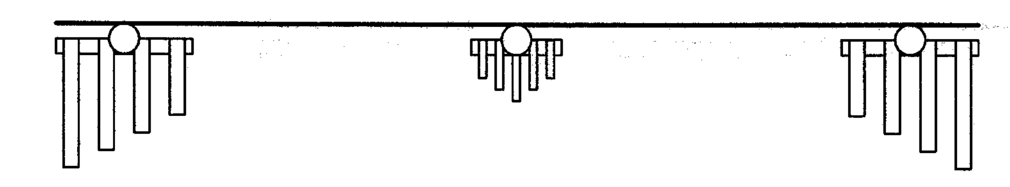
أولاً: أنه بدأ تحصيله بالدراسة على والده، إذاً فهو من بيت علم.

ثانياً: أتم تعليمه على علماء الحرمين. إذ كان الحرمان عامرين بالعلماء فضلاً عمن يأتي إليهما من علماء الأمصار.

ثالثاً: وجود تعدد الأئمة في المسجد الحرام حيث كان عالمنا هذا إماماً لمقام إبراهيم. وظل هذا الحال إلى بداية هذا العهد الكريم.

رابعاً: كان علماء ذلك العهد يجمعون بين العلم والأدب ورقة الشعر وحسن الوعظ، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء القرن الحادي عشر
«عبد الرحمن المرشدي» توفي ١٠٣٧هـ

اسمه:

عبد الرحمٰن بن عيسى بن مرشد العمري المعروف بالمرشدي.

لقبه:

أبو الوجاهة، ولعل هذا اللقب المعروف حتى الآن لكل من اسمه عبد الرحمٰن يلقب: الوجيه كما لقب بشرف الدين، ولي الافتاء بمكة المكرمة على المذهب الحنفي. قال عند المحبي في خلاصة الأثر ٢/٣٦٩: «مفتي الحرم المكي وعالم الحجاز وأوحد أهله في الفضل والمعرفة والأدب. وهو من بيت العلم والفضل والديانة، قال المحبي: وذكر السخاوي في «الضوء اللامع» والتقى التميمي في طبقات الحنفية جماعة من آل بيته وكان هو من كبار العلماء الأجلّاء انعقدت عليه صدارة الحجاز.

نشأته وبداية تعليمه:

نشأ بمكة المكرمة وبدأ بحفظ القرآن وصلى به إماماً في التراويح المسجد الحرام، وتقدم لنا أن هذه هي طريقة أهل الحرمين خاصة أصحاب العوائل والأسر العلمية وذوي الفضل، إذا حفظ أحد أبنائهم القرآن تقدم للصلاة التراويح ويحضره شيخه وزملاؤه وبعض ذويه. ويكون ذلك بمثابة إعلان اتمام حفظه ويعمل له شبه احتفال تكريم ويكرم فيه شيخه ووالده ويتحف فيه زملاؤه، ثم بعد حفظ القرآن اتجه إلى العربية والحديث فحفظ الألفية لابن مالك والأربعين النووية وكنز الدقائق إلا القليل منه، والجزرية وغيرها.

ونلاحظ هنا حفظ المتون في تلك الفنون، فالألفية في النحو وهي أجمع لقواعد الإعراب والصرف. والأربعين النووية وهو جامع لمكارم الأخلاق

ومحاسن العادات ثم كنز الدقائق في الفقه الحنفي والجزرية في القراءات وفاءً بحفظ القرآن للمحافظة على حسن الأداء. ثم اشتغل بطلب العلم على الشيوخ المعاصرين له.

شيوخه:

لازم الشيخ عبد الرحيم بن حسان، وأخذ عن الشيخ علي بن جار الله بن ظهيرة، والملا عبد الله الكردي، والسيد غضنفر، والشيخ عبد السلام وزير السلام، والشيخ محمد بن علي الركروك الجزائري. ونلحظ هنا أنه في الملازمة لازم شيخاً واحداً وفي الأخذ عن عدد من الشيوخ، وهذه الطريقة كانت سائدة عند السلف إذا أحب طالب شيخاً واستراح إليه وأنس لطريقة إفادته، فإنه يلازمه ويكون له في هذه الملازمة عظيم الفائدة لأنه لا يستفيد العلم والتعلم فحسب، ولكن يستفيد حسن التأسي وفضائل الأعمال وحسن التوجيه ومكارم الأخلاق، حيث كان شيوخ السلف معلمين ومربين وكانوا يقولون: أخذ عن كثير من العلماء والمشايخ ولكن تخرج على فلان، يعنون الشخص الذي لازمه، لا مجرد من أخذ عنه. ونحن اليوم في أمس الحاجة إلى هذا المنهج ولقد لمست بعض خصائص هذه الطريقة في المرحلتين الثانوية والجامعية. ربما تعدد عندنا المدرسون أصحاب تخصصات المادة فنستفيد من الجميع ولكن نجد الميل إلى البعض دون البعض، كما كنا أيضاً نجد من بعضهم التعاطف الأبوي أكثر من البعض الآخر. وربما جذبنا هذا التعاطف إلى كثرة الزيارات الخاصة في البيوت وقد نشركهم في بعض ما يعترضنا من مشاكل ومسائل فنجد حسن التوجيه والرعاية. ولقد أكرمني الله تعالى بالعديد من هؤلاء العلماء الأعلام ممن لن أنسى لهم حسن رعايتهم وصادق توجيهاتهم. وأول هؤلاء العلماء الأعلام وأعظم منّة وأطولهم عليَّ يداً بعد الله تعالى وقد كان أعز وأكرم علي من والدي، وهو العلامة إمام زمانه وشيخ أقرانه وأظنه لم ير مثيله في علومه عرف له الجميع فضله، واعترف له القاصي والداني بواسع وغزير علمه المرحوم الشيخ محمد الأمين بن المختار رحمه الله رحمة واسعة. لقد أكرمني الله تعالى بصحبته وملازمته في حلّه وترحاله وإقامته وأسفاره، ودرست عليه العديد من العلوم سواء من منهج الدراسة أو غيرها. بل كانت كل أوقاته

دراسة سواء على مائدة الطعام أو حين تناول الشاي أو حتى في الطريق. ولقد درست مقرر الأصول في الطريق من بيته إلى المسجد النبوي فترة الإجازة الصيفية على مدى أربع سنوات. ولا أعلم أحداً من الزملاء والأصدقاء إلا ويغبطني على تلك الصحبة وتلك الملازمة، ولن أستطيع أن أوفيه ولا بعض حقوقه إلا بدوام الدعاء له ما وسعني ذلك، وفضل الله تعالى واسع عظيم.

وإني لم أورد ذلك استطراداً ولا رغبة في التحدث عن حال تخصني، ولكن لأعطي الأبناء والإخوة طلبة العلم صحة منهج السلف في طريقة التعلم وكيفية التخرج ومدى آثار الملازمة لأصحاب الفضل من العلماء. وإني لا أبالغ إذا قلت: إن ما أكرمني الله تعالى بصحبتي شيخي رَحِمَهُ الله هو أعظم وأكثر بكثير مما حصلته من برامج الدراسات المنتظمة في جميع مراحلها. فجزاهم الله عنا أحسن الجزاء، ونعود إلى عالمنا في هذه الحلقة العلامة المرشدي فقد روى الحديث الشريف عن كل من الإمام الشمس الرملي، والعلامة المعمر الملا حميد السندي، والشيخ أحمد الشربيني، والشمس النحراوي. كما أخذ القراءات عن الملا علي القاري الهروي. وهكذا وجدنا صورة للعديد من المشايخ الأفاضل في مكة المكرمة في ذلك التاريخ. كما وجدنا طريقتهم في الدراسة والتحصيل.

أعماله:

ولي التدريس في مدرسة المرحوم محمد باشا فدرس فيها صحيح البخاري وأملى عليَّ بعضه شرحاً. وهذا أيضاً يعطينا مدى حصيلتهم العلمية أن يملي من محصلته شرحاً على صحيح البخاري.

مؤلفاته:

مع ما أملاه من شرح على صحيح البخاري عمل منظومة في علم التصريف في خمسمائة بيت أسماها: ترصيف التصريف. وشرحها شرحاً لطيفاً أسماه «فتح اللطيف» و«شرح الكافي» في علم العروض والقوافي أسماه الوافي. ورسالة: «براعة الاستهلال فيما يتعلق بالشهر والهلال». ورسالة في منازل القمر وغير ذلك من الرسائل التي تدل على سعة المشاركة في العلوم.

وتولى التدريس بالمسجد الحرام سنة ١٠٠٥، وكانت له فتاوى اجتهد فيها كفتواه بصحة الوقف بمجرد صدوره من الموقف موافقةً لأبي يوسف رحمه الله، وكتب فيها رسالة وأرسلها إلى علماء مصر فأيدوه فيها. وهنا يسترعي انتباهنا ما كان من الاتصال العلمي والتشاور العملي في مسائل الخلاف بين الأقطار المتجاورة. وقد كانت الصلة العلمية بين الحجاز ومصر صلة قوية على مدى الزمن وخاصة في مواسم الحج. فضلاً عن الصلات الأخرى وقد كان له رحمه الله شعر فائق لطيف؛ من ذلك أن الشيخ أبا المواهب البكري تمثل له ببيتين أثناء الحديث معه هما:

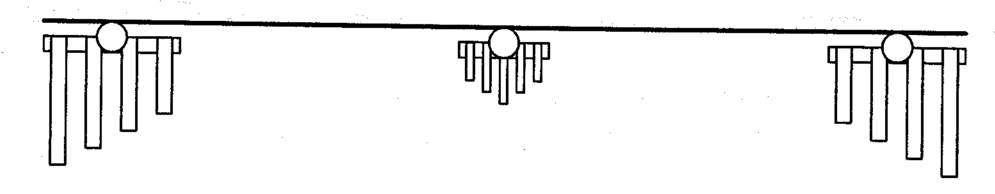
عرضنا أنفساً عزت علينا ... عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا حفظناها لعزت ... ولكن كل معروض يهان

فأجابه الشيخ المرشدي:

نفوسكم وحقكم لدينا ... نفيسات تعز ولا تهان
وتلك جواهر فلأجل هذا ... عزت معروضة بقيت تصان

وقد كانت نهايته رحمه الله قاسية تدخلت فيها أحقاد السياسة وأغارض الخاصة فمات مقتولاً ليلة عرفة سنة ١٠٣٧هـ، ودفن بمكة وكان مصابه أليماً على أهل الحرمين جميعاً. وهكذا كما قال ﷺ: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل». رحم الله هذا الإمام وجميع علماء المسلمين إنه سميع مجيب، وبالله التوفيق.





عبد الرحمن بن علي الخياري

هو عبد الرحمٰن بن علي بن موسى بن خضر الخياري نزيل المدينة ترجم له في خلاصة الأثر وكذلك في تحفة المحبين، وقال: الخياري نسبة إلى الخيارية بلدة مشهورة بالديار المصرية ورد إلى المدينة سنة ١٠٢٩هـ. قال في خلاصة الأثر: أخذ بمصر عن الجلّة من المشايخ وشيوخه كثيرون منهم: النور الزيادي وهو أجلّهم. ومنهم أبو بكر الشنواني، وأحمد الغنيمي، والشيخ محمد الخفاجي، ومن في طبقتهم من علماء ذلك العصر، وأجازوه وشهدوا له بالفضل وتصدر للإقراء بجامع الأزهر ولازمه جمع من أكابر الشيوخ وأخذوا عنه العلم منهم: النور الشبراملسي. وكان هو والشيخ الحلبي صاحب السيرة كفرسي رهان. ثم هاجر إلى المدينة... إلخ.

عمله في المدينة:

تولى الخطابة والتحديث، قال صاحب الخلاصة: هو الإمام خطيب المدينة ومحدثها الإمام الكبير الجليل الشأن المشهور في الآفاق وانتفع به أهل المدينة بالأخذ عنه والتلقي منه.

وكان له اليد الطولى في جميع الفنون مع السكينة والوقار. ثم نقل عن الخفاجي في كتاب له يسمى «الخبايا» أنه قال عن عالمنا هذا: هو دوحة الزمان، بسام طليق. فاضل جمع الفضل فهو منتهى الجموع، وكامل كماله كثمار الجنة غير مقطوع ولا ممنوع شقيق روحي، وريحان مسرتي وشقيقها، ويعني بشقيقها هنا شقائق النعمان: زهر جميل المنظر أحمر اللون، وأنشد:

ونفسي بأعقاب الأمور بصيرة — لها من طباع الغيب حاد وقائد

يلوح من بشره نور الفلاح — ومن سكينته وقار الصلاح كان اللّه

جمع له المناقب فاختار منها وانتقى — ورأى أن أحسنها وأكرمها التقى

ثم ذكر علومه فقال:

لـه فـي الـفـنـون يـد بـيـضـاء وفي الأدب سجية سمحة خضراء

ولما علم بأن النبي ﷺ أوصى بالجار رحل لطيبة الطيبة، وسكن في جوار النبي ﷺ المختار فدخل روضة من رياض الجنة وإذا أنعم الله بنعمة على عبده في حياته لا يسلبها بعد مماته. وهنا وقفة خفيفه مع ما حكاه الخفاجي عن عالمنا عبد الرحمٰن الخياري فيما وصفه بحسن السمت والسكينة والوقار وما له في الفنون من يد بيضاء، وفي الأدب سجية سمحة مما يشعر بمشاركة في الشكل والمضمون؛ لأن العالم إذا كان أديباً كان عارفاً بأساليب الحديث وأفانين الكلام فهو أدعى إلى قدرته على صوغ العلوم لطلابه والفتوى لمستفتيه، وإذا علمنا أنه رَحِمَهُ الله كان خطيباً بالمدينة، يعني بمسجد رسول الله ﷺ علمنا ما للخطابة على منبر رسول الله ﷺ من الأهمية البالغة وما تتطلبه من المؤهلات المناسبة.

وأما ما نوه عنه من حسن الجوار والروضة المشرفة، فهذه أمنية كل مسلم ومقصد كل مهاجر لله ولرسوله ﷺ.

وقد نلاحظ المبالغات والإطناب في الوصف إلا أن هذه هي سمة الكتابة في هذا القرن وما قبله وما بعده. وقد ذكر المترجمون له أشياء عاطفية يعوزها الدليل، حيث لم تحدث لمن كانوا في السلف الصالح لذا لم نسجلها وكذلك لم نهمل التنبيه عليها.

ولعالمنا شعر لطيف ذكروا منه نموذجاً متبادلاً بينه وبين الخفاجي، فقد كتب إليه يستعطفه الدعاء له في أبيات منها:

«يا نسيماً من نحو طيبة ساري مـهـدياً عـطـر رنـدهـا والـعـراري

خـذ فـؤادي فـذاك مـجـمـر شـوق وغـرامـي بـمـضـمـر الـوجـد داري

إلى قوله:

باع دنـيـا دنـت بـأخـرى تـسـامـت فـفـدى فـي بـيـعـه بـالـخـيـار

وأجابه الخياري بقوله:

بعد أهدى أسنى السلام الساري مـن ربـا طـيـبـة مـقـام الـخـيـار»[1]

---

(١) يعني: الأخيار.

فائقاً طيبة شذا كل مسك   فاتقاً نوره دجى الأسحار

ومنها:

دام في نعمة وعز ولطف   من إله الورى الكريم الباري

قال صاحب خلاصة الأثر: وبالجملة فهو من خيار الخيار، وكانت وفاته في اليوم الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ١٠٥٦هـ، ودفن ببقيع الغرقد وأرخ لوفاته ولده العالم إبراهيم قوله:

إذا ما قيل لي في أي عام   وفاه الحبر والدك الخياري

أقول:

وقد تذرعت اصطباراً   نؤرخه أحل بخير دار

ويسترعى الانتباه هنا أن لعالمنا هذا ولداً اسمه إبراهيم هو أيضاً عالم أرخ لوالده شعراً، وبالنظر وجد له ولد آخر هو محمد عبد الرحمٰن الخياري ترجم له في خلاصة الأثر ٣/ ٤٩٣، قال: محمد بن عبد الرحمٰن بن علي بن موسى بن خضر الخياري المدني الشافعي الأديب الأريب اللوذعي، نشأ وحفظ القرآن وأخذ بالمدينة عمن بها من العلماء الأعيان، ورحل إلى مصر والشام والروم وكان ينظم الشعر وله شعر وسط وذكر نموذجاً منه أعرضنا عنه لتطرف المبالغات مثل قوله في مدحه مفتي الروم، يعني: الأتراك:

«وأتى الزمان إليك عبداً طائعاً   يصغي لما تنهاه عنه وتأمر»

ولا شك أن مثل هذا يخرج بالشعر عن موضوعه.

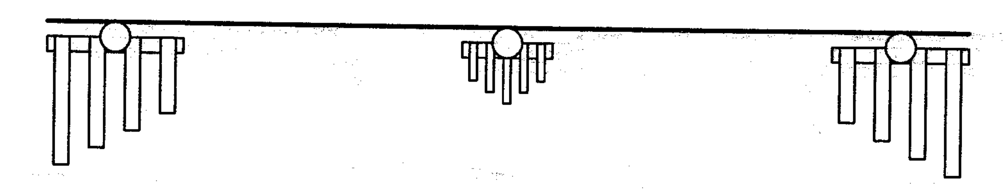
وقد كان لعالمنا عبد الرحمٰن الخياري أولاد عديدون ذكرهم صاحب تحفة المحبين وهم إبراهيم وعلي. وإن إبراهيم برع في جملة من العلوم وتولى الخطابة بالمسجد النبوي الشريف وإفتاء الشافعية وتوفي سنة ١٠٨٣هـ، وأعقب من الأولاد أحمد وعائشة. وأحمد باشر الخطابة أيضاً.

وتتبع نسله وعقبه وأكثرهم ولي الخطابة بالمسجد النبوي الشريف وآخرهم إلى زمنه هو محمد بن علي المتوفى سنة ١١٧٥، توفي شاباً وقد ولي الخطابة كذلك.

وقد ظهر بهذا الإيراد أن عالمنا هذا عبد الرحمٰن الخياري كان أساس

أسرة الخياري منذ هاجر إليها ١٠٢٩، ورزق الأولاد الصلحاء الذين تولوا الخطابة بالمسجد النبوي نحواً من مائة وخمسين سنة على فترات متعاقبة في شخصيات متعددة. وبهذه المناسبة فإني قد أدركت آخر علماء هذه الأسرة الكريمة الشيخ أحمد ياسين الخياري، وكان صاحب مدرسة تحفيظ القرآن الكريم ونائب شيخ القراء الشيخ حسن الشاعر وشرفت بالقراءة عليه عدة أجزاء على قراءة حفص وكتب لي إجازه بخطه مسلسلة بمشايخه إلى النبي ﷺ: وسماها العب والمص في قراءة الإمام حفص وقدم لها بأصول في قواعد التجويد؛ ولله الحمد والمنّة ورحم الله الجميع، وبالله تعالى التوفيق.





محمد إلياس

قال في الخلاصة هو محمد بن إلياس المدني الخطيب. قال بعض الفضلاء في حقه: أحد الفضلاء الأكياس المثرين من نقود الأدب الفائقة على نقود الأكياس. طابت أنفاسه بأنفاس طابة، وملأ من نفائس الآداب والفضائل وطابه، فهو إذا خطب خطب عرائس الأفكار وأجيب إليها ونصت عليه في أرائك البلاغة فبنى عليها وإذا كتب كبت العدو والحسود. وأقر بفضله السيد والمسود لم يزل في جوار رسول الله ﷺ حتى انتقل إلى جوار الله.

ونلحظ على هذا الأسلوب ألا يقال في الصناعة الكتابية وتكلف السجعات اللفظية. وقد سجل له شعر لا يبعد عن هذا النهج حين أهدى إليه القاضي تاج الدين هدية فأرسل إليه يقول:

مولاي قدرك أعلى — من كل شيء وأغلى
وقد بعثت بما أن — ينمى لقدرك فلا
ولا أراه يوازي — بذاك حاشا وكلا
من ذا يباري كريماً — في الجود حاز المعلا

إلى آخر الأبيات، ومما أجابه القاضي تاج الدين قوله:

يا سيداً وإماماً — قد طاب فرعاً وأصلا
حزت المكارم قدماً — وطبت قولاً وفعلا

وذكر صاحب الخلاصة أن لمحمد هذا أخاً اسمه عبد الله وكان أديباً، وقالوا في ترجمته: أديب يرفل في حلل الجمال ويرفع في رياض الكمال إلى شمائل لرقة الشمول ناسخة، وآداب في مقر الإحسان راسخة رأيته فرأيت البشر مجلواً في صورته والظرف متلواً في سورته، وله نثر ونظم يملكان المسامع لطفاً ويشبهان قائلهما رقةً وظرفاً، ومن شعره في العروض قوله:

إن العروض لبحر — لقوم فيه الخواطر

وكــل عــام فــيــه دارت عــلــيــه الــدوائــر

وذكروا لعبد من الله هذا ما جله شعريه في موضوع القيام للأصحاب، منها ما خاطب به بعض خاصته يعتب عليه في عدم قيامه إليه:

يــا ســيــدي قــم لــي ولا تــخــشَ بــحــرمــتــك الــعــتــب
كــي لا يــقــال مــقــصــر فــأكــون فــيــه أنــا الــســبــب

فأجابه الصديق بقوله:

لــم لا أقــوم لــســيــدي مــن غــيــر أن أخــشى الــعــتــب
وهــو الــذي قــامــت لــه بــثــنــائــهــا عــلــيــا الــرتــب

ومعلوم ما جاء عنه ﷺ النهي عن تطلع الإنسان لمن يقوم إليه: «من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار». ومثل هذه الطرف الأدبية يحمل على التطرف والأدب.

وقد أنشدوا في هذا قولهم:

أقــوم عــلــى الــرأس لــمــا بــدا جــمــالــك لا لاجــتــنــاب الــعــتــب
ولــم لا أقــوم وأنــت الــذي لــعــلــيــاه قــامــت كــرام الــرتــب

وقال غيره:

قــيــامــي لــلــعــزيــز عــلــى فــرض وتــرك الــفــرض مــا لا يــســتــقــيــم
فــهــل أحــد لــه عــقــل ولــبّ ومــعــرفــة يــراك ولا يــقــوم

ومن لطائف الاعتذار عن القيام للأصدقاء قول القائل:

عــلــة ســمــيــت ثــمــانــيــة عــامــا مــنــعــتــنــي لــلأصــدقــاء الــقــيــامــا

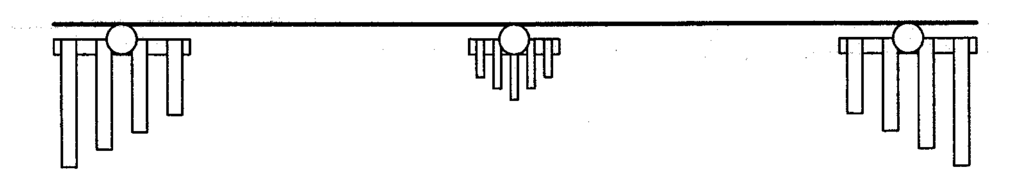
وهذا يشير إلى أنه كان يقوم ابتداءً تكريماً للأصدقاء وهذا النوع لا بأس به، وقد كانت وفاة عالم هذه الحلقة العالم محمد بن إلياس في ربيع الثاني سنة ١٠٧٦هـ.

وبالاطلاع على ما يوجد من بعض المؤلفات نجد أن أسرة إلياس هذه بالمدينة بدأت قبل هذا التاريخ وامتدت إلى القرن الرابع عشر، كما قال صاحب «تحفة المحبين» ص٣٩ تحت عنوان «بيت إلياس». قال: أصلهم: إلياس بن خير الدين، ولد بالمدينة وتربى بها وصل والده خير الدين في أوائل

القرن العاشر واسمه خضر، وكان صالحاً. وله مشاركة في العلوم وولي القضاء بالنيابة. وأعقب من الأولاد القاضي جلال الدين وأخاه القاضي إلياس وتوفي في حدود ٩٥٠هـ، وكان جلال الدين عالماً فاضلاً مدرساً. وله بعض المؤلفات؛ منها الرياض المستطابة في فضل سكان طابة، وذكر من ذرية إلياس: عبد الله ومحمداً. وكلهم ولي التدريس والخطابة ولم تذكر لهم تآليف علمية، وآخر من ترجم لهم خير الدين المتوفى سنة ١١٣٠هـ، وكان قد حاز العلوم من منطوق ومفهوم وكانت له مؤلفات عديدة منها في «علم الفلاحة» وجمعت فتاواه وأشعاره. وكان بين آل إلياس وآل الخياري صلة ومصاهرة، وآخر من علمت من آل إلياس هو عبد الرحمٰن باشا أحمد إلياس المدني من علماء القرن الرابع عشر. واطلعت على رسالة له في فضل الدعاء وسماها «شفاء القلوب وإرشاد المضطر والمكروب إلى أهمية الدعاء وإلى الأدعية المأثورة المختصة بأزمنة الحروب وكشف الشدائد والكروب». بهذا العنوان ثلاثة أسطر ساق فيها نحو الأربعين حديثاً توفي سنة ١٣٣٣هـ.

وقد سجلت تراجم عديدة لخواص علماء المدينة في هذا القرن، وأهمهم من بقي لهم من الأبناء والذرية إلى هذا القرن، سواء من واصل طريق طلب العلم مثل ما رأينا في أسرة الخياري، أو لم يواصل هذا الطريق من ذلك بيت جمل الليل وبيت الدقاق. فبيت جمل الليل ترجم صاحب خلاصة الأثر في تاريخ القرن الحادي عشر، قال: زين بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أحمد بن محمد المعروف بجمل الليل صاحب المدينة المنورة أحد المشاهير بالكرام، وذكر رحلاته إلى الهند وأخذه من علمائها ولما استقر بالحرمين أخذ عنه جماعة وذكر من حسن أقلاقه وحلمه وكرمه وعطفه على المساكين الشيء الكثير. أما بيت الدقاق فقال صاحب تحفة المحبين: فإن أصلهم شيخنا العلامة أبو علي الدقاق المغربي الأصل قدم المدينة سنة ١١٤٢هـ، وصار يدرس بالروضة النبوية في جميع العلوم من منطوق ومفهوم وذكر أولاده أحمد وعلياً، ولعل في هذه التراجم لهؤلاء العلماء بالمدينة المنورة يعطي الصورة لمجتمع المدينة في هذا القرن وإن لم نجد لهم العديد من المؤلفات، وبالله التوفيق.





من أعيان علماء الحرمين الشريفين في القرن الثاني عشر

إن مما يسترعي الانتباه في هذا القرن ما شهده من أحداث جسام وحوادث عظام كانت المدينة المنورة مسرحها وساحة ميدان لها، ولولا أصالة هذه المدينة وقوة ثباتها على مدى التاريخ الطويل وما مرنت عليه من مشاهد لم يشهدها التاريخ قبل وبعد الإسلام وتمتص كل شدائدها وتذيب كل نوائبها، وتتخطى كل عقباتها، فمنذ تبع اليماني ومنذ حرب الأوس والخزرج على مدى مائة عام إلى ما قبل الهجرة بخمس سنوات ثم كبريات الغزوات. ثم جيوش الطغاةُ وما جرّته من ويلات، واستبيحت فيها الحرمات.

ولم تلبث المدينة أن نهضت نهضتها واستعادت قوتها ومضت قدماً في سبيل أداء رسالتها مع العلم والعلماء وإيواء الغرباء، ومساعدة الضعفاء. ولكن النوائب لم تغفلها من حين لآخر وكما قيل: إنها المسكينة تلاقي كل ذلك بصبر وعزيمة وقوة وثبات.

وإن أحداث هذا القرن الثاني عشر وقد طواها التاريخ فلم تعلم إلا لمعاصريها، ومن اهتم لها من مؤرخيها وقد وقفت على مخطوطة سجلت أكثر من عشرة حروب دامية في هذا القرن بين طوائف مختلفة، ولم يسلم منها بر ولا فاجر أوقدتها الأطماع وأزكى نارها الرعاع، من لم يراعوا حرمة الجوار ولم يرعوا حقاً لجار. جمع أحداثها وفصل وقائعها كلها السيد جعفر بن السيد حسين هاشم إمام وخطيب بالمسجد النبوي في عهده. سماها «الأخبار الغريبة في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة».

ونشير هنا إشارة خاطفة إلى تسلسل تلك الأحداث دون تسمية أطرافها؛ لأنه ليس في تسميتهم ما يفيدنا وتأسياً بكتاب الله تعالى في إغفاله تسمية أشخاص بأعيانهم كأصحاب الكهف وهم أعلى مثل في الخير والإيمان، وأصحاب الأخدود وهم أعلى مثل معاكس، وغيرهم كأصحاب الجنة إذ

أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ [الكهف: ٣٥]، وصاحبه الذي قال له وهو يحاوره: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ الآية. فقد عرض القرآن قصصهم وأعرض عن بيان أسمائهم لأن العبرة والعظة إنما هي في الأحداث لا في ذوات الأشخاص. وها نحن نورد مجمل تلك الوقائع دون ذكر لمن شارك فيها ليس لسبق تاريخي، ولكن لثبت أمني تجدد لنا عظيم ما ننعم به اليوم من أمن وأمان وهدوء واطمئنان يستوجب تجديد الشكر لله سبحانه أولاً، ولمن ولاهم الله أمور البلاد ورعاهم مصالح العباد فأيد خطاهم بالتوفيق والسداد.

نعود إلى تسلسل تلك الأحداث وهي حسب السنوات:

١ ـ ففي السنة الحادية عشرة من هذا القرن كانت وقعة في حرة بني قريظة.

٢ ـ وفي سنة ٣٤ منه كانت وقعة العهد لأن الجميع كانوا قد أبرموا عهداً بينهم فنقصنه أحد الطرفين، وسجل هذه الوقعة السيد جعفر البيتي في قصيدة نحو تسعين بيتاً افتتحها بقوله:

المجد تحت ظلال سمر الذبل ... وظبا القواطب والجياد القفل

وفي أخرياتها:

لا زلتم يا أهل طيبة نصرة ... للحق سماً للعدو المبطل

٣ ـ وفي سنة ٤٨هـ، وكانت من أشدها لأن بعضهم قد استعان بالأعراب واستمرت ٤٥ يوماً حتى استنجد البعض الآخر بشريف مكة، وسجلها مؤلف الرسالة المشار إليها بقصيدة طويلة استهلها بقوله:

قفوا تنظروا آثار ما فعل الظلم ... وجوسوا خلال الدار تنبيكم الأكُمُ

قفوا بالرسم الدارسات فربما ... تحققتم منها وما نطق الرسم

قفوا نشتكِ ما قد أصاب فإنه ... عظيم وإن الأمر حادثه ضخم

٤ ـ وفي سنة ٥٥ منه كانت فتنة «كابوس»، وكان سببها حبس غلال المدينة عن أهلها. وكان من نتائجها إجلاء بعض أهلها عنها وسجل أحداثها السيد جعفر البيتي في قصيدة زادت على المائة والخمسين بيتاً افتتحها بقوله:

بكى على الدار لما غاب حاميها ... وجر حكامها فيها أعاديها

بكى لطيبة إذ ضاعت رعيتها وراعها بكلاب البر راعيها

وسجلها أيضاً الشيخ سعيد بن سفر بقصيدة فوق مائة بيت مطلعها:

على بلدة المختار يبكي ويندب ويشكي إلى اللّه العظيم ويرغب

وفي عام سنة ٨٧، منه كثرت السرقات فشكلت فرقتان للحراسة، ولكن الفرقتين بغت بعضهما على بعض وتعصب لكل منهما جماعة فوقعت الفتنة ومما قيل فيها:

واهاً على طيبة مما جرى فيها من الفساد الذي قد حل ناديها
واهاً على بلدة المختار من مضر قد سامها بفساد الرأي شانيها
واهاً لمسجدها السامي وروضته أبوابه فلقت لما عدا فيها

٥ - وفي سنة ٨٩هـ، كانت فتنة (الدوس) وسميت بذلك لكثرة من ديس فيها عند باب الحرم وتزاحموا عليه وكانت في زحام صلاة الجمعة. سجل أحداثها الشيخ أحمد الجامي بنحو السبعين بيتاً منها:

وكم هتكوا ربع الأمان بطيبة يهد فيها من لا يهدده الرعب
وما بال أهل العلم والشرف الأولى لهم درجات فوق غيرهم تربو
بها لم يقم وزن لهم وخيامهم أشايرها مرفوعة ما لها نصب

وخمدت فتنتها بعد أربعة أشهر لما توجه الشيخ تاج الدين إلياس إلى الباب العالي بعروض الناس وقضى عليها بإبعاد المتسبب فيها وسجل ذلك أيضاً الجامي ومن ذلك:

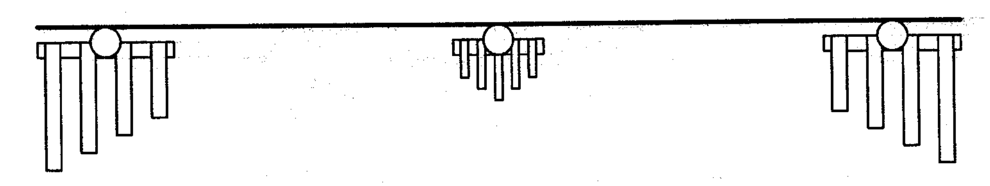
يهنيك يا بلدة المختار من مضر قدوم تاج العلا بالنصر والظفر

٦ - وفي عام ٩٤ منه كانت بسبب خدعة من بعض المسؤولين، دعا الأعيان لوليمة عنده وكان قد أعد كميناً من جماعته بالحبال والقيود، فلما حضر المدعوون آمنين فوجئوا بما أعد لهم من خدعة ومكيدة فوقعت الفتنة.

٧ - وهكذا كانت فتنة أخرى وأخرى في هذه السنة ٩٤، من القرن الثاني عشر، ثلاثة حروب في سنة واحدة، فكيف كانت الحياة من حيث العمل والسعي في تدبير المعاش؟ وكيف كان الحال مع القادمين في مواسم الحج؟ وكيف كان الحال بين الحاكمين والمحكومين إذا كانت الفتن لم يسلم منها حتى المصلون في مسجد رسول الله ﷺ؟ ومع هذا كله فإن العلم لم تطفأ

جذوته والعلماء لم تختف حلقاتهم، فقد كان العديد من العلماء والعديد من المؤلفات، وقد وعى لنا صاحب «سلك الدرر لأعيان القرن الثاني عشر» فوق الخمسين ترجمة ممن ولي التدريس والإفتاء والخطابة والقضاء مما سنلم بنماذج لهم إن شاء الله تعالى، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء مكة المكرمة في القرن الثاني عشر

ترجم صاحب «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» لنحو من سبعمائة وخمسين عالماً من علماء البلاد العربية جلهم من الشام ومصر والحرمين الشريفين. وبلغ من ترجم لهم في الحرمين نحو الخمسين عالماً جلهم من المدينة، وممن ترجم لهم من مكة نحو العشرة رجال أجلاء، هم: الشيخ أحمد الغزي، الشيخ أحمد بك دست، الشيخ أحمد القطان، الشيخ عبد القادر الصديقي، الشيخ عبد الله طرفة، الشيخ محمد عقيلة، الشيخ محمد بن شيخان وأكثرها تراجم مختصرة في أسطر قلائل وأوسعهم ترجمة هما الشيخ أحمد الغزي، والشيخ محمد بن شيخان. فسنكتفي بهما مع التنويه بالبقية رحمهم الله جميعاً.

الشيخ أحمد الغزي

هو أحمد بن عبد الكريم بن سعودي بن نجم الدين بن بدر الدين بن رضى الدين بن رضى الدين أيضاً ابن أحمد بن عبد الله بن المفرج بن بدر الشافعي الغزي الأصل العامري الدمشقي مفتي الشافعية بدمشق وابن مفتيها شيخ الإسلام وابن مشايخه، وأحد ذوي البيوت المشهورة بدمشق أبو العباس شهاب الدين. الإمام العالم العلامة الفقيه النحوي وصفه المؤلف بأنه كان صدراً رئيساً محققاً. وكان مكرماً للناس مقبول الشفاعة عند الحكام كثير الوعظ إليهم محترماً لديهم له وجاهة كلية وإقداماً مع التوقير والاحترام من الخاص والعام.

وهنا وقفة إجلال وإكرام لهذا العالم الجليل الذي استطاع أن يجمع بين الصدارتين والرئاستين وقلّ من استطاع الجمع بينهما إلا وكانت إحداهما على حساب الأخرى. صدارة العلوم والفنون خاصة في الفقه والنحو.

وصدارة الوجاهة عند الحكام وقيامه بحق تلك الوجاهة من وعظهم وتوجيههم. وغالب الحكام قد يستأنف من ذلك، اللهم إلا العقلاء منهم ومن العقلاء من الوعاظ الذين يسلكون مسالك الحكمة والموعظة الحسنة والمفاهمة بالتي هي أحسن. مما علم عنهم إنما يريدون وجه الله تعالى ثم النصح لولاة الأمور عملاً بالحديث النبوي الشريف: «الدين النصيحة» قالها «ولأئمة المسلمين وعامتهم». ومعلوم يقيناً أن صلاح الولاة صلاح لمن ولوا عليهم. ثم ها هو ذا عالمنا الجليل مع قيامه بهذا الواجب العظيم يحافظ على احترام شخصيته عند الحكام، وهل تقبل شفاعته عندهم إلا بعد احترام شخصيته عندهم؟ وإن من أعظم عوامل وموجبات احترام شخصية العالم عند الحكام لهي عفة النفس وصدق الكلمة وعدم التدخل فيما ليس من شأنه أن يتدخل فيه. وقلّ من يقوى على ذلك. وإني لأحسب عالمنا هذا الجليل من هؤلاء القلّة لأن المترجم له قال: وكان موقراً محترماً من الخاص والعام.

والعامة لا تحترم من لم يحترم نفسه عند الحكام، والعامة أشد انتقاداً للعلماء في سلوكهم ومنهجهم من بعضهم البعض لأنهم ينظرون إلى العلماء نظرة القدوة والتأسي وبعين التكريم والإجلال، وقد قال الشاعر معبراً عن ترفع نفسه وصونها عما لا يليق بأمثاله:

يقولون فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

وأولى ما يكون بطالب العلم المسلك الوسط: لا هو انعزال عن الحكام لا يفيدهم ولا يستفيد العامة من شفاعته عندهم، ولا التبذل في كل صغيرة وكبيرة؛ مما يهز من مكانته ويحط من قدره. فرحم الله عالمنا الجليل على موقفه هذا الجميل.

مولده:

ولد رَحِمَهُ اللهُ بدمشق سنة ١٠٧٨هـ، ونشأ بها.

دراسته:

أخذ عن والده الفقه. وأخذ الأصول عن الشيخ إسماعيل الحانك مفتي الأحناف وكذلك النحو. وأخذ المصطلح عن الشيخ محمد أبي المواهب وأخذ

إجازة عن البرزنجي بالمدينة، وتصدّر للتدريس بعد والده. فما أعظمها نعمة أن يخلف الولد أباه في هذا المنصب الجليل ويكون امتداداً لعمل والده بعد وفاته! وقد صنف عديداً من الرسائل ووضع شروحاً وتعليقات نظماً ونثراً، وكانت وفاته بمكة المكرمة، وقيل: بدمشق يوم الجمعة سنة ١١٤٣هـ.

* * *

ومن أعيان علماء مكة في هذا القرن
الشيخ عبد القادر الصديقي

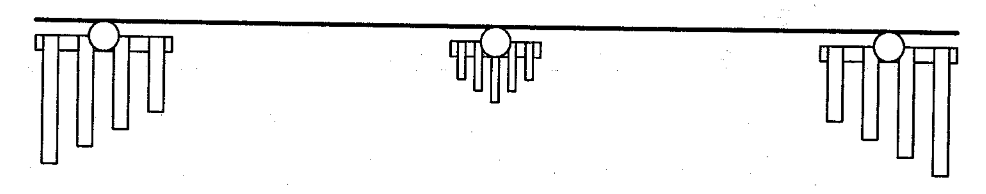
اسمه:

عبد القادر بن أبي بكر الصديقي الحنفي المكي شيخ الإسلام ببلد الله الحرام. قال عنه المترجم: هو الشيخ الفاضل الفقيه الأوحد البارع الهمام أبو الفرج محيي الدين. أخذ العلم بمكة المشرفة وهذا يعطينا وفرة العلماء آنذاك بمكة وليس قاصراً على من عثر على تراجمهم بحيث ينشأ الطالب ويبدأ العلم حتى يحصل ويصبح في هذه المنزلة. شيخ الإسلام في بلد الله الحرام. وممن ذكر من شيوخه: الشيخ أبو الأسرار حسن بن علي العجيمي المكي وتفقه به وسمع عليه الموطأ والصحيحين. وأخذ عنه فن البيان ودروسه في التفسير. وهنا لفتة منهجية وهو تقسيمهم كتب التحصيل إلى قسمين: قسم: يقرأ دراسة وتدقيقاً وهي الكتب غير المطولة. كالمتون وما في معناها، وربما حفظوها.

وقسم: يقرأ عرضاً وقراءة على الشيخ وهي المطولات والموسوعات كالشروح والحواشي. وهذا المنهج يجمع بين الحسنيين تحصيل الأساس من العلوم والاستطلاع على الموسوعات من باب الاستزادة مع الملاءمة بين سعة العلم وقصر العمر.

وإن المناهج الحديثة اليوم في الجامعات لتعتبر المقررات قسمين: قسم أساسي وقسم تكميلي. فرحم الله سلفنا الصالح.

ومن أعيان علماء مكة في ذلك القرن الشيخ عبد الله بن طرفة المكي الشافعي ولد بمكة ونشأ بها أيضاً. وأخذ عن شيوخ أجلّاء حتى تصدّر للتدريس بالحرم المكي ثم انقطع للعبادة حتى توفي سنة ١١٢٠هـ، ودفن بالمعلاة، رحمه الله تعالى، وبالله التوفيق.



من أعيان علماء مكة المكرمة في القرن الثاني عشر

ابن شيخان وابن عقيلة:

أما ابن شيخان:

فهو محمد بن شيخان بن عمر بن سالم بن أحمد بن شيخان بن علي بن علوي بن الفقيه المقدم عرف جد جده بشيخان باعلوي الحسني. قال في ترجمته: كان فريد زمانه. وألقت إليه الأقران مقاليد المعرفة، جامع بين الرواية والدراية، رافع راية المكارم، حوى الفضائل والفواضل والنهي، وحاز الدين والحسن والتقى، وأتقن في كل الفنون وافتخر به الآباء والبنون. فإنها لمنزلة عظيمة للشخص الفاضل ومعلوم أن افتخار الأبناء بالآباء أمر هو الغالب. وكما قيل: كل فتاة بأبيها معجبة. أما أن يفتخر الآباء بالأولاد فهذا هو القليل النادر كما قيل:

نعم الإله على العباد كثيرة ... وأجلهن نجابة الأبناء

فهي من أجل النعم أن يرزق الله الأب ابناً نجيباً يفاخر به وكما قيل:

كم من أب قد علا بابن ذرا رتب ... كما علت برسول اللّه عدنان

وعالمنا هذا ابن شيخان من هذا النوع ومن عوامل الافتخار لنا به أنه ولد بمكة المكرمة ونشأ بها وأخذ العلم عن علمائها وحفظ بعض الكتب، منها: المنهج وبعض الإرشاد والألفية وغير ذلك من المتون. وهذا هو مسلك السلف في دراستهم يعنون بحفظ المتون. وقد قيل: من حفظ المتون حاز الفنون. وقد ذكر صاحب المدخل لمذهب أحمد بن حنبل أن من طريقة السلف أنهم كانوا يقولون: كنا نحفظ المتن ثم نقرأ الشرح ونراجع الحاشية حتى نستوعب ذلك قبل أن نأتي الشيخ فإذا جئنا إليه وقرأنا المتن عليه شرح لنا وزادنا عما قرأناه. ونود أن ننبه أبناءنا الطلاب إلى محاسن هذا المنهج. وهي

أن حفظ أي متن في أي فن؛ كالألفية مثلاً في النحو أو البيقونية في المصطلح أو الرحبية في الفرائض أو السلم في المنطق، فإن هذه المتون تكون بمثابة رأس المال الثابت لدى التاجر الماهر فإنه ينميه بالمحافظة عليه.

وبمثابة الدليل المرافق للمسافر الراحل يهديه الطريق ويوصله إلى الغاية في أقرب وقت وبمثابة الضياء الكاشف في أوقات الحيرة والتردد. أما قراءة الشرح أو عدد من الشروح فإنه يبسط ما كان مختصراً ويفصل ما كان مجملاً وينبه على ما كان لازماً ويفتق الذهن عن الجديد المفيد. وأما الحواشي فهي للنكت، والفائق بمثابة الغواص الذي أعطاه الله طول النفس والصبر على المكث تحت الماء إلى الأعماق بحثاً عن الدرر النفيسة ويقدمها للطالبين مجلوة ناصعة. وهذا المشوار الطويل والتجوال النبيل سيستوقف الطالب الراغب عند كل صعب يحاول تذليله وكل معقد يحاول تحليله فيضع علامات الاستفهام ومؤشرات الاستطلاع، حتى إذا جاء إلى شيخه يأتيه بروح وثابة ونفس تواقة وقريحة متفتحة وقلب مقبل مستوعب، فإن وجد الإجابة على تساؤلاته وعاها وسمع بيان مجملاته احتواها وكان متيقظاً لا يتخطاها فيتقدم متلطفاً إلى شيخه مستعطفاً في وقفة لطيفة يحصل فيها مطلوبه. وهكذا يكون بذل الجهد، ومن الله تعالى التوفيق.

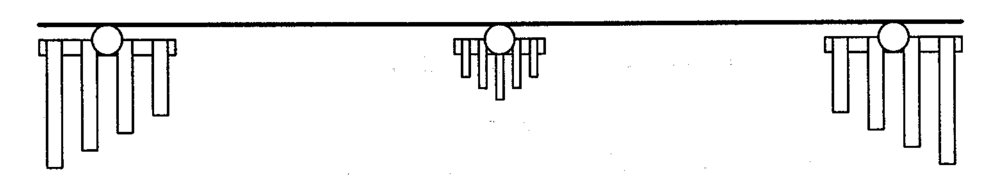
نعود إلى حياة عالمنا الجليل ابن شيخان لنرى شيوخه ومن لازمه وتخرج عليه. لقد أخذ عن الشهاب أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف المكي عدة علوم، ولازم العلامة علي بن الجمال. والوجيه السيد محمد الشبكي وأجاز له المسند محمد بن سليمان المغربي بمروياته وأخذ عنه عدة علوم وقد درس بالمسجد الحرام وصار أحد أعيان مكة وأعاظم كبرائها. وكان له في العربية والأدب طول باع وسعة اطلاع.

وهنا وقفة إجلال وتنبيه، أما الإجلال: فلوفرة العلماء بمكة إلى حد أن يولد الطالب وينشأ بها ويحصل كل علومه في عدة فنون ويبرع، ويدرس من غير أن يحتاج إلى رحلة خارج مكة مع ما نعلم من فوائد الرحلات في طلب العلم، ولكن مكة حرسها الله في ذلك الوقت كان يوجد فيها من يغني أبناءها عن تلك الرحلات.

أما التنبيه: فإلى هذا المنهج في الأخذ عن عدد من الشيوخ ومن كل واحد عدة فنون مما يدل على سعة وشمول تحصيل علماء سلفنا رحمهم الله، ثم ما نلحظه كثيراً من توسع العلماء في علوم العربية نحواً أو أدباً، مما يؤكد لنا شدة حاجة طالب العلم إلى التزود بعلوم العربية إذ هي بجميع فروعها نحواً وصرفاً وبلاغةً وأدباً تشكل عدة الطالب في تفهم وتذوق وإدراك عميق لحقائق العلوم كلها. وقديماً قرأت لكاتب غير عربي قوله: من أراد الحكمة، أو الطب، أو الهندسة، أو أي علم دقيق فليبدأ وليتعلم العربية أولاً فإنها تفتق الذهن وتربي الملكة. وآخر يقول: العربية والقرآن صنوان لا يفترقان. كما سمعت عن الملك فيصل بن عبد العزيز رحمهما الله أن بعض المستشرقين قال له: لقد قرأت القرآن مترجماً فلم أجد فيه كل ما تقولون عنه. فقال له رحمه الله: إنك قرأته بلغتك أنت ولم تقرأه بلغته ولو قرأته بلغته ولك تلك العقلية لوجدت ما نقول وزيادة. فرجع الرجل واعتكف على تعلم العربية حتى أجادها، ثم قرأ القرآن فجاء إلى الملك فيصل رحمه الله وشكره على تلك اللفتة، وأعلن إيمانه بهذا القرآن المنزل من عند الله.

وقد كان عالمنا هذا تقياً ورعاً كريماً ذا قوة في الحق. وجاء في حجته أن الوجيه عبد الرحمٰن الذهبي الدمشقي نزيل مكة أنه قال: صحبت الشيخ ابن شيخان مدة تزيد على أربعين سنة ولم أفارقه في أسفاره ولا إقامته إلَّا القليل ولم أر منه إلا خيراً وإحساناً، وقد ترجم له في رحلته. وهنا تكون هذه شهادة من ملازم خاصة في الأسفار. وهي التي تسفر في خفايا الأخلاق والعادات، فرحم الله هذا الشيخ وجعل فيه أسوة للآخرين، وتوفي رحمه الله في ربيع الثاني سنة ١١٢٢هـ، ودفن بمكة. أما ابن عقيلة فهو أيضاً نشأ بمكة وتعلم بها كسابقه ابن شيخان وأخذ عمن أخذ عنهم ابن شيخان وزاد عليه في شيوخه الشيخ قاسم بن محمد البغدادي والشيخ محمد أبي المواهب الحنبلي. وكانت له مؤلفات وعدة رحلات، وتوفي بمكة سنة ١١٥٠، رحم الله الجميع وبالله التوفيق.





من أعيان علماء المدينة المنورة
في القرن الثاني عشر

نوهنا في تمهيد سابق لهذا القرن عن الحالة الاجتماعية. في المدينة من اضطراب الأمن وضعف الاقتصاد، وشدة القلق حيث شهدت المدينة نحو تسع فتن داخلية تزهق فيها الأنفس وتنهب فيها الأموال وتداهم فيها البيوت وتغلق فيها أبواب المسجد النبوي على المصلين. ومع هذه الأحداث الجسام فإن الحركة العلمية لم تتوقف وحلق العلم متواصلة وقد ترجم صاحب «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» لنحو سبعمائة وخمسين عالماً منهم نحو الخمسين من أهل الحرمين؛ عشرة في مكة والباقي في المدينة وقد ترجم غيره لأعلام أفاضل زيادة عليه كصاحب علماء نجد فضيلة الشيخ عبد الله البسام، والسيد هاشم يحيى هاشم من أعيان القرن الثالث عشر ومن أهل المدينة. مما يدل دلالة واضحة أن هذه المدينة المنورة لم ينطفئ أبداً نور العلم من رحابها ولم تنفض أبداً حلق الدروس من مسجدها. وإننا على ما سبق نقدم نماذج لهؤلاء الأعلام ممن كان لهم الأثر الطيب في مناهج التعليم ومسالك حميدة في سلك التعلم وحفاظاً لحق الآخرين، فإنا نورد تعاريف بهم فحسب ثم نختار من يتفق وأهداف هذا المنهج المبارك إن شاء الله.

فممن ترجم لهم من أعيان المدينة في هذا القرن هم: الشيخ إبراهيم بن حمزة الكوراني وسنقدم ترجمة أوسع، والشيخ السيد إبراهيم بن حمزة وله ترجمة وافية. والشيخ مغلباي حنفي المذهبي وكان خطيباً بالمسجد النبوي.

والشيخ أسعد الأسكداري المدني كان المفتي للأحناف، والشيخ عبد الرحمٰن السمهودي ولد ونشأ بالمدينة وكان من الخطباء بالمسجد النبوي، وتولى إفتاء الشافعية والشيخ عبد الرحمٰن المغربي وله مؤلفات. في اللغة والفقه الشيخ عبد القادر بن السيد يوسف الحلبي الحنفي نزيل المدينة كان خطيباً

وإماماً ومدرساً بالمسجد النبوي، وله مؤلفات نافعة منها: «لسان الحكام في الفقه ومعرفة الرمي بالسهام»، وغير ذلك، والشيخ عبد الكريم الخليفتي وكان من الخطباء وعبد الله الخليفتي وكان شيخ الخطباء، والشيخ عبد المحسن الأسكداري ولد ونشأ بالمدينة وأخذ عن الشيخ السندي الذي أخذ عنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله جميعاً، والشيخ محمد بن إبراهيم بن أحمد بري، ولد ونشأ بالمدينة وكان شيخ الخطباء والشيخ محمد الكوراني، والشيخ سعيد الكوراني ولدا بالمدينة ونشآ بها وتوليا التدريس ونفع الله بهما، والشيخ محمد حياة السندي وسنورد له ترجمة موجزة، والشيخ محمد المغربي، والشيخ محمد زين العابدين ولد ونشأ بالمدينة وولي مشيخة الخطباء، والشيخ محمد البرزنجي، والشيخ محمد الطيب نزيل المدينة وكان المرجع لأهل زمانه في علوم العربية والفقه والحديث، والشيخ محمد الكردي.

والشيخ محمد الدقاق الذي درس بالمسجد النبوي، والشيخ مصطفى الشرواني الذي ولي القضاء بالنيابة، والشيخ يحيى البري أحد الخطباء والشيخ يوسف الأنصاري ويوسف الخطيب رحمهم الله جميعاً. كان كل واحد من هؤلاء علماً من الأعلام في وقته وشاهداً على دوام ومواصلة الحركة العلمية بالمدينة المنورة ونختار من هؤلاء الأعلام الأجلّاء من يمثل هذا القرن في هذا البلد الطيب.

ولعل من قائمة الأسماء التي سجلناها هنا نجد حالة المدينة في هذا القرن الثاني عشر تختلف عنها في القرون السابقة من الجوانب الآتية:

أولاً: نوعية العلماء، لقد وجدنا نوعية جديدة لم نجدها من قبل، وهي نوعية العلماء من نجد ولعل هذا يوحي بتجدد العلاقة بين نجد والمدينة خاصة أكثر مما كانت بين نجد والعراق وخاصة البصرة.

ثانياً: من جماعية العلماء، فقد وجدنا جماعات من العلماء ينتمون إلى البيت الواحد. كجماعة الخليفتي والبري والأسكداري، وكذلك من يولد وينشأ ويتعلم بالمدينة إلى أن ينصب شيخاً على الخطباء أو يدرس ويؤلف. فكلها دلائل على أصالة العلم في بيوتات المدينة وإن مسمى تلك الأسماء لا يزال موجوداً حتى اليوم بصرف النظر عن تسلسل طلب العلم فيهم أم لا. فقد

عاصرنا فضيلة الشيخ عمر بري وهو يدرس بالمسجد وقد نظم العديد من كتب العقيدة، وكان عالماً لطيفاً أديباً وسيأتي ترجمة من وجدنا من علماء آل بري.

ومن علماء البيوتات بالمدينة في هذا القرن آل خليفتي منهم الشيخ عبد الكريم الخليفتي وهو عبد الكريم بن عبد الله الخليفتي العباسي الحنفي. كان فقيهاً شاعراً مفتي الأحناف بالمدينة ونشأ بها فأخذ عن شيوخها منهم الشيخ ناصر بن أحمد الدرعي. وعبد الله أفندي البوسنوي وأخيه حسن أفندي البوسنوي، والشيخ حسن التونسي والشيخ إبراهيم البري والشيخ عبد الغني النابلسي، وعن محدث الحجاز الشيخ محمد بن سليمان المغربي وغيرهم من هؤلاء الجنسيات المختلفة وكان أفضل أهل بيته، وله رسائل وفتوى اختار فيها قول أبي يوسف ومحمد في حرمة توسد الحرير وافتراشه، ومع سعة علمه وفضله فقد كان شاعراً لطيفاً ومما قال في تقريظ لرسالة الخطيب أبي الخير في مناقب الإمام أبي حنيفة:

جمع يفوق شقائق النعمان   حسناً بذكر مناقب النعمان
نظمت فرائده أنامل كامل   أضحى له ذكر عظيم الشان

في أبيات عشرة ساقها في سلك الدرر من أعيان هذه الأسرة الكريمة.

الشيخ عبد الله الخليفتي:

وهو عبد الله بن عبد الكريم الخليفتي العباسي وهو ولد عبد الكريم المذكور، ولد ونشأ بالمدينة وأخذ عن أبيه وعلي الشهاب أحمد أفندي المدرس، وقد ولي إفتاء المدينة المنورة وصار شيخاً على الخطباء وعلى الأئمة بالمسجد النبوي الشريف ونسخ نسخة من «الدر المختار» وصححها، وله شعر علمي لطيف وجد منه على مجموعة له قوله:

جزى اللّه خيراً كل من كان ناظراً   لمجموعتي هذي بستر القبائح
وأصلح ما فيها من العيب كله   فهذا الذي أرجوه من كل ناصح

ومن آل الخليفتي الشيخ محمد بن عبد الله الخليفتي العباس كان خطيباً وعالماً فاضلاً. وهنا وقفة لطيفة مع آل الخليفتي حيث وجدنا ثلاثة أعلام فضلاء من بيت واحد كلهم ولي الخطابة والإمامة بل والمشيخة على هذين

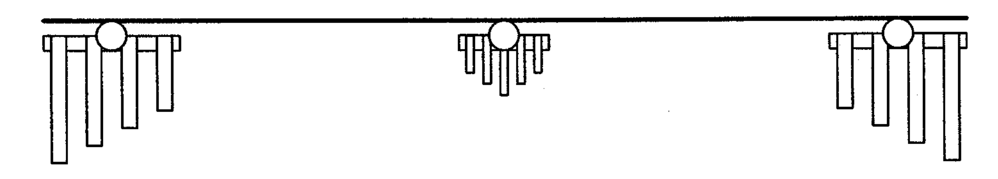
المنصبين الجليلين. وهذا يعطينا صورة نظامية لتركيز المسؤولية في المسجد النبوي الشريف إذ كانت تسند لشخص كفء يكون مسؤولاً عن مجموعته، وكان هناك شيخ المؤذنين وشيخ المدرسين وغير ذلك مما يعطي صورة حسن التنظيم والانضباط وتركيز المسؤولية، وبالله التوفيق.

أما الشيخ محمد الدقاق فقال في «سلك الدرر»: إنه مغربي فاسي مالكي نزيل المدينة العالم العامل المحقق على الإطلاق، قدم المدينة وأخذ عن العلامة عبد القادر الفاسي وغيره وصار له الفضل التام ودرس بالمسجد الشريف النبوي وانتفع به خلق كثير، وكان هماماً عليه السكينة والوقار ملازماً للدرس لا يشتغل بغيره وتوفي سنة ١١٥٠هـ، وفي «تحفة المحبين» ذكر أولاده وعلياً وذكر عنه أنه درس جميع العلوم، المعقول والمنقول. وله شعر لطيف ساقه في سلك الدرر منه قوله:

أنا المحب لكم طول المن أبداً ... أنا الوفي لكم بالعهد والذمم
أنا الذي غمرت قلبي محبتكم ... سحت سحابتها بوابل الديم
أنا الذي بعيون الود أبصركم ... وبعت روحي لكم راضٍ بلا قيم

أما العلامة محمد الكردي فقد ولد بدمشق وحمل إلى المدينة ابن سنة فنشأ وتعلم بالمدينة وأخذ عن أفضلها، منهم: الشيخ سعيد سنبل وعن والده هو والشيخ أحمد الجوهري المصري، وله مؤلفات نافعة منها: «فرائض التحفة» في نحو ٤٠ كراسة، و«حواسن على الحضرمية» لابن حجر الهيثمي، و«عقود الدرر» في مصطلحات تحفة ابن حجر والفوائد المدينة فيمن يفتي بقوله من الشافعية ورسائل عديدة أخرى وكان فرداً من أفراد العالم علماً وفضلاً. وإن أحوج ما يحتاجه طلاب العلم لهو مثل رسالته فيمن يفتي بقوله، وهذا منهج عملي ينبه عليه مناظرو المدينة والمذاهب الأربعة، يسر الله جمع لك كله تيسيراً للاستفادة منه، آمين.





من أعيان علماء المدينة المنورة في القرن الثاني عشر

يأتي من ذلك من بيت البري في هذا القرن كان الشيخ يحيى بن إبراهيم بن أحمد المدني الحنفي، قال عنه في «سلك الدرر»: هو الشيخ العالم الفاضل أبو زكريا، ولد ونشأ بالمدينة المنورة وطلب العلوم وارتوى من بحار المنطوق والمفهوم فأخذ عن والده، ووالده كذلك تأتي له ترجمة إن شاء الله. قال وأخذ عن الشهابي أحمد أفندي المدرس وغيرهما ونبله وفضله على أقرانه، ونسخ بخط كتباً كثيرة منها حاشية الأشباه للحموي، وكان رحمه الله أحد الخطباء والأئمة بالمسجد النبوي وكان على حالة حسنة وطريقة مثلى إلى أن توفي سنة ١١٣٨، ويلفت النظر هنا ما جاء في ترجمة الشيخ عبد الله الخليفتي من نسخ الكتب المطولة بخطوطهم فالخليفتي نسخ «الدرر أو الدر المختار» وصححه، والبري نسخ كتباً كثيرة بخطه مما يعطي صورة الحرص الشديد والمعاناة في تحصيل العلوم قبل أن توجد المطابع ولم يتوفَّر الورَّاقون أو لا يستطيعون المؤاجرة عليها. وسمعت عن عالمين جليلين أخوين أرادا السفر من الرياض إلى الإحساء يوم أن كانت عاصمة لتلك المنطقة وليس لديهما كراء للسفر ولا عندهما من الكتب إلا «مغني اللبيب» لابن هشام لأحدهما، وكتاب آخر عند أخيه ولا سبيل إلى السفر إلا ببيعها ولا غنى لهما عن هذين الكتابين فعمدا إلى أن يحفظ كل واحد ما لديه، وبعد حفظهما باعاهما وسافرا بقيمتيهما وبعد الوصول نسخ كل واحد كتابه من حفظه. إنها طريقة شاقة وإن كانت نتيجتها عظيمة.

ونحن اليوم في عصر توافرت فيه آلات الطباعة والتصوير سواء من قريب أو بعيد، مما يوفر على طالب العلم الشيء الكثير، سواء من الوقت أو من المال ويوسع له الاطلاع على كثير من المراجع، وقد أسرف العالم كله اليوم

في حق الكتب حتى أصبح لا يبالي بالكتاب من حيث الجناية عليه أو بالحفاظ أو بالإهمال، بل إن بعض الأشخاص ليأتيه الكتاب عن طريق فاعل خير أو هدية من مؤلفه أو ناشره، وقد لا يقرؤه أو لا يعنى بالحفاظ عليه. إنها مقارنة مؤلمة بين حال الكتاب عند السلف وحاله اليوم. وقد كان يكافأ على الكتاب بوزنه ذهباً تقديراً للجهد العلمي والجهد العملي. وقد شاهدت عدة خطوط بالمدينة قديمة وحديثة، أعني: بعد القرن الثاني عشر، وإذا هي في القمة من الجودة والإتقان وبالخط النسخ لو صورت وطبعت على ما هي عليه لكانت أجمل من رص الحروف الجديدة اليوم.

ومن علماء آل البري: الشيخ محمد بري وهو محمد بن إبراهيم بن أحمد المدنية الحنفي العالم الفاضل والد عبد الله الذي قدمنا ترجمته، ولد بالمدينة ونشأ بها وقد أخذ هو أيضاً عن والده وعن الملا إبراهيم الكوراني وعن البزاز نجى وقد تولى مشيخة الخطباء في عصره ثم تركها. قال صاحب «سلك الدرر» وكان صالحاً مباركاً كل الناس عنه راضون وبالجملة؛ فبنو البري طائفة مباركة وهذا من وجوههم، وتوفي بالمدينة سنة ١١٥٧، رَحِمَهُ اللهُ.

وهنا وقفة استحسان مع هذه الأسرة آل البري بالمدينة المنورة ولأننا وجدنا ثلاث طبقات كل يأخذ عن أبيه، يعني: الجد والولد والحفيد كلهم علماء ومنهم المدرس والخطيب وشيخ الخطباء، ويؤيد هذا ما قاله المؤلف في ترجمته إياهم: وبالجملة فإن بني البري طائفة مباركة.

وقد أرجع صاحب «تحفة المحبين» وجود آل البري بالمدينة إلى سنة ٩٠٠هـ، أول من قدم منهم هو القاضي أحمد المغربي المالكي من تونس وكان عالماً فاضلاً صاحب ثروة، وتوفي بالمدينة وأعقب عبد القادر ومحمداً وعبد الرحيم وعبد البر وعلياً، وذكر مناصبهم وذكر أعمالهم وأولادهم إلى يحيى بري الذي ترجمنا له من قبل.

ويقول الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الخطراوي في مقدمة ديوان عمر بن إبراهيم البري الذي أدرك مطلع القرن الرابع عشر، يقول: إنه قد اطلع على بيان نسب آل البري بأنهم كانوا بالمدينة من القرن السادس وأنهم يتصل نسبهم إلى الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وساق النسب المثبت لهم ونوه بفضائل

أعمالهم وعلو مناصبهم من قضاء وإفتاء وتدريس إلى الشيخ أحمد بري الذي ولي منصب أمين بيت المال. وأحمد بن عبد الله بن أبي اللطف كان أحد أعيان العلماء الأحناف تولى الإمامة والخطابة والتدريس، ويلاحظ في سلسلة النسب التي ساقها أن الخطابة والإمامة هي جل مناصبهم إلى أحمد هذا ابن أبي اللطف، وقد ساق له أبياتاً وامتدح فيها القاضي تاج الدين حين قدم من مكة المكرمة وامتدح أهل المدينة بأبيات لطيفة وذلك في سنة ١٠٤٥، تلك الأبيات هي:

يا ساكني طيبة فخراً فقد ... طابت فروع منكمُ والأصول
وراية الأنصار فيكم سرت ... كأنما المقصود منها الشمول
تصفون محض الود من جاءكم ... فما عسى مادحكم أن يقول
وليهنكم ما قد خصصتم به ... فيا لها خصيصة لا تزول
جاورتم المختار خير الورى ... وفزتم في سوحه بالحلول

فأجابه الشيخ أحمد البري بقوله:

أعظم بأهل الركن من سادة ... من مفرق العلياء جروا الذيول
جيرانه جيران بيت اللّه قدرهم ... تحار في درك مداه العقول
بمكة حلّوا فحلوا بها ... جيد المعالي حليةً لا تزول

وذلك في أبيات عديدة وساق الدكتور الخضراوي عن سلسلة النسب تلك إلى محمد إبراهيم البري ويحيى بن إبراهيم وعبد الله بن يحيى، وهما من علماء القرن الثاني عشر كما تقدم. وقد امتدت تلك السلسلة بالمدينة حتى أدركت العالم الفاضل الشيخ عمر بري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان مسكنه ملاصقاً للحرم وبجوار باب الرحمة، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مدرساً في المسجد النبوي الشريف وكان ظريفاً شاعراً مجيداً. رحمه الله تعالى رحمة واسعة. ومن العلماء الذين ينتسبون إلى عوائل لا زالت موجودة إلى اليوم الشيخ محمد الدقاق، والشيخ محمد الكردي.

أما الشيخ محمد الدقاق فقال في سلك الدرر: إنه مغربي فاسي مالكي نزيل المدينة العالم العامل المحقق على الإطلاق قدم المدينة وأخذ عن العلّامة عبد القادر الفاسيّ وغيره، وصار له الفضل التام درَّس بالمسجد الشريف النبوي وانتفع به خلق كثير، وكان هُمَاماً عليه السكينة والوقار ملازماً للدرس لا يشتغل

بغيره وتوفي سنة ١١٥٠، وفي تحفة المحبين ذكر أولاده أحمد وعلياً، وذكر عنه أنه درَّس جميع العلوم المعقول والمنقول وله شعر لطيف ساقه في سلك الدرر منه قوله:

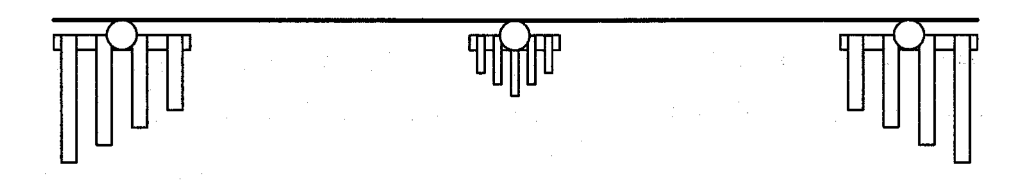
أنا المحب لكم طول المدىٰ أبدا ... أنا الوفي لكم بالعهد والذمم
أنا الذي غمرت قلبي محبتكم ... سحت سحائبها بوابل الديم
أنا الذي بعيون الود أبصركم ... وبعت روحي راضٍ بلا قيم

أما العلَّامة محمد الكردي فقد ولد بدمشق وحمل إلى المدينة ابن سنة، فنشأ وتعلَّم بالمدينة وأخذ عن أفاضلها، منهم الشيخ سعيد شبل وعن والده هو والشيخ أحمد الجوهري المصري. وله مؤلفات نافعة منها شرح فرائض التحفة في نحو أربعين كراسة، وحواشٍ على الحضرمية لابن حجر الهيثمي، وعقود الدرر بمصطلحات تحفة ابن حجر، والفوائد المدنية في من يفتن بقوله من الشافعية، ورسائل عديدة أخرىٰ وكان فرداً من أفراد العالم علماً وفضلاً وإن أحوج ما يحتاجه طلاب العلم اليوم ألا وهو مثل رسالته فيمن يفتن بقوله، وهذا منهج عملي ينبه عليه متأخر المذاهب الأربعة، يسَّر الله من يجمع ذلك كله ويقدمه لطلبة العلم ليقفوا عليه ويتأسوا به. وبالله تعالى التوفيق.

وصلىٰ الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد ﷺ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





من أعيان علماء المدينة المنورة في القرن الثاني عشر ابن سيف ممن وفدوا إليها وامتد نفعهم لها

لقد وفد إلى المدينة من علماء الدنيا قديماً وحديثاً ونفع الله بهم من أخذ عنهم وتتلمذ عليهم. إلا أن المترجم له هنا وهو الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف الشمري فإن والده نزح من المجمعة إلى المدينة، فولد عالمنا هذا بالمدينة ونشأ وتعلم بها وترجم له أخونا وزميلنا الشيخ الفاضل عبد الله بن عبد الرحمٰن بن صالح البسام عضو محكمة التمييز بمكة المكرمة حالياً، ومجمل ترجمته أنه ولد بالمدينة كما أسلفنا وأخذ عن علمائها والوافدين إليها ثم رحل إلى دمشق فأخذ عن علمائها وأشهرهم شيخ الحنابلة أبو المواهب والشيخ فوزان بن نصر الله النجدي. قال البسام: قلت: وقد جد واجتهد في طلب العلم حتى نال قسطاً كبيراً من العلوم الشرعية والعربية، قال: وجمع مكتبة حافلة نفيسة ثم جلس للتدريس ولما حج الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قبل إعلان دعوته وتوجه إلى المدينة فوجد فيها المترجم له ابن سيف فأول ما سمعه منه الشيخ محمد بن عبد الوهاب الحديث المسلسل بالأولية، ونقل عن الشيخ ابن غنام في سيرة الشيخ محمد أنه نقل عنه بخطه، أي من خط الشيخ محمد ما نصه: حدثني الشيخ عبد الله بن إبراهيم بمنزله بظاهر المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام عن شيخ الإسلام ومفتي الشام أبي المواهب إجازة... إلخ.

ونقل أيضاً في ترجمة عن سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز في ترجمة الشيخ محمد بن عبد الوهاب قوله: قد حج وأخذ عن علماء الحرم الشريف ثم توجه إلى المدينة فاجتمع بعلمائها وأقام فيها مدة وأخذ عن عالمين

كبيرين مشهورين في المدينة في ذلك الوقت هما: الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدي أصله من المجمعة، انتهى. ويعني بالشيخ الثاني الشيخ حياة محمد السندي أو محمد حياة وستأتي ترجمته إن شاء الله. وقد كان هذا الإمام ذا همّة عالية في طلب معالي الأمور والتطلع إلى دعوة الناس إلى الله والهداية إلى الصراط السوي. وقد نقل البسام عن الشيخ عبد الستار الدهلوي في ترجمة الشيخ عبد الله هذا أنه الشيخ الفرضي النجدي المدني، يروي مصنفات القاضي أبي يعلى عن الشيخ أبي المواهب ويروي عنه مسلسل الحنابلة. وقال: قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: كنت يوماً عنده فقال لي:

أتريد أن أريك سلاحاً أعددته لأهل المجمعة. قلت: نعم، فأدخلني منزلاً عنده فيه كتب كثيرة وقال: هذا الذي أعددته لها. ولكنه لم يذهب إلى المجمعة بل بقي بالمدينة حتى توفي فيها. وذكر من تلاميذه الشيخ محمد بن عبد الوهاب والشيخ محمد بن عبد الرحمٰن بن عفالق الإحسائي، والشيخ إبراهيم بن عبد الله بن سيف ولد المترجم له وغيرهم. وقال: إن له أبياتاً في ذم الدخان مطلعها:

يا مولعاً بدخان النار تشربه	وتدعي الحل فيه هات برهانا
أورد عليه دليلاً كي تحلله	لا فلسفات وتغليطاً وبهتانا

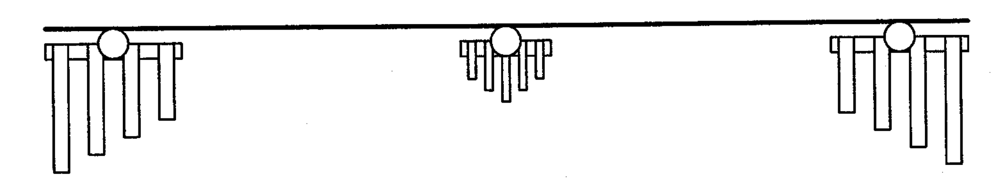
وقد ترجم له صاحب «تحفة المحبين» ولولده إبراهيم تراجم موجزة، قال فيها تحت عنوان بيت الفرضي قال: أصلهم الشيخ عبد الله بن إبراهيم الحنبلي الشرقي، والفرضي نسبة لعلم الفرائض. قدمها في حدود سنة ١١١٥. وكان رجلاً صالحاً فاضلاً لا نظير له في علم الفرائض حتى كاد أن يكون زيد زمانه، ومع ذلك كان كثير الاشتغال بالفلاحة والزراعة وله قصيدة فريدة في ذم الدخان وشربه وتوفي سنة ١١٤٠، وأعقب من الأولاد محمداً وإبراهيم وسعداً. وإن إبراهيم اشتغل بعلم الفرائض حتى فاق والده وصار لا نظير له في المدينة بل في الدنيا. وكانت ترد إليه الأسئلة بكثرة من جميع الأقاليم فيجيب عليها بلا كلفة وشرح منظومة كبيرة في هذا العلم على المذاهب الأربعة وتوفي سنة ١١٩٢. إن الشرح المنوه عنه هو المعروف «بالعذب الفائض شرح عمدة كل فارض» والمنظومة منسوبة للشيخ البهوتي وهذا الشرح بحق أكبر موسوعة رأيتها

واستفدت منها في هذا العلم خاصةً، وتتميز بالوضوح والسهولة بحيث إن كل طالب له مبادئ وإلمام بهذا العلم يستطيع الاستزادة والاستفادة منه شيئاً كثيراً، وهو دلالة واضحة على ما قاله عنه صاحب «تحفة الأحباب» من أنه: فاق أهل زمانه ولقد رأيته في هذا الكتاب يحل مسائل الفرائض في الانكسار والمناسخات بطريق الجبر والمعادلة فضلاً عن طريق الحساب المعروف عند الفرضيين بطريقة النسب الأربع: توافق وتباين وتداخل ومساواة، علىٰ ما هو معلوم عندهم، وكذلك طريق الجمع والضرب والقسمة، فمثل هذا العالم في القرن الثاني عشر يستخدم الجبر والمعادلة لحل مسائل الفرائض في الوقت الذي نحن اليوم قلّ أن نجد من يعمل جدول مناسخة من ثلاثة أو أربعة بطون إلا من شاء الله. ولشهرة هذا البيت بمعرفة علم الفرائض قال صاحب التحفة: بيت الفرضي. وهذا مع قوله عن إمامنا هذا: كاد أن يكون زيد زمانه، فإنه مفخرة لطلبة العلم بالمدينة المنورة.

وبالعودة إلى ما تقدم عن إمامنا هذا الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف الشمري أو النجدي أو الشرفي فإنه ليستوقفنا عدة وقفات هامة منها مولده ونشأته بالمدينة وتلقيه العلم بها ورحلته إلى الشام، ثم ها هو يتوحد زمانه في فن الفرائض فقهاً وحساباً. ثم ما أكرمه الله به من مجيء الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقبل أن يجهر بدعوته الخيرة، وإذا به بقصد أو بغير قصد يوجهه إلى أقوى وأحد وأمضى سلاح للداعية فيدخله حجرة كبيرة من منزله ليطلعه على السلاح الذي أعده لأهل المجمعة أهل بلده ووطنه، فإذا به يطلعه على لا علىٰ سيوف ودروع ونبل وسهام وأدوات القتال، بل أطلعه على سلاح العلم السلاح الذي يحارب الجهل ويقضي على البدع ويقوّم السلوك وينير السبيل ويهدي الحيارى ومصداق قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وعليه بوب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم قبل العمل. ولا شك أن إمامنا هذا وإن كان قد ولد بالمدينة إلا أنه لم تنقطع صلته بمسقط رأس أهله وذويه، وكان يعلم من حالهم ما يعلمه أيضاً الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وإني لأعتقد أن إمامنا الشيخ عبد الله بن سيف هذا قد رأى مخايل الفضل والنبل وقوة العزيمة على الإصلاح ودعوة الناس إلى الخير رأى كل ذلك عند تلميذه الجديد فأراد أن يشعره

بمشاركته في تطلعاته وأنه يوليه العناية بأهل المجمعة ولكأنه يقول لتلميذه: لا سبيل إلى إصلاح ما أفسد الناس وتقويم ما اعوج من سلوكهم إلا بهذا النوع من السلاح الذي لا يفل بل ولا ينفذ ولا يقاومه أي سلاح آخر. ولكأني بهذا التوجيه الحساس قد انطلق تلميذه يعد العدة لأهل نجد عموماً، وفعلاً قد كان سلاح الداعية الكريم هو العلم فوضع كتب التوحيد ميسرة آية وحديث وقول صاحب أو تابع، وقد بارك الله سبحانه في عالمنا وفي تلميذه وفي كل من ساهم في تكوين شخصية الإمام الداعية الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورحم الله الجميع وسنلم بشيخه الثاني محمد حياة السندي إن شاء الله لنرى مدى فعاليات المدينة بدعوته، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء المدينة في القرن الثاني عشر
من شيوخ الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله
هو الشيخ العلامة مسند الحجاز محمد حياة السندي

قال في «سلك الدرر». . محمد حياة بن إبراهيم السندي الأصل والمولد الحنفي المذهب العلامة المحدث الفهامة حامل لواء السنة بمدينة سيد الإنس والجِنة ولد بالسند ببعض قراها. ورغب في تحصيل العلم وهو بها ثم انتقل إلى تستر قاعدة بلاد السند وقرأ على محمد معين بن محمد أمين، ثم هاجر إلى الحرمين الشريفين وتوطن المدينة المنورة ولازم الشيخ أبا الحسن بن عبد الهادي السندي وجلس مجلسه بعد وفاته أربعاً وعشرين سنة.

وأجاز له الشيخ عبد الله بن سالم البصري، والشيخ محمد أبو الطاهر بن إبراهيم الكوراني وأبو الأسرار حسن بن علي العجمي وغيرهم. وكان ورعاً متجرداً منعزلاً عن الخلق إلا في وقت قراءة الدروس مثابراً على أداء الجماعات في الصف الأول من المسجد النبوي. وله تصانيف كثيرة منها شرح «الترغيب والترهيب» للمنذري في مجلدين، وشرح على «الأربعين النووية» مختصر جداً، و«مختصر الزواجر»، وشرح «الحكم العطائية»، و«الحكم الحدادية». وله رسائل أخر لطيفة وتحقيقات عجيبة منفية.

وقال صاحب «تحفة المحبين»: «بيت السندي» نسبة إلى بلاد السند المشهور وإليه ينتسب كثير من أشهرهم بيت أحمد أفندي السندي، ومنهم بيت الدرويش عثمان السندي، ومنهم بيت الشيخ مقيم السندي وغيرهم. قال: وبلغني أنهم يبلغون يوم تاريخه في العدد مائتي شخص ولهم أوقاف من بيوت ونخيل. . . إلخ.

ثم قال: ومنهم صاحبنا العلامة الشيخ أبو الحسن السندي قدم المدينة

سنة ١١٦٥هـ وكان رجلاً فاضلاً، اشتغل بالعلم وبعلم الحديث خاصة حتى لربما لم يصر له نظير ولا شبيه، ملازماً للمسجد الشريف النبوي حتى بلغت دروسه في اليوم والليلة أكثر من عشرة دروس واشتغل أيضاً بتحصيل الدنيا فتحصّل على أموال عظيمة وصار يعد من أصحاب الثروات وتزوج عدة زوجات، ثم ذكر وفاته وقد تختلف في تاريخها عما في «سلك الدرر» قليلا، وذكر أولاده. هذه هي حصيلة ما في هذين المرجعين عن هذا العالم الجليل ومما تقدم وبعد الاطلاع على هذه الترجمة الموجزة فقط، أي بعد الاطلاع فقط وجدت جواباً لسؤال لما تردد في ذهني ولم أكن أعلم جوابه وأقنع نفسي بأنها ربما الصدفة، ولكن تبين لي الآن والآن فقط بعد الوقوف على هذه الترجمة تبين لي الجواب الحقيقي بمقياس العقل والفطنة ونور البصيرة والسؤال هو كان: «إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب جاء إلى الحجاز حاجاً، ثم جاء إلى المدينة كغيره وكونه أخذ عن الشيخ ابن إبراهيم السيف، ولازمه وكان يأتيه في بيته وأطلعه شيخه على ما أعد لأهل المجمعة، فهذا قد يكون بعامل التعاطف السابق المعرفة أو التعرف ولروابط العرق والوطن والهدف فكلاهما من نجد. ولكن أن يأخذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن هذا العالم السندي مع وجود ذلك العدد الذي كان متوفراً من العلماء بالمدينة فيتخيره عن غيره ويخصه بالأخذ عنه. وقد علمت ويعلم جميع طلبة العلم أن الصفات التي كان يتحلى بها هذا الشيخ لم تخف على هذا التلميذ النجيب صاحب تلك الهمة العالية، حيث رأى شيخاً برع في العلم الحديث وهو العلم الذي ينشده وينشد فيه السلاح الذي وجهه إليه من شاركه في شعوره وعزيمته ومنهجه، وهو العالم الذي انقطع إلى التدريس بالمسجد النبوي الشريف فهو أكثر إفادة وتلميذه لا شك يتعجل الزمن ولا يسعفه إلا مثل هذا العالم. وكذلك وجد عالماً يحافظ على الجماعات وفي الصف الأول وهذا أمر طبيعي؛ لأن من يؤدي عشرة دروس في اليوم بالمسجد النبوي لم يكن ليبعد عن موضع درسه فجمع بين العلم والعمل.

وهكذا وجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في هذا العالم السندي حاجته، وبقيته فكان حقاً حرياً أن يتخيره على غيره وأن يخصه عمن سواه. وهنا لفتة خفيفة في مقارنة بين الشيخين ابن سيف والسندي؛ فابن سيف حنبلي

ويروي مسلسل الحنابلة والسندي حنفي ويأتي الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيأخذ عنهما معاً؛ إنها سماحة العلماء وبعد غاية الطالب النبيه لا يتعصب لمن يأخذ عنه أو لا يأخذ ولا سيما وشيخه السندي قد توحد في زمنه بعلم الحديث. والحديث لا ينحصر على أهل مذهب بل المذاهب كلها تبع للحديث ومصدر وموردها، إنما هو الحديث ومع كتاب الله لا بد من الحديث فلينظر طلبة العلم اليوم في كل مكان وزمان إلى سعة أفق علماء سلفنا جزاهم الله خيراً.

ولعلنا بعد هذا الإيراد لتراجم مشايخ الإمام الفاضل إمام هذه الدعوة الخيرة وهو بالمدينة أن ندعي ويمكن أن ندعي ونعد الشيخ محمد بن عبد الوهاب من علماء المدينة أو نقول:

إن المدينة المنورة كما كان فيها في هذا القرن من العباد والمنقطعين إلى العبادة أو بعض الطوائف الموجودة في البلاد الإسلامية، فإنها كانت أيضاً فيها من أهل الدعوة السلفية أو المنهج السلفي السليم على حد قوله ﷺ: «لا تزال طائفة أمتي على الحق». وها هما شيخان جليلان فاضلان يأخذ عنهما هذا الإمام الداعية ويمتد أثر ما أخذ عنهما إلى دعوته الخيرة التي جدد بها دعوة السلف الصالح. وصدق رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى حجرها». وقد كنت يتراءى لي في معنى الحديث النبوي الشريف في ضرب أكباد الإبل إلى عالم المدينة أنه ليس مراداً به شخص بعينه ولكن كما يقولون: إن معنى عالم المدينة، هو واحد بالنوع أو بالجنس وليس واحداً بالشخص والواحد بالجنس كالإنسان والفرس والغزال مثلاً واحد بالجنس وهو جنس الحيوان مشترك بينهم. والواحد بالنوع كزيد، وعمرو، وعلي، فهم واحد بنوع الإنسان. والواحد بالذات أو العين لشخص متعين فلان ابن فلان بذاته كأبي بكر الصديق أو عمر الفاروق. فعالم المدينة؛ أي نوعه فيصدق على عالمها المنفرد في العلوم الموجود بها في أي زمان.

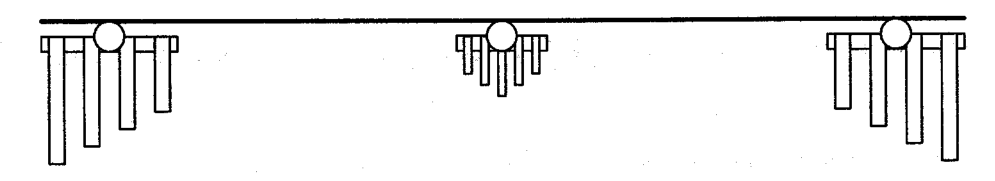
والدارس لتاريخ الدعوات الإصلاحية يجد كثيراً منها قد كان انطلاقها من المدينة إما مباشرة أو بواسطة أحد علمائها أو ممن جاؤوا إليها ثم عادوا إلى

بلادهم. ولا غرابة في ذلك فهي كما نعلم في انتشار الإسلام في كافة بقاع المسلمين.

ولعلنا بهذه المناسبة نعيد التنبيه ونؤكد على ما سبق نبهنا عليه من وجوب العناية الشديدة الفائقة بالحركة العلمية في المدينة المنورة؛ سواء في حلق المسجد النبوي الشريف تلك الحلق الميسرة لكل راغب والمواتية لكل قادم؛ سواء قدم لطلب العلم أو لأداء العمرة والزيارة، كما يقولون: فيستفيد منها كل من حضرها. وسواء في الجامعة الإسلامية أو غيرها من الدراسات النظامية وتكون العناية بالكم والكيف بحسن تخير البرامج وحسن تخير المناهج.

أي نوعية الدروس وطريقة التدريس، وكما قال ﷺ لأهل المدينة: «الناس لكم تبع»، وقال: «من راح إلى مسجدي لعلم يتعلمه أو يعلمه كان كمن غزا في سبيل الله»، أي لأن العلم هو السلاح لمن أراد الإصلاح، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء الحرمين الشريفين في القرن الثالث عشر

تقدم لنا أن الحرمين الشريفين خاصة المدينة المنورة كانت مسرح أحداث جسام بسبب فتن داخلية تكررت حوالي عشر مرات، كان لها أسوأ التأثير على مجريات الحياة اقتصادياً وأمنياً وما يترتب على ذلك في شغل الحياة وحياة المواطنين واستنفاد قواهم في مقابلة تلك الأحداث، ومع هذا كله فإن الحياة العلمية والحركات الأدبية ظلت في طريقها وأتت ثمارها في العديد من المجالات.

وهكذا الحال في هذا القرن الثالث عشر، فقد كانت المنطقة كلها منطقة الحجاز مسرح أحداث أشد خطورة وأعلى مستويات وأوسع نطاقاً، إذ كانت موضع نزاعات خارجية وداخلية، إذ كان ذلك القرن من بداية الحركة الإسلامية التي نهضت لتخليص الجزيرة العربية من رواسب وركام التغييرات التي عطلت مناهج التشريع الإسلامي ودعوة الإصلاح بتحديد معالم الكتاب والسنة، وكان منطلق تلك الدعوة المباركة من أواسط نجد قام بها التضامن الوفي والتعاون المخلص والعمل الجاد بين الإمام محمد عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود فانطلقت راية الدعوة إلى أرض الحرمين، وكانت آنذاك تحت سلطة العثمانيين ولا شك أن انطلاق تلك الدعوة في إطار إسلامي أزعج الباب العالي، فجندت إمكانياتها وحكام ولاياتها في المنطقة لإيقاف تلك الانطلاقة بل والقضاء عليها. وما كان ليتم ذلك إلا بحروب طاحنة وقتال مستعر استطاعت في بدايتها تلك القوى المستبدة بقوتها عدداً وعدة أن توقف الحركة بل وتردها إلى منطلقها الأول.

ولكن مبادئ الحق وعزائم المصلحين لم تكن لتتلاشى ولا تلين، وقوى الباطل وعدة الطغيان لم تستطع البقاء ولم تستطع تغطية الحقائق. وقد كان من الطبيعي أن انحسار الدعوة والحركة الإصلاحية لا بد من أنها قد أوضحت

صحة عقيدتها ووضوح رسالتها، وأنها رسالة الإسلام الخالصة لإقامة السنة والقضاء على البدعة وإعادة الناس إلى ما كان عليه السلف الصالح، وهي دعوة تتجاوب معها كل فطرة سليمة فتفهمها بعض علماء الحرمين وأخذ ببث تعاليمها، وكان لهؤلاء العلماء الذين تجردوا من كل مشكل سياسي أو غرض شخصي، كان لهم الأثر في الإبقاء على وجود مبادئ تلك الدعوة الخيرة إلى أن قيض الله تعالى إمامين جليلين من أحفاد أئمة الدعوة أول ما بدأت، فكان في ظل الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود الذي قيّضه الله تعالى لرفع راية الدعوة متخطياً بها كل العقبات ومتغلباً على كل الصعوبات في طريقه إلى الحرمين، حتى أكرم الله المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها برفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله وإعلان تحكيم الشريعة الإسلامية، فأمن السبيل واطمأن الحاج وانتشر العدل وبدأت الحركات الإصلاحية في المجالات العديدة من تعليم وإنتاج وما وصلت إليه البلاد اليوم إلى ما هي عليه يحسدها الأعداء ويغبطها الأصدقاء. فكان هذا القرن الثالث عشر بما شهد من أحداث جسام ووقائع عظام سجلها له التاريخ وقد لخص مهماتها الدكتور الخطراوي في مقدمة لديوان الزعلي كان بمثابة جسر يربط بين ماضٍ مدبر حطمت قواه المحن والكوارث، وبين مستقبل مقبل بعزيمة وحيوية.

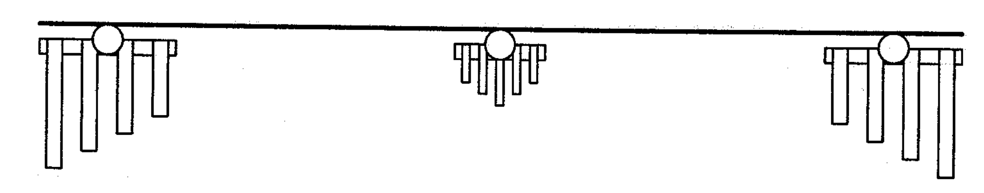
وبمثابة عهد تصفية لعهد قديم مليء بالقلاقل ومضطرب بالفوضى قد شاخ عمره وهدم جسمه وخارت قواه، فهو ينتفض انتفاضة المذبوح وتهيأ لعهد جديد يفيض حيوية وطموحاً في ظل دعوة فتية تستظل براية لا إله إلا الله محمد رسول الله، وبين هذا وذاك ظلت حلق الدروس في الحرمين وروافد الأدب في المنطقة غنية بعطائها. ولكن لم تتوفر فرص الكتابة التاريخية المعهودة فقلّت تراجم الأعيان في ذلك القرن. وقد تطلبت المراجع فلم أعثر إلا على القليل من ذلك كتاب تراجم القرن الثالث عشر، وليس فيه لعلماء الحرمين إلا واحد وهو لأحمد تيمور باشا. والآخر له أيضاً بعنوان: «تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر»، في مائة وثلاثة وستين صحيفة ترجم فيه لخمسة وعشرين شخصاً كلهم مصريون. والآخر بعنوان: «أعلام الفكر الإسلامي»، وهو للقرن الثالث عشر عقد فيه أبواباً لعلماء منهم لعلماء الشام ولعلماء العراق

ولعلماء أفريقيا ومنها بابٌ لعلماء الحجاز وحضرموت ساق فيه ترجمة خمسة أشخاص فقط، وليس فيهم من يتفق مع منهج هذا البرنامج المبارك. علماء الحرمين الشريفين الذين لهم أثر في العلم والتعليم.

وأوسع مرجع اطلعت عليه لهذا القرن هو «حلية البشر» تأليف الشيخ عبد الرزاق البيطار من ثلاثة أجزاء مجموع صفحاته فوق السبعمائة والألف لم يترجم فيه لعلماء الحرمين أكثر من عشرين ترجمة ما بين عالم وأديب وشاعر منهم اثنان فقط لأهل مكة المكرمة. ولم أعثر على مؤلف خاص لعلماء الحرمين في هذا القرن كما عثرت في القرون التي قبله.

وفي كتاب «ملء العيبة، بما جمع بطول الغيبة» كتبه أبو عبد الله محمد بن عمر الفهري السبتي في رحلته إلى الحرمين واختص الجزء الخامس منه للحرمين، ولكن كتب فيه وملأ العيبة بالكتابة عمن لقيهم في أرض الحرمين سواء المقيمين والقادمين إلى الحج وكانت كتابته عبارة عن مروياته عنهم فذكر أسماء كثيرة ولكن بدون تراجم لهم. وقد وجدت في كتاب «تاريخ علماء نجد لأكثر من سبعة قرون»، وهو لأخينا فضيلة الشيخ عبد الله البسام في ثلاثة أجزاء مجموعها نحو الألف صفحة وممن ترجم لهم من النجديين الذين استوطنوا الحرمين وكانت لهم أنشطة علمية في هذا القرن أربعة أشخاص فقط ما بين مكة والمدينة، كما يوجد من علماء القرن الرابع عشر عدد من العلماء سيأتي ذكرهم إن شاء الله في وقتهم.

ونحن إذ نذكر هذا الواقع فليس معناه عدم وجود العلماء أو عدم وجود المراجع ولكن عدم العثور عليها، إما لقلتها أو عدم العناية بها وإظهارها ومعلوم أن العدد الكبير الذي نوهنا عنه من علماء القرن الثاني عشر قد تخرّج على أيديهم علماء امتدت حياتهم إلى الثالث عشر. وكذلك العدد الكثير الذي وقفنا عليه لعلماء القرن الرابع عشر أن غالبهم تخرّج على علماء كانوا في الثالث عشر. وقد نوه كل من قرأنا له عن القرن الرابع عشر عدد كثير من شيوخ من ترجموا لهم وعلى ما سبق أن قدمناه فسنختار النماذج لعلماء الحرمين الشرفين في هذا القرن الثالث عشر، ممن نجد عنهم مناهج علمية يتأسى بها طالب العلم اليوم إن شاء الله تعالى، وبالله التوفيق.



من أعيان علماء المدينة في القرن الثالث عشر
«الشيخ أحمد بن حسن بن رشيد»

أشرنا في التمهيد لهذا القرن إلى ما شهدته المدينة من حركة انتقال شامل سياسياً وعسكرياً وعلمياً، وأنها مع ذلك كله لم تتوقف فيها الدروس ولا حلق العلم عن أداء رسالتها، وقد وجدنا ترجمة عملية لمن شهد وعاصر وشارك في تلك الحركة من بدايتها إلى نهاية حياته، وهو عالمنا هذا الجليل الفاضل الشيخ أحمد بن حسن بن رشيد ترجم له المحب الفاضل الزميل الجليل الهمام الشيخ عبد الله البسام في كتابه «علماء نجد» قال: جاء عن شيخنا الفاضل في الجزء الأول قوله عنه: الشيخ أحمد بن حسن بن رشيد بن عفالق العفالقي القحطاني نسباً، فآل عفالق من كهلان إحدى قبائل قحطان. وآل عفالق كانت مساكنهم الإحساء، فنزحوا منها إلى نجد وتفرقوا فيها فنزل بعضهم بعض أحياء عنيزة.

ووقعت فتن بينهم وبين أهلها فارتحلوا عنها وأنشأوا «الخبراء» وذلك عام ١١٤٠، وبقيت عقارتهم في عنيزة يؤجرونها وبقيت لهم بقايا بالإحساء حتى الوقت الحاضر. والشيخ أحمد هذا ولد في الإحساء عام ١١٥٥، وهاجر إلى المدينة ورحل إلى مصر.

أما نشأته:

فقد نشأ يتيماً فرباه الشيخ محمد بن فيروز وتولى تعليمه وكان عالماً فاضلاً: قرأ عليه أنواعاً متعددة من العلوم النقلية والعقلية، فبرع وتفوق لحدة ذكائه ودقة فهمه، وقوة عزمه ومواصلة طلبه وشدة حرصه؛ فأصبح له هو تلاميذ يدرسهم بإشراف شيخه ومربيه.

وقد تحدث عنه شيخه ضمن تلاميذه الذين تخرجوا على يديه، فقال عنه: تربى الشيخ أحمد عندنا يتيماً من أمه وأبيه واشتغل علي وعلى ابني عبد الوهاب

وعلى تلميذنا محمد بن سلوم وعلى عبد الرحمن الزواوي المالكي، فمهر فيما درس. وعدّد علومه التي مهر فيها: الفقه، والأصول، والفرائض، والحساب، والمواقيت، والعربية، وهنا وقفة مع هذا العالم اليتيم، أو اليتيم العالم لنرى فضل الله الواسع، فكم من ناشئ بين أبوين مبرزين لهما كل الإمكانيات كانت غاية أمانيهم أن يتعلم أولادهم، ولكن ربما كان طول الجاه وسعة العيش عند والديهما غمرتهما في أمواج التذلل وعدم المبالاة فلم يظفروا من العلم إلا اليسير، وهذا يتيم الأبوين ساقته عناية الله لهذا البيت الذي يفيض علماً من صاحبه وأبنائه وتلاميذه فنشأ النشأة العلمية الصالحة وتفوق على أقرانه، لعل شعوره في طفولته بالحرمان جعله يسابق الزمان ليتعوض عما فاته وتداركته عناية الله تعالى حتى وصل إلى ما وصل إليه، ثم يقول شيخنا ومربيه: ثم استأذنني في السفر إلى الشام ثم إلى الحرمين عام ١٢١٧، وهكذا أيضاً يحفظ الطالب والربيب لشيخه ولمربيه حق الأبوة الروحية والمعنوية فيستأذن عند الرحيل، إنها مع علو الهمة في التطلع إلى الاستزادة من العلم علو في مكارم الأخلاق.

وبيان لنا لمكانة الحرمين العلمية آنذاك أن يرحل إليها أمثال هذا العالم الفاضل. ولقد أسفرت رحلته هذه المباركة عن تلقيه عن العديد من الشيوخ الذين نوه عنهم في بعض إجازاته لبعض تلاميذه على ما كان عليه الحال عند السلف فالإجازة آنذاك بمثابة الشهادة اليوم، قال رحمه الله في نص الإجازة بعد المقدمة: (وأجزته بجميع ما تجوز لي روايته وأجازني به مشائخي ثم عددهم بأوطانهم من الإحسائيين والبغداديين والشاميين والمدنيين والمجاورين والمكيين والمغربيين وغيرهم). تلك هي المكانة العلمية في مجال الرحلات والتحيصل أما المجال الشخصي والاجتماعي، والذي عنيناه في اختبار عالمنا أحمد هذا صورة علمية لما شهدته المنطقة في عهده وذلك أنه حين قربت الراية السعودية من الأحساء خرج عنها من لم يتقبل الدعوة السلفية، أو لم يستطع العيش فيها أي في الأحساء وكان الشيخ أحمد آنذاك بالإحساء فتوجه إلى المدينة واستوطنها فقوبل بلا كرام وشرع في التدريس، وتأهل واستقر فتزوج ابنة علامة المدينة الشيخ مصطفى الرحمتي الحنفي وتمكن من المقام مع أهل المدينة حتى صار يكاتب السلطان العثماني ووزراءه في بعض شؤون المدينة.

وكاتب كذلك علماء الأمصار. وهنا وقفة إكبار لعالم فاضل لم يشغله علمه عن مصالح مواطنيه فيسعى لهم في مصالحهم ولو عند السلطان ووزرائه، وقد دخلت المدينة تحت الولاية السعودية والشيخ أحمد هذا موجود فيها، فأكرمه الإمام سعود بن عبد العزيز رحمه الله وولاه قضاء المدينة، فكان قاضياً ومدرساً وداعياً حيث كان ينشر كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في العقيدة والفقه والحديث وبلغ المكانة الكريمة لدى الولاة حتى كان يستشار فيمن ينصب لعمل أو يعزل عنه، واشتهر بحسن دفاعه عن أهل المدينة. ثم شهد طوراً آخر وهو الزحف العثماني على المدينة فخرج رحمه الله إلى الدرعية وحوصر مع من حوصر فيها ولحقه أذى شديد وعزر في الله وصبر.

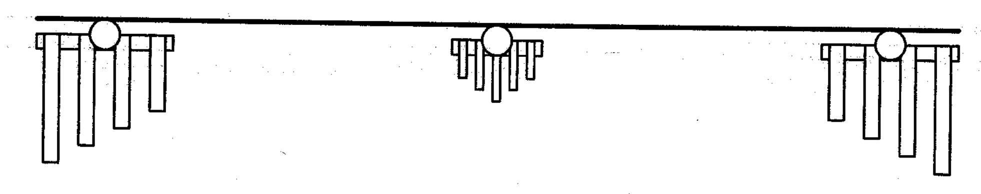
ثم قام أيضاً بالسعاية بين أهل الدرعية والجيوش المحاصرة لها للحصول على الصلح ولكن لم يتم له ذلك، وكانت مجازاته على علو همته أن يوجه إليه اللوم على خروجه من المدينة، وعرض عليه أن يرجع إلى المدينة معززاً مكرماً فأبى أن يفارق جماعته وفاءً بحقهم وحفاظاً على مروءته. وقد كانت هذه المواقف النبيلة والهمة العالية سجلاً حافلاً بمكرمات لهذا الشيخ أنبأت عن رجحان عقل وترو وأمانة وديانة انتزعت له من عدوه اعترافاً بحقه والتزاماً بإكرامه، حيث استدعاه محمد علي باشا إلى مصر ورتب له المرتبات وجمع بينه وبين العلماء في مجالس علمية استولت محاسنها على شعور الحضور ونصبه والي مصر شيخاً للمذهب الحنبلي في الجامع الأزهر، وأسند إليه تدريس أولاده خاصة فصار مرجعاً للحنابلة في مصر كلها، ولقد تخرج عليه عدد من أفاضل العلماء كالعلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والعلامة عبد الله بن عبد الرحمن أبي بطين، والعلامة إبراهيم بن سيف، والعلامة محمد بن حمد الهديبي.

وكل هؤلاء أئمة في متأخري المذهب الحنبلي، ومعهم كذلك آخرون ممن تتلمذ عليه. وكان رحمه الله من المعجبين بالمذهب الحنبلي وبإمامه أحمد بن حنبل رحمه الله. وقد نقل عنه فضيلة الشيخ عبد الله البسام في ترجمته قوله:

أنا حنبلي ما حييت فإن أمت ... فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

ولعل هذا الإيراد لحياة هذا العالم الجليل وما أعطت من صورة لجهاده المتواصل ضمن أحداث تلك الفترة دون أن تفتر عزيمته أو يتوقف نشاطه مما أعطى المثل العليا لطلبة العلم في الجد والمثابرة والصبر والتحمل، فقد أعطت كذلك الصورة الواقعية لحالة المدينة كما أشرنا. وإن عالمنا هذا ليعد أحسائياً مدنياً مصرياً، وإن كان طوف البلاد العربية لطلب العلم، فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن حسن مساعيه وقوة نباته أحسن الجزاء، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء المدينة في الثالث عشر
«الشيخ عمر بن عبد السلام داغستاني»

إن ممن ترجم له في هذا القرن ممن ولد وتعلم ونشأ بالمدينة وكان له أثر علمي، ويعد من بيوتات المدينة وله عقب وبقايا نسل حتى الآن عدد غير قليل؛ منهم البساطي والبرزنجي والعمري وجمل الليل والداغستاني وغيرهم، ومن هؤلاء من توجد لهم تراجم وافية ولعدة طبقات هو من بيت الداغستاني وبيت جمل الليل.

أما بيت الداغستاني فكما جاء في تحفة الأحباب قوله: إن نسبتهم إلى الداغستان المشهورة. ومعناه بالتركية: سكان الجبل أو الجبال، ومنهم بالمدينة أناس كثيرون ينتسبون إليها ومن أشهرهم السيد عبد الرحمن بن محمد الداغستاني قدم المدينة سنة ١١٥٥ أي منتصف القرن الثاني عشر، وهو رجل لا بأس به كامل عاقل ملازم للمسجد النبوي ومواظب على الخمس الصلوات وسكن بدار المؤلف صاحب التحفة بزقاق الزرندي وكان يجتمع فيها الأصحاب على مذاكرة ومحاورة وكان أحسن المجاورين.

وفي سنة ١١٨٨ صار إماماً في القلعة ويستوقفنا ما كان عليه اجتماع الأصحاب من طلبة العلم من مذاكرة ومحاورة. لا أحاديث من هنا وهناك أو استعراض للصفقات وذكر صاحب التحفة كذلك ثلاثة إخوة قدموا المدينة سنة ١١٦٠، وهم: عبد الله أفندي، وعبد الرحيم أفندي، وعبد السلام أفندي الداغستانيون، وذكر عن عبد السلام أنه اشتغل بالعلم وصار يدرس بالمسجد النبوي وذكر عنه أنه نسخ «صحيح البخاري» لنفسه وقد سمعت فعلاً من أحد أبناء أحفاده أن هذا صحيح البخاري لا زال موجوداً ونسخ كذلك ملتقىٰ الأبحر. و«ملتقى الأبحر» وهو كتاب في فروع الحنفية، وأكثر من الكتابة على هامشه إلى غير ذلك من أمور الدنيا أعرضنا عنه. ويهمنا هنا علو الهمة والصبر

حتى ينسخ صحيح البخاري وغيره كما يهمنا أنه جمع بين العلم والثروة المادية.

وهكذا اقتصر صاحب التحفة على من ذكرناهم. وجاء بعده صاحب «حلية البشر»، في تاريخ القرن الثالث عشر فأرخ لعمر بن عبد السلام الداغستاني وقال: إنه صاحب «اللآلئ الثمينة في أعيان شعراء المدينة» وأنه كان مدرساً بالمسجد النبوي الشريف، وقال: إنه أديب فاضل وإنه جمع بين اللطف والظرف والمؤانسة، مع فصاحة وبلاغة.

وبديع النظم والنثر وساق له نماذج عديدة من نظمه وهي كما قيل: نظم، وفرق بين النظم والشعر عند الأدباء. من ذلك أن الشيخ عابد السندي نظم قصيدة مطلعها:

قد صحا الجو والربى قد تبسم   زهره والنسيم عند تنسم

فأجابه الشيخ عمر عبد السلام بقصيدة طويلة مطلعها:

جاد غيم السما لنا وتبسم   عن سنايا برق له غير جهم
وغدا في الهواء بسحب برداً   بطراز البروق أصبح معلم
واختفت تحت ذيله الشمس حتى   أصبحت لا ترى كمثل الملثم

إلى آخرها. وفي أوائل القرن الثالث عشر رحل رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الأستانة وهناك ألف كتابه «اللآلئ الثمينة في تاريخ شعراء المدينة». ولم يعرف تاريخ وفاته.

وقد لاحظنا أن صاحب «حلية البشر» لم يعن أبداً بالنشاط العلمي فلم يذكر لا شيوخاً ولا تلاميذ ولا مؤلفات ولا كيف تلقى العلم لأحد ممن ترجم لهم. وقد جاء الأديب الفاضل والكاتب العالم الشيخ محمد سعيد دفتردار معتمد المعارف بالمدينة في أواسط القرن الرابع عشر رحمه الله تعالى، فترجم للعديد من علماء المدينة من القرنين الثالث والرابع عشر، وقد عثرنا على عدة تراجم كان قد نشرها بمجلة المنهل.

كان ينشر في جريدة المدينة إلا أننا لم أعثر على شيء مما في المدينة، وتوجد مجلدات مخطوطة له عند أبنائه الأفاضل السيد عبد الرحمن، والسيد هاشم؛ نسأل الله تعالى أن يهيئ لها الظهور للاستفادة منها. وممن وقفت عليه لعلماء الثالث عشر الشيخ أبو بكر ابن الشيخ عبد السلام الداغستاني هذا،

وكان مولد أبي بكر هذا سنة ١١٧٩ أي في نهاية الثاني عشر، وتوفي في سنة ١٣٦٢، أي بعد منتصف القرن الرابع عشر، يعني: أوسط الثالث عشر.

قال عنه الشيخ محمد سعيد دفتردار: هو رجل علم وأدب وله مؤلفات موجودة الآن في مكتبتهم، وأخرى ذهبت وضاعت من ذلك وبخط ولده عبد السلام الثاني كتاب مسمى «الموجز المليح شرح الجامع الصحيح»، وهو أهمها وفي خمسة أجزاء. قال عنه الشيخ دفتردار: إنه فعلاً موجز ومليح ويستحق النشر. وإنا لنرجو الله أن يوفق من يوجد من أبنائهم وأحفادهم للسعي في طبعه. وذكر له كتباً أخرى في الفقه والسيرة وغيرها.

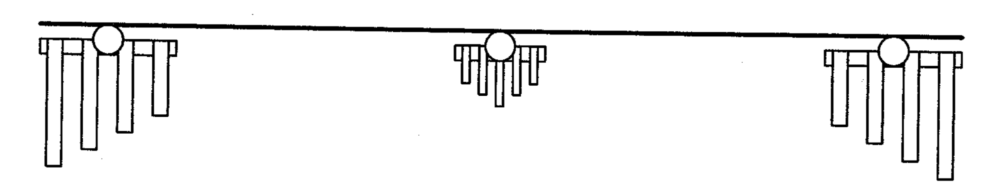
وقد ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمدينة وتعلم بالمدينة وتوفي بها. أما طريقة تعليمه فقال عنها: بدأ بحفظ كتاب الله، ثم تلقى العلم بالمسجد النبوي الشريف من كبار علمائها ومنهم الشيخ عبد السلام والده، وعلى الشيخ رضي الدين الهندي، وأعقب أولاد نبلاء منهم الحافظ الفقيه مفتي المدينة الشيخ عبد السلام الثاني المولود بالمدينة سنة ١٢٠٧، وكان هذا الابن من العلماء الناسكين السلفيين المجتهدين ومن حفاظ الكتاب الكريم ورواة الحديث الشريف.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مواظباً على أداء الصلوات الخمس بالمسجد النبوي الشريف، وكان ربما تأتيه الأسئلة من البلاد الإسلامية، وكان مداوماً للحج حتى قيل: حج ستين حجة. وكان في كل حجة يعتق رقبة، وكان يعتمر سنوياً في رمضان، وكان صاحب ثراء وفير. وكان خبيراً بمواقع السواري بالمسجد النبوي وشارك فعلاً في تحديد مواضع بعض السواري المأثورة عند أهل المدينة مثل: سارية الوفود، وسارية أبي لبابة. وسارية الوفود وهذه كان يجلس إليها ﷺ ويستقبل وفود العرب، أما سارية أبي لبابة المذكورة ويقال لها: سارية التوبة، فهي التي ربط أبو لبابة فيها نفسه لما بدر منه ما بدر في حق حلفائه من اليهود وندم على ذلك فرجع إلى المسجد، وربط نفسه مقسماً أن لا يفكه أحد سوى رسول الله ﷺ ويقبل توبته، فتاب الله تعالىٰ عليه وفكه رسول الله ﷺ. وقد عمّر عالمنا هذا الجليل طويلاً حتى صار نحيلاً ربما حمل من المسجد في «محفة» لخفة جسمه وتوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بوادي الفرع وهو المدينة ثم بضواحي نقل إلى المدينة ودفن بالبقيع عام ١٢٩٠، أي في أواخر القرن الثالث عشر والوقفة الطويلة هنا في متابعة

تسلسل العلماء في هذه الأسرة أربع طبقات من القرن الثاني عشر إلى أواخر القرن الثالث عشر، ومع العلم والأدب والفضل وقد ترجم الشيخ محمد سعيد دفتردار كذلك للعالم الفاضل الداغستاني الشيخ أبي بكر بن عمر بن أبي بكر الداغستاني المدني المولود سنة ١٢٩٦ والمتوفى ١٣٦٢، يعني: بعد منتصف القرن الرابع عشر وأشاد في ترجمته بفضله وسعة علمه.

وسنلم إن شاء الله ببعض من ترجمته مع أعيان القرن الرابع عشر إن شاء الله مع ذكر بعض أبناء الداغستاني الموجودين الآن بالمدينة، ويهمنا في هذا البرنامج المبارك التنويه بما للمدينة المنورة من نوع اختصاص علمي وصمود حتى في حالات القلاقل والاضطرابات مصداقاً لقوله ﷺ لأهل المدينة: «الناس لكم تبع»، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء المدينة في القرن الثالث عشر
«زين العابدين بن جمل الليل»

ترجم له كل من صاحب «حلية البشر» والشيخ محمد سعيد دفتردار وهو من بيت جمل الليل وقد ذكر صاحب التحفة أن أصل جمل الليل في المدينة هو السيد «علوي» باحسن جمل الليل باعلوي، قدم المدينة سنة ١١٦٥؛ أي منتصف الثاني عشر تقريباً وكان مولده بمكة المكرمة سنة ١١٤٠، وبها نشأ نشأة صالحة وطلب العلم، وكان رجلاً كاملاً عاقلاً لطيف الذات، وذكر أسفاره إلى البلاد العربية.

وأعقب عدة أولاد وسماهم جميعاً وتوفي سنة ١١٨٦، وفي «حلة البشر» ترجمة لكل من السيد أحمد باعلوي جمل الليل المدني المتوفى سنة ١٢١٦، وترجم كذلك للسيد زين العابدين بن جمل الليل أبي عبد الرحمن بن السيد باعلوي بن السيد باحسن جمل الليل المدني المتوفى ١٢١١.

وترجم للسيد زين العابدين هذا أيضاً الشيخ محمد سعيد دفتردار، وبما أن كلاً من السيدين الفاضلين أحمد وزين العابدين جمل الليل من علماء القرن الثالث عشر بالمدينة سنلم بطرف من ترجمة كل منهما إن شاء الله.

أما السيد أحمد فقال صاحب «حلة البشر»: هو السيد المفضال، وذكر عبارات كثيرة مسجوعة لا تخلو من مغالاة مصنوعة. ثم قال عنه: قرأ في المدينة المنورة وأخذ عن علمائها وحضر دروس أعيانها وفضلائها وسمى كثيراً من أولئك الفضلاء الشيخ محمد بن عبد الله المغربي الفاسي، والشيخ عبد الله الجوهري، والشهاب أحمد الدرديري. وقد حصل من العلوم ما جعله يتصدر لإفادة العلوم الشرعية والفنون العقلية والنقلية وقال عنه: إن صاحب «اللآلئ الثمينة في تاريخ شعراء المدينة» قد ترجم له ونقل عنه قوله: المشتغل من ابتداء الشباب بالاستفادة والاكتساب حتى ملك من مسائل الفقه صعابها، وذكر من تفوقه الأدبي نثراً وشعراً، ومن ذلك قوله عن وادي العقيق:

هذا العقيق وذي ربا أزهاره   فانشق عبير خزامه وعراره
وأنخ مطيك في حماه فإنه   حمد السرى يهنيك طيب قراره

إلى آخر أبياته، ولكن فيها مدح وقد يكون غلو فيها على عادة عصره، ويهمنا أنه قرأ بالمدينة في هذا القرن وعلى عدد من العلماء الأفاضل ممن تواجدوا بالمدينة رغم ما تقدم عن حالتها الاجتماعية، وأنه بجده وتحصيله وصل إلى الصدارة. أما زين العابدين: فقال صاحب «حلية البشر» عنه: هو زين العابدين بن جمل الليل المدني أبو عبد الرحمن بن السيد باعلوي بن السيد باحسن بن جمل الليل وقال عنه: المحدث الفقيه، والمتفنن النبيه صاحب الشهرة العالية والمآثر اللطيفة... إلى آخر عباراته كما تقدم في أحمد سابقاً ثم قال: ولد في المدينة ونشأ بها وأخذ عن والده وتكمل على يديه، وانتهت رئاسة العلوم في المدينة إليه وقرأ على غير والده من الأفاضل. وذكر رحلاته في طلب العلم، وخروجه من المدينة كان إلى مصر وزبير والعراق، ثم عودته إلى المدينة ووفاته بها، وذكر من مؤلفاته: كتاب في «المشتهر والمفترق» و«مختصر المنهج» لشيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري الشافعي، وشرحه شرحاً مفيداً، وله كتب ورسائل كثيرة. ثم قال: وترجمه صاحب «اللآلئ الثمينة في تاريخ شعراء المدينة» فقال عنه: ذو سليقة وروية، وبديهة مرضية. وساق العبارات المسجوعة كما تقدم في فضائله، وساق من شعره مجيباً لقصيدة العلامة عمر بن عبد السلام الداغستاني مطلعها:

لله ما أحسن هذا الجمان   قد أخجل الدر بحسن البيان
نظم بديع قد حلا لفظه   ويسكر السمع كبنت الدنان
له قواف راق إبداعها   كعقد أجياد الغواني الحسان

إلى آخرها. فأجابه بقصيدة طويلة من نفس الروي فقال:

أغادة من خمود حور الجنان   تتيه إن ماست فتسبى الجنان
أم بكر فكر من حدور النهى   زفت بقينات بديع المعان
فاقت على أترابها مذ غدت   فريدة الحسن رداحاً حصان
أم راح ألفاظ حلا رشفها   من كف ممشوق رطيب البنان

إلى آخرها مدحاً وثناء في أدب رفيع. وذكر الشيخ محمد دفتردار في ترجمته عند هذه القصيدة وقد ساقها كلها: إن الشيخ زين العابدين في جوابه على الشيخ عمر داغستاني هذا جمع بين النظم والنثر وذكر من نثره البديع في هذا الموضوع أيضاً قوله:

فليس مثلي من يباريك أيها السراج الوهاج.
ومهلاً أيها العباب الثجاج.
فلا أنا ممن يجاريك.
فقابل بوجه القبول سائل اعتذاري.
وأسبل سفر العفو على مواقع عثاري.
واسمح عن بنت فكر تولدت بين عقيم القريحة وجامد البال.
وتخلصت عن شبك.
فهم سقيم وكثرة اشتغال.

ومما يلفت النظر أن كل من ترجم له في هذا القرن الثالث عشر من علماء المدينة نجد له ترجمة في «اللآلئ الثمينة في تاريخ الشعراء»، يعني: أنهم علماء نبغوا في الفقه والحديث. كما جاء عن عالمنا زين العابدين هذا أنه في العراق حدث بصحيح البخاري وأخذه عنه العلماء هناك لعلو السند، ثم ها هم أولاء وقد نبغوا في الشعر أيضاً بل والنثر. أي جمعوا بين العلم وفنون الأدب وهذا مما يدل دلالة قاطعة على أن جو المدينة جو شعري ومحيطها محيط أدبي وقد جاء عن عمر بن عبد العزيز أنه طلب أن يبعث إلى المدينة يتعلم الفقه والأدب.

وجاء عن بعض الشعراء أنه قال: دخلت المدينة وأنا ألحن في الشعر وخرجت منها شاعراً فصيحاً، أو نحو ذلك. وذلك لأنه أنشد قصيدة دالية مكسورة الروي وجاء فيها قوله في بعض أبياتها بالروي مرفوعة الدارِ في قوله:

بذاك خبرنا الغراب الأسود

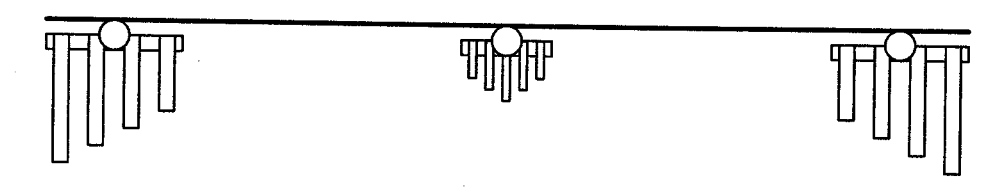
بضم الدال في الأسود نعتاً للغراب فأمر أهل المدينة الجارية التي غنت تلك القصيدة أن تكرر هذا البيت وتمد حرف الدال لتظهر لحنه. ففطن الشاعر لذلك فغير نظم البيت وقال:

بذاك جاء تنعاب الغراب الأسود

فصار الروي مكسوراً مطابقاً لأبيات القصيدة كلها. وبهذا وغيره مما هو معروف للجميع أن المدينة كانت جامعة الثقافتين العلمية الشرعية من الفقه والحديث وعلوم العقل والنقل والثقافة الأدبية من نظم وشعر وكذلك فن الخطابة.

وقد جاء في تفسير سورة الحجرات أن الوفد الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، قالوا: جئنا نفاخرك فقال ﷺ: «ما بالفخار بعثت»، فقالوا: ائذن لشاعرنا. فأذن له ثم أجابه حسان رضي الله عنه. فقالوا: ائذن لخطيبنا. فأذن له ثم أجابه المقداد رضي الله عنه، فتفوق كل من شاعر وخطيب رسول الله ﷺ على شاعر وخطيب الوفد. فقال رئيس الوفد: والله إن هذا الرجل لمؤتٍ لشاعره أشعر من شاعرنا ولخطيب أبلغ من خطيبنا. وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء القرن الثالث عشر بمكة المكرمة

تمهيد:

لقد شهد الحجاز بصفة خاصة والجزيرة العربية بصفة عامة حركات سياسية وعسكرية واقتصادية مبينة في أسبابها في مقدمة الحديث عن هذا القرن، إلا أنه يظهر أن مكة المكرمة كانت أقل تأثراً من المدينة إذ كانت هي المركز لرئاسة الحرمين الشريفين، وكان الأمير فيها يتمتع بالسلطة والقوة والاتصال المباشر بالمسؤولين، سواء بمصر أو بالباب العالي، ولذا فقد وجدنا العدد الكبير لتراجم العديد من علماء مكة المكرمة في هذا القرن الثالث عشر في كل من «تاريخ علماء نجد» وفي «حلية البشر» وفي «مختصر نشر النور والزهر»، وحيث لا يتسع هذا البرنامج المبارك لكل من وجدناه فإننا حسب الخطة السابقة ننوه بالبعض ونقدم التراجم الموسعة للبعض والتي فيها المنهجية الملائمة لهذا البرنامج، من ذلك على سبيل الإجمال: من علماء نجد الشيخ عبد الكريم بن صالح بن شبل الوهيبي التميمي نسباً، العنزي القصيمي مولداً ومنشأ، المكي موطناً، ولد بعنيزة وأخذ عن علمائها ثم رحل إلى مكة المكرمة فأخذ عن علماء المسجد الحرام، وكان مليئاً بالعلماء والمدرسين منهم الشيخ محمد بن عبد الله بن حميد النجدي مفتي الحنابلة بمكة وإمام المقام الحنبلي بالمسجد الحرام، وستأتي إن شاء الله ترجمة لشيخه هذا بحول الله.

ومن «حلية البشر» الشيخ حسين بن علي مفتي السادة المالكية بمكة المكرمة ترجم له بعبارات فاضلة منمقة مترادفة، وذكر رحلاته ومن أخذ عنه ونهاية مطافه بمكة المكرمة، والشيخ علي النجاري نسبة إلى بني النجار ولد بمكة ورحل مع أخيه وأبيه إلى مصر.

فتوفي أخوه ورجع أبوه وبقي هو يدرس في الجامع الأزهر وكذلك يدير تجارة الإرساليات بينه وبين أبيه مما يرسل كل منهما للآخر بين البلدين وذكر له العديد من المؤلفات، وهذه الترجمة الموجزة للنجاري تعطينا مؤشرات الروابط التجارية قديماً بين البلدين، كما تعطينا تعاطي طلبة العلم أسباب الكسب وخدمة ذويهم. أما صاحب المختصر المشار إليه وقد حوى تراجم لأفاضل مكة المكرمة من القرن العاشر إلى الرابع عشر، فقد وجدت فيه من علماء هذا القرن ما يزيد على الخمسين ترجمة منها لأفراد بأعيانهم ومنها للعديدين من عائلاتهم، وقد نص تبعاً على الموجود من بيوتات العلم بمكة من قرون متقدمة إلى العصر الحاضر نقدم من ذلك ما يتيسر حسب إمكانيات الوقت وما يعطي الصورة الواضحة للحركة العلمية القوية أي بمكة المكرمة في ذاك التاريخ، من هؤلاء الشيخ أبو بكر بن عبد الوهاب زرعة المكي الحنفي، ولد الشيخ أبو بكر بمكة ونشأ وتعلم على علمائها ومن أكثرهم أخذاً عنه الشيخ عمر بن عبد رب الرسول قرأ عليه: الدر المختار، والجامع الصغير، والمواهب اللدنية، وجملة من صحيح البخاري، وغير ذلك، قال المؤلف: ورأيت له رسالة تتعلق بالأوقاف السلطانية ورسالة حاملة جاملة أو جامعة وحافلة مفيدة فيما يتعلق بالقول: إن المعدة بيت الداء.. إلى أن قال عنه: وكان من أهل البيوت القديمة بمكة وقد حازوا الكتب الكثيرة المعتبرة لا سيما تآليف أهل مكة؛ كتآليف بيت الطبري وبيت الحطاب والمفتي الشيخ محمد جار الله بن ظهيرة، وابنه الشيخ علي والملا علي القاري، والقطبي، وبيت علان، والشيخ عبد الرحمن المرشدي، وابنه الشيخ حنيف الدين، والعفيف الكازروني، والبيري، وبيت العجمي، وبيت الريس، وبيت القلعي، وبيت سنبل، وبيت المرغني، والشيخ عبد الرحمن الفتني، وكانت رائجة في زمانهم، ولا يضنون بها على أهلها.

وهنا لا أقول: وقفة، ولكن جولة على تلك البيوتات في ربوع مكة المكرمة نستطلع تلك الكتب وتلك المكتبات وهذه الآثار التي خلفها لنا من علماء أجلاء، وإن كانت يد التفريط قد عبثت على ذاك التراث فإن التاريخ - مشكوراً - قد احتفظ لنا بتلك المشاعل المضيئة تكون نبراساً لأجيالنا

الحاضرة والمستقبلة، رحم الله عالمنا الجليل هذا ومن ترجم له وعرفنا به، وممن افتخر بهم التاريخ في هذا القرن: الشيخ صالح الريس وهو صالح بن إبراهيم المتصل نسبه بالإمام عبد الله بن الزبير رضوان الله تعالى عليه، ذكر عنه المترجم أنه كان محدثاً مفسراً. حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين ثم اشتغل بحفظ المتون، وعني بطلب العلم بملازمة العلماء الأعلام وجاهد نفسه في قلة الطعام وكثرة السهر حتى صار إماماً في كثير من العلوم وملماً بالخلافيات في الفقه والأصول وكان هو المرجع في ذلك.

وطلب للإفتاء فامتنع إلا بشروط كلها تدل على علو الهمة وصيانة النفس، وله مؤلفات عديدة منها: «رسالة في السماء»، و«ردع أهل الزيغ والميل إلى المحرمات والابتداع».

ورحل إلى المدينة ثم عاد منها إلى مكة حتى توفي بها عام ١٢٤٠، وقد ذكر عنه أنه لم تفته صلاة في جماعة حتى صلاة صبح اليوم الذي توفي فيه صلاه بأهله في بيته جماعة.

ومنهم أيضاً العلامة الشيخ طاهر سنبل؛ هو ابن المحدث الكبير الشيخ محمد بن سعيد بن محمد بن سنبل المكي الحنفي، ولد بمكة ونشأ بها وأخذ عن علمائها، منهم والده وكان فقيه أهل زمانه وهو الذي تخرج عليه مسند الحجاز الشيخ عمر بن عبد رب الرسول، والميرغاني، ومفتي مكة الشيخ عبد الحفيظ عجيمي وعدد آخر، وذكر له تآليف عديدة فوق ٢٠ مؤلفاً في مختلف العلوم. ولعلنا من هذا الإيجاز ندرك مدى جدة العلم ووفرة العلماء وسعة التحصيل لدى الأفاضل علماء مكة المكرمة في هذا القرن، وقد برعوا في مجالات عديدة حتى أن لعالمنا هذا الشيخ طاهر سنبل نظماً في بيان ضابط يعرف به ظل الفيء؛ أي ظل الزوال في جميع فصول السنة، ولأهمية معرفة ذلك لتحديد وقت صلاة الظهر وصلاة العصر عن طريق طول ظل الشاخص نورد تلك الأبيات الثمانية وهي:

الفيء في الجوزاء والسرطان	بالضبط ربع قدم الإنسان
وقدم في أسد والثور	لا غير فاحفظه وقل يا فخري
واجعل له في حمل والسنبلة	نصفاً مع اثنين وحاذر تحمله

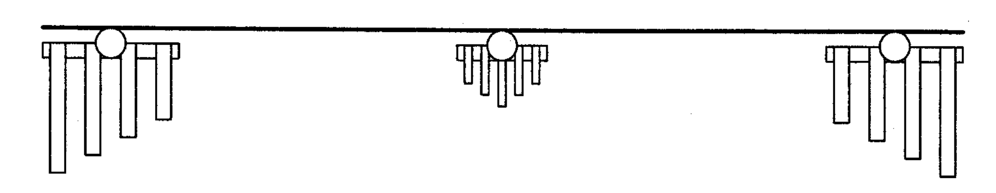
وقد غدا في الحوت والميزان أربعة ونصف يا ذا الشان
وفي عقرب كذاك الدالي ستة أقدام على التوالي
وهو لبرج قوس أيضاً والجدي سبعة أقدام بهذا تهتدي
أعني به في مكة المشرفة ونحوها كطائف وعرفة
وزد عليه قامة للعصر أو قامتين لإمام العصر

يقصد بذلك الإمام الشافعي أن تزيد قامتين فيدخل وقت العصر.

أما الجمهور فتزيد عن ظل الفيء قامة واحدة فيدخل وقت العصر.

وهو رحمه الله بهذه الأبيات قد أكمل بيان مواقيت الصلوات الخمس لأن الصبح معلوم بطلوع الفجر والمغرب بغروب الشمس والعشاء بغياب الشفق، وبقي العصران: الظهر والعصر، فقد بينهما ببيان ظل الفيء وبعد ظل الفيء تزيد طول القامة مرة واحدة عند الأئمة الثلاثة لدخول وقت العصر وتزيد قامتين عند الإمام أبي حنيفة، رحمه الله فجزاه الله عنا وعن المسلمين أحسن الجزاء، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء مكة المكرمة في القرن الثالث عشر
«الشيخ عبد الله بن عبد الشكور»

تقدم حديث موجز عن عدد من علماء مكة المكرمة في هذا القرن ـ أعني: الثالث عشر ـ وإن من أماثل من نقدمهم اليوم هو أحد أبناء بيوتات مكة المكرمة علماً وأدباً، العالم الفاضل الشيخ عبد الله عبد الشكور بن محمد بن عبد الشكور المكي الحنفي الشاعر. ولد بمكة المكرمة ونشأ بها فأخذ العلم عن المشائخ الأجلاء. ذكر له صاحب مختصر «نشر النور» أن له عدة مؤلفات؛ منها منظومة مسماة «تحفة الصبيان» على مذهب أبي حنيفة النعمان، قيل منها نظم لمقدمة للإمام أبي الليث السمرقندي مطلعها:

وبدأ باسم الله فيما أحرر ... وما ليس مبدوءاً به فهو أبتر

وعمل عليها شرحاً سماه «عطية الرحمة»، وشرحها أيضاً أبناؤه الشيخ محمد علي والشيخ عبد الملك. وتعريب كتاب في «الطب» للسيد عبد العظيم الملتاني وتنقيحه. ولأول مرة نجد عالماً فاضلاً فقيهاً أديباً يؤلف أو يشارك في الطب. ولئن كانت علوم الشريعة كلها في طب الأرواح والقلوب فإن هذا العالم الجليل جمع بين طب الأديان وطب الأبدان. وكما قيل: العقل السليم في الجسم السليم. ومعلوم أنه قد أثر عن النبي ﷺ الكثير من الأحاديث في الطب وقد جمع من ذلك العلامة ابن القيم فيما أسماه «الطب النبوي» سواء كان بالدعوات المباركات أو بالعسل والنباتات، كما في الكماة والحبة السوداء والتمر والماء البارد وغير ذلك. وقد لقيت محدثاً باكستانياً هو الحافظ محمد صاحب «كجراتوا» له، وكان حافظاً لصحيح البخاري خبيراً بفتح الباري عالماً بالصحاح والسنن وكان طبيباً بالطب النباتي وما شاكلها بل كان له مطب بباكستان. وإن من الأنسب لطالب العلم أن يلم بأوائل هذا العلم بقراءته ما يشبه (القانون في الطب) لابن سيناء وهو كتاب في فن التشريح تعرف منه

وظائف أعضاء الجسم كتاب في الطب الحديث في التداوي بالأعشاب؛ لا ليكون طبيباً بل ليقف على بعض أسرار القدرة الإلهية في تركيب هذا الجسم المسمى بالإنسان تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١]. وقد استجد اليوم علم جديد في مسماه وهو: الإعجاز العلمي في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وقد تناول هذا الموضوع أكابر علماء الفقه في أبواب عديدة، وها هو عالمنا عبد الله عبد الشكور يجدد ما تقادم من علوم السلف، وقد كان رحمه الله بارعاً في دقائق الفقه وما يشبه الألغاز نثراً ونظماً وله في ذلك طرائف عديدة. من ذلك الآتي: قال بعض الشعراء على لسان بعض النسوة وقدمه إليه ليجيب عليه وهي:

قاضي المسلمين انظر حالي ... وأفتني بالصحيح واسمع مقالي
مات زوجي وهمني فقد بعلي ... كيف حال النساء بعد الرجال؟
صير الله في حشائي جنيناً ... لا حراماً، لا بل بوطء حلال
فلي النصف إن أتيت بالأنثى ... ولي الثمن إن يكن من رجال

فأجاب نظماً ومن نفس الروي مما يشعر بالمقدرة في الأمرين الفقه والفهم والأدب والنظم:

أيها السائل الذي قد بدا لي ... هاك مني الجواب مثل الهلال
وإن ذا الزوج كان قنا وقد صار ... عتيقاً لها بلا إشكال
فلها النصف حيث جاءت ببنت ... بطريق التعصيب وإلا فضال
ولها الثمن والذي قد تبقى ... للجنين الذي أتى في الحال
ولها الكل حيث جاءت بميت ... إن ذا فرضها بغير محال
وصلاتي على النبي المرجى ... وعلى آله بدور الكمال

فهذه من أعمق وأدق مسائل الفرائض، قلّ من يدركها الآن إلا من شاء الله، ومثلها الآتي كذلك عرض عليه رحمه الله سؤال آخر نظماً لبعض المتقدمين:

ثلاثة أخوة لأب وأم ... وكلهم إلى خير فقير
أفادتهم صروف الدهر إرثاً ... وكان لميتهم مال كثير
فحاز الأكبران الثلث منه ... وباقي المال أحرزه الصغير

فأجاب عليه بالآتي:

ثلاثة أخوة مع بنت عم	تزوجها الصغير ولا نكير
فإن ماتت له الثلثان فرض	وتعصيب وما في القول زور
وإخوته له في المال ثلث	وقسمتهم عى هذا تدور
ومعتقة لوالدهم عليها	تزوج ابنه هذا الصغير
كذلك حظه الثلثان منها	ووالدهم له النصف الأخير
وصارت حرة وقضى عليها	له الثلثان يدركه الخبير
وكل أخ له في المال سدس	بتعصيب وذاك به جدير
وخذها هذه صور ثلاث	وراقمها هو العبد الشكور

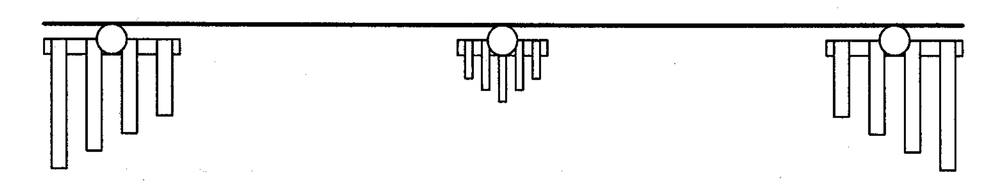
لا أقول: إنه الترف العلمي ولكنه التفنن والترقي في الإدراك الموفق، وخاصة في هذا الفن الذي هو أول علم يفقد والتوسع في مجال الأدب لتقديم القضايا العلمية الصامتة في صور أدبية ضاحكة. رحمه الله رحمة واسعة وإن من سمة هذا القرن بمكة كذلك أن تجد بعض الفضليات، وقد أحيت لنا منهج فضليات السلف وأمهات المؤمنين علماً وفضلاً على بعد ما بينهن من الزمن، فهذه السيدة فاطمة بنت حمد الفضيلي الحنبلي الزبيري وتعرف بالشيخة الفضيلية قال مترجمها: الشيخة الفاضلة الصالحة العالمة العابدة الزاهدة، ولدت بالزبير ونشأت بها وقرأت على شيوخها، قرأت الفقه والحديث والتصوف وأجادت الخط في صغرها وكتبت كتباً كثيرة، واهتمت بجمع الكتب الجليلة. فيا للهمة العالية سيدة تهتم لجمع الكتب النفيسة وصواحباتها يهتممن بالحلي واللباس وقد ارتفع شأنها وانتشر علمها وراسلها العلماء في عصرها، ثم حجت وسكنت بيتاً مطلاً على الكعبة فآثرت المقام فيه بقية حياتها. فصار يتردد عليها أكابر علماء مكة فكانت تفيد وتستفيد. قال مترجمها: ولم نسمع في هذا العصر ولا فيما قبله بأعصار بمثلها ولا من يدانيها في صلاحها وزهدها وجمعها للفضائل حيث يصدق فيها قول القائل:

ولو كان النساء كمن فقدنا	لفضلت النساء على الرجال

وقد تخرج عليها من النساء عدد كثير من ربات البيوت بمكة، فكانت

ذات نشاط لكل من الرجال والنساء القريب والبعيد، حيث أوقفت كتبها على طلبة العلم من الحنابلة، وجعلت النظارة عليها الشيخ محمد الهديبي الزبيري من بلدتها، وتوفيت رحمها الله سنة سبع وأربعين ومائتين وألف ودفنت بالمعلاة بعد أن رفعت راية الفضل للفضليات ومهدت الطريق لبنات جنسها وأقامت البرهان على سماحة هذا الدين وتيسير علومه، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء الحرمين الشريفين
في القرن «الرابع عشر»

تمهيد:

وقد تم بعون من الله وتوفيق منه تقديم نماذج حية وتراجم موجهة لأعلام من علماء الحرمين الشريفين من عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الذين تلقوا عن رسول الله ﷺ مباشرة وشافهوه مشافهة مثل ابن عباس حبر الأمة وزيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القرآن وأعلمهم بالفرائض.

ومعاذ بن جبل أعرفهم بالحلال والحرام ورسول رسول الله ﷺ إلى اليمن ممن كان لهم مناهج عملية وآثار علمية. ثم عصر التابعين لهم بإحسان كالفقهاء السبعة بالمدينة وعطاء وطاوس ومجاهد تلاميذ ابن عباس بمكة. ثم من بعدهم مثل ربيعة الرأي ومالك بالمدينة، والشافعي والفضيل بمكة، ثم من بعد هؤلاء الأعلام من كان على منهجهم ومن تلاميذهم، ممن جعلهم الله أعلام الهدى ومصابيح الدجى وهم بحمد الله وفضله قد حملوا لنا هذا العلم وقدموه إلينا كالأنهر الجارية والرياض الناضرة نروي منها صدى قلوبنا وترتع فيها أرواحهم فجزاهم الله عنا أحسن الجزاء.

ولم يكن بوسع أي إنسان أن يستوعب كل أولئك الأعلام ولو فرغ نفسه على مر الليالي والأيام. وإن موسوعات التراجم التي هي بحق أنفس الكنوز وأثمن الذخائر في الإسلام قد سجلت بحمد الله ما لا يدع لمستزيد أن يزيد كـ«الإصابة» و«الاستيعاب» في تراجم الأصحاب لحافظي المشرق والمغرب ابن كثير وابن عبد البر رحمهما الله تعالىٰ. و«سير أعلام النبلاء» و«الميزان»، وغير ذلك للذهبي وغيره، و«التهذيب» والطبقات لعلماء كل مذهب وكل فن إسلامي، كطبقات المفسرين وطبقات القراء وطبقات المحدثين وطبقات الفقهاء ونحو ذلك أيضاً مما لا يمكن استيعابه.

وكان القصد من هذا البرنامج المبارك تعريف طالب العلم الناشئ بسلفنا السابق وإحياء تراث علمائنا وإيضاح مناهجهم على مدى تلك العصور لتكون تراجمهم نبراساً لأحفادهم وتلامذتهم، حتى إذا لم يقيض لنا لقاؤهم ولا الأخذ عنهم ولا مشافهتهم فنحصل على السبب الموصل إليهم والمناهج التي تجمع بيننا وبينهم، فقد كان التقديم على حد عالمين من كل من المدينة ومكة في كل قرن وقد اتضح لنا جلياً أن المدة الزمنية التي يأتي فيها تطور المنهج العلمي وتختلف فيه المواد التعليمية لا تقل عن قرن تقريباً، وإني لأرجو لكل من رأى أو سمع لتراجم تلك الأجيال علىٰ مدى ثلاثة عشر قرناً أن يكون قد عايش الحركات العلمية في الحرمين الشريفين، ولمس من هذا البرنامج انعكاسها على بقية العالم الإسلامي، وإرضاءً لرغبات طلاب العلم، وإشباعاً لتطلعات ذوي التحقيق فقد ذكرت المراجع التي وصلت إليَّ مع بالغ اعتذاري للتاريخ والمؤرخين ومن كتبت عنهم أنفسهم، لأني لم أبذل قصارى الجهد ولا أدعي ذلك وإنما ما وسعني الحال مع وفرة الأعمال وقلة الممارسة السابقة لفن التاريخ والتراجم.

وإنما هي استجابة واجبة لتكليف ملزم من أخ كريم فاضل كان له الفضل العظيم في خوضي لجة هذا البحر حيث استفدت ما لا أستطيع عده ولا حصره. وذلك كالذي يقطف من كل بستان زهرة أو يجني من كل حديقة ثمرة. أودعت ذلك كله في حلقات هذا البرنامج المبارك في تلك الوقفات التي طالما وقفناها عند كل لطيفة من اللطائف أو عبرة من العبر أو لفتة موجهة كريمة، وقد يسر لنا المتقدمون مراجع متخصصة بحسب العصور والقرون، كما خلفوا لنا المراجع المتخصصة بحسب العلوم والفنون. من ذلك ما تخصص بالمدينة ومنها ما تخصص بمكة ومنها ما تخصص بمصر ومنها ما تخصص بالشام وبالمغرب إلى غير ذلك. وكل من جد في طلب شيء وهيأ الله له الأسباب طالما حقق الله له ما تمناه.

ومن المراجع المتخصصة حسب العصور المنتظمة إلى القرن السابع تقريباً، ثم يأتي القرن الثامن فنجد فيه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» خمسة أجزاء لابن حجر، ويأتي القرن التاسع فنجد فيه «الضوء اللامع» ست

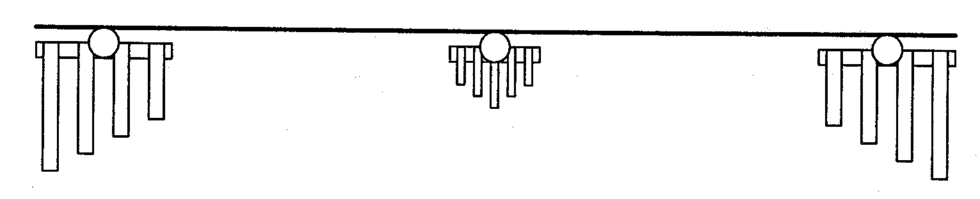
مجلدات للسخاوي، ويأتي القرن العاشر فنجد فيه «الكواكب السائرة» لنجم الدين الغزي، ويأتي القرن الحادي عشر فنجد فيه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» أربعة أجزاء للمحبي، ويأتي القرن الثاني عشر فنجد فيه سلك الدرر أربعة أجزاء للمرادي، ثم يأتي القرن الثالث عشر فنجد فيه «حلية البشر» في ثلاثة مجلدات وليس لنا في كل ما قدمناه على مدى فوق التسعين حلقة إلا نوعية الاختيار، وما أصعب هذا الاختيار لأننا كنَّا نتعهد المراجع مما تقدم ذكره على سعتها وتعدد أجزائها لنتصفح ونلم إلمامة العابر سبيلاً بمهام ما جاء فيه من تراجم تتلاءم مع منهج هذا البرنامج المبارك.

وقد ظفرت بحمد الله بما تطلعت إليه بفضل الله وعونه وتوفيقه ثم بفضل جهود سلفنا الصالح الذين خلفوا لنا تلك الذخائر نغتنم منها ونتزود. غير أن الصعوبة فيها أنها رتبت حسب الحروف لا حسب السنين وهذا الذي يعانيه طالب العلم في بحث كهذا. أما هذا القرن الرابع عشر فلم نقف بحسب وسع وضيق الوقت إلا على القليل ولنصف هذا القرن تقريباً وخاصة بمكة المكرمة وهو «المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى الرابع عشر» وهو للشيخ عبد الله مردادي أبي الخير.

انتهى مؤلفه منه قبل منتصف القرن أي الرابع عشر حيث توفي رَحِمَهُ اللهُ سنة ١٣٣٨، وكذلك كتاب «أعلام الحجاز» لفضيلة الشيخ محمد علي مغربي ترجم لأعلام مكة، إلى ١٤٠٠، وكتاب «تراجم وسير» للشيخ عمر عبد الجبار خاص أيضاً بأهل مكة، وبعض التراجم لبعض الأعلام في مكة والمدينة ضمن تراجم «علماء نجد» خلال ستة قرون لأخينا وزميلنا فضيلة الشيخ عبد الله البسام. أما بقية الأعلام وبقية هذا القرن إلى هذا الوقت فإنه توجد بحمد الله أعداد كبيرة لعلماء أعلام منهم من عاصرناهم وأخذنا عنهم وعرفنا الكثير فيما يخصهم، ومنهم من لم نعاصرهم ولم نتلق عنهم ولكن عاصرنا وأدركنا تلاميذهم، وبقي علينا كثرة السؤال والتلقي من أفواه الرجال لنسجل ما نستطيع أن نحيي به ذكر هؤلاء الأعلام ونفي لهم بما استوجبوه علينا لما خلفوه لنا ووفاء بحق أبنائنا والأجيال المقبلة نربط الخلف بالسلف إذ إن الحاضر هو جسر بين المستقبل والماضي.

وقد وجدت محاولات فاضلة من كتّاب أفاضل لو كتب لها الظهور لأغنت كثيراً. وبما أن هذا الواجب دين في ذمة كل طالب لأشياخه، فإني أهيب بكل من وقف على شيء من ذلك أن يسهم به، وله من الله حسن الثواب ومنا ومن المستمعين والقراء حسن الثناء ومن التاريخ حسن الذكرى، وبالله تعالى التوفيق.





من أعلام علماء الحرمين الشريفين في القرن الرابع عشر من «مكة المكرمة»

بناء على ما تقدم من أحداث وما شهدته المنطقة من حالات ووقائع فإن هذا القرن الرابع عشر يعتبر بالنسبة للحركة العلمية والتيارات الفكرية ثلاث فترات: الفترة الأولى منه هي من أوله إلى منتصفه وهي فترة مسجلة تراجم أعيان مكة، وكانت على وجه التقريب فترة متحدة الاتجاه موحدة المنهج. والفترة الثانية من هذا القرن الرابع عشر من منتصف هذا القرن وهي أول مجيء الدولة السعودية المعاصرة إلى الحرمين وكان لمجيئها بداية تأثير فعال، وأثر سريع بالنسبة إلى تاريخ الدول وتطورات الأمم وذلك إلى ما قبل النهضة الأخيرة بعد التطورات الحديثة من السبعينات، حيث نشطت الحركات العلمية ونظمت دور التعليم وفتحت الجامعات. والفترة الثالثة فترة التعليم الجامعي والتعليم العالي الذي يشهده العالم كله اليوم والتوسع في جميع المجالات. أما الفترة الأولى والتي توجد تراجم لها مسجلة فسنختار على وفق المنهج المتقدم، وأحسن ما وجدته هو «المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة»، وجدت فيه العدد الكبير منهم الشيخ أحمد عبد الشكور، وقد قدمنا ترجمة لأخيه عبد الله من قبل، ومن علماء أوائل هذا القرن الشيخ عبد الرحمن عجيمي المتوفى سنة ١٣٠١هـ، كان من علماء الأحناف وكان خطيباً وإماماً ومدرساً بالمسجد الحرام ولد بمكة وتعلم بها، وعلى منهج من كان قبله سلوكاً ومنهجاً بدأ بحفظ القرآن الكريم وحفظ المتون، ثم عرضها على المشايخ واجتهد في طلب العلم وأخذ عن كثير منهم.

ونبغ في التفسير والحديث والفقه وقرأ المعاني والبيان وكان له العديد من المشايخ الذين لازمهم ودرس وأفتى ثم قلد قضاء الطائف من طرف أمير مكة الشريف عبد المطلب، وكانت مساع في منع انتساب أحد للخطابة والإمامة

ممن ليسوا لهم صلة بذلك، حتى أنه استكتب الخطباء خطاباً سافر به إلى السلطان في إستانبول ونجح في ذلك وطلب منه أن يخطب هناك الجمعة، وكان موفقاً فيها.

ولعل في هذه الحادثة إشعاراً بما كان للخطابة من منهج خاص ومقصور على خطباء مختصين والأمر فيها لنفس السلطان، كما تشعر بما لخطباء الحرمين في نفوس المسلمين خارج الحجاز من مكانة رفيعة ومنزلة عالية تثيرها العاطفة نحو الحرمين الشريفين والارتباط الروحي بهما. وكذلك من علماء أوائل هذا القرن بمكة المكرمة الشيخ مصطفى العفيفي المتوفى سنة ١٣٠٨، ولم يختلف عن معاصريه منهجاً وسلوكاً.

ومن أقرانه الشيخ صالح الزواوي الشافعي المذهب ولد ونشأ وتعلم بمكة المكرمة. تولى الإمامة بالمقام الشافعي واشتغل بالتدريس وتوفي بمكة سنة ١٣٠٨هـ، ومن معاصريهم الشيخ بكري شطا وهذا مع أخيه صالح شطا الذي عايش الفترة الثانية، ستأتي له ترجمة وافية لما فيها من معالم التغيير والتطور مما يهمنا تسجيله وإيراده إن شاء الله.

ومنهم السيد الشيخ حسن عرب السندي الأصل المكي مولداً ونشأة وكان حنفي المذهب. والجديد في ترجمته رحمه الله أنه كان يصلي التراويح إماماً بالمسجد الحرام فكان إذا صلى أربعاً، يعني: ترويحة، ذهب وطاف سبعة أشواط، ويذهب معه من يصلي خلفه. وسميت التراويح بذلك لأنهم كانوا يستريحون بعد كل ترويحة من طول القيام. والترويحة أربع ركعات يصلون ركعتين ركعتين ثم يستريحون. فكان هذا الشيخ حسن عرب بدل أن يستريح يذهب فيطوف بالبيت سبعة أشواط.

وقد كان هذا العمل موجوداً في الصدر الأول يفعله البعض. وترتب على فعله أن أهل المدينة أرادوا أن يدركوا ما حصل لأهل مكة فزادوا في عدد التراويح عندهم في المدينة ما بين كل ترويحتين يعني: أربع ركعات، واعتبروا ركعتين عن الطواف سبعة أشواط وركعتين عن سنة الطواف خلف المقام فاجتمع لهم من تلك الزيادة ست عشرة ركعة، فأصبحت تراويحهم بالمدينة ستة وثلاثين ركعة: عشرين على الأصل وست عشرة في مقابل طواف أهل مكة أثناء تراويحهم.

وقد طرأ على هذا العمل في القرنين الخامس والسادس بعض التغيير، ثم أعيد العدد ولكن على أن يصلوا عشرين ركعة، وبعد منتصف الليل يعودون لست عشرة ركعة، وظل العمل على ذلك طيلة ليالي شهر رمضان إلى العهد السعودي فاقتصروا على العشرين المعهودة طيلة الشهر وبعد العشاء، وفي العشر الأواخر يصلون عشر ركعات يتهجدون بها يطيلون القيام ويكثرون القراءة ويختمون القرآن في التراويح، وكذلك في التهجد، وهكذا جدد شيخنا الشيخ حسن عرب هذا العمل بمكة أوائل هذا القرن إلى أن توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ١٣١٦.

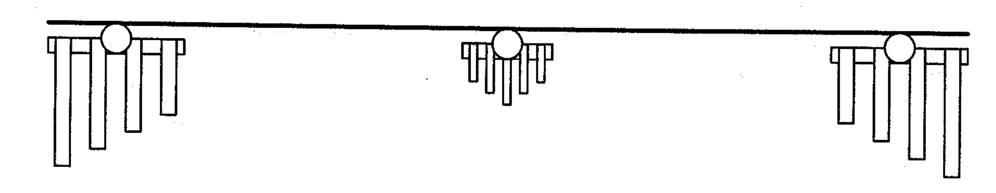
ومن أعلام تلك الفترة الشيخ عباس بن صديق حنفي المذهب، ولد ونشأ بمكة وتعلم بها وقد سجلت ترجمته أنه حفظ المتون منها متن الكنز، وأنه أخذ الفقه عن والده وأخذ بقية العلوم من نحو وصرف ومعان وبيان وتفسير وحديث وفرائض ومنطق. وأنه قرأ الكتب الستة على بعض مشايخه وهنا وقفة مع عالمنا هذا الفاضل حيث جمع العلوم العربية والدينية وعلوم الآلة؛ كالمنطق ونحوه، ثم هو يقرأ الكتب الستة كلها على بعض مشايخه فكيف وفق بين تلك القراءة لموسوعات الحديث الست، وبين تحصيل العلوم الأخرى على اختلاف أنواعها وتعدد شيوخها، إنه لا شك علو الهمة، والتفرغ التام لطلب العلم. ولا شك أن هذا هو منهج التحصيل الكامل والشامل بحيث تكون عند الطالب الخلفية الواسعة لأصول العلوم.

ولا أريد أن أنوه بمنهج الجامعات اليوم والدراسات العليا، حيث يقتصر منهج الطلاب أو الكليات على بعض تلك المراجع نظراً لضيق الوقت ثم إن الطالب يتفرغ لما يعتبر جزئية علمية، سواء في الحديث أو في الفقه أو التفسير أو الأصول فيحصل على الماجستير في تلك الجزئية، ثم إن أتيحت له الفرصة لنيل الدكتوراه بحث كذلك عن موضوع في بعض العلوم أو مخطوطة لم تطبع فكتب في ذلك الموضوع الذي اختاره أو حقق تلك المخطوطة، ومما لا شك فيه أنه يحصل بذلك على علم كثير ويتسع أفقه في ذلك المجال، ولكنه كذلك وبدون شك لن يكون تحصيله العلمي فيما لم يكتب فيه كتحصيله فيما كتب.

ولهذا كله تعتبر الدراسة الجامعية والدراسات العليا بمثابة دراسات منهجية تتفتح أمام الطالب خلالها أبواب العلم وتضعه على منتصف الطريق،

طريق التعلم وطريق التعليم، فالنصف الأول ما قضاه في دراسة نظامية، والنصف الآخر ما سيبذله من جهد متواصل مع الكتب والمراجع في التحصيل والتحضير، ثم يطبقه ويثبته عملياً في مجال التعليم والتدريس؛ هذا إذا كان له همة عالية وعزيمة ماضية ورغبة ملحة، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء الحرمين الشريفين
في القرن الرابع عشر بمكة المكرمة «الشيخ بكري شطا»

تقدم الإيماء إلى أن هذا القرن ينقسم إلى ثلاث فترات: الأولى تمتد إلى منتصفه، وقدمنا البعض في إيجاز لاتفاق مناهجهم، والآن نقدم خاتمة الاختيار لهذه الفترة عالمنا الجليل الشيخ بكري شطا رحمه الله هو كما ترجم له تلميذه العالم الفاضل الشيخ عبد الحميد قدس فقال: هو شيخنا وأستاذنا السيد أبو بكر المشهور ببكري شطا بن السيد محمود زين الدين.

وفي «الأعلام» للزركلي محمد زين الدين المدفون خارج ثغر دمياط، وهي مدينة في دلتا النيل بمصر ويتصل نسبه إلى السيد جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر إلى الإمام علي رضي الله عنه، قال في المختصر: وهذا النسب مثبت في دفتر الأشراف بثغر دمياط موجود الآن عند نقيب الأشراف الحالي أي بذلك الثغر وهو الشيخ السيد مصطفى الجمال. وهنا لفتة كريمة من عمل السلف في سجل النسب أياً كان منتهاه فيه الحفاظ على تلك الأصول التي ينبغي الحفاظ عليها لا للتفاخر بالأنساب ولا التطاول بالأحساب.

فإن الحقيقة كما جاء بها الإسلام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. ومع هذا فإن معرفة الأنساب فيها أولاً: ما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلموا من الأنساب ما تصلون به أرحامكم. ولا سيما إذا كان النسب شريفاً كريماً، فقد يحمل صاحبه على مكارم الأخلاق صيانة لهذا النسب الشريف من أن يسف ويجهل مع الآخرين.

وكذلك حفظ الأنساب يقوي روابط المجتمع عن طريق بناء الأسر وقوامها، بخلاف المجتمعات غير الأسرية التي لا روابط فيها، فإنها مجتمعات فردية لا قوام لها ولا روابط، فها نحن وعن طريق ذلك السجل للأشراف في

ثغر دمياط نقف على تسلسل نسب شريف في القرن الرابع عشر مما لا يكاد يوجد لغير المسلمين.

ولقد كان شيخنا الفاضل بكري شطا فعلاً على منوال سلفه ومنهجهم فضلاً وعلماً. فكان عالم أم القرى وابن عالمها الجامع خلال المجد طريفه وتالده، أي قديمه وحديثه. ولد بمكة المكرمة وتوفي والده وعمره ثلاثة شهور فقط. فتربى يتيماً في حجر أخيه الشيخ العلامة سراج الدين السيد عمر شطا فأحسن رعايته، فحفظه القرآن مجوداً وعمره سبع سنين؛ أي بدأ تحفيظه من ذلك السن ثم اشتغل بطلب العلم على علماء مكة الأفاضل آنذاك وكانت بداية طلبه للعلم بالمدينة المنورة حين جاء مع السيد عمر والسيد عثمان وواصل التحصيل إلى أن أخذ يصنف ويؤلف في كثير من الفنون بدقة وإتقان، منها في الفقه: «حاشية على فتح المعين، ومتن الدرر البهية فيما يلزم المكلف من العلوم الشرعية، ورسالة موجزة العمل بالقول القديم للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. والقول القديم والجديد عند الشافعي هما باعتبار بداية حياته العلمية أي حياة الشافعي ونهايتها. وحدّ القديم عند الشافعيِّ كل ما حصله في مكة ثم المدينة على مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم لقاؤه في العراق بمحمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد مالك، أما الجديد فما كان بعد أن سافر إلى مصر ولقي الليث بن سعد قرين مالك رحمهما الله وغيره ممن استوطن مصر من التابعين وتابعيهم. ويوجد خلاف عند الشافعية في جواز العمل بما ثبت أنه من القديم أم لا. وذلك عند تعارض الجديد مع القديم.

فمثلاً كان القول القديم عند الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في لمس المرأة: إنه لا ينقض الوضوء إلا إذا كان عن قصد ووجد أثر ذلك اللمس، وهو القول موافق لمالك وأحمد وأبي حنيفة على تفصيل خفيف عندهم وبعد أن ذهب إلى مصر تغير اجتهاده وقال: بالنقض لمجرد اللمس، ولو لم يقصد لشيء أو لم يجد أثراً لذلك.

وهذه قضية مبسوطة في المطولات وكان يهمنا لو اطلعنا على رسالة عالمنا هذا الفاضل شطا لأهمية موضوعها. وله من المؤلفات رسالة في جواز تعدد إقامة صلاة الجمعة في البلد الواحد إذا دعت لذلك الحاجة. وأيضاً هذه

المسألة أيضاً من مسائل الخلاف أوضحناها في تتمة أضواء البيان في الكلام على سورة الجمعة حيث إن مذهب مالك منع التعدد وعند غيره الجواز للحاجة.

وبهذه المناسبة مما ينبغي التنبيه عليه ما يفعله بعض الشافعية من صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة إذا تعددت الجمعة في بلدة واحدة، وذلك بزعم أن الجمعة المعتبرة هي واحدة وهي التي يحضرها الإمام أي إمام المسلمين أو التي تقع أولاً وتسبق المساجد الأخرى.

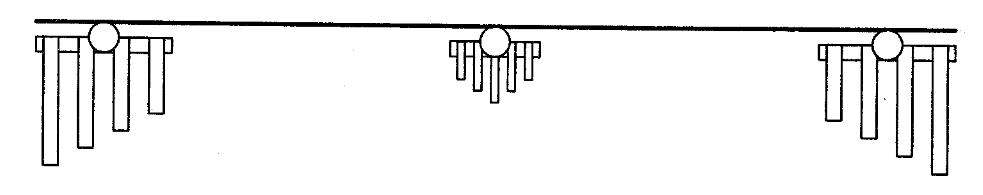
فإذا لم يحضر الإمام كأن تكون في قرية نائية أو مدينة غير العاصمة مثلاً بقي اعتبار التي سبقت والحال أن أهل كل مسجد أقيمت فيه جمعة لا يعلم أهله عن المساجد الأخرى فيحتمل السبق لأي مسجد وتعتبر المسبوقية كذلك. فيصلون الظهر احتياطاً حتى لو كان مسجدهم مسبوقاً أو فاتهم اعتبار الجمعة يكون الظهر هو البديل. والمعمول به عند الجميع أنه لا ظهر على من أدرك الجمعة، وكذلك له رسالة في حكم الأوراق النقدية سماها: القول المنفج المضبوط في صحة التعامل ووجوب الزكاة في الورق النوط، والنوط يعني: أوراق النقد.

وهذه أيضاً من المهمة والأهمية بمكان لأنها قضية الساعة أعني ليس لها صورة سابقة ودخلت حياتنا العامة والخاصة جبراً علينا. وقد كتب الأخ والزميل الفاضل الشيخ عبد الله بن منيع رسالة قيمة في ذلك، والنقاش فيها: هل الأوراق النقدية قيمتها ذاتية أم هي سندات مضمونة؟ ولكن الجواب المقنع في مدلول قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ...﴾ [التوبة: ١٠٣] الآية، فهل المخالف يتخلى عن اعتبارها مالاً فلا يتمولها، أليس يدفعها في طعامه وشرابه ويسافر بها لحجه وعمرته ويمهرها صداقاً يستحل به الأجنبية عليه إذا أخذت محل المال من الذهب والفضة، فتأخذ أحكامها في جميع أبواب التعامل؟ وله أيضاً مؤلفات أخرى لم تكتمل. وهنا نعيد ما سبق أن نبهنا عليه لطول العهد وهو يقع من بعض الأفاضل في التأليف فيبدأ في موضوع وبحماس وقبل أن يتمه يخطر له موضوع آخر يراه هاماً فينتقل إليه وقد يظهر له ثالث ورابع فيتجزأ الوقت ويتبدد الجهد ولا يكمل العمل في هذا ولا ذاك. فلو فكر قبل البدء فإذا

اقتنع بالفائدة مضى بعزم وحزم حتى يكمل ثم ينظر في غيره. ولا مانع أن يسجل ما يخطر له إلى أن يرجع إليه حتى لا ينساه.

فرحم الله عالمنا الجليل إذ كان يساير عصره في تأليف ما يستجد، وقد سجلوا له مثالية في الأخلاق والسلوك والمنهجية، حتى إنه كان لا يعنف من عارضه ولا يتعالى على من جاد له ويحاول أن يرفع من شأن من هو دونه مع وفرة عبادة وحسن سيرة، وتوفي رحمه الله يوم الاثنين الثالث عشر من ذي الحجة سنة ١٣١٠، ودفن بالمعلاة وخلف أبناء كراماً ساروا على نهجه. ومن بيت شطا السيد صالح شطا عاصر الفترة الثانية من هذا القرن وولي عدة مناصب للدولة، منها عضوية مجلس الشورىٰ، ترجم للشيخ صالح شطا ترجمة مطولة في كتاب «أعلام الحجاز» لفضيلة محمد علي مغربي مبيناً أثره في التعليم والسياسة بين حكومة الأشراف والسعودية، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء مكة المكرمة في القرن الرابع عشر
فضيلة «الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ»

يعتبر صاحب الفضيلة العلامة الجليل عالم هذه الحلقة ممن أدرك نهاية الفترة الوسطى لهذا القرن وجزءاً كبيراً من الفترة الأخيرة منه. وهو بحق الصورة الفعلية التي تصور وبوضوح المنهج العملي لعصره وزمنه علماً وعملاً وفضلاً وأثراً وتأثيراً على أعلى المستويات في ذلك كله.

وفضيلته رَحِمَهُ اللَّهُ لا تتسع الحلقة المحدودة بل ولا الحلقات لترجمته إذ إن لحياته الكريمة عدة اعتبارات فحياته باعتباره عالماً، وحياته باعتباره عاملاً قضاء وإفتاء وحسبة وتعليماً، وحياته باعتباره مواطناً مستقراً بمكة المكرمة وآثاره في الحجاز عموماً، واعتبارات أخرى عديدة كل منها لا تسعه تلك المقالات في هذه الحلقات، وحياته وحياة أمثاله حقيقة بأن يسجلها كتاب متخصص خدمة للعلماء وطلبة العلم وتقديراً لشخصه وذاته.

وقد يقال: إن من خلفهم من الأبناء الأفاضل الذين شغلوا أعلى المناصب وتوزروا في أهم الوزارات وساروا السير الحميد، لهم كتاب ناطق وضوء ساطع يعكس تلك الصورة التي تجسمت في مخيلات كل من عرف عالمنا الفاضل؛ بل وأقول: إن بعض أبنائه ومن عرفته وشرفت بلقاءاته العديدة، سواء كانت لقاءات عمل أو لقاءات زيارة وهو فضيلة النبيل الجليل الشيخ حسن بن عبد الله بن حسن، وزير المعارف، ثم وزير التعليم العالي، وعضو مجلس الوزراء رَحِمَهُ اللَّهُ أنه بحياته أيضاً لحري بكتاب يقدمه زملاؤه وأقرب الناس من حياته، ولعل فضيلة الشيخ عبد العزيز بن حسن آل الشيخ، وهو الأخ الأكبر للشيخ حسن أن يحقق أملنا هذا وأعتقد أن كل كتابة عن أي عالم من علماء آل الشيخ أياً كان فإنها كتابة عن تسلسل أجيال لدعوة فاضلة سعد المسلمون بفضلها وعم المسلمين خيرها في الدين والدنيا. وإن الأفاضل من أبنائهم لهم المسؤولون عن حقوق آبائهم.

ولد الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ كما جاء في كتاب «علماء نجد» لفضيلة الشيخ عبد الله البسام حفظه الله عضو هيئة التمييز بمكة المكرمة قال: ولد رَحِمَهُ اللَّهُ في مدينة الرياض في اليوم الثاني عشر من شهر المحرم سنة سبع وثمانين ومائتين وألف.

أما نشأته:

كتب الله لعالمنا هذا نشأة فاضلة كريمة في بيت الفضل والفضائل ومعقل العلم والعلماء من سلالة إمام الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ فنشأ في كنف والده فحفظ القرآن الكريم قبل البلوغ، ثم شرع في طلب العلم في وقت وفر فيه العلماء متعددو التخصصات فحصل من الجميع ما عندهم.

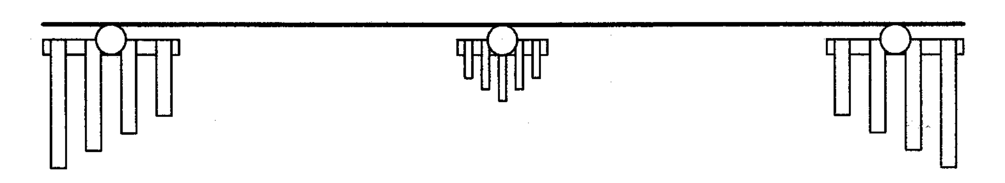
أما شيوخه:

فمن أهمهم حسب فنونهم: أولهم والده رَحِمَهُ اللَّهُ الشيخ حسن بن الشيخ حسين، والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، والشيخ الفقيه محمد بن محمود، والمحدث الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن، واللغوي الشيخ حمد بن فارس، والفرضي الشيخ عبد الله بن راشد، والشيخ سعد بن عتيق، والمقرئ الشيخ علي بن داود. وهنا وقفة إجلال طويلة إزاء هذه النشأة الكريمة بداية بحفظ كتاب الله قبل البلوغ، لا شك أنها دلالة على النبوغ وقوة الحافظة ثم طلب العلم مبكراً وابتداء من والده. إنها والله لنعمة أن يوفق الله الأبناء لتقر بهم أعين الآباء.

وتلك سلسلة كريمة من أول جدهم صاحب الدعوة الموفقة التي جددت للناس ما اندرس من معالم الحق الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب وهو رَحِمَهُ اللَّهُ المعني بكلمة آل الشيخ، يعني: الشيخ محمداً، فها هو عالمنا الجليل الشيخ عبد الله بن حسن يتلقى في بداية طلبه للعلم عن والده الشيخ حسن. ثم يتوفر له الأخذ عن هؤلاء الأجلّاء، كلٌّ في فنه الذي برز فيه، وإن كنا نعلم أن علماء السلف كانوا يجمعون العلوم الأساسية والتكميلية ولكنهم قد يغلب على أحدهم الرغبة في علم من العلوم، فتشتد عنايته به فيشتهر عنه وهكذا يظهر في صورة التخصص فيه، وقد أنتج لنا عالمنا الجليل هذا الأخذ عن العديد من العلماء

الأجلاء الذين أشبه ما يكونون بذوي اختصاصات في علومهم، من التفسير والحديث والفقه والتوحيد والنحو وما صاحب ذلك ولازمه من أصول ومصطلح وسيرة ورغائب مما أهّله رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى العديد من مجالات العمل العلمي، من تدريس وإفتاء ومواعظ وحسبة وقضاء، سواء كان مباشرة أو إشرافاً وتوجيهاً في رئاسته لأكثر من مرفق حيوي له خطره على ما سيأتي في بيان أعماله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد ساعده على ذلك كله ورشحه إليه ما قال عنه فضيلة الشيخ عبد الله البسام، إذ قال: في الوقت الذي انشغل الناس فيه بالفتن والمحن شغل نفسه بتحصيل العلوم وإدراك الفضائل ومعالي الأمور. وهذه أيضاً لفتة إذ إن العادة في المجتمعات إذا داهمتها الفتن ووقعت فيها المحن أن تشغل العامة والخاصة وتشوش على طلبة العلم؛ اللهم إلا النادر القليل الذين يجعلون أنفسهم بمنأى عن أحداثها.

ويكونون غالباً في سعة من العيش لا تضيق عليهم حالتهم المعيشية فتدفعهم الحاجة إلى السعي في طلب الرزق والتكسب كما نشاهد الآن رغم سعة العيش ووفرة المعيشة، فقد يكون بعض الطلاب قد أحيط ببعض المشاكل العائلية بمثل وفاة عائلهم الذي يترك العديد من الأشخاص ويجد الطالب نفسه تحت حمل كان يحمله والده، فيضطر هو إلى طلب العمل ولو نهاراً ويواصل الدراسة ليلاً إذا أمكنه ذلك وقد لا يستطيع الجمع بين العمل والدراسة. وشيخنا هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ رغم انشغال الناس بالفتن فقد ظل في خط سيره في طلب العلم دون أن يجد العقبات في طريقه. وإذا علمنا أن تلك الفتن التي نوه عنها الشيخ البسام كانت كما يقال: كقطع الليل المظلمة، إذ كانت الحروب الطاحنة في نجد قبل وبعد مجيء المغفور له الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقبل استيلائه على الرياض سواء مع ابن الرشيد أو غيره، فإن المنطقة كانت ميادين قتال متعددة ولم تستقر إلا بعد معارك ضارية، ولكنها ما أن استقرت بها الحياة وهدأت فيها الأحوال واستتب بها الأمن وبدأ دور البناء في الحاضرة والبادية وعلى أساس من العلم والتوجيه والتوعية وبناء الهجر للبوادي، إلا وكان عالمنا الجليل هو الفارس المجلى في تلك الحلبة الناهضة على ما سيأتي من بيان أعماله ومناصبه وآثاره الطيبة التي شهدها القاصي والداني إن شاء الله، وبالله تعالى التوفيق.



من أعيان علماء الحرمين الشريفين بمكة المكرمة في القرن الرابع عشر «الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ»

تقدمت نبذة عن نشأته رَحِمَهُ ٱللَّهُ وطلبه للعلم وشيوخه وابتعاده عما انشغل به الناس ومتفرغه التام لطلب العلم حتى بلغ أقصى ما يبلغه لذاته ومعاصروه، وفي هذه الحلقة نقدم نبذة عن أعماله الجليلة وخدماته القيمة، من خلال ما سجله الذين تَرجَمَ لسماحته كل من الأستاذ عمر عبد الجبار وفضلية الشيخ عبد الله البسام، والأخ الأستاذ عبد الله بن سعد الرويشد.

أولاً: قال الأستاذ عمر عبد الجبار: كان الشيخ عبد الله بن حسن ملازماً للإمام عبد الرحمن والد الملك عبد العزيز رحمهم الله؛ فكان يصلي به الصلوات الخمس، والجمعة، والتراويح، والقيام.

وقال الأستاذ عبد الله البسام والأخ عبد الله الرويشد: إن الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما استولى على الرياض ورأى في سماحته الكفاية والتقى عينه إماماً لمسجد والده الإمام عبد الرحمن آل فيصل، فكان بذلك إماماً خاصاً للإمام عبد الرحمن ثم إماماً عاماً لمسجده في عهد الملك عبد العزيز. وهنا وقفة ووقفة طويلة مع هذا الموقف الجليل؛ إذ إن ملازمة إمام المسلمين وولي أمرهم لعالم جليل يصحبه ويصلي به الصلوات الخمس والجمع والتراويح وبجانب ذلك الوعظ والإرشاد لهو تجديد للمنهج الإسلامي الرشيد حيث تتكاتف وتتآلف السلطات التنفيذية والتشريعية معاً، وهو المبدأ الذي قامت عليه هذه الدولة السعودية منذ تضامن الإمامان محمد بن سعود الأمير ومحمد بن عبد الوهاب العالم الداعي إلى الله، وعلى هذا المبدأ عينه درج الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان شيخنا عبد الله بن حسن آل الشيخ هو صفيه ورفيقه في حربه وسلمه في حلّه وغزواته على ما سيأتي إن شاء الله إلى نهاية المطاف معه في مكة المكرمة.

ثانياً: انتدابه داعياً لأكبر زعماء الهجر وشيوخ القبائل. والهجر جمع هجرة وهي أن الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ أراد تحضير البوادي واستقرارهم في مواطن معينة، فاختط ما يشبه القرى تتجمع فيها البوادي وتؤمن لهم بعض ضروريات الحياة، من مياه وبعض السلع، وينصب عليهم أمير، وتنظم حياتهم وتستقر، وكان من أهم وأخطر تلك الهجر وأميرها لا يستهان به لمكانته وشجاعته هي هجرة الأرطاوية، وأميرها وزعيمهم فيصل بن سلطان الدويش.

فاختاره الملك عبد العزيز لهذه الهجرة، يقول عمر عبد الجبار: بعد أن استشار الملك رَحِمَهُ اللهُ كبار العلماء فيمن يرسله لفيصل الدويش، فاختاروا شيخنا هذا عبد الله بن حسن، فطلبه من والده لهذه المهمة فأبى أولاً ثم أقنعه الملك عبد العزيز وعين أخاه الشيخ عمر بن حسن محله، فتوجه شيخنا إلى مهمته وكتب الله له النجاح فيها لسعة حلمه وقوة تحمله، وفضل علمه وبعد نظره وتحسبه لكل الأمور والتزام الدعوة إلى الله على بصيرة وبحكمة. إذ المعلوم عن البوادي الجفاء والغلظة ومعلوم أن أساس التحضر والاستيطان إنما هو العلم وحسن السياسة فكان شيخنا الخبير بذلك فتبدل الجفاء مودة، والغلظة ليناً ومودة ورحمة، وصار أولئك البوادي من أطوع الناس للأوامر وأسرعهم لخدمة الدولة على منهج الاعتدال لا إفراط ولا تفريط. وقد أخذهم شيخنا على المنهج العلمي من حيث العقيدة السليمة والأحكام الفقهية وحسن السلوك.

ثالثاً: وبعد أن استقر للملك عبد العزيز وتم له ما أراد في شأن تلك الهجر، اصطفاه رَحِمَهُ اللهُ لشخصه فاختاره إماماً له خاصاً، كما كان إماماً لأبيه الإمام عبد الحسن آل فيصل ولكن بصفة أخص، حيث كان يصحبه في حلّه وترحاله وفي أسفاره وإقامته.

وأسند إليه قضاء الجيش وإرشاد المجاهدين معه، وصحب شيخنا الملك عبد العزيز في غزوات عديدة إلى سنة ١٤٠٠.

رابعاً: لما بعث الملك عبد العزيز ولده الأمير فيصل إلى عسير سنة ١٤٠١هـ، كان شيخنا رفيقه فكان الأمير لا يخرج عن رأيه ولا يترك مشورته مع قضاء الجيش وإرشاد الجند، ولا شك أن هذه شهادات ثقة وتقدير من كل من

الإمامين عبد الرحمن وعبد العزيز وكذلك الأمير فيصل، وكان الشيخ موفقاً مع الجميع.

خامساً: لما توجه الملك عبد العزيز إلى الحجاز، ووصل الطائف، وجدة، ومكة المكرمة سنة ١٣٤٣، كان شيخنا برفقته حتى استقر به الأمر بمكة المكرمة. وهناك استقر به المطاف وولاه الملك عبد العزيز مهام المناصب وقلده أخطر الأعمال، وهي:

أ ـ إمامة وخطابة المسجد الحرام. ولا يخفى ما لهذا المنصب من أهمية عالمية لارتباطه بالبيت الحرام الذي يأتون إليه من كل فج عميق، وقد كان هذا المنبر منبر الحرمين الشريفين من مرجحات الخلافة في الدولة العباسية في أطوارها الأخيرة كما سبق التنويه عن ذلك.

ب ـ اختاره الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لرئاسة القضاة بالحجاز كله وهذا المنصب يعادل منصب وزراء العدل إذ إنه إليه ترجع جميع جوانب القضاء إدارياً وشرعياً حيث يدقق الأحكام ويوجه القضاة.

جـ ـ كما أسند إليه مع ذلك الإشراف على مهام شؤون الحرمين الشريفين الدينية من تعيين واختيار الأئمة والمدرسين واختيار الدروس.

د ـ ومهمة الحسبة للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشرف على مراكزها في جميع قرى ومدن الحجاز كله وما يلزم ذلك من تعيين واختيار أعضائها، وحل ما يعرض من مشاكلها بحلم وأناة وحسن تدبير.

هـ ـ كذلك الإشراف على شؤون المساجد وتعيين واختيار الأئمة والخطباء والوعاظ والمرشدين.

و ـ الإشراف على المطبوعات الدينية التي تتولاها الحكومة.

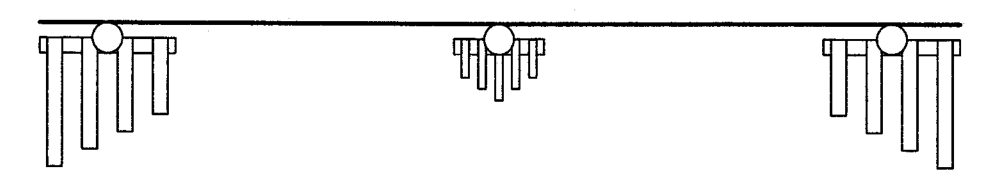
ز ـ كذلك الإشراف على المطبوعات الدينية التي تستوردها المكتبات من حيث سلامة المضمون وعدم وجود تيارات ضد الإسلام. إنها والله مناصب عالية وخدمات جليلة أسندت كل واحدة منها بعد وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى رئاسة مستقلة. بكامل أجهزتها وإداراتها، ويعني ذلك أن شيخنا ابن حسن كان بمثابة عدة شخصيات في شخص واحد، وكما قيل، وليس على الله بمستبعد أن يجمع العالم في واحد.

منهجه ومسلكه: وهذا الذي يهمنا أكثر في مسلك طلبة العلم

لقد كان رحمه الله القوي الهين، الشديد اللين، قوياً في ذات الله لا تأخذه لومة لائم، هيناً مع أصحاب التقى والصلاح، شديداً على المنحرفين، ليناً مع الصادقين المستقمين. وهنا كما وصف الله أصحاب رسول الله ﷺ ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وكان رحمه الله يدفع بالتي هي أحسن السيئة. عُرف برقة القلب وعدم التسرع في حكم حتى يتثبت، قال الأستاذ عمر عبد الجبار: إن الشيخ بلغه عن بعض الطلاب أنه فاه بكلمة يشم منها رائحة الإلحاد، فغضب لله وأحضر الطالب للتحقيق معه. فلما رآه ورأى صغر سنه وعرف جهله، هش في وجهه نصحه وحذره من مثل ذلك. وهكذا كان يعالج أمثال هذه الهفوات سواء في كلمة ينطق بها قائلها، أو في مقال ينشره كاتبه.

كما كان يشعر موظفيه والعاملين معه بأن الارتباط بهم هو حسن العمل وأمانة الأداء فحل في قلوبهم محل الوالد الكريم في قلب ولده، وهذه هي السياسة المثلى والخطة الحكيمة التي أكسبته محبة وتقدير جميع من عرفه رحمه الله. وبالله تعالىٰ التوفيق.





لا زلنا أيضاً مع فضيلة وسماحة
«الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ»

إن الحديث عن مثل عالمنا هذا الفاضل وشيخنا هذا الجليل الشيخ عبد الله بن حسن مهما طال وأفيض فيه فما أعتقد أنه سيفي بمكانته وبما أن هذا البرنامج المبارك، من أعيان علماء الحرمين الشريفين، والذي تم فيه بحمد الله وتوفيقه تقديم نماذج لأعلام أجلاء منذ عهد أصحاب رسول الله ﷺ فالتابعين لهم بإحسان فمن بعدهم، وعلى مدىٰ أربعة عشر قرناً مما في حياتهم الفاضلة وأعمالهم الجليلة ومناهجهم الحكيمة وسيرهم العطرة مدارس لأجيالنا وقدوة حسنة لأبنائنا وللأجيال المستقبلة على طريق الهداية والاستقامة، فإن عظمة الرجال ومنازل الأبطال إنما هي في عظيم آثارهم وجليل خدماتهم.

ومن عرف شيخنا هذا رحمه الله أو وقف على سيرته عرف أنه من الأفذاذ القلائل، وأنه مع أمثاله من السادة العلماء الأفاضل على مدى العصور وتعاقب القرون مثل النجوم الزاهرة والكواكب السيارة زاهرة بنورها، هادية بمسيرها، كلما أفل نجم طلع آخر في مسلك ثابت مستقيم.

وتقدمت لعالمنا الجليل تقويم وتقدير خدماته الجليلة في سبيل الدعوة إلى الله في مجالات متعددة وميادين مختلفة، أكثر من خمس إدارات رئيسية لها أهميتها وخطرها.

وقد يظن ظان أن تلك الخدمات والمناصب التي آل أمرها إليه أخيراً وهو في مكة المكرمة ربما كانت تشغله عن خاصة نفسه وعلاقته بربه، ولكن ما سجله لنا مترجمون، وما نشر من مقالات في تعزية ليعطي صورة العالم العامل الذي يعطي كل شيء حقه ويوازن بين جميع ما أسند إليه بقوة وأمانة.

قال الأستاذ عبد الجبار: لم تشغله رحمه الله واجباته عن المحافظة على الجماعة والقيام إلى آخر عهده، وكان رحمه الله يلازم الصف الأول في المسجد

الحرام، يحضر قبل الأذان فيتلو القرآن إلى أن يؤذن المؤذن علماً بأن منزله قريب من المسجد؛ تشاهد الكعبة من منزله الواقع في الداودية المطلة على الحرم.

وهذا القول يذكرنا بما تقدم عن الشيخ حياة السندي بالمدينة المنورة الذي لقيه الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ جد شيخنا ابن حسن آل الشيخ، وتلقىٰ عليه الدروس. كان الشيخ السندي رغم دروسه المتعددة والبالغة عشرة دروس يومياً كان ملازماً للصف الأول في الجماعة.

إنها والله أكبر عون للمؤمن على واجباته في الدين والدنيا وقد جاء عن الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال في جلسته بعد صلاة الصبح، يذكر الله حتى تطلع الشمس رغم كثرة أشغاله وزيادة اشتغاله بالتأليف والتدريس فقال: إنها وجبة غذائي لكامل يومي. وقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ يعنى بكبار طلاب العلم في دروس خاصة في بيته منهم أصحاب الفضيلة أخوه الشيخ عمر بن حسن، والذي تولى المنصب بعد شيخنا في الحسبة بالرياض.

ومنهم أبناء شيخنا الثلاثة: الشيخ محمد والذي كان المدير العام للتربية الإسلامية بوزارة المعارف، والشيخ عبد العزيز الذي تولى عدة مناصب آخرها وزارة المعارف، ومنهم فضيلة الشيخ حسن آل الشيخ الذي تولى كذلك عدة مناصب آخرها وزارة التعليم العالي، والذي أسهم إسهاماً فعالاً بكتاباته الصريحة الهادفة في كثير من المجالات وإن أنس لا أنسى تفضله علي بإهدائه أكثر مؤلفاته رحمه الله رحمة واسعة وهؤلاء الأبناء الأفاضل والأماجد ممن حظي بالدراسة عليه وذكروا من أولئك الشيخ عبد الظاهر أبا السمح والشيخ محمد الشاوي والشيخ عبد العزيز الشتري والشيخ عبد الرحمن بن عقلا والشيخ محمود شويل والأستاذ عبد الغفور عطار، وعدداً كبيراً ذكر أسماءهم.

وقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ سلفي المنهج سلفي المعتقد سلفي المسلك، نقل عنه تلميذه الشيخ علي هندي أنه كان يقول: نحن في الفروع نقتدي بالإمام أحمد وإذا رأينا الحنابلة خالفوا نصاً صريحاً تبعنا النص سواء كان بجانب المذهب الحنفي أو المالكي أو الشافعي؛ لأن الله تعالى أمرنا بذلك في محكم كتابه فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. وأما في الأصول والعقائد فنحن على مذهب أهل السنة والجماعة نثبت لله ما أثبته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، فلا نشبه ولا نعطل ولا نكيّف ونقر لله بالوحدانية في أسمائه وصفاته وأفعاله، ولنبيه بالرسالة

ووجوب الطاعة والاتباع، ونترضّى عن الصحابة أجمعين ونعترف لهم بالفضل ونحب آل البيت لقرابتهم من رسول الله ﷺ ولوصيته ﷺ بأهل بيته. إنه منهج والله مكتمل واضح في الفقه، التزام بدون تعصب طاعة لله وطاعة لرسوله ﷺ.

ومع السلف حب في الله وموالاة لأحباب الله وبهذا المنهج النير الواضح الخالص من كل غموض أو من كل شوائب كان عالمنا الجليل من أفذاذ الرجال وقد حفظ له الجميع صنيع الجميل، ونعاه الأدباء والشعراء بما اشتهر به وعرف عنه حين توفي رحمة الله تعالى علينا وعليه سنة ١٣٧٨.

ومن غرر ما نشر من ذلك قصيدة الشاعر الكبير شاعر الملك عبد العزيز ونائب رئيس مجلس الشورى الشيخ أحمد بن إبراهيم الغزاوي ومما جاء فيها:

من خير آل الشيخ من أعلامهم ... وجميعهم بالباقيات مؤزر
لله عمر في الجهاد قضيته ... يزهو به التوحيد وهو يكبر
كافحت فيه عن الشريعة مؤمناً ... وأمرت بالمعروف حيث المنكر
خلق كأنفاس الربيع مدرع ... بالعلم وهو عن الرسالة يصدر
ما كنت إلا كوكباً متوقداً ... وبك الجوامع كلها تتنور
قبل الأذان إلى الصلاة مبادراً ... والليل داج والرياح تزمجر

ومنها:

تسعى إلى الصلوات في أوقاتها ... ونَراك تهتف بالهدى وتبشر
ما كنت إلا من مصابيح الهدى ... ولك المواقف والعوارف تشهر

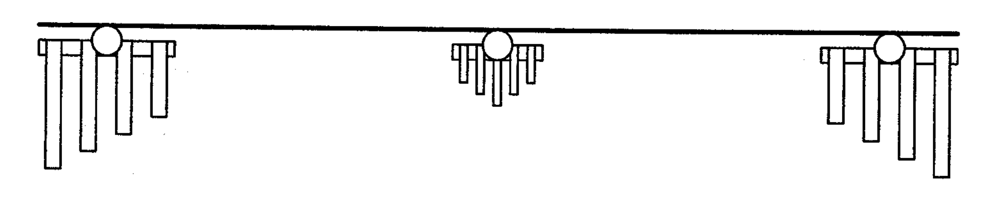
ومنها أيضاً:

مهما استفاض الشعر فيك مراثياً ... فهو المقصر والمقارب يؤجر

وأخيراً:

لك في جنان الخلد ما تجزى به ... ولك بمن خلفت كنز يبهر

حقاً إنها صورة حية ناطقة لحياة شيخنا رحمه الله وفيها العديد من الشواهد على ما قدمنا عن سماحته. كما قال الشاعر الأديب: مهما استفاض الشعر فيه مراثياً. بل والنثر تأبيناً وناعياً فهو المقصر عن حقيقة أعماله الجليلة التي علمها الناس عنه، ولا شك أن ثناء الله وحبه لعبد صالح شاهد على محبة الله إياه لخبر مالك في الموطأ: إن الله إذا أحب عبداً نادى ملكاً فيحبه أهل الأرض». إنه لشيخنا الجليل والمثل الحي لعلمائنا ولمن ولاه الله عملاً للمسلمين. وبالله تعالى التوفيق.



من أعيان علماء مكة المكرمة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر

«سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد»

لئن كان ما قدمناه من حلقات في تراجم لبعض أعيان علماء الحرمين الشريفين خلاصة لما وقفنا عليه في المؤلفات المختصة، وكانت وقفاتنا فيها للتنبيه على مواطن العظة والعبرة والاستفادة من النواحي المنهجية، وكان ذلك لا يزال على ذمة المراجع وفي عهدة التاريخ فإن حديثنا عن عالمنا هذا الجليل الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد ليس عن مصدر مطبوع ولا مرجع مخطوط. بل حتى ولا جريدة أو مجلة ولا ما كتب عنه علماء علماً بأنه قد كان بعض ذلك إلا أنه ليس لدي منه الآن شيء. وإن الحديث عنه لهو خلاصة عما لمسته شخصياً من غضون بعض اللقاءات ومجالسة لسماحته بعض المجالس وما سمعت عنه من الآخرين، وما زودني به الأخ الفاضل والكاتب الأديب عبد الله بن سعد الرويشد، وقد كان والده سعد زميلاً لسماحة شيخنا ابن حميد في أول مرحلة الطلب واستمرت الصلة الشخصية أمداً طويلاً. وعليه أقدم ثمرة لذلك كله مستعيناً الله في ذلك:

أولاً: الناحية الشخصية لعالمنا الجليل والتي يعرفها كل من عاصره ولقيه ولو قليلاً. كان رحمه الله هادئ الحركة، غاض الصوت قليل الكلام، كثير الصمت، عرف بالصلاح والورع والسيرة الحميدة وصفات العلماء الأجلّاء.

أما نشأته وتعليمه:

فقد ولد في ذي الحجة عام ١٣٢٥ بالرياض، وبدأ كبقية لذاته وزملائه لذلك العصر بدأ بحفظ القرآن في صغره. ثم تلقى مبادئ العلوم على يد جماعة من أفاضل علماء الرياض آنذاك.

منهم فضيلة الشيخ حمد بن فارس، وفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ قاضي الرياض آنذاك، والشيخ محمد بن عبد اللطيف، وفضيلة الشيخ سعد بن عتيق، وغير هؤلاء الفضلاء ممن كان تزخر بهم الرياض في حينه، ثم بعد هؤلاء العلماء لازم سماحة العالم الفاضل وشيخ الجميع سماحة مفتي الديار السعودية ورئيس قضاتها سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

والذي لمسته شخصياً عن منهج الدراسة آنذاك أن نظام الدراسة الذي كان في مساجد الرياض أن يبدأ الطلاب في طلبهم للعلم على بعض الفضلاء من سائر العلماء والمدرسين في المساجد حسب العادة. ثم هم بعد أن يمضي الواحد منهم في طريق الطلب ويحصل ما تيسر له ويصبح متمكناً من أن يتوسع في علومه، فإنه يتنقل ويقرأ على خصوص سماحة المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم فكانت دروس سماحته لكبار الطلاب أو للمهم من الدروس كالأصول ونحوها.

وكان المتخرجون على يدي سماحة المفتي يرشحون للقضاء وللتدريس لاكتمال تحصيلهم واكتساب الثقة فيهم. وظل هذا عمل سماحة المفتي وعلماء الرياض حتى فتحت المعاهد العلمية والكليات، فتحول طلاب سماحة المفتي بإرشاد منه إلى كلية الشريعة، ثم فتح معهد باسم معهد إمام الدعوة تحول إليه بقية الطلاب الذين كانوا يدرسون على بقية المشايخ في بقية المساجد. أردت بهذه النبذة الوجيزة عن حركة التعليم في الرياض قبل سنة ١٣٧١ قبل أن تفتح جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الماثلة ابتداء في المعاهد العلمية، والكليات قبل تطويرها إلى الجامعة ليعلم مدى قوة الدراسة والتحصيل على الشيوخ في المساجد على سماحة المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم المتضلع في العلوم الشرعية أصولها وفروعها. والذي لازمه شيخنا ابن حميد كما كان لازمه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز وغيرهم من أفاضل طلبة العلم وخاصة العلماء، وقد انتفع عالمنا الشيخ ابن حميد بملازمة سماحة المفتي انتفاعاً عظيماً وفي غضون ملازمته لسماحة المفتي كان سماحته يسند إليه تدريس بعض الطلبة كالمساعد لسماحته في ذلك لما رأىٰ من تحصيله ونبوغه.

ومن ثم وفي سنة ٣٥١ عيّن في قضاء الرياض، ومعلوم أن هذا المنصب لا يتولاه إلا خواص العلماء، ثم في عام ٣٦٠ تولى قضاء منطقة سدير، وفي

عام ٣٦٣ كان قاضياً لمنطقة القصيم. ومعنى قاضياً لمنطقة هو أن يكون قاضياً لقصبة وعاصمة تلك المنطقة ورئيساً لقضاة المحاكم التي في تلك المنطقة والتابعة إليها، وفي عام ٣٧٢ انتدبه الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ للنظر في بعض قضايا تحتاج إلى نظر متفرغ لها موجودة في كل من مكة والطائف وجدة والمدينة، وفي أثناء وجوده بالمدينة في تلك المهمة كانت فرصة أول لقاء مع سماحته ولعدة مرات في مقر نزوله كبقية طلبة العلم بالمدينة المنورة الذين كانوا يسمعون عن الشيخ قبل ذلك.

وفي عام ٨٤ أنشأت الرئاسة العامة للإشراف الديني على الحرمين الشريفين فاختاره الملك فيصل بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ لرئاستها، ومعلوم أن هذا المنصب يستلزم مقابلات كبار الشخصيات العلمية الوافدة من عموم الأقطار الإسلامية للحج والعمرة، وقد يكون من هؤلاء من يتطلع لجواب عن سؤال أو يثير نقاشاً وبحثاً علمياً، فكان سماحة الشيخ ابن حميد خير من يتولى ويوفي ذلك حقه. وبجانب ذلك كان رَحِمَهُ اللهُ يواظب على إلقاء الدروس بالمسجد الحرام، بل أسس معهداً دينياً في نفس المسجد الحرام سمي معهد ابن حميد فكان رَحِمَهُ اللهُ يشرف عليه وإليه مرجع الدراسة والطلاب والمدرسين. . . إلخ.

وكذلك من نشاطه العلمي تنظيم ندوات للإذاعة السعودية في نداء الإسلام أو إذاعة القرآن للإجابة على أسئلة المستمعين التي تأتي من كل مكان. ولا زالت حتى اليوم تعاد تلك الحلقات وفيها إفادة جمّة.

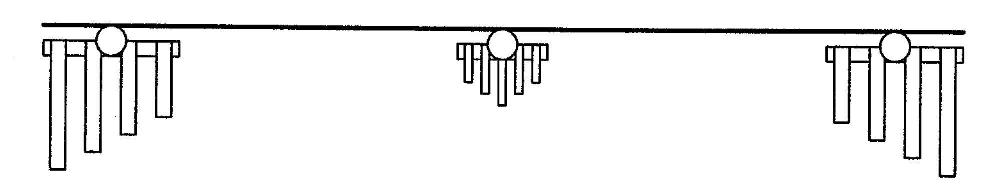
وفي عام ٣٩٥ اختاره الملك خالد رَحِمَهُ اللهُ رئيساً للمجلس الأعلى للقضاء، وهو المجلس الذي إليه ترجع شؤون القضاة أو القضاء كله في المملكة من ترشيح وترفيع، ونقل أصحاب الفضيلة القضاة وللمجلس النظر النهائي فيما اختلف فيه من كبريات القضايا، وقراره نهائي وله لجنة دائمة للنظر فيما يحال عليه من المقام السامي وينعقد دورياً بكامل أعضائه مرتين في السنة، فكان شيخنا الفاضل رئيساً لهذا المجلس الموقر.

وكذلك كان عضواً في هيئة كبار العلماء. وهي الهيئة العليا التي تعرض عليها كلما يستجد من الأمور التي تحتاج إلى نظر شرعي من خلال النصوص والقواعد العامة في التشريع.

وهي في نظري بمثابة السلطة التشريعية حيث إن العلماء ورثة الأنبياء، كما كان سماحته عضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي وفي مؤتمر توجيه الدعاة والمساجد، ولسماحته بعض مؤلفات عالج فيها العديد من القضايا الجديدة طبع أكثرها وبقي البعض مخطوطاً، ومن أهم المخطوطات ما شرفت بقراءته بمجلسه بالطائف نماذج للمسائل الربوية، نفع الله بآثاره وبارك في أبنائه الذين ساروا على نهجه دراسة وتدريساً.

وقد اختاره الله إلى جواره سنة ١٤٠٢هـ، أسكنه الله فسيح جناته، وتغمده الله برحمته، وقد نعاه كل من رابطة العالم الإسلامي والجهات العديدة لما كان له من أثر حميد، والله ولي التوفيق.





من أعيان علماء مكة المكرمة للنصف الثاني من القرن الرابع عشر

ممن اخترنا إيراد تراجم لهم من بداية سنة خمسين وثلاثمائة إلى سنة ١٣٩١ كل من الشيخ عبد الله حمدوة المتوفى سنة ١٣٥٠، والشيخ عبد الحميد فردوس، والشيخ عبد الستار بن عبد الوهاب الدهلوي، والشيخ أحمد القاري، والشيخ السيد محمد بن عبد الرحمن المرزوقي، والشيخ محمد علي بن حسين المالكي، والشيخ عمر حمدان، والشيخ سالم شفا، والشيخ السيد علوي مالكي المتوفى أخيراً ١٣٩١، وبعد أن قدمنا عدة حلقات عن سماحة الشيخ عبد الله بن حسن، وفضيلة الشيخ عبد الله بن حميد.

واخترنا هؤلاء الأعلام لما في تراجمهم من جديد ومفيد يتناسب مع هذا البرنامج المبارك ونقدمهم حسب تاريخ الوفيات، وأول هؤلاء هو الشيخ عبد الله حمدوة، قال عنه الأستاذ عمر عبد الجبار: إنه مربي الجيل. وهذا وصف لا شك له قيمته العلمية ومنزلته الأدبية؛ لأن أخص خصائص هذا البرنامج هي الآثار التربوية التي يتركها العالم في نفوس طلابه فتظهر ثمارها في منهج حياتهم، ولد عالمنا رَحِمَهُ اللَّهُ بالسودان عام ١٢٧٤هـ (برفاعة جهات مدني)، وهو من الأشراف حفظ القرآن ثم قدم مكة شاباً عمره عشرون عاماً. فبدأ بعلم التجويد على علماء مكة، ثم عكف على طلب العلم.

والحركة التعليمية في ذلك الوقت كانت دروس المسجد الحرام عامة، وكانت الحركة العلمية المنظمة ـ إن صح هذا التعبير ـ منحصرة في «المدرسة الصولتية» بمكة وطالما خرجت أفاضل. والمدرسة الفخرية العثمانية وللمبتدئين حلق في المسجد الحرام لتحسين الخطوط، كان من أساتذتها الشيخ تاج غزاوي، والشيخ محمد مرزوقي، والسيد علي كتبي، وبهذه المناسبة أذكر أن لتلك الحلق المباركة عظيم الفضل على طلبة العلم مما جعل الله تعالى فيها من

بركة وقد أدركت بعضها في المسجد النبوي الشريف في الستينات، ودرست فيها قواعد ومقاييس الحروف في الخط بالنقط تلك القواعد التي بني عليها أغلب الخط وبنيت علىٰ حرفين الألف والباء أو علىٰ ثلاثة الألف والباء والجيم كما هو معلوم عند علماء الخط، والعناية بالخط هي الباب الواسع الذي يفتتحه طالب العلم؛ كيف وقد رفع الله من قدر الخط في رفع شأن آلته «القلم» فيقسم سبحانه به: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾، وفي الحديث الصحيح: «أول ما خلق الله» أي على رواية الرفع، القلم فيكون أول المخلوقات، إلى غير ذلك من فضل الخط وأعظمها أقلام القدر والقدرة.

بداية شيخنا حمدوة في مجال التربية؛ لنعلم أولاً أن حقيقة تربية الأجيال ليست هي التربية البدنية وإن كانت حميدة ومطلوبة فالعقل السليم في الجسم السليم ولكنها وسيلة وليست غاية ومؤقتة وليست دائمة، فأبطال العالم كله في أي مجال من البطولات مرهونة بوفرة قوة بدن البطل فإذا ما مرض أو كبر سنه فارقته تلك البطولة، والتربية الحقيقية هي التربية الروحية الفكرية العلمية الأخلاقية وهي الدائمة في الصحة والمرض ومع الشباب والشيخوخة، وكثير من العلماء من ظل يعطي ويعلم ويربي بعد أن جاوز المائة سنة.

وهكذا فلاسفة العالم كانت عنايتهم بالتعليم والتربية الروحية من معين الشريعة الإسلامية كما في الأثر: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، وإن كان سنده متكلماً فيه، إلا إن معناه صحيح ويشهد له الحديث الصحيح الآخر وهو لما نزل قوله تعالى في حق الرسول ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، سألوا عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. أي أنه ﷺ كان يتخلق بأخلاق الآي الكريمات في الآداب كما في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ . . .﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ . . .﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ . . .﴾ [النحل: ١٢٦ ـ ١٢٧]. ونحو ذلك من مكارم الأخلاق. وكانت تلك التربية الإلهية لسيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه هي المنهج العملي لعامة البشر لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة.

بدأ شيخنا حمدوة بافتتاح كتّاب! ومعنى كتّاب في ذلك العصر يعني القاعدة الأولى لانطلاقة التعليم يتعلمون فيه حفظ كتاب الله وحسن تلاوته وفيه تعلم القراءة والكتابة وقواعد الإملاء وقد يكون مبادئ الحساب، وربما تعلم شيئاً من قسم العبادات، وكان يقع هذا الكتّاب في باب الزيادة؛ أي تابعاً للحرم المكيّ وكان معه في مهمة التعليم ثلاثة من المشايخ، وعلى الكتّاب عريف يشرف على سير الدراسة وعلىٰ نظام الطلاب والمراقبة اللازمة.

وشيخنا حمدوة المرجع للجميع، ونتيجة لتلك العناية بالكتّاب اشتدت الرغبة وكثر المنتسبون فانتقل إلى مكان أوسع وتوسعت برامجه وزادت أساتذته. وكان من خريجيه مؤلف كتاب «سير وتراجم» الأستاذ عمر عبد الجبار وأخوه معه وكان منهم أئمة التراويح من الصبيان الذين تعلموا فيه.

ثم تطور الكتّاب وانتقل بطلابه وشيخه ومدرّسيه إلى مدرسة الفلاح بمحلة (الصفا)، تلك المدرسة التي أنشأها الشيخ محمد علي زينل، ومضت تلك المدرسة الناشئة الفتية في أداء رسالتها حتى أثناء الحرب العالمية، فتخرج منها الوعاظ والمدرسون والموظفون الأكفاء، وآلت إدارة تلك المدرسة إلى شيخنا الجليل حمدوة مع ما كان يؤديه من دروس الفقه والحديث والنحو واللغة.

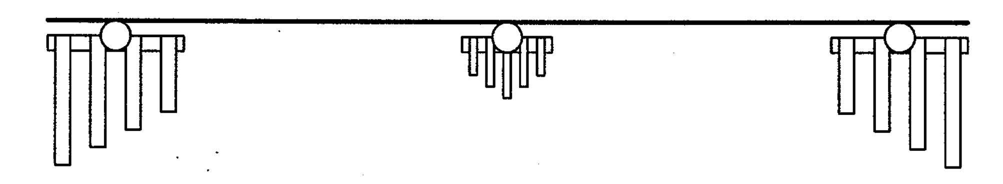
وقد كان منهجاً تربوياً حكيماً قد يشتد على الشباب المراهق ليقصره على الاستقامة، ويلين ويتلطف مع الصبي المبتدئ ليواصل الدراسة. وقد حظي شيخنا بالإكبار والتقدير من المسؤولين سواء في عهد حكومة الأشراف أو في العهد السعودي، لما كان يتحلى به من صفات الكمّل من الرجال وصفات القدوة من رجال التربية والتعليم، كما كان يتعهد طلابه جميعاً بأداء الصلوات مع قيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهكذا كان لشيخنا حمدوة الأثر الطيب المبارك في جهوده التربوية عن طريق همةٍ عالية في افتتاح كتّابه وتطويره ثم ضمه إلى مدرسة الفلاح، وقد شاهدت مثل هذا الكتّاب كان في مؤخرة المسجد النبوي بالمدينة المنورة أنشئ ضمن المبنى في الجهة الشمالية لتعليم أبناء المدينة، وكان عددها أربعة كتاتيب أدركت منها الكتّاب الذي كان عريفاً عليه الشيخ محمد بن سالم ويعاونه فيه الشيخ عبد الحميد هيكل. وكان معلوماً عند أهل المدينة جميعاً ومعلوماً عندهم

الأثر العظيم الذي كان لهذا الكتاب في ناشئة المدينة، فما من كاتب ولا أديب إلا وقد مر بهذا الكتّاب المبارك، وعلى سبيل المثال آل حافظ وآل السادة المدني والسيد عبد القدوس الأنصاري وبجانب هذا الكتاب المبارك كانت حلق الدروس بالمسجد النبوي وكانت مدرسة العلوم الشرعية، ثم مدرسة دار الحديث.

وهكذا كان للكتاتيب آثارها وكانت مناهجها ابتداء بالقاعدة المسماة بالقاعدة البغدادية تعلم الحروف مفردة ثم مشبكة ثم في بعض الكلمات ثم الانطلاقة في القراءة. وكانت ولا تزال في أرياف العالم الإسلامي هي بداية الطريق للتعليم وقد شاهدت بنفسي في بعض دول أفريقيا بعض الكتاتيب في ظل بعض الأشجار الضخمة يلتف الطلاب حولها يستظلون بظلها، وشيخهم يشرف عليهم ويكتبون كل دروسهم في ألواح خشبية حتى يحفظوها، وهكذا وبها حفظ الله الإسلام والعربية هناك رغم كيد المستعمرين، ولله الحمد والمنة، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء النصف الثاني من القرن الرابع عشر بمكة المكرمة «الشيخ أحمد القاري»

هو الشيخ أحمد بن عبد الله القاري ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٠٩، وكان واسطة عقد بيت علم وفضل فأبوه الشيخ عبد الله القاري كان شيخ القراء بمكة وعمه الشيخ عبد الرحمن، تلقيا على مؤسس المدرسة الصولتية الشيخ محمد رَحِمَهُ اللهُ بالمسجد الحرام وبالمدرسة الصولتية، فكان أبوه وعمه مقرئ مكة، وأنجب الشيخ عبد الله أربعة من الأبناء النجباء كلاً من الشيخ أحمد هذا، والشيخ حامد، والشيخ محمود، والشيخ سراج. وقد أسهم هؤلاء الأربعة في تسيير عجلة التعليم بمكة المكرمة مع مشاركة بعضهم في إقرار ميزان العدالة بتولي القضاء. فكان شيخنا أحمد عبد الله القاري كما أسلفنا واسطة عقد بين أعلام من بيوتات مكة المكرمة من عهد الأشراف إلى العهد السعودي كما ترك شيخنا أحمد أبناء أجلاء يأتي ذكرهم في نهاية الحديث عنه إن شاء الله.

بدأ مراحل تعلمه بحفظ القرآن الكريم وتجويده على والده شيخ القراء بمكة والتحق بالمدرسة الصولتية بمكة المكرمة مع حضور حلق الدروس بالمسجد الحرام، فبدت عليه مخايل النبوغ مبكراً فاختير للتدريس في تلك المدرسة، وهو لم يزل طالباً لم يتخرج. وهذا وحده شاهد على نبوغه وسعة تحصيله، وقد عاصرت ذلك في المعاهد العلمية والكليات في وسط السبعينات قبل أن تتحول إلى جامعة الإمام محمد بن سعود حين حدثت أزمة المدرسين من بعض البلاد العربية، فكان الحل انتداب بعض من عرفتهم الإدارة بالتفوق والتحصيل من الصفوف المتقدمة من كليتي الشريعة واللغة مع مواصلتهم الدراسة حتى تخرجوا مع زملائهم.

وها هو شيخنا أحمد القاري يسهم في التعليم وهو لا يزال يتعلم. وقد يكون ذلك عاملاً قوياً في زيادة تحصيله لما يتعين عليه من تحضير ويكتسبه من

خبرة وتثبيت للدروس. وهنا ننصح لكل طالب علم طلب منه المساهمة في سير الدراسة أن يبادر بالاستجابة شريطة أن يكون تدريسه في نطاق دراسته. ومن جهة أخرى فإن هذا العمل من جانب المدرسة أو المعهد أو الجامعة لهو حقاً مجال تشجيع عظيم لطلابها حيث تقدر نبوغهم وتستفيد من نتيجة مجهودها مع أبنائها.

ولا شك أنهم سيكونون أشد نصحاً لها لشعورهم بأنهم يؤدون ديناً لها عليهم ويبرون الأم التي احتضنتهم وحنت عليهم وكان منهج الصولتية منهجاً قوياً؛ كما جاء في مقدمة المجلة نقلاً عن كتاب المدرسة السنوي وذلك إذ جاء فيه أن الشيخ أحمد القاري امتحن سنة ١٣٢٩ في تسعة علوم: الحديث وأصوله، والمعاني، والفرائض، والحكمة، والهيئة، والمجيب، والجبر، والمقابلة والمقنطر. وهذه الأخيرة علوم رياضية، خلت منها مناهجنا اليوم وقد لا يعرف عنها شيء المجيب والجبر والمقابلة والمقنطر أما دراسته في الحرم، ونظام الحلق فقد هيأته كذلك لمرتبة التدريس العام بالمسجد الحرام مع شيوخه وزملائه.

وكان ذلك عن اختبار وإجازة وكان لذلك هيئة علمية يصفها الشيخ حسن مشاط المحدث المعروف قال: كانت مكونة من أربعة علماء وكانت كيفية الامتحان سؤالاً ونقاشاً وانتقالاً من فن إلى فن، حيث كانت شفوية وعلى نظر الممتحنين. قال الشيخ المشاط: يطرح كل واحد من العلماء الأربعة سؤاله في مختلف العلوم ويناقشون المتقدم مناقشة قوية مفحمة قل من يستطيع النجاح فيها.

وكان الأمر بالنسبة للشيخ أحمد القاري أنه كان يجيب على كل سؤال بإسهاب وتحليل عجيبين واستطاع بقوة علومه، وسلاسة أسلوبه أن يمتلك إعجاب الممتحنين والحاضرين واستحق بجدارة أن يكون من مدرسي المسجد الحرام ولنا هنا وقفة طويلة نوجزها فيما يلي:

أولاً: إسناد إجازة التدريس بالمسجد الحرام إلى هيئة من العلماء منهجاً قويماً وضماناً من أن يتقدم لمجالس التدريس من ليس كفؤاً له، ولا سيما والمسجد الحرام ومثله المسجد النبوي الشريف يأتي إليهما من أقطار العالم الإسلامي ما بين عالم وعامي. فالعالم يجد طلبة علم أكفاء تتناسب منزلتهم

ومكانة المكان الشريف. والعامي سيأخذ قول عالم الحرمين قضية مسلمة فيرجع بها إلى بلاده.

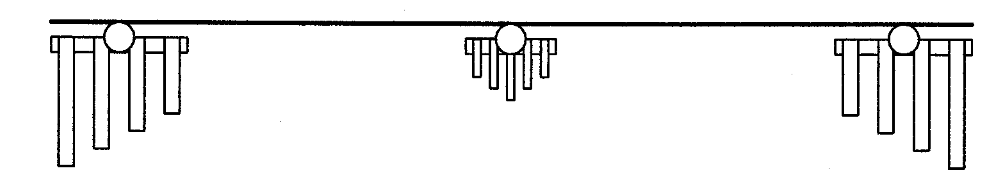
وقديماً قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: لم أجلس للدرس ولا للفتوى إلا بعد أن شهد لي سبعون عالماً. وفرق ما بينهما كبير كفرق ما بين الأربعة والسبعين، ولكن السبعين في عهد مالك ليست بأكثر من الأربعة في عهد أحمد القاري فإن العوام في عهد مالك قد يكونون خيراً من بعض العلماء في عهدنا الحاضر، قرأت عن بعض المغتربين في بغداد لطلب العلم، قال: مكث عدة سنوات حتى رأى من نفسه أنه أصبح عالماً فأراد العودة إلى بلده فلما أخذ يتأهب للسفر وقف في طريق خروجه على امرأتين تبيعان بعض الزاد فسمع إحداهن تقول لصاحبتها: أما سمعت ما قاله الحسن بالأمس؟ فقالت: وماذا قال؟ فقالت لها: إنه يقول: يجوز الاستثناء في اليمين ولو بعد مدة طويلة. فقالت لها صاحبتها: ما أظنه يقول ذلك وإن كان قاله فليس صحيحاً؛ لأن الله تعالى قال في حق نبيه أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أقسم أن يضرب زوجه إذا رجعت إليه مائة سوط، وكانت غيبتها في مصلحته هو. فقال الله تعالى له: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]. يعني: بالضغث قنو النخل فيه مائة شروخ يضرب به ضربة واحدة فيبرأ في قسمه ولا يحنث فلو كان الاستثناء المتأخر ينفع لأفتاه الله بالاستثناء ويقول له: قل: إن شاء الله، وينحل يمينه. كل ذلك وطالب العلم الذي يريد العودة إلى بلده يستمع ويعي فلما انتهت محادثة المرأتين قال لنفسه: عجباً والله بلد بائعات «الفوم» بهذه المثابة من الفقه والفهم أخرج منه الآن لا والله. ثم رجع يستأنف الدراسة يستزيد من طلب العلم؛ نرجع إلى الوقفة التي وقفناها مع لجنة امتحان شيخنا القاري حيث قال الشيخ المشاط: ويناقشون المتقدم مناقشة مفحمة إن هذا فيه إفراط. وقد قال ﷺ: «من نوقش الحساب هلك». فليس الامتحان تعجيزاً كما يتوهمه البعض وإنما هو استطلاع لمحصلة الطالب ومما ذكر عن امتحان «طه حسين» أنهم أرادوا تعجيزه فعلاً ففوجئ بسؤاله إياه: أعرب جاء زيد. ثم فوجئ بالسؤال عن التنوين. زيدٌ أي الضمتين...

ولكن إذا كان الامتحان شفوياً كهذا ووجد الممتحن قدرة الطالب فاسترسل معه فقد يفتقر ذلك، هكذا أيها الإخوة فيما يتعلق بالرفق في السؤال

وفيما يتعلق بالرفق في الطالب وهنا حينما ينقل عن بعض العلماء التشدد في موضوع الامتحان فإن ذلك ليس من الملصلحة فقد يتعنت بعض المشايخ وقد يلبس على الطالب أو يفاجئ بمثل ذلك فيكون سبباً في إخفاقه ويكون السبب هو التشدد.

لقد أوردت هذا استطراداً عن قصد لأبين في هذا المنهج المبارك أن الاختبار ليس تعجيزاً والدراسة ليست لعباً وأن التدريس لا يجوز إلا ممن كان كفؤاً له وخاصة في الحرمين الشريفين، واليوم قد جاءت الشهادات الجامعية والدراسات العليا عوضاً عن ذلك، وقد ولي شيخنا أحمد القاري عدة مناصب وخلف مرجعاً هاماً وعملاً عظيماً بذل فيه جهداً وتركه مخطوطاً طبع بعده وهو مجلة الأحكام الشرعية على مذهب أحمد، سنلم بها إن شاء الله، وبالله تعالى التوفيق.





«ب» مع عالمنا الشيخ أحمد عبد الله القاري
(١٣٠٦هـ ـ ١٣٥٩هـ)

تقدم موجز نشأته ومولده وتعليمه وطريقة امتحانه للتدريس بالمسجد الحرام، وقد شغل رَحِمَهُ اللهُ عدة مناصب وأسهم هو وأفراد أسرته في مسيرة العلم بمكة المكرمة ووردت عملاً جليلاً بعنوان: كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ. ومعلوم أن مكانة الإنسان تقدر بآثاره ولا سيما العلماء، كان من أهم آثاره العلمية أن تولى التدريس في رحاب المسجد الحرام في حصوة باب إبراهيم. يقول عنه الشيخ محمد علي مغربي: كان طلابه الذين يجلسون بين يديه يكبرونه سناً. وهنا يقال: العلم قدمه وأكبره.

وبهذه المناسبة أذكر أنه في معهد الرياض في أوائل السبعينات كنت مشاركاً في عضوية النادي الأدبي للمعهد، فتقدم بعض الإخوان وهو الأخ علي الضالع من كبار طلاب حلق المساجد ومدير مستودع الكتب التي توزعها الدولة، وكان يدرس بالمعهد قدم كلمة للنادي وكان ولده يدرس في التمهيدي، فقدم كلمة هو أيضاً فتعمدت جعلهما في ليلة واحدة، وجعلت الولد بعد والده مباشرة في إلقاء الكلمة وكان تعليقي أن قلت: إن العلم لا يعرف ولداً ولا والداً ولا يفرق بين كبير ولا صغير إلا بمبلغ التحصيل. وبلغني أيضاً أن بعض الإخوان كان هو وابنه في فصل واحد وتخرجا في سنة واحدة.

وكم من عالم جليل بدأ الطلب بعد الأربعين والخمسين وهذا عالمنا الشيخ أحمد عبد الله القاري نموذج لذلك في هذا المجال، وقد أوضح لنا مجلسه هذا لطلبة يكبرونه سناً أن أولئك الطلاب طلاب صدق لا عليهم إن كان شيخهم أكبر أو أصغر منهم، فكم من طالب نبغ في علمه ثم رجع إليه شيخه يأخذ عنه، ويعرف عند علماء الحديث برواية الأكابر عن الأصاغر.

أما مناصبه التي شغلها؛ فمنها في عام ٣٣٦ انتخب معاوناً لأمين الفتوى

بمكة المكرمة. وفي عام ١٣٣٩ عين عضواً بهيئة التدقيقات الشرعية، التي كانت تدقق الصكوك بمثابة هيئة التمييز اليوم. وفي عام ١٣٤٥هـ نقل إلى جدة ليتولى القضاء وباشر التدريس والإمامة بمسجد عكاشة. وفي سنة ١٣٤٩هـ عين عضواً بمجلس الشورى. وفي سنة ١٣٥٠هـ تولى رئاسة المحكمة بمكة وفي عهده شهدت المحكمة عدة تحسينات وتنظيمات. وفي عام ٥٧ انتقل إلى رئاسة القضاء لهيئة التمييز الحالية ثم توفي رحمه الله سنة ١٣٥٩ بعد هذا المشوار الطويل والجهد العظيم، مما يسجل له علو المكانة ورفعة المنزلة ويضعه رحمه الله في مصاف العاملين الذين خدموا دينهم وأوطانهم وشاركوا في نهضة بلادهم، وقد خلف لنا ثروة مزدوجة الأولى في أبنائه وجاء في مقدمة المجلة أنهم: عبد الحي تقلد عدة مناصب عامة وخاصة، وعبد الحميد كان بوزارة الخارجية، ومحمد سعيد أيضاً بالخارجية، عبد الفتاح ويعمل بوزارة الإعلام.

أما الثروة الثانية؛ فهي كتابه «المجلة» وبصرف النظر عن الواقع الفعلي لهذا الكتاب فيهمنا المجهود العملي والوسع العلمي ولكي نقدم وجهة نظر حول تلك المجلة نعرّفها أولاً: هي كما في مستهل العنوان: «كتاب» وليست من المجلات السيارة أسبوعية أو شهرية ومن عنوانها: مجلة الأحكام الشرعية. ليست مجموع قضايا أصدرتها المحاكم وجمعت في كتاب كما في بعض البلدان. ولكنها كما في عنوانها من قولهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل؛ أي أنها عبارة عن كتاب أعاد صياغة الأحكام في المذهب الحنبلي في قالب مواد مرقمة بتسلسل في عبارات معقدة أشبه بمواد القوانين، وجاءت هذه التسمية مجاراة لمسمى (مجلة الأحكام العدلية) التي صدرت سنة ١٢٩٣هـ عن الخلافة العثمانية؛ أي في عهدها.

اشتملت على المعاملات فقط والدعاوي وأحكام القضاء استوعبت مائة قاعدة تحتها إحدى وخمسون وثمانمائة وألف مادة. مبناها على المذهب الحنفي الذي كان معتمداً للدولة العثمانية. فنسج عالمنا القاري على منوالها شكلاً ومضموناً مع اختلاف المذهب وكان السبب في عمل المجلة العثمانية توسع الأعمال التجارية بينها وبين أوربا ووقوع المنازعات التجارية، وعدم معرفة الناظرين في ذلك لمآخذ الأحكام الفقهية من مراجعها لأن دراستهم

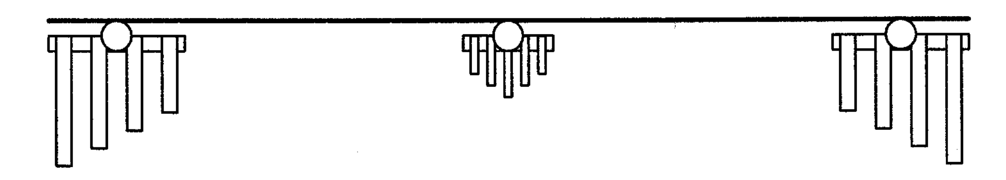
كانت قانونية. إذاً فالمجلة العدلية العثمانية وضعت لغير العلماء ممن درسوا القوانين الوضعية لتقرب لهم الأحكام الشرعية على ما ألفوه في دراسة القوانين من قواعد ومواد متقيدة بالمذهب الحنفي، وجاءت مجلة الأحكام الشرعية على غرارها متقيدة بالمذهب الحنبلي، ونحن هنا نتساءل: إذا كانت المجلة العدلية العثمانية وضعت لمساعدة القانونيين، فهذه المجلة للشيخ أحمد القاري وضعت لمساعدة من؟ إنها وضعت في العهد السعودي والمملكة العربية بل وجزيرة العرب لم تحكّم قط بقانون وضعي منذ فجر الإسلام إلى اليوم، وعلى مقتضى مذهب حكامها في كل عصر. وقد توالت عليها حكام المذاهب الأربعة. ومنذ العهد السعودي فإن المذهب السائد هو المذهب الحنبلي مع وجود المذاهب الثلاثة الأخرى.

ولقد طبعت هذه المجلة بعد وفاة مؤلفها في سنة ١٤٠١، أي ما ينوف على أربعين سنة حققها وأخرجها كل من الدكتورين عبد الوهاب إبراهيم أبي سليمان والدكتور محمد إبراهيم أحمد، الأستاذين المشاركين بجامعة أم القرى. وأصدرتها مؤسسة تهامة للطباعة والنشر. وقد يكون الجواب عن موجب عملها هو ما نلمسه من عبارة الدكتورين المحققين الفاضلين من أنه كان المغفور له الملك عبد العزيز يرغب في عمل مجلة كهذه ولكن ليست متقيدة ولا محددة بمذهب معين وإنما تأخذ بالأرجح وفق الكتاب والسنة. غير أن تلك الرغبة لم تتحقق لضخامة المشروع وعدم ملاءمته الاستجابة من كبار العلماء، فعمد الملك عبد العزيز إلى تعيين مراجع القضاء من فقه المذهب أو مذهب أحمد وتسمية الكتب المعتمدة كالمغني ومنتهى الإرادات وكشاف القناع. . .إلخ، يقول الدكتوران الفاضلان: فعمد الشيخ أحمد القاري إلى تلك المراجع فصاغها قواعد ومواد. ولهم مشكورين جهد عظيم في إخراجها ودراستها وملاحظتنا عليها وهنا نوضح وجهة نظرنا في هذه المجلة وما ماثلها ونشير إلى أنه قبل صدور هذه المجلة الحنبلية قامت فكرة باسم تقنين الشريعة أخذت حيزاً فكرياً ما بين مؤيد ومعارض وكتبت رسائل ضدها أذكر منها للأخ الفاضل الشيخ عبد الله البسام. وانتهى النقاش إلى الترك.

وحيث صدرت هذه المجلة وقوبلت من البعض بالاستحسان، فإني أقول:

إنها ومثيلاتها لا تصلح لمنهج قضائي وهذه بالذات لم تتفق مع الرغبة الملكية السابقة إن صح ذلك؛ لأنه كان يريدها أن تقوم على الراجح من الكتاب والسنة، وهذه تقيدت بالمذهب الحنبلي. ومن واقع هاتين المجلتين العثمانية الحنفية والقارية الحنبلية، نجد أنه لو عمل بهما لخضع القضاء إلى رغبة الحكام وتقديمهم مذاهبهم فتارة حنفية وأخرى حنبلية ولم تترك للقاضي مجالاً للاجتهاد. حتى لو فرضنا جدلاً ضرورة الالتزام بمذهب معين وليكن مذهب أحمد مثلاً، فإني لاحظت على هذه المجلة أنها تسوق في كل موادها مقتضى رواية واحدة عن أحمد والحال أن فيها روايات عدة ومنهج القضاء يعتبر كل قضية لها ملابساتها الخاصة، وبالله تعالىٰ التوفيق.





من أعيان علماء الحرمين في نهاية القرن الرابع عشر بمكة المكرمة «الشيخ حسن بن محمد المشاط»

عالمنا هذا الشيخ حسن المشاط من أبناء مكة المكرمة وعلمائها ومن بيوتاتها بيوت العلم: آل المشاط. وكان أبوه عميد تلك الأسرة وكان شيخنا الفاضل دائم الصلة بالمسجد النبوي الشريف يأتيه سنوياً ويلقي بعض الدروس مدة وجوده بالمدينة في الحديث وله تلاميذ يحرصون على الأخذ عنه كلما جاء، وقد شاهدت بعض حلقاته واستمعت لبعض دروسه وكانت دروسه بالمدينة في الحديث النبوي الشريف وقد لمست وأحسست أثناء سماعي إياه لطف العلماء وشفافية الروح، إذ كان هادئ الطبع غض الصوت هش الوجه كان في صوته غنة يرد العبارات ليفهم السامع، وينوع الكلمات زيادة في الإيضاح. يحرص العديد من بعض الإخوان على حضور حلقاته، وقد أدركت من منهجه توقير السنة النبوية وتكريم العلماء واحترام الآراء الفقهية لأصحابها على سنن السلف من أفاضل العلماء مع تواضع جم ووقار وافر، ودوام ذكر الله.

وكان مجلسه في المسجد النبوي شرقي الحجرة المشرفة خلف المكبرية في محاذاة الروضة المطهرة، ولد ونشأ كما جاء في مقدمة كتابه النفيس «الجواهر الثمينة في بيان أدلة عالم المدينة» تحقيق الدكتور عبد الوهاب بن إبراهيم أبي سليمان الأستاذ بقسم الدراسات العليا جامعة أم القرى.

وطبع على نفقة ابن المؤلف، الشيخ أحمد حسن المشاط قال: ولد أي عن أبيه في حي القرارة بمكة المكرمة في الثالث من شوال سنة ١٣١٧، وأسرة المشاط عريقة في مكة، فيها العديد من العلماء والأعيان. منهم الشيخ

عبد القادر المشاط، كان إماماً بمقام المالكي، ومدرساً بالمسجد الحرام من أعيان الثالث عشر ولد ونشأ وتعلم بمكة، وأخذ عن مفتي المالكية الشيخ حسين ومنهم أيضاً الشيخ محمد بن عباس المشاط والد شيخنا حسن المشاط، والشيخ أحمد المشاط.

فكانت نشأة صاحبنا كغصن في دوحة، امتدت أغصانها وأينعت ثمارها. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ في رعاية والده ينعم بفيض من العطف والحنان، ويسعد بجو غاية في الهدوء والاطمئنان أعظم ما يساعد على التحصيل والإتقان. وقد ترجم الشيخ حسن لوالده وذكر عنه التقوى والصلاح والتفقة في الدين والعمل في التجارة. وقال عنه: إنه قرأ المختصرات والمطولات في المذهب المالكي، رغم أنه نشأ يتيماً وتحمل مسؤولية أسرة طلبة للعلم؛ حيث إن والد شيخنا حسن طالب علم، وعلى تلك الدرجة فقد نشأ صاحبنا تحت رعاية هذا الوالد ونال من عنايته ما أوصله إلى ما وصل إليه، ويقول الشيخ حسن المشاط عن نفسه: لما بلغت السابعة من العمر عهد بي والدي إلى بعض كتاتيب مكة لقراءة القرآن وتجويده. مع تعلم القراءة والكتابة والإملاء والحساب وهكذا يعطينا الشيخ حسن مشاط صورة منهج تلك الكتاتيب في ذلك العصر، فقد كانت بمثابة المراحل الابتدائية اليوم مع العناية الفائقة وفي الدرجة الأولى بحفظ القرآن الكريم وحسن تلاوته على قواعد التجويد.

وقد كان غالباً ما يدرس منها، ما يسمى بالقواعد البغدادية التي تبدأ بمعرفة الحروف مفردة أ ـ ب ـ ت ـ. . . إلخ ثم مع حركاتها ثم مشبكة، ثم الجمل، ثم بعد مرحلة الكتّاب انتقل إلى المدرسة الصولتية سنة ١٣٢٩. وكانت هي الأولى والوحيدة في مكة المكرمة، أعني على نظام المدارس المعهودة اليوم ذات فصول وتعدد مواد وزمن محدد يومياً ولكل درس بجوار حلق الدروس بالمسجد الحرام في العلوم الدينية والعربية.

وقد رغب الناس في تلك المدارس، لما تتسم به من نظام وترتيب وتأهيل للعمل في مجالات متعددة وكانت المدرسة الصولتية، رغم حداثة نشأتها سنة ١٢٩٢، ذات منهج قوي من: التفسير والحديث والأصول وغير ذلك، مما سيذكره الشيخ حسن بنفسه، حيث قال: بدأت بها بدراسة علم

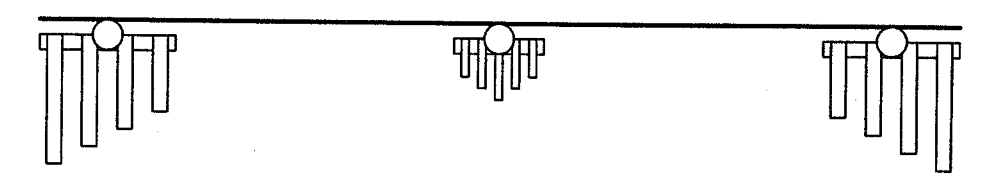
النحو والصرف، متدرجاً من الأجرومية وتعاريفها أولاً، ثم المتممة لها، ثم ألفية ابن مالك ثم قراءة الأمثلة المختلفة في الصرف والبناء والعزي، ومراح الأرواح مع العناية في ذلك كله قراءة وحفظاً ومذاكرة للدروس وسؤال وجواب من الأستاذ وهنا لفتة منهجية وضعها سلفنا للتدرج مع الطالب حسب استطاعته وقوة حافظته وفهمه. كما تتدرج به الأم تمام في طفولته في غذاء جسمه فتعطيه الخفيف السهل بما تستطيعه «معدته» حتى إذا فطم وشب تناول ما يشاء، فهكذا علماء السلف رحمهم الله وضعوا المتون مدرجة كما في علم النحو مثلاً.

أوله: الأجرومية؛ وهي. ورقات قلائل صيغت فيها قواعد النحو العامة، صياغة مبسطة يسهل حفظها ومذاكرتها، تكون بمثابة تذوق علم النحو ومعرفة، أبوابه ومداخله. وقد بارك الله في هذه الرسالة فانتشرت في العالم العربي. وقلّ أن تجد طالب علم في مسجد في العالم أو مدرسة متقدمة إلا وقرأها وقد ظهرت آثار الإخلاص من مؤلفها، فانتفع بها كل من قرأها وحظيت بشراح، جمعوا أطرافها وأوضحوا مضمونها. وأعتقد أنه ما من أحد حفظها ودرس شرحاً من شروحها إلا أمكنه تقويم لسانه. وقلّ خطأه إلا في نوادر وشواذ النحو.

وقد نحا نحوها الأستاذ علي الجارم إذ وضع (النحو الواضح) للمدارس النظامية على المرحلتين الابتدائية والثانوية كل مرحلة في ثلاثة أجزاء؛ أكثر فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الأمثلة وبسط فيها القاعدة والتمارين المحلولة، وهكذا وجدنا منهج النحو في الصولتيه متدرجاً من أبسط المتون إلى أعلاها وهو ألفية ابن مالك. ولم يوضع في النحو بعدها ما يغني عنها ولها كذلك عدة شروح أيسرها لابن عقيل وأوسعها للأشموني. وهكذا يكون شيخنا أتم دراسة النحو بمنهج متكامل. ثم ذكر من العلوم العربية: البلاغة بأقسامها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع. ولم يذكر لنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكتب التي درسها في البلاغة. والمعروف في الكتب القديمة شروح السعد عدة أجزاء وهذا الفن هو صلب العربية مع متن اللغة والمتن هو معرفة معاني الكلمات؛ كمعرفة الهزبر: أنه الأسد مثلاً. لأن علم البلاغة هو الذي يعطي أسرار اللغة ويكسب الأسلوب جمالاً وإبداعاً ويكشف عن حقيقة المراد من الكلام من حيث إنه يراعي مقتضيات الأحوال

ويلاحظ قرائن الأقوال. وذكر بجانب ذلك علم الوضع، وهذا العلم وللأسف قد ترك حتى في الجامعات الحديثة، وكان يدرس في المعاهد والكليات بالرياض قبل أن تتحول إلى جامعة الإمام محمد بن سعود، مع أنه دقيق جداً ويعتبر من الترف اللغوي يبدأ مع اللغة من أول نشأتها وكيف نشأت ثم البحث في عموماتها كالأصول والأحوال بالنسبة للفقه من حيث العموم، وله دخل كبير في حل بعض مشاكل اللغة، وسنلم بمنهج تعلم شيخنا المشاط رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحلقات الآتية، وبالله تعالى التوفيق.





«ب» تتمة الحديث عن الشيخ حسن المشاط

في معرض بيان منهج دراسته في المدرسة الصولتية قال: ودرست الفقه وأصوله، والحديث وأصوله. والتفسير وأصوله، والعقائد وغير ذلك، أن من تمام المناهج العلمية أن تدرس المادة الرئيسية وأصولها.

فالفقه معرفة الأحكام الفرعية؛ أي الجزئيات ما هو حلال وما هو حرام وما هو صحيح وما هو فاسد من الأدلة التفصيلية كمعرفة أعضاء الوضوء من قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]. . . الآية. ومعرفة حد القطع في السرقة من قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ﴾ [المائدة: ٣٨] الآية. وهكذا جميع المسائل الفقهية في أبواب الفقة. أما الأصول فهو علم الأدلة الإجمالية، مثل: الأمر يقتضي الوجوب بدون نظر إلى أمر من الأوامر والعام يحمل على الخاص إذا تعارضا. . . .

ومن لم يدرس الأصول لا يستطيع استخدام النصوص ولا التصرف في مدلولاتها. وهو علم خواص العلماء حتى قيل: جهلة الأصول عوام العلماء. وكذلك الحديث النبوي الشريف للعلماء في تدوينه وتصنيف أنواعه اصطلاحات فمن لم يعرفها يتعذر عليه الاستفادة من علومهم التي اصطلحوا عليها؛ كقولهم في الحكم على الحديث: متواتر مسفيض، صحيح لذاته، صحيح لغيره، معلق، مقطوع، منقطع، ونحو ذلك. والتفسير مع أصوله هكذا وكل هذه العلوم مع أصولها كأصول الصناعات من تجارة وصياغة وبناء وغير ذلك، من لم يعرف أصول صناعة لا يتقنها.

ولا يقال: تلك علوم مستحدثة فلا حاجة إلينا بها، لأننا نقول لهم: إنها استحدثت مع تميز تلك العلوم ومع تدوينها. ولها جميعها أصل من الكتاب والسنة يعرفه أهل هذه العلوم. وها هو ذا شيخنا المشاط يسجل لنا استمرار هذا المنهج العلمي إلى زمنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو بحمد الله، لا زال هذا المنهج هو

المعمول به، في دور العلم معاهد وكليات وجامعات وفي حلق الحرمين الشريفين ولله الحمد.

أما بداية مزاولته التدريس: بدأ يعاون في تدريس بعض الطلبة في الصفوف الابتدائية في تلك المدرسة، وقد لمست هيئة المدرسة الصولتية كفاءته في ذلك فمنحته شهادة بذلك سنة ١٣٣٦.

وانضم إلى هيئة التدريس بها، ثم واصل ولم يتوقف عن مشاركته في التدريس، مواصلة سيره في التزود والتحصيل، فكان يترقب العلماء الوافدين إلى مكة فيلازمهم للأخذ عنهم. من هؤلاء الشيخ حمدان الجزائري قدم سنة ١٣٣٧، أي بعد مشاركته في التدريس بسنة.

فقرأ عليه أوائل مختصر خليل، وهو العمدة في مذهب مالك والطريف في هذا كيفية أخذه عنه لأن الشيخ قدم حاجاً ومدة الحاج بمكة محدودة فأخذ عنه شيخنا مدته بمكة ثم صحبته إلى منى وإلى أن عاد الشيخ من مناسكه إلى مكة إلى أن سافر في شهر المحرم. لا شك أنها همة عالية وحسن تكيف مع الوافد ومع الواقع. وقد حدث لمن أعرفهم مع شيوخهم نحو من ذلك في أثناء الحج في عدة مرات يأخذ الطالب على الشيخ كما أخذت عن شيخنا الشيخ الأمين رحمة الله تعالى علينا وعليه. هذا لا يكون إلا مع الشيوخ الذين لا يحتاجون أن يصحبوا معهم الكتاب عند شرح الدرس ممن مارسوا تدريس المادة مدة طويلة. وهكذا فعل رحمه الله مع شيخه محمد عبد الله زيدان كان يأتيه في بيته ويلح في أخذه عنه، حتى في ساعات تعب الشيخ، يقول عن نفسه: كنت أباسطه وآخذ بيده حتى يتهيأ للدرس. بل وقد سمعت من بعض أصدقائه بالمدينة، أن شيخه الشيخ حبيب الله لما انتقل من مكة إلى المدينة لحقه الشيخ المشاط ولازمه وأخذ عنه بالمدينة وجرت عادة المترجمين التعرض للبيئة والعائلة لبيان مدى مؤثرات النجاح على من يترجمون لهم، وهذا في نظري ليس مضطرداً. فقد ينشأ الغلام في جو ناعم هادئ موفور الجوانب المادية فيتجة بكليته للدراسة ويتفوق في التحصيل، وقد يكون هذا الترف وهذا النعيم سبباً لعدم إدراكه مهام الحياة ومتطلبات العيش والكد في تحصيله. ومن جانب آخر قد يكون شظف العيش وخشونة المعيشة ونقص بعض لوازم الحياة، قد

يكون ذلك ملهاة وصارفاً عن الدراسة. وقد يكون العكس، فسوط الحاجة يلهب الشعور ويقوي الإحساس بما يعوضه عما نقص عنه نتيجة للعلم والتحصيل. والعبرة في نظري هي أولاً وقبل كل شيء بتوفيق من الله ثم بالقائم على شؤون الناشئة. ومن هذه الناحية فإن شيخنا المشاط نشأ في ظلال وارفة تحت دوحة والديه. وزوج في مقتبل سن الزواج فكانت زوجه خير معين. وهذه هي كما يقال: محط الرحل؛ لأن العديد من خيرة العلماء والزعماء أكثر ما يساندهم الخيرات من نسائهم والشواهد على ذلك كثيرة. حتى قيل: وراء كل عظيم امرأة، بل وقيل أيضاً: فتش عن المرأة. ورزق ولداً واحداً هو الشيخ أحمد حسن المشاط، وقد عني به كما عني به أبوه من قبل ويذكر العلماء عن سلوكه صفاته أقول: كنت إذا رأيته ذكرتك رؤيته سيما العلماء وأحسست هيبة الوقار وكان كثيراً ما يتمثل بقول الشاعر:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما

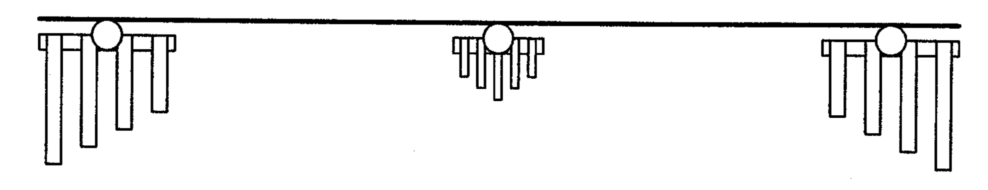
كما عرف عنه إيثار الخشونة في العيش وعدم التوسع في الملذات ومتأثراً بقول القائل:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرا

ولكن هذا ليس حرماناً للنفس، ولا تحريماً للتنعم، والله يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وقال أحمد رحمه الله: عجبت لمن يترك لين الخبز ويأكل يابسه ويترك لين القطن ويذهب إلى الخشن من الصوف. ويقرأ الآية ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ ...﴾، وكان رحمه الله ينبسط مع تلاميذه ومعارفه. وذكروا له من المداومة على أعمال البر الشيء الكثير. ومن محاسن فعاله مع تلاميذه مد يد المساعدة لمن تكاد تقطعهم الفاقة عن طلب العلم، وكان حريصاً على دروس المسجد الحرام وكان لا يأخذ أجراً على ذلك. ولا شك أنه عمل صالح والله تعالى يعظم له الأجر، ولكن ليس ذلك بحرام. وليس هو أجر مقاطعة يماسكه عليه بل هو رزق من بيت مال المسلمين يقدمه ولي أمر المسلمين لمن يخدم المسلمين. ولا أظنه كان يفعل ذلك مع المدرسة الصولتية. كان رحمه الله حريصاً على حفظ المتون على منهج الأوائل وكانوا يقولون: من حفظ المتون حاز الفنون، وقد خلف رحمه الله مؤلفات

نافعة في فنون متنوعة من أهمها: (رفع الأستار عن محيا مخدرات طلعة الأنوار)، وطلعة الأنوار نظم في المصطلح لسيد عبد الله صاحب «راقي السعود». ونقل عن الشيخ حسن أن هذا الشرح هو ما كان يقيده عن شيخه حبيب الله بن مايابا وله تأليفه طبع مراراً ونفع الله به، كما تخرج على يديه علماء أجلاء أوردهم محقق رسالة الجواهر الثمينة وممن لم يوردهم شيخنا الشيخ محمد بن أحمد مزيد بن مختار كان مدرس السيرة في معاهد الرياض والتفسير والحديث في المسجد النبوي الشريف، وتقلب الشيخ المشاط رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عدة وظائف من التدريس إلى القضاء إلى هيئة التمييز ثم عضو في مجلس الشورىٰ وكل ذلك مع المداومة علىٰ التدريس والتأليف إلى أن وافته المنية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوم الأربعاء السابع من شوال سنة ١٣٩٩ بمكة ودفن بالمعلاة رحمه الله رحمة واسعة، وبالله التوفيق.





من أعيان علماء المدينة المنورة في القرن الرابع عشر

يعلم الجميع عدم وجود مراجع مطبوعة ومتداولة لعلماء المدينة المنورة في هذا القرن الرابع عشر. وليس أمام أي كاتب عن ذلك إلا البحث عن الدوريات والصحف وما شابهها، أو السماع ممن لقي وعاصر أو يكون هو بنفسه قد لقي وعاصر بعض أولئك الأعلام، وحصل عنده ما يمكن أن يقدمه لأبنائنا المعاصرين ولأجيالنا المقبلين، وقد بحثت جهدي فكانت حصيلة البحث وإلى الآن هي:

تراجم بعض أشخاص في كتاب «علماء نجد خلال ستة قرون» لفضيلة أخينا وزميلنا الشيخ عبد الله البسام، جاء فيه ثلاثة أشخاص من هذا القرن وهم فضيلة الشيخ صالح الزغيبي إمام وخطيب المسجد النبوي وفضيلة الشيخ عبد الله الزاحم رئيس محاكم منطقة المدينة آنذاك. وفضيلة شيخنا الشيخ محمد بن تركي. كما حصلت على بعض تراجم لبعض الأعيان كان قد كتبها فضيلة المرحوم الشيخ محمد سعيد دفتردار والتي استقاها من أصحابها مباشرة أو من ذويهم وأصدقائهم، وكان قد نشرها بمجلة المنهل وحصلت عليها من نسخة النادي الأدبي بالمدينة عن طريق رئيسه الأديب الشاعر السيد هاشم رشيد، وفيها تراجم لثمانية أشخاص في هذا القرن وهم: الشيخ زاهد عمر زاهد، الشيخ محمد بن أحمد عمري، الشيخ أبو بكر عمر الداغستاني، الشيخ عبد الحق رفاقت العثماني، الشيخ عمر بري، الشيخ أبو بكر محمد أحمد السوفي الشهير بالتنبكتي، الشيخ عمار بن عبد الله الجزائري، الشيخ محمد أسعد الثاني، وهؤلاء تتفاوت تراجمهم كثرة وقلة ومنهم من أدركناه وأخذنا عنهم وعرفنا بعض سيرهم وكذلك عرفنا بعضاً عن مناهجهم، وسنوردها ما أمكن من تراجمهم بحول الله تعالى في حينه.

كما وجدنا أسماء لمدرسين بالمسجد النبوي الشريف سنة ١٣٥٥، جاءت

أسماؤهم وبدون تراجم لهم في تواقيع على رسالة لفضيلة الشيخ سليمان العمري شيخ المدرسين في المسجد النبوي آنذاك، كان وجهها إليهم ليبدوا وجهات نظرهم فيها، وهم: فضيلة الشيخ محمد الطيب التنبكتي الأنصاري وفضيلة الشيخ صالح التونسي والشيخ عبد الرؤوف عبد الباقي الشافعي، والشيخ أحمد مصطفى بساطي، والشيخ محمد عبد الله المديني المالكي، والشيخ محمد بن الهندي الحنفي، والشيخ آصف رشيد أحمد، والشيخ محمد فوزي الباطرمي الحنفي، والشيخ عبد الجليل عبد الله برادة، والشيخ محمد المصطفى ابن الإمام الشنقيطي، وفضيلة الشيخ قاسم أنديجاني. وجميع هؤلاء العلماء الفضلاء كانوا مدرسين بالفعل بالمسجد بالنبوي الشريف مما يشعر بمدى الحركة العلمية آنذاك وهي إبان أوائل العهد السعودي، وإن كتاباتهم رحمهم الله على رسالة الشيخ سليمان تلك المنوه عنها لتنبئ عن مدى علومهم وورعهم ونصرتهم لسنة رسول الله ﷺ، وسنلم بهذه الرسالة لموضوعها وعلو وبلاغة أسلوبها مع احترام جميع العلماء لجميع المذاهب.

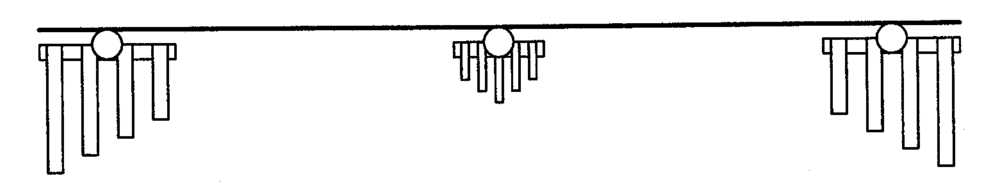
وتعتبر بحق من أدب رسائل العلماء رحمهم الله، وقبل أيام من كتابة هذه الحلقة وقفت على مؤلف معاصر بعنوان: إمتاع أو النظر ببعض أعيان القرن الرابع عشر ومؤلفه الشيخ ياسين الفاداني: وهو موجود حفظه الله الآن بمكة المكرمة. وهو كما قال لبعض أعيان القرن الرابع عشر: ولم يقتصر على علماء الحرمين، والموجود فيه من أعيان علماء المدينة اثنتا عشرة ترجمة فقط لكل من الآتي أسماؤهم حسب تاريخ وفياتهم: الشيخ عباس رضوان المتوفى سنة ٤٦، والشيخ جمال الهواري، والشيخ السيد حسين بن مصطفى الخياري، والشيخ عبد الحكيم الديباجي، والشيخة أمة الله بنت عبد الغني دهلوي، والشيخ محمد الطيب التنبكتي الأنصاري، والشيخ محمد عبد الباقي، والشيخ عمر حمدان، والشيخ عبد القادر شلبي، والشيخ محمد عبد الحي الكتاني، الشيخ إبراهيم الختني والشيخ حبيب الله بن مايابا. وهؤلاء توجد تراجم لهم متفاوتة ومنها ما يفي بمتطلبات هذا البرنامج ومنها ما يحتاج زيادة الحصول على بعض المعلومات. ومجموع هؤلاء اثنان وثلاثون شخصاً منها عشرون توجد تراجمهم فيما أوردنا واثنا عشر شخصاً لم يوجد لدينا عنهم إلا مجرد أسماء. نرجو

من الله أن ييسر لنا معلومات عنهم تفي بتراجمهم. وأخيراً يوجد العدد الوافر ولله الحمد الوافر ممن أدركناهم وأخذنا عن البعض منهم، وتحصل لنا عن طريق المعاشرة والمخالطة الشيء الكثير أو أدركنا من أخذوا عنهم ولم يزالوا على قيد الحياة يحدثوننا عن أولئك الأعلام..

فمن هؤلاء وأقربهم إلي وأطولهم مدة معهم وأكثرهم إفادة لي بدراسة العديد من الكتب عليهم في المسجد النبوي وفي بيوتهم عليهم رحمة الله ورضوانه وحسن ثوابه، هم حسب الأقدمية في الطلب عليهم: فضيلة الشيخ عبد الرحمٰن بن يوسف الشهير بالأفريقي. أخذت عليه في المسجد النبوي الشريف عدة كتب وفي دار الحديث وفي بيته على ما سيأتي من ترجمته رحمه الله.

وقد ترجم له أيضاً، الشيخ محمد سعيد دفتردارد، ولكن نشر ترجمته بجريدة المدينة ولعلنا إن شاء الله نحصل على أعداد الجريدة في حينها في السبعينات. كما ترجم له تلميذه الأخص ومثل ولده فضيلة الشيخ عمر بن محمد فلاتة، ترجمة وافيه نشرت بمجلة الجامعة الإسلامية سننوه عنها في محلها إن شاء الله، بعد ذلك فضيلة والدنا الوالد الكريم شيخ مشايخ المعاهد والجامعات الدينية بالمملكة، وحافظ عصره وعالم وفقه للمنقول والمعقول والدنا الروحي وشيخنا الحقيقي الشيخ محمد الأمين ابن المختار الشهير بآبّا رحمه الله.

ثم العلامة الزاهد الورع الفقيه المحدث سماحة الشيخ محمد بن تركي أخذت عنه رحمه الله في المسجد النبوي الشريف وفي بيته، ثم الشيخ محمد بن علي الحركان وإن لم ألازمه فقد أخذت عنه بعض الحديث في المسجد النبوي الشريف، ثم الشيخ عمار الجزائري وأول ما سمعت منه حديث: «إن النذر لا يأتي بخير ولكن يستخرج به من البخلاء»، والشيخ أبو بكر تنبكتي أخذت عنه في دار الحديث والشيخ محمد بن المختار بن أحمد مزيد أخذت عنه في المعاهد العلمية السيرة، وسمعت بعض دروسه في الحديث وغير هؤلاء ممن سنورد تراجمهم ما تيسر لنا ووسعه الوقت إن شاء الله. ونظراً لوفرة هذا العدد فإني سأقدم من لهم علي بعد الله تعالى الفضل في الدراسة ثم من يليهم حسب وفرة المعلومات، وإني بهذه المناسبة لأهيب بكل من لديه أية معلومات عن أي عالم له نشاط علمي بالمسجد النبوي الشريف في تلك الفترة أن يتكرم فيزودنا بها مشكوراً، وبالله تعالى التوفيق.



من أعيان علماء المدينة في الرابع عشر
«شيخنا الأفريقي»

تقدم إحصاء ما يقارب الأربعين شخصية علمية ممن ساهموا في الحركة العلمية المباركة بالمسجد النبوي الشريف. وأن البعض سجلت لهم تراجم في بعض الدوريات ونحوها، والبعض ممن حضرنا دروسهم ولازمناهم على اختلاف الزمن، وعدنا بتقديم الذين عاصرناهم ولازمناهم حسب الأولوية والأولية الزمنية، وأول أولئك الأعلام الأفاضل هو شيخنا الأفريقي الشيخ عبد الرحمٰن بن يوسف الشهير بالأفريقي، فهو أول من ملأ سمعي بحديث رسول الله ﷺ وفي مسجد رسول الله ﷺ ومن كتاب إمام دار الهجرة الموطأ، للإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان من أول كتاب النكاح منه وإذا استرجعت عجلة التاريخ نحو الأربعين عاماً وفي عام ١٣٦٣. بعد حج ذلك العام، لأجدني أدخل المسجد النبوي من باب الرحمة فأجد إلى جهة خوخة الصديق حلقة من الطلاب الأفاضل بين أيديهم كتبهم على تلك الكراسي الصغيرة، كراسي المصاحف يتوسط الحلقة شيخ جليل جهوري الصوت يلقي عليهم مما أفاض الله تعالى عليه، فاسترعاني صوته واستهواني حسن حديثه وسهولة شرحه. فجلست خلف العامود، الذي يستند إليه وهو مستقبل القبلة، ماض في درسه إلى أن أذن لصلاة العشاء، وانصرف الناس المستمعون. وبقي حوله طلابه يسألونه ويستوضحون، ويتقبل الأسئلة بصدر رحب ويجيب بوجه هش مبتسم، مما زادني رغبة وتطلعاً إلى المشاركة الفعلية مع أولئك الطلاب. ومن الغد سلمت على الشيخ واستأذنته الحضور في حلقة درسه.

وأخذت مكاني وبدأت دراستي ثم سألت عن اسم الشيخ فعرفت أنه الشيخ عبد الرحمٰن بن يوسف الأفريقي.

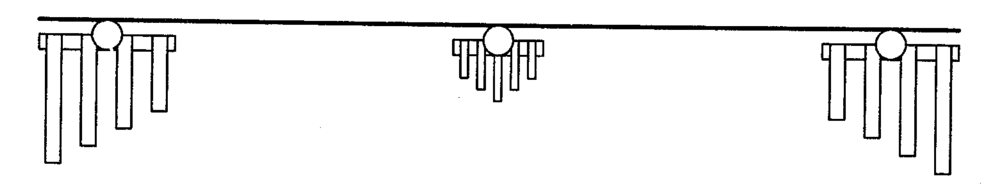
وكانت ابتسامته عند حديثه، وسعة صدره لمحدثه ورفقه مع من يسأله كفيلةً بسرعة توطيد الصلة به. وقد يحس الإنسان عند أول لقاء معه لكأنه لقيه عدة مرات. ولهذا فما إن مرت بعض الليالي، واستمعت بعض الدروس إلا ووجدتني أستطيع السؤال والاستفصال عما يشكل علي كما يسأل الآخرون. وإذا وجدت فرصة للذهاب إلى دار الحديث ضحى وجدت شيخنا مع طلبة الدار في دروسهم فيما فيه دراستهم، وقد تكون في «مشكاة المصابيح» وقد تكون في «سنن أبي داود» أو غير ذلك فيكون حظي الاستماع، ولقد ذهبت معه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أبعد من هذا. كان لبعض كبار الطلاب جلسة علم في بيته فأذهب معهم لزيارته. فوجدته رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسجد وفي المدرسة وفي بيته المعلم المربي الموجه والذي يحث دائماً وفي كل مناسبة على الجد والاجتهاد في طلب العلم.

ولكأن جميع الطلاب له، وعنده كأعز أولاده عنده.. فلم يمض طويل وقت حتى شعرت أني بين أهل وعشير وإخوان تربطني بهم صدق مودة وقوة صلة، وانصرفت كلية إلى الدراسة وأصبحت أرقب وقت الدرس وأستطيل الوقت دونه، وتحدث المناسبات عند بعض الأخوان فيصحب الشيخ معه من أراد. وكان في هذا تجديد وتقوية صلة الطلاب بعضهم لبعض، وقد حدث أن خرجت معه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المسجد النبوي بعد صلاة الظهر ومن باب المجيدي ومعه بعض الطلاب فقال لي كلمة: «معنا» ولم أدرِ أهو استفسار عما كنت ذاهباً معهم أو لا، أو هو طلب منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن أصحبهم حيث هم ذاهبون، لأذهب معهم وأدركت أنهم جميعاً على موعد للغداء ولم أعلم عند من، عنده هو، أو عند غيره.

ولكني استحيت أن أستفصل وكذلك لم أرد أن أعتذر عن صحبته وكنت يعلم الله في ذلك اليوم أعاني من آلام ما يسمى بـ«ضرس العقل» ويصعب علي تناول أي طعام غير السوائل. فاخترت المرافقة ولو لم أتناول شيئاً من طعام، ولكن حدث ما لم أكن أتوقع إذ وجدتني أتناول القليل وشيئاً فشيئاً، فإذا بالآلام تختفي وبالطعام يستساغ وأتناول وجبة كاملة وأعود بحمد الله معافى، وفي هذا الحدث العارض إيضاح لمدى ما لمست من قوة صلة ومدى ارتباط بفضيلته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولما ذكرت له ذلك قال: إن هذا ببركة المحبة في الله وزيارة الأخوان لوجه الله تعالى. وبعد قليل من الزمن وسماع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دروسه

يذكر أقوال الأئمة الأربعة وتارة يرجح هذا أو ذاك، فماشيت الشيخ بعض الأيام وأنا أتساءل عن حديث أورده وأورد أقوال الأئمة، فسألته: أي المذاهب الأربعة تختارها لي؟ علماً أن مذهب أهلي هو المذهب الشافعي ونشأت عليه. فتلطف بي، وأنا لا زلت في بداية الطريق وكأنه يوجه بلطف دون موازنة ولا مقارنة بين المذاهب إذ قال: ليس هذا أوان الاختيار، ولكن بعد أن تدرس وتدرك الفرق بين تلك المذاهب وتعرف أدلتها ويكون عندك من التحصيل العلمي ما يجعلك تحسن الاختيار لنفسك، فكان هذا أحسن توجيه لطالب العلم في معادلته بين المذاهب الأربعة بدون مفاضلة بينها لمجرد نسبتها إلى أهلها، ويتقبل الطالب كل قول اعتمد الدليل السليم. تلك صورة اللقاء الأول والصلة مع شيخنا الأفريقي رحمه الله عام ٣٦٣، واستمرت الصلة والدراسة وبعد الموطأ بلوغ المرام ونيل الأوطار ورياض الصالحين ومصطلح الحديث إلى سنة ٣٧١، حين افتتحت المعاهد والكليات بالرياض والتي تحولت فيما بعد إلى جامعة الإمام محمد بن سعود. وصدرت الأوامر السامية باستقدام شيخنا الأفريقي وغيره إلى الرياض للتدريس. وعلمنا أن الدراسة في المسجد النبوي قد زاحمتها الدراسة بالمعاهد، فرحل البعض إلى الرياض والتحقنا بالمعاهد وكان بيت الشيخ الأفريقي مقراً لطلاب دار الحديث الذين سافروا إلى الرياض للدراسة، سواء من التحق بالمعاهد أو اقتصر على الدراسة على الشيخ في بيته، وكان رحمه الله إذا عاد إلى المدينة في العطلة السنوية استأنف دروسه بالمسجد النبوي وبمدرسة دار الحديث وببيته على ما كان عليه قبل سفره إلى الرياض. وهكذا كل عام دراسي وكل عطلة دراسية.

ولعل قائلاً يقول: لقد أطلت الحديث عن نفسك وصلتك بشيخنا الأفريقي، فأقول: إنما أردت إعطاء الصورة العملية لحسن معاملة شيوخنا لطلابهم، ومدى مساعدتهم لطلاب العلم سواء في سفرهم أو إقامتهم، ومدى انقطاع شيوخنا رحمهم الله للعلم. وشيخنا الأفريقي رحمه الله قد لمس مصاعب وطول الطريق لطلب العلم، وما يحتاجه طلاب العلم من التيسير والعناية على ما سيأتي من بيان طريقه الذي قطعه وواصل السير عليه إلى ما وصل إليه وبيان منهجه في تدريسه وتربيته لطلابه. ثم كرم نفسه ومكارم أخلاقه، رحمه الله رحمة الله واسعة، وبالله التوفيق.



مع الأفريقي في أرض الحرمين

يقدم المسلمون من أقطار العالم الإسلامي إلى الحرمين الشريفين رجالاً وعلى كل ضامر يأتون من كل فج عميق لأداء حج بيت الله الحرام وزيارة مدينة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام. فإذا تم لهم ذلك غمرتهم الفرحة والبهجة وعادوا سراعاً إلى أهلهم وذويهم ولكن صاحبنا الأفريقي قدم إلى أرض الحرمين وفي نيته البقاء وفي عزمه الكفاح والجهاد الكفاح ضد الجهل، والجهاد في طلب العلم. إنه موتور من عدوه في بلاده، وجاء يجمع السلاح الذي ينتصر به ويعلي كلمة الله. فوصل إلى مكة سنة ١٣٤٥، وهو في نهاية العقد الثاني من عمره فحج ذلك العام ثم توجه إلى المدينة المنورة، يبحث عن طلبته. غير مبال بنداء الحنين للأوطان، ولا مستجيب لمحبة وعواطف الأهل والإخوان.

ومرة أخرى مع صاحبنا في هذا الموقف وهو في هذا السن المبكر.

وما كانت عليه المدينة خاصة والحجاز عامة من آثار الحرب العالمية الأخيرة. ولا سيما على مثله وقد نبت في تربة تفيض بالخيرات ونشأ في ظل الإمارة، وارتضع عواطف أبويه اللذين حرما الذرية الكثيرة إلا هو وأخوه الأكبر. لا شك أنه العزم المصمم فواجه الحياة وتوجه إلى طلب العلم. وكان ذلك هو مفترق الطرق في حياته. إنه مثقف ثقافة فرنسية ويجيد لغة فرنسا وكان أمامه ما يمكن أن يعمل فيه لدنياه، ولكنه لم يأت لذلك ويخشى من فتنة الأعمال المالية فانقطع للعلم وللعلم فقط، وللمهمة التي شخص من أجلها ويجب أن يجد ويجتهد ليعود إلى من ينتظرونه لينضموا معه في جهاده لإعلاء كلمة الله.

شيوخه:

من المعلوم أن المسجد النبوي آنذاك كان عامراً بالدروس وكان مليئاً بالعلماء المدنيين والمهاجرين فعند من سيبدأ؟ وإلى من يجلس؟ إنه في ذلك

الوقت لا يعرف من اللغة العربية ما يمكنه مسايرة كل إنسان يجيد الفرنسية ولغة بلاده فقط. فهيأ الله له من بني جنسه العالم الفاضل الشيخ سعيد بن صديق المدرس بالمسجد النبوي، وهذا الشيخ كان مشتهراً بالصدق والتواضع والكرم.

وقال عنه الشيخ عمر محمد فلاتة نقلاً عن الشيخ محمد سعيد دفتردار: إنه ترجم له وإنه توفي عام ١٣٥٣، وتخرج في العلم على يد الشيخ «ألفا هاشم» والشيخ ألفا هاشم معروف أنه من «مالي»، وكان شيخاً جليلاً توفي سنة ١٣٤٩. وحل الشيخ سعيد محله في التدريس بالمسجد النبوي في الفقه والحديث والتوحيد، ثم عين عضواً بهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومعلوم أنه لم يكن يعين في تلك الهيئة إلا من عرف بفضله وعلمه وحسن عقيدته وتحليه بالصبر والأناة والأخلاق الفاضلة، فكان هذا العالم الفاضل أو من لازمه شيخنا الأفريقي وأخذ عنه نحواً من ثمان سنوات. بدأ يتعلم اللغة العربية وسهل عليه أمرها أن شيخه من بني جنسه وعشيرته وتربطهما لغة بلادهما، فسرعان ما يجيد العربية على شيخه ثم قرأ عليه القرآن، ومبادئ كتب الفقه المالكي وهي مشهورة عندهم للمبتدئين، مثل الأخضري وابن عاشر. والرسالة وبعض شروحها.

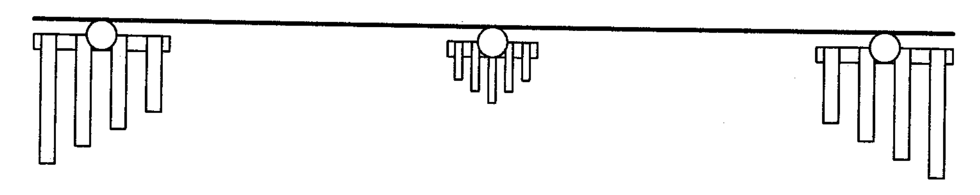
وهذه هي الطريقة المنهجية عند السلف البداية بمثل تلك الكتب التي قصد مؤلفوها رحمهم الله تسهيل عباراتها، وسلاسة أسلوبها، وتبسيط مادتها. فإذا ما استوعبها الطالب انطبعت في ذهنه الخطوط العريضة لتلك المادة، وجعلته يتطلع إلى التفاصيل الأوسع في الكتب الكبيرة كما لاحظ مؤلفوها أيضاً عنايتها بقسم العبادات وما هو الفرض العين؛ كالعقائد والصلاة ولوازمها والصوم ونحو ذلك. وكذلك في سائر العلوم من النحو والصرف والمصطلح، وكل فن فقد وضعوا له مبادئ للمبتدئين ومراجع للدارسين. كما درس على شيخه الشيخ سعيد الكتاب المبارك في الحديث الملم بالأحكام في مهام العبادات والوعظ والإرشاد، وما قرأه إنسان إلا شرح الله به صدره ومنّ عليه بفضله، وذلك بفضل من الله ثم ببركة حسن نيةِ مؤلفه وهو كتاب «الأربعين النووية» للإمام النووي رحمه الله. وبهذه المناسبة أقدم النصيحة كل طالب بل لكل مسلم ومسلمة بالأخذ بحظ وافر من هذا الكتاب وإن كان صغير الحجم فهو

عظيم الفائدة، وقد يسر الله له الإمام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقام بشرحه الوافي المسمى «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الحكم». أي مع زيادة عشرة أحاديث من نوعها مختارة، وإني لأعتقد أن البداية لشيخنا الإفريقي في الحديث بهذا الكتاب كانت فاتحة خير وبركة. كما قرأ أيضاً على الشيخ سعيد أوائل «بلوغ المرام من أدلة الأحكام»، كانت هذه هي المرحلة الأولى لشيخنا الأفريقي ولمدة سنة في المسجد النبوي. وعاد إلى مكة ليحج الحجة الثانية وله حنين إلى وطنه، وعند تصور لما حصل من العلم وتذوق من العقيدة السلفية يظن أن هذا القدر فيه الكفاية لدعوة أهله وتعليم جماعته ونقاش خصمه الذي عجز عنه سابقاً.

فاستأذن شيخه في العودة إلى البلاد. وكما يقولون: العبد في التفكير والرب في التدبير. فلم يعلم ما قدر الله له في حياته وما بقي عليه من مواصلة مسيرته العلمية فهيئ الله له سبباً أخر للعودة إلى المدينة والبقاء بها واستئناف الجد والجهاد لطلب العلم وذلك أنه بعد أداء حجه للمرة الثانية وعاد إلى جدة ليسافر إلى بلاده، جمعه الله بشيخ جليل من جماعته أيضاً، وفي مجلس هذا الشيخ جرى نقاش علمي في مسألة فقهية ساقه الحديث فيها إلى المشاركة بما عنده، وظن أنه مستوعب لها بما حصل من فقه وحديث. ولكنه فوجئ من هذا الشيخ الجليل بإجابة هادئة وتلطف في العبارة كعادة العلماء الربانيين: يا بني إن هذه المسألة الفقهية، ورد فيها حديث عن رسول الله ﷺ يخالف ما ذكرت آنفاً. وأسمعه الحديث المنوه عنه، فما إن سمعه إلا امتلأ قلبه بنصه ومعناه، وجعله يتأمل جميع ما عنده، ويتساءل عن مخالفة ما قرأ من متون الفقه لحديث رسول الله ﷺ. ولم يكن قد علم مختلف الحديث ولا فقه الخلافيات ولا طريق الترجيح بين النصوص. فأفهمه هذا الشيخ المنهج السليم والمنهل العذب من سنة رسول الله ﷺ دراسة وتحقيقاً، وعلى مبدأ مقالة الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟ كل كلام فيه مقبول ومردود إلا كلام صاحب هذا القبر ﷺ، وعلى مبدأ قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] هناك أدرك أن بضاعته مزجاة، وسلاحه لا يقاوم عداه فعزم على العودة إلى المدينة ومعاودة دراسة الحديث والحديث خاصة.

وودع ورفاقه وتوجه إلى المدينة يستأنف الطلب لأنه أدرك من حالة عجزه عن إقناع إخوانه في مسألة خلافية في الفروع، فكيف يستطيع إقناع خصمه الفرنسي في أصول الإسلام ومناهجه؟! وكان ذلك عين الصواب أن أقنع نفسه بواقع حاله قبل أن يقنع خصمه والانتصار على النفس أقوى أنواع الانتصار. وإلى الحلقة الثانية نستأنف المسيرة مع شيخنا بالمدينة عند عودته، وبالله تعالى التوفيق.





مسار الطريق لشيخنا الشيخ عبد الرحمن الأفريقي

كان طريق مساره طويلاً وعقباته عديدة ولكن بعد توفيق من الله إذا صح العزم وقوي، وصلحت النية وخلصت والتمست الأسباب وتيسرت قرب البعيد وهان الشديد وذللت العقبات وبورك في الخطوات.

وصدق قول النبي ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة». لقد امتد طريقه رحمه الله من مسقط رأسه بقرية قفا من قطر «مالي» بأفريقيا وقطع تلك المسافة الطويلة إلى أرض الحجاز لطلب العلم على النحو الآتي.

مولده ونشأته:

ولد رحمه الله عام ٣٢٦ من أبوين كريمين رزقا الذرية الكثيرة ولكن لم يعش منها إلا القليل، شيخنا هذا وأخوه الأكبر ونشأ في كنف أبويه في ظل الإمارة على بلادهم وسلطان الحكم على جماعتهم مما أكسبه علو الهمة وشدة الطموح، والسعي لخدمة قومه وذويه. وجمع الله له صفاء العيش وسعته، وصفاء الجو في الصحراء وصفاؤه مما له الأثر الكبير في سعة أفقه وسرعة نموه وصفاء ذهنه وذكائه.

بداية تعلمه:

بدأ رحمه الله بداية أقرانه بكتّاب القرية بعثه والده ليتعلم القرآن والكتابة، ويحفظ بعض قصار السور ويدرس أوائل وضرورات الأحكام للفروض العينية. إنها الطريقة السائدة يحرص عليها الآباء المسلمون ابتعاداً عن مدارس الحكومة التي يسيطر عليها المستعمرون.

والبيئة التي نشأ بها: كانت كسائر البيئات التي تخضع للسلطة الفرنسية في أفريقيا في النظام والتعليم. وكان المجتمع المسلم يعيش بين مد وجزر بين

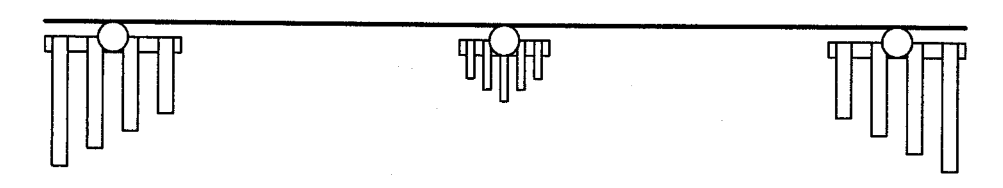
الإدارة الفرنسية والمعتقدات والالتزامات والتعاليم الإسلامية، ومعلوم أن المستعمر إذا أراد تسيير البلاد حسب نظمه ووفق تحقيق مصالحه، فإنه يركز كل جهده على التعليم في مناهجه واللغة في استعملها ومن خلال مناهجه يرسخ أوراقه وينشئ الأجيال على موالاته وعن طريق اللغة يقطعه عن أبناء جنسه. وهو لهذا يتخير النابهين من أبناء البلاد وينبتون بنشأتهم على سياستهم ويبنونهم علىٰ تلك المناهج التي تعنيهم، فكان تلميذنا آنذاك موضع اختيار المستعمر فأخذه من الكتّاب وقطعه عن مواصلة هذا الطريق الذي يربطه بكتاب الله وأحكام دينه من طفولته ليضعوا أقدامه على طريق دنيوي مادي يجعله فيما بعد من أعوانهم على حكم تلك البلاد فأخذ قهراً على أبويه وأدخل تلك المدارس. فأدرك بوادر هذا الانتقال الذي لم يستطع أهله رده عنه. فاتجه إلى الدراسة والتحصيل لعله عن طريق الدراسة يمكن له أن يصنع شيئاً لبلاده.

إنها المرحلة الثانوية وما إليها في تفوق فائق، وتقدم وجدارة فاختير مدرساً في تلك المدارس. وبعد التدريس نقل إلى العمل في الأنواء الجوية. قد تكون تلك الحياة التعليمية والعمل الوظيفي تسلسل أحداث متوالية على خط طبيعي. ولكن لتغيير مسار الطريق طوارئ وأسباب فقد كان من الممكن أن يظل شيخنا في عمله الوظيفي ويترقى ويتدرج في سلم الترقي إلى ما يرضي طموحه ويفي بمتطلباته. ولكن الله تعالى إذا أراد أمراً هيأ له أسبابه. وكما قال ﷺ: «كل ميسر لما خلق له». فهناك عشرات الأشخاص يصلحون للأنواء ويتمنون الوصول إليها. ولكن نعمة العلم والدعوة إلى الله وخدمة كتاب وسنة رسوله ﷺ فوق هذا كله وعلم الله من شيخنا صلاحيته لذلك فساق إليه مديره في العمل يثير نقاشاً عن الإسلام وواقع حال المسلمين وأظهر الخصم دخيلة نفسه وحقده على الإسلام وازدرائه لواقع المسلمين بتخلفهم وتقدم الفرنسيين وغيرهم وزعم أن الإسلام لم يعد صالحاً لإصلاح العالم وأن المسلمين يعيشون على الأوهام متعلقين بالتمائم عاملين بالسحر وما إلى ذلك من اتهام للإسلام نفسه محتجاً لذلك بما عليه بعض المسلمين آنذاك. وهناك ثارت حفيظة صاحبنا وغيرته على دينه وحميته لبني جنسه وأراد إيقاف هذا الخصم الألد عند حده.

وهنا وقفة طويلة وطويلة جداً بطول الزمن الذي مضى على تلك البلاد منذ أن دخلها الإسلام في الصدر الأول في عهد الخليفة الراشد عثمان ﷺ، حين بعث إليها جيشاً سنة ٢٧ قوامه عشرون ألفاً ما بين صاحبي وتابعي بقيادة عبد الله بن أبي السرح، وكان في هذا الجيش العبادلة السبعة وهم: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن مسعود، وأمير الجيش عبد الله بن أبي السرح، وتوالى على تلك البلاد إرسال المسلمين حتى فتحت القارة الأفريقية كلها وخاض القائد المظفر، المحيط بفرسه وقال: والله لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أمة من الناس لخضت هذا البحر أقاتلهم في سبيل الله. أقول: نقف مع صاحبنا تلك الوقفة الطويلة نستعرض هذا التاريخ المجيد منذ أن دخل أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون يقدمون أرواحهم في سبيل الله ونصرة دينه، وإخراج أهل تلك البلاد من الظلمات إلى النور فتعلوا كلمة الحق ويرتفع لواء العدل. فإذا بالمفاجأة الأليمة يغزوها الفرنسيون الذين كانوا يؤدون الجزية لحكامها المسلمين ويتحكمون في أموال ورقاب أهلها. وها هم لم يقصر غزوهم على الأرض وما حوت من خيرات وكنوز يمتصونها ويحرمون أصحابها منها. بل غزو أفكارهم ليسلبوهم دينهم ويسلخوهم عن صبغة الدين الحنيف فيقوم المبشرون وينتشرون في عرض البلاد وطولها. سواء باسم رجال الدين المسيحيين وتحت حماية الكنيسة وحفاظ الحكومة أو في شكل الموظفين ورجال الأعمال فينفثون سمومهم ويغرسون بذور التشكيك في نفوس العوام وأشباه العوام. إن الواقع المؤلم من انصراف المسلمين عن أصول دينهم إلى أوهام المضللين، وعدم إقامة حدود الله أوهى من قواهم وفكك من روابطهم حتى مكن للأعداء من أنفسهم وأمالهم، وبالتالي من النيل من دينهم. وليعلم رجال الإسلام وشبابه أن المستعمر لم يكن ليتغلب على أي بلد إلا بعد أن يدخل إليهم الخرافات ويصرفهم عن تعاليم دينهم ويغرس جذور الفرقة. وها هو صاحبنا الأفريقي أمام هذا كله فماذا باستطاعته أن يفعل إن كان قد عجز عن رد المستعمر عن البلاد؟ وقد تمكن منها بعدده وقواته فإنه لن يعجز عن الرد عليه في اتهاماته، فتلفت حوله يطلب من يسعفه ويعاونه فلم يجد أحداً،

وكيف يجد والاتجاهات كلها تبشيرية، والمدارس استشراقية؟ وفاقد الشيء لا يعطيه، فتذكر وتوجه إلى الكعبة التي يؤمها في الصلاة، والتي يأتيها حجاج بيت الله، وأن هناك المنبع العذب الفياض، فليرحل للتزود والتسلح بسلاح العلم الذي يدفع به عن دينه ودين ذويه، فكانت رحلته إلى الحرمين لطلب العلم، وبالله تعالى التوفيق.





المرحلة الثانية لشيخنا الأفريقي طلبه للعلم

بعد أن حضر مجلس بعض الشيوخ بجدة وشارك في بحث مسألة فقهية وعرف أنه لم يستطع بعد مقارعة الحجة بالحجة وأقنع نفسه بالعدول عن السفر إلى بلاده وعزم على العودة إلى المدينة مرة أخرى يتزود من الحديث النبوي الشريف، وهنا ترد علينا قصة طالب العلم الذي كان ببغداد أربع سنوات فوجد أنه حصّل ما فيه الكفاية وعزم على العودة إلى بلاده فحدث له وهو يتزود للسفر أن وقف على فتاتين بائعتي الفوم وتلك الخضروات التي يتزودها المسافر وفي وقفته ليشتري من إحداهن سمعها تقول لزميلتها:

أسمعت ما قال الشيخ البارحة في المسجد؟ قالت: وماذا قال؟ قالت: يقول: يصح الاستثناء في اليمين على التراخي. فأجابتها الأخرى: ما أظن هذا يصح ولو كان يصح لأفتى الله به نبيه أيوب. إذ كان أقسم ليضربن زوجه إذا رجعت إليه مائة سوط. فلما جاءت وكانت في مصلحته وأسف على اليمين أفتاه الله تعالى بقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]، والضغث القنو فيه مائة شروخ فيضربها به ضربة واحدة يبر في يمينه ولا يؤذي زوجه. فلو كان الاستثناء في اليمين متراخياً كان يمكن أن يقول الله له: قل: إن شاء الله؛ وينحل اليمين كل هذا والطالب يستمع لتلك المحاورة اللطيفة والاستدلال القرآني القوي. فرجع إلى نفسه وقال: يا سبحان الله! بلد تكون فيه بائعات الفوم بهذه المثابة من الفقة والمعرفة وأخرج منه وأنا دونهن في العلم! لا يكون. ذلك ورجع إلى استئناف الدراسة من جديد إن شيخنا وهذا الطالب يشتركان في ظنهما بأنفسهما أولاً الاكتفاء بما حصلوا من العلم. واكتشافهما لأنفسهما أنهما لم يصلا إلى ما يمكن التعويل عليه. ثم أخيراً في العودة إلى استئناف الطلب والتزود. ومن دواعي العجب والدهشة، أن نجد هذا العلم السليم والنظر الدقيق، والفكر العميق عند هاتين الفتاتين، إذ إنهما لم تتفرغا

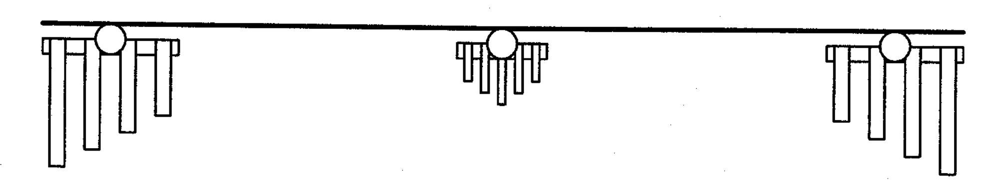
للطلب، كما نعلم من بعض النساء ولكنهن نهاراً يسعين في طلب الرزق، وليلاً يحضرن في مجالس العلم. إنها صورة عصامية؛ قد رأينا أمثالها من بعض طلاب شيخنا الإفريقي على ما سيأتي إن شاء الله. والآن نعود مع شيخنا من جدة إلى المدينة في رحلته الثانية لطلب العلم، فنجده على جناح السرعة قد عاد إلى شيخه الأول الشيخ سعيد. وتم اللقاء الثاني على تشوق ومحبة وترحيب من شيخه يلقاه في المسجد وفي البيت وحيث تيسر له تعاونٌ مع تلميذه المجد في التحصيل، وعدم التقيد بزمان ولا مكان.

وأصبح التلميذ الخاص، والرفيق معه إلى الخواص، وأصبح بمثابة الابن لأبيه. وفي سنة ١٣٥٠ عين الشيخ سعيد مدرساً في دار الحديث بالمدينة أول افتتاحها؛ فأخذ تلميذه وألحقه بها. وفيها وجد التلميذ نفسه وسط البحر الذي عاد إلى أجله وبين يديه النهر الذي يروي ظمأه وجد منهج الدار قائماً على الحديث وعلومه. يدرس فيها خواص العلماء بالمدينة آنذاك. فدرس كتب السنة ومصطلح الحديث والفقه والأصول، وعلوم الآلة، وقد لمس مؤسس الدار، وهو الشيخ أحمد بن محمد الدهلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ شدة الحرص وقوة العزم والجد في التحصيل فجعل مكتبة الدار بما فيها من صنوف المؤلفات ميسرة لشيخنا هذا، وأخذ يرشده ويوجهه إلى المراجع التي يحتاجها، ويتعهده بتنظيم طرق البحث والمطالعة. وتوطدت بينهما صلات الشيوخ بتلاميذهم والآباء بأبنائهم. وأصبح شيخنا الأفريقي وأمسى بين رياض الجنة ففي الصباح في دار الحديث على نظام الدراسات النظامية والمناهج الدراسية.

وفي المساء في المسجد النبوي وبين تلك الحلق العامرة والدروس المستمرة. وكان من شيوخه الأفاضل الشيخ ألفا هاشم شيخ شيخه الأول الشيخ سعيد. ولقد سمعت عنه من الشيخ عبد المجيد بن حسن أحد قضاة المحكمة الكبرى بالمدينة ومساعد سماحة الرئيس ثم عضو هيئة كبار العلماء، سمعته يقول عن الشيخ ألفا هاشم: ما كان يقرأ فهارس الكتب بل يقدر على الباب الذي يريده، ويفتح الكتاب عليه فيصادفه أو كما قال عنه وذلك لكثير مطالعته تلك الكتب ومعرفته ما فيها حتى مواقعها من الكتاب. فلقيه شيخنا الأفريقي وأخذ عنه.

ثم العلامة الفاضل الذي يعتبر بحق أستاذ ذلك الجيل وشيخ شيوخه الأفاضل

ومؤدب أدبائهم وموجه شعرائهم الإمام في المعقول والمنقول الشيخ محمد الطيب بن إسحاق الأنصاري والمتوفى سنة ١٣٦٢ بالمدينة. قرأ عليه شيخنا الأفريقي في المسجد النبوي التفسير والحديث وعلوم الآلة. وكان الشيخ الطيب رحمه الله شديد العناية بتلميذه الأفريقي لما لمسه فيه من الحرص وصفاء الذهن وحسن النقاش. كما أخذ شيخنا الأفريقي، عن الشيخ يونس بن نوح الأفريقي، وعن فضيلة إمام المسجد النبوي آنذاك الشيخ الجليل الفاضل الشيخ صالح الزغيبي القدوة الفاضلة علماً وزهداً وورعاً رحمه الله. وقد عرف عنه أنه أي الشيخ صالح كان دقيق التوقيت للإمامة وأم في المسجد النبوي ولم يتخلف في الصلوات الخمس إلا مرتين أو ثلاث مرات في مدة نحو ربع القرن، وأخذ شيخنا الإفريقي أيضاً على الشيخ محمد سلطان المعصومي البخاري ونظيره المعصومي الأفغاني، وكذلك على زميله في الطلب على الشيخ الطيب فضيلة الشيخ محمد الحركان، وكان علامة في الحديث واللغة وتولى أعمالاً عدة عظيمة وهي القضاء ورئاسة محكمة جدة ووزارة العدل وأمانة الرابطة درس عليه شيخنا الأفريقي النحو والصرف وكذلك عن الشيخ محمود بن علي شويل وكان عالما بالحديث وعلومه. وكذلك أخذ عن الشيخ إبراهيم بري، والشيخ محمد حميدة، والشيخ أحمد البساطي، وعن الشيخ صالح التونسي، والشيخ محمد علي الكنوي، هذه عدة ثلاثة عشر من المدرسين في المسجد النبوي ولو أضفنا إليهم بعض المدرسين الذين كتبوا تقاريرهم على رسالة الشيخ سليمان العمري لزاد المجموع على عشرين عالماً آنذاك. إنها صورة حية وواقع عظيم وشهادات ملموسة لما كان عليه المسجد النبوي الشريف آنذاك، ومعلوم أنهم كانوا على اختلاف مناهجهم يمثلون ما يوجد اليوم من هيئة التدريس بكبريات الجامعات يجد الطالب بغيته، ويتفيأ ظلال رياضهم العلمية ويستفيد من مجموعهم ما يتحلون به من أسس الفضائل وما يسيرون عليه من طرق التدريس والعرض والإيضاح. وتربية الطلاب والتوجيه فيتخرج على أيديهم الطلاب النموذجيون. وهذا الذي حدانا لإيراد كل ذلك في رحلة تعلم ودراسة شيخنا الأفريقي وفي المسجد النبوي الشريف؛ أما منهجه هو وطلابه وأعماله وأثره وتأثيره في المدينة المنورة في المسجد النبوي وفي دار الحديث وفي الرياض في المعاهد والكليات وفي خارج المملكة بواسطة طلابه، فسيأتي الحديث عنه في الحلقة الآتية إن شاء الله، وبالله تعالى التوفيق.



منهج الأفريقي وأثره في التعليم

إن منهج كل عالم في تعليمه ومعاملته لطلابه، هو سمة ذلك العالم وميزته التي فعلاً يتميز بها عن غيره فقد يكونان في العلم والتحصيل سواء، كمدرسي الرياضيات ليس فيها زيادة ولا نقصاً من حيث لغة الأرقام والحساب، وكالنحو والصرف كذلك ليس فيه زيادة قاعدة ولا تغيير عما دون عن العرب وليس هناك تفعيلة صرفية جديدة. وكذلك الأحاديث النبوية ليس هناك ما تقول على رسول الله ﷺ، وقد يستوي عدة أشخاص في تحصيل كل ذلك ولكن عند نقل المعلومات للآخرين وتدريس المادة نفسها نجد تفاوتاً كبيراً، سواء في الشكل من عرض للموضوع متسلسل منتظم الأدلة فيقدم العام ثم الخاص ثم الأخص حتى يصل بالطالب إلى عين المسألة فتستقر في ذهنه، أو في اختيار الكلمات السهلة والأسلوب العلمي المشوب بالعنصر الأدبي حتى يسترعي انتباه الطالب ويفتح ذهنه إليه وسواء استعمل عنصر التشويق والاسترعاء كما فعل ﷺ مع معاذ لما قال له: «أتدري يا معاذ ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟». فقال معاذ: الله ورسوله أعلم.

ولا شك أن النبي ﷺ كان يعلم أن معاذاً لم يعلم وكان هذا التساؤل استرعاء لانتباه معاذ وتشويقاً لسماع الجواب، فيتلقاه بكل حواسه ويستقر في ذهنه أكثر وأقوى مما لو عرضه عليه عرضاً أو ألقاه إليه عفواً، وليست قوة المدرس في استيعاب المادة بقدر قوته في إيصال المادة إلى ذهن طلابه. ومن أخص صفات الإنسان اختصاصه بالقدرة على البيان. كما امتن المولى سبحانه وتمدح في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]. من هذا المنطلق كان منهج شيخنا الأفريقي من السهولة والسلاسة ما يمكن أن يقال فيه: السهل الممتنع، فما جلس إليه طالب يستمع منه إلا استوعب ما يقول. ولم يكن من عادته رحمه الله التقعر في العبارة

ولا بعد التعمق في الجزئيات بقدر ما يعمد إلى إيقاف الطالب على ما عليه الأئمة الأربعة بأدلتهم.

تسامحه مع طلابه:

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ عظيم التسامح حين يطالبه أحد الطلاب بدليل على ما يقول هو. كما عود طلابه إقامة الدليل على ما يقولون: وإن من أبرز مميزاته رَحِمَهُ اللَّهُ وما كان ينبغي على كل طالب علم مع طلابه ما كان منه ليلة كل خميس من كل أسبوع إذ كانت حلقة الدرس لها سمة خاصة في تلك الليلة، وبهذه المناسبة فإن دروس المسجد النبوي الشريف كانت عقب كل صلاة إلا أنها بعد صلاة المغرب أكثر وأكبر، ويكاد يكون هذا الوقت هو الوقت العام الذي يحضره طلبة العلم والعوام. وكانت الدروس جميعها تتوقف ليلتين في الأسبوع. ليلة الثلاثاء وليلة السبت يعني يوم الاثنين ويوم الجمعة، وكان في ذلك الوقت يمكن أن نشاهد في وقت ما بين المغرب والعشاء نحو العشر حلقات. كانت حلقة الأفريقي ليلة الجمعة يوم الخميس كأنها على موعد مع العامة والخاصة.

وكان الدرس في «بلوغ المرام» والطريقة فيه يسمع الطلاب واحداً واحداً ثلاثة أحاديث كل ليلة يحفظها ويسمعها طالت أم قصرت، ثم يشرحها الشيخ إلا في ليلة الجمعة يوم الخميس فلا تسميع ولا شرح. بل كانت بمثابة تعليم طرق التدريس وكيفية الترجيح وتمرين الطلاب على التأمل والنظر ومنهج العلماء في الجمع بين الأحاديث شبه المتعارضة، مثل ما في باب الغسل مثلاً عن غسل يوم الجمعة جاء في المتن: حديث: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»؛ يعني بلغ سن الاحتلام؛ كحديث: «تصلي الحائض في درع وخمار سابغين»، يعني: من بلغت سن الحيض لأن الحائض؛ بالفعل لا تصلي.

وحديث آخر: «من توضأ بوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل». فالأول يوجب الغسل، والثاني يجعله أفضل. فيسأل الشيخ طلابه على الترتيب فمن أجاب اكتفى بجوابه ومن لم يجب طلب من جاره أن يساعده. كيف يجمع بين الحديثين؟ ولو قدر الجواب في نقص أو خطأ طلب من جاره أن يكمله أو يصححه. وكان لو أن الشيخ أولى برأيه في مسألة وطلب منه الطالب إيراد الدليل على إجابته فإنه يجيب. وبهذا كان يشحذ ذهن الطلاب

ويدفعهم دفعاً للمذاكرة ومطالعة الشراح. بل ربما يتوقف الشيخ بنفسه، إذا ساق النقاش إلى مسألة غريبة وكانت تلك الليلة يحضرها العدد الوفير من غير الطلاب، يظلون قياماً محتفين بالحلقة مأخوذين بالصورة.

وقد يشارك بعض هؤلاء ويسمح لهم الشيخ ويسمع عنهم. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ عف اللسان فلا يسمع منه تطاولٌ على أحد. معظّماً للعلماء موقراً للأئمة رحمهم الله مترضياً عنهم حتى ابن حزم في شدته وقسوته.

أما سعة صدره في الدعوة وفي الرفق بمن يدعوه فكان أسلوب المتأني وليس المتعني، وحرص المشفق لا المتشفي، وقد حدث أن عمد حاج إلى بيته يثيره بما علم أنه ينكره فلم يجابهه بما يكره حتى ضاق الحاج ذرعاً بصبر الشيخ عليه، حتى تساءل معه وجرى بينهما نقاش العقلاء ووفق الله تعالى الشيخ أن توقف الحاج وقال للشيخ: هل معك أحد على ما قلته لي؟ قال: جميع العلماء بالمسجد النبوي على ذلك، فقال له: أريد أن أسمعه من إمام المسجد نفسه فذهب به إلى سماحة الشيخ عبد العزيز بن صالح إمام وخطيب المسجد النبوي فلم يختلف الكلام، ووجد الحاج نفسه أمام عالمين جليلين يقيمان الدليل من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وسلف الأمة فما كان منه إلا رجع إلى بيت الشيخ كعامة الحجاج وأقلع عما كان عليه ورجع إلى بلده سلفي العقيدة داعياً إلى الله تعالى جاء متحدياً ورجع داعياً. وما ذاك إلا بفضل من الله وحسن معاملة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤]، وكما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم﴾ [النحل: ١٢٥]. وكما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [الجمعة: ١]. وغير ذلك من النصوص والتوجيهات للدعاة إلى الله على سنة رسول الله ﷺ وطريقته، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ...﴾ [يوسف: ١٠٨].

أما أعماله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قد أسند إليه الوعظ والإرشاد في ينبع النخل. وأهلها جل أعمالهم الزراعة فكان لوجوده عندهم أطيب الأثر وأحبه أهلها، حتى أنهم ليزورونه بعد

انتقاله عنهم. كما اختير للتدريس بالمعاهد العلمية والكليات بالرياض سنة ١٣٧١هـ، أول ما أنشأت كنواة الجامعة الإمام محمد بن مسعود وذلك بأمر من الملك عبد العزيز رحمه الله ضمن عدد من مدرسي المسجد النبوي الشريف.

وكان في العطلة الدراسية يعود إلى المدينة فيستأنف التدريس في المسجد النبوي وفي دار الحديث وفي بيته لطلابه الذين لم يسافروا، وللعامة الذين ينتظرون عودته ولمن يقدم من الحجاج.

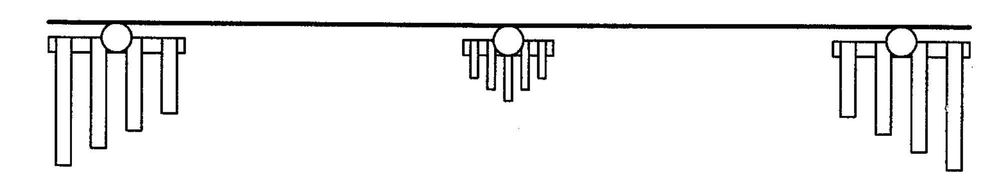
كرمه وسخاؤه:

أما كرمة فيعرفه الجميع وسمعته وهو يلمس كفه ويقول: إن كفه لا يمسك درهماً. فأنشدته البيت:

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا   بل يمر عليها وهو منطلق

فضحك وقال: إنه لا يمر عليها بل ينصرف قبل أن يصلها. ولهذا لم يترك لأولاده شيئاً. ولكن الله تعالىٰ تكفل بهم فلم ينقص عليهم شيئاً، وصدق فيهم: وكان أبوهما صالحاً، وبالله التوفيق.





طلاب الأفريقي وآثاره

جرت عادة من يكتب عن شخصية ما أن يبرز آثاره إذ إنها هي التي تدعو الكتاب أن يكتبوا عنه وهي فعلاً التي تتحدث عنه، وتبقي ذكره عطراً في الأمة، وقبل الحديث عن آثار شيخنا الأفريقي نود أن نقدم صورة لطلابه إذ إني أعتقد أن حاله وصورة طلابه بمثابة أثر من آثاره سواء أثناء الطلب والتحصيل أو بعده وما قاموا به من عمل جليل.

لم يكن طلاب الشيخ عبد الرحمن من أبناء علية القوم وكبار الأسر العريقة بقدر ما كانوا من أبناء المهاجرين. ولم يكونوا من ذوي الثراء والتراث الوفير بقدر ما كانوا من أهل العفة والقناعة. وكانت الأعمال في المدينة تكاد تكون محصورة في الزراعة والتجارة كل بحسبه، ولم يكن للطلاب مخصصات ولا جهة تنفق عليهم فكان كل يسعى على نفسه ويتطلب فضل ربه، فلربما كنت ترى بعضهم في الصباح الباكر مع الناس في السوق آخذاً بأسباب الكسب كغيره كواحد منهم، فإذا جئت إلى حلقة الدرس بعد المغرب رأيتهم كالأنجم الزواهر أناقة ووقاراً وسمتاً كريماً. وقد يصدق على البعض منهم خاصة أصحاب العوائل يصدق عليهم قول الشاعر:

إن الكريم ليخفي عنك عسرته　　　حتى تراه غنياً وهو مجهود

وهذا النوع من الطلاب هم الذين يصدق عليهم حقاً طلب العلم للعلم. وهذا النوع من العلماء هم الذين يصدق عليهم حقاً العلماء المربون الذين يجعلون من العمال والمتسببين سواء بحمل متاع لضعيف أو بتسويق خضروات لفلاح أو بنقل ماء أو توزيع خبز تلك الطبقة التي تكدح لتحصيل لقمة العيش يجعلون منهم طلبة علم، يصدق عليهم ما قال لقمان لولده: اطلب العلم وجالس العلماء وزاحمهم بركبتيك. وليس هذا كان خاصاً بطلاب الأفريقي بل عاماً في أغلب الطلبة بالمسجد فكان منهم الخياط والسقاء والعامل، ولكنهم

عند الأفريقي أكثر وبهذه المناسبة نعود إلى ماضي هذا المسجد النبوي لنرى هذا النوع بعينه ونجده في غيره أيضاً في العصور الأولى.

فهذا عمر بن الخطاب ﵁ كان له جار في العوالي تعاهدا على أن أحدهما يقوم بخدمة بستانيهما والآخر ينزل إلى المسجد ليسمع ما استجد في أمر الدين وما نزل من الوحي فيأتي ويبلغه لصاحبه. ومن الغد ينزل الآخر ويبقى صاحبه وهكذا. وهذا أبو هريرة ﵁ يقول: كنت أتبع رسول الله ﷺ على شبع بطني، وهذا علي ﵁ يؤاجر نفسه في مدح دلاء من بئر لامرأة كل دلو بتمرة، وهذا الزجاج مع المبرد كان يعمل في الزجاج ويعطي المبرد درهماً يومياً. وهذا الذي كان يسقي الناس الماء بجرة في مسجد عمر بن العاص. وهذه ألقاب العلماء: الوراق، الزيات، الخرقي، كل بحرفته ونوع تسببه وهذا التاجر الكبير أبو حنيفة ﵀ إلى غير ذلك. ولا نريد أن نذهب بعيداً فنقول: إن داود ﵇ كان يأكل من كسب يده. ولكننا نقف هنا عن طلبة العلم غير النظاميين وغير أصحاب المكافآت والمنح.

أولئك الذين يطلبون العلم للعلم. ولا ينتظرون شهادة ولا منصباً نقول لهم: إن العزم القوي واليقين الثابت، كما يقولون: «يصنع المعجزات»، فهذه معجزة طلب العلم والصبر عليه والأخذ في أسباب المعيشة حيثما تيسرت وكيفما كانت ما دامت حلالاً وكريمة. وقد أسلفنا عن الشافعي ﵀ أن أمه كانت لا تستطيع دفع ما يلزم ولدها لمعلم الصبيان فكان عوضاً عن ذلك ينوب عنه إذا غاب ويساعده إذا حضر. وليس هذا مساساً بالتعليم الجامعي ولكن لكل عصر ظروفه، ونعتقد أن العلماء الذين يشجعون طلابهم على العمل والتغني بما يكسبون ويأخذون بحظ وافر من العلم يقدمون بذلك للأمة أروع المثل وأعظم الأثر. ومعلوم أن العلم لا يعرف غنياً ولا فقيراً، ولا مأموراً ولا أميراً؛ بل بالعلم يكون الغنى، وبالعلم يكون العز والمجد.

أما آثاره:

فقد بارك الله في جهوده واستفاضت آثاره بأسباب عديدة:

في طلابه:

لقد علمهم صحة المنهج العلمي في طرق الاستدلال وآداب البحث واحترام العلماء وتوفير السلف والترضي عنهم وطرح التعصب. وكان كثيراً ما يأتي من يناقش في مسألة فيقول له: أولاً: يلزم أن تخرج ما في صدرك من رأي تتعصب إليه ونبحث المسألة كأننا لا نعلم عنها شيئاً من قبل وما يؤيده الدليل نأخذ به. وكثيراً ما كان يقول: إذا بدت لك فكرة فأخرجها ليراها الناس فإن أقروها فاحتفظ بها، وإن رفضوها وبينوا لك عيبها طرحتها واسترحت منها.

ومن أهم آثاره في أخريات حياته أنه لما آنس من بعض الطلاب رشداً ورأى فيهم مخايل علم كان ربما أسند إلى أحدهم شرح الحديث موضع الدرس كالمدرب لهم.

وقد ذهب مع طلابه إلى أبعد من هذا إذ اختار منهم نحو العشرة وذهب بهم إلى مجلس سماحة إمام وخطيب المسجد النبوي ورئيس الدوائر الشرعية بالمدينة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز بن صالح، وعرفه بهم وبمدى تحصيلهم ويطلب السماح لهم بإرشاد الحجاج في موسم الحج بتعليم المناسك وآداب الزيارة ومحاسن الإسلام. ولن أنسى جواب سماحة الإمام الشيخ عبد العزيز بن صالح حفظه الله إذ رحب بالفكرة واستحسنها ثم قال: إني لأتمنى أن يكون عند كل سارية من سواري المسجد النبوي مرشد ومعلمٌ للحجاج ما يحتاجونه. ولكني أؤكد على قوة العقل أكثر من سعة العلم. لأن طالب العلم العاقل يتعامل مع الناس بالحسنى. فكانت هذه فعلاً خطوة عملية منه رحمه الله باشر على أثرها عدة أشخاص إرشاد الحجاج. وكانوا فيما بعد مدرسين بالمسجد النبوي الشريف.

أما آثاره مع غير طلابه فكانت في تلك الدروس التي يتناقلها الحجاج عنه إلى بلادهم. وفي تلك الرسائل التي كتبها تلبيها على انحراف بعض الأشخاص خارج المملكة وطبعت عدة مرات.

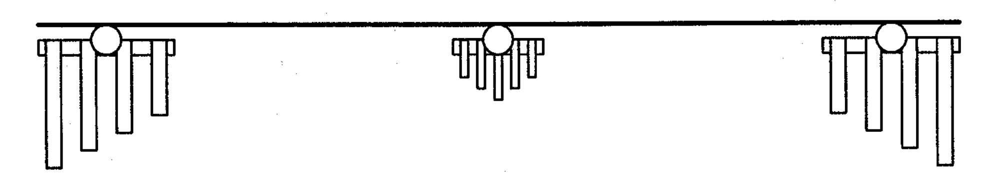
وبمناسبة دروس المسجد النبوي، فإني أهيب بكل طالب علم مكنه الله من فرصة التدريس بهذا المسجد الشريف أن يتأكد ويوقن أن درسه في جماعة

الحجاج أعظم من حديث يلقيه في إذاعة أو بنشرة في صحافة لأنه ينقل حياً ويتناقل في جميع الآفاق.

وقد حدث أن توسع والدنا الشيخ الأمين رحمه الله في مبحث أصولي في دروس المسجد النبوي وكان أعلى بكثير من مستوى عوام الحضور، فقلت له متلطفاً: لقد أتعبك هذا البحث الدقيق في معالجة بيانه. فقال: لا إنك تريد أن تقول: إنه فوق مستوى الحضور. فقلت: وهو كذلك. فقال وهو محل الشاهد هنا: إن هذا المسجد النبوي الشريف يأتي الناس إليه من كل مكان وعلى كل المستويات فإذا بينت مسألة صعبة كهذه وأدركها شخص واحد فقد خرجت من عهدة التكليف.

بهذا نعلم جميعاً مدى آثار دروس المسجد النبوي الشريف، ومن آثاره رحمه الله تدعيم دار الحديث مادياً ومعنوياً فأصبحت من عداد صدقة جارية مع علم ينتفع به والعديد من الأولاد الروحيين يدعون له. وتوفي رحمه الله ليلة الثلاثاء ٢٨ من شهر ٣ سنة ١٣٧٧، وله من الأولاد أربعة أولاد وأربع بنات، وقد أوقع الله له يوم وفاته ما يمكن أن يعد له مبشراً بحسن الختام، رحمه الله رحمة واسعة. ولعل من يقول: أطلت في هذه الترجمة. فأقول: نعم، لأن لها علاقة كبيرة بحالة العلم بالمسجد النبوي آنذاك تغني عن إعادتها فيما بعد، ومهما قدمنا لشيوخنا فلن نوفيهم حقهم، جزاهم الله عنا أحسن الجزاء، وبالله تعالى التوفيق.





الشيخ عبد العزيز بن صالح آل صالح(1)

١٣٢٨هـ ـ ١٤١٥هـ

اسمه:

هو الشيخ عبد العزيز بن صالح بن ناصر بن عبد الرحمٰن، من أسرة آل صالح من البدور من الأشاجعة من المحلف من الجلاس من ضنا مسلم من قبيلة عنزة القبيلة الربعية العدنانية.

مولده:

ولد في مدينة المجمعة عاصمة بلدان سدير عام ١٣٢٨هـ، هكذا أخبر عن نفسه مراراً، وما أثبت في الحفيظة ١٣٣١هـ.

---

(1) مصادر الترجمة، المراجع التالية:

١ ـ عبد الله بن عبد الرحمٰن آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

٢ ـ فريد بن عبد العزيز السليم، **فقيد المسجد النبوي**، دار المسلم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٣ ـ إبراهيم بن عبد الله الحازمي، **من أعلام القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر**، دار الشريف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٤ ـ عبد الله بن محمد بن زاحم، **قضاة المدينة المنورة**، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٥ ـ عبد العزيز بن صالح العسكر، **من أعلامنا**، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٦ ـ عبد الرحمٰن بن سليمان الحصين، **الشيخ عبد العزيز بن صالح: نشأته، سيرته، أعماله، رحلاته**، مطبوع على الآلة الكاتبة.

وهذه الترجمة ليست من إعداد فضيلة الشيخ عطية محمد سالم رحمه الله وإنما قد طُلبت من الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز بن صالح آل صالح حفظه الله وقد زوّدنا بها مشكوراً. [الناشر].

نشأته:

نشأ رَحِمَهُ اللهُ يتيماً فقد توفيت أمه وعمره سنتان، وتوفي والده وعمره خمس سنوات، فكفله أخوه الأكبر عثمان، فنشأ عنده نشأة حسنة، ولما بلغ سن التمييز أدخله الكتاب، فتعلم القراءة والكتابة على يد المقرئ الشيخ أحمد الصانع فحفظ القرآن الكريم قبل تجاوز العاشرة، ثم بدأ يتعلم مبادئ العلوم، وقد ظهر نبوغه مبكراً، حتى اختير إماماً للمسجد الجامع في صلاة التراويح، وعمره حينذاك خمسة عشر عاماً.

مشايخه:

كان شيخه الذي لازمه واستفاد منه هو قاضي **سدير** الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري فقرأ عليه في التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول هذه العلوم كما قرأ عليه في الفرائض والنحو، وكان يقول: لقد أسهمت في عمل حاشية العنقري على الروض المربع، وكانت دراسته كلها حفظ لضعف بصره من صغره. كما أخذ عن الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب بن زاحم حينما كان في المجمعة مرافقاً للشيخ عبد الله العنقري، وأخذ عن الشيخ محمد الخيال والشيخ محمد بن مزيد آل عثمان وهما من علماء المجمعة.

ولما تولى الشيخ عبد الله بن حميد القضاء في المجمعة أخذ عنه شتى العلوم الدينية والعربية، كما أتم دراسة التجويد على شيخ القراء بالمسجد النبوي الشيخ حسن بن إبراهيم الشاعر وذلك بعد أن بدأ الإمامة في المسجد النبوي.

أعماله:

كان لفصاحة الشيخ عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ وبلاغته وعلمه أن عينه شيخه الشيخ عبد الله العنقري إماماً وخطيباً للمسجد الجامع في المجمعة، وهو لا يزال في أول شبابه ولم يبلغ العشرين، ولاستقامته ونشاطه وغيرته الإسلامية عينه شيخه مع هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم صار رئيساً لهم، وكان يقوم بالتدريس إذا غاب شيخه.

ولما نقل الشيخ عبد الله بن حميد من قضاء المجمعة رشح الشيخ عبد العزيز بن صالح لقضاء المجمعة، فاعتذر، ثم سافر إلى الرياض سنة

١٣٦٣هـ وكان الشيخ عبد الله بن زاحم قاضياً في الرياض ومساعده الشيخ محمد الخيال فطلب الشيخ من الملك عبد العزيز أن يعمل الشيخ عبد العزيز عنده قاضياً في الرياض لأنه لم يتولى القضاء من قبل، فوافق الملك عبد العزيز.

فباشر الشيخ عبد العزيز القضاء في محكمة الرياض، وفي شوال من هذا العام صدر أمر الملك عبد العزيز بتعيين الشيخ عبد الله بن زاحم رئيساً للمحاكم والدوائر الشرعية في المدينة المنورة، وعين الشيخ محمد الخيال والشيخ عبد العزيز قاضيين فيها، وفور وصول الشيخ عبد العزيز إلى المدينة جلس للتدريس في المسجد النبوي وكان عنده حلقة كبيرة، ولما أحيل الشيخ محمد نور كتبي إلى التقاعد ١٣٦٥هـ وكان مساعداً لرئيس المحاكم، عين الشيخ عبد العزيز بن صالح مساعداً لرئيس المحاكم، وفي عام ١٣٦٧هـ عينه الشيخ عبد الله الزاحم مساعداً لفضيلة الشيخ صالح الزغيبي إمام وخطيب المسجد النبوي، ولما توفي الشيخ صالح سنة ١٣٧٢هـ عين الملك عبد العزيز الشيخ عبد العزيز إماماً وخطيباً للمسجد النبوي، ثم عين رئيساً للمحاكم والدوائر الشرعية بعد وفاة الشيخ عبد الله بن زاحم في ١٢/ ٧/ ١٣٧٤هـ.

ولما أسس مجلس القضاء الأعلى، ومجلس هيئة كبار العلماء عين الشيخ عبد العزيز بن صالح عضواً فيهما، وكانت رئاسة هيئة كبار العلماء دورية، فتولى الشيخ عبد العزيز الرئاسة أكثر من مرة، كما أسند إليه مهمة الإشراف على الشؤون الدينية في المدينة المنورة، واستمر في هذه الأعمال حتى أقعده المرض وعجز عن أدائها فأحيل على التقاعد عام ١٤١٤هـ.

طلابه:

استفاد من الشيخ طلاب كثيرون عندما كان في المجمعة، وعندما قدم إلى المدينة وجلس للتدريس في المسجد النبوي، وفي منزله منذ عام ١٣٦٤هـ تلقّى عليه العلم عدد كبير من الطلاب في الفرائض والفقه والتفسير والتاريخ واللغة، وممن درس عليه في المدينة:

١ - الشيخ: عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن فنتوخ.

٢ - الشيخ: عبد الله بن محمد بن زاحم إمام وخطيب المسجد النبوي ورئيس المحاكم الشرعية بالمدينة المنورة سابقاً.

٣ ـ الشيخ: سيف بن سعيد.

٤ ـ الشيخ: عبد الله بن عثمان بن صالح الصالح.

٥ ـ الشيخ: عبد الله بن حمد الخربوش.

٦ ـ الشيخ: محمد صديق جلالي.

صفاته:

كان رَحِمَهُ الله متواضعاً ورعاً، محبوباً من الجميع، وكان يقدّر أهل العلم ويحبهم، رفيقاً في وعظه وإرشاده... فيه مرح العلماء ودعابة الفقهاء، سليم القلب، متعدد الثقافة، يعيش عيشة الصالحين الزاهدين لم يتقاض راتباً على إمامة المسجد النبوي ولا على رئاسة هيئة الإشراف فيه بل كان يعمل هذا تطوعاً، وكان خطيباً مصقعاً ظل يرتجل خطبته في المسجد النبوي ارتجالاً مدة (٤٥) سنة أو تزيد.

كما كان رَحِمَهُ الله صاحب صوت شجي يبعث في النفس الخشوع والخشية، يقول الشيخ عطية محمد سالم المدرس بالمسجد النبوي والقاضي بالمحكمة رَحِمَهُ الله في كلامه عن الشيخ عبد العزيز بن صالح رَحِمَهُ الله: (... عرفه المنبر الشريف في مسجد رسول الله ﷺ وقد أوتي ملكة وسجية، بلاغة وحكمة، وسلاسة ووضوحاً، يتخير الكلمات وتسلسل العبارات، يحس السامع منه صدق الحديث، فيتابعه بكل الشعور والأحاسيس، خلوا من التكلف بعداً عن التعمق، ليس بالمطنب المثقل، ولا بالموجز المخل، بعيداً عن التكرار الممل.

لقد عرفه المحراب خمسين عاماً يؤدي الصلوات الخمس إماماً حافظاً لكتاب الله، تالياً مجيداً، حسن الصوت، رقيق القلب، تتجلى روحانيته في شهر رمضان، حينما يحي ليله في مسجد رسول الله ﷺ، فيستمتع المصلون بحسن تلاوة القرآن، ويستشعرون شرف المكان والزمان، فكم من قلوب وعت فخشعت، وكم من عيون رقت فدمعت، وكم من دموع جرت وهطلت).

ومما تميز به رَحِمَهُ الله قوته في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم، يشتد غضبه إذا انتهكت محارم الله، أو تسلط القوي على الضعيف، وله مواقف في نصرة الحق يعرفها الصغير والكبير. وكان شديد العناية بالمحافظة على تماسك

الأسرة المسلمة وحمايتها من كل شيء يسيء إليها، ظهر ذلك بجلاء في معالجته للقضايا الأسرية التي تُعرض عليه في المحكمة والتي كان يُحيطها دائماً بسرية كاملة، وفي عنايته بهذا الجانب في خطب الجمعة. وكان رحمه الله كريماً يُنفق المال إنفاق من لا يخشى الفقر، ينفق كثيراً من ماله في أوجه الخير ومساعدة الناس بسرية تامة حتى عن أهل بيته وأبنائه، ولم يُعرف كثير منن ذلك إلا بعد وفاته.

ومما تميز به أيضاً بعده وكراهته للعنصرية والعصبية بجميع صورها، الناس في مجلسه سواء، فأكسبه ذلك محبة وتقدير جميع فئات المجتمع، وهو منهج إسلامي متين، إهماله يؤدي للتباغض والتنافر بين الناس.

نظامه اليومي:

كرس الشيخ رحمه الله غالب وقته لعمله ومقابلة الناس، فالصباح إلى بعد صلاة الظهر في المحكمة، ومن بعد صلاة العصر إلى صلاة العشاء في مجلسه في البيت يستقبل الناس، يستمع إلى مشاكلهم، ويجيب على أسئلتهم، ويعالج قضاياهم، ويفد إلى مجلسه العلماء والأدباء ورجال الفكر ووجهاء الناس من داخل المملكة وخارجها يتدارسون كثيراً من الأمور الخاصة والعامة، حتى أصبح مجلسه هذا مضرب المثل.

رحلاته:

قام الشيخ رحمه الله بعدة رحلات إلى خارج البلاد للدعوة إلى الله، وذلك بدعوات من حكومات الدول، وهي على النحو التالي:

١ ـ رحلة إلى جمهورية نيجيريا عام ١٣٨٣هـ بدعوة من رئيسها، قام خلالها بزيارة عدة مدن فيها وافتتح مسجدين، وخطب الجمعة في مدينة سكتو.

٢ ـ رحلة إلى جمهورية مالي عام ١٣٩٤هـ بدعوة من حكومة مالي، زار فيها عدداً من المدن وخطب الجمعة في مدينتي: موبتي، والعاصمة باماكو.

٣ ـ رحلة إلى جمهورية السنغال عام ١٣٩٥هـ بدعوة من رئيسها، وألقى في زيارته عدداً من الكلمات التوجيهية، كما خطب في جامع داكار خطبة بيّن فيها محاسن الدين الإسلامي.

٤ ـ رحلة إلى جمهورية الباكستان الإسلامية عام ١٣٩٦هـ بدعوة من وزير الشؤون الدينية والأوقاف، وألقى خطبة الجمعة في إسلام أباد وفي لاهور وفي كراتشي، كما زار عدداً من المدن، وزار أكاديمية العلماء في لاهور، ودار القضاء والمدرسة الإسلامية.

٥ ـ رحلة إلى الجمهورية العراقية.

ذكاؤه ونباهته:

كان من أبرز صفات الشيخ التي تميز بها الذكاء المفرط والنباهة وقوة الذاكرة، عرف ذلك عنه كل من خالطه وتعامل معه، أورد الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ اللَّهُ قصة قد حضرها بنفسه تدل على توقد ذكاء الشيخ عبد العزيز بن صالح وتمكنه من عمله يقول: (. . . من ذلك أن نظرت قضية قتل، فادعى المدعى عليه أنه لم يكن حاضراً في منطقة وقوع الجريمة، وكان في مكان يبعد عنها قرابة مسيرة يومين! ولديه شهود على ذلك من أهالي المنطقة التي كان فيها.

ولطول ما بين نظر القضية وتاريخ الجناية ارتاب الشيخ في مدى صحة شهادة الشهود وإمكان صدقهم، فمنع إدخالهم المجلس، وكان المتهم يلبس غترة ـ على غير المعهود من جماعته ـ ومعها عقال، وكان المدعي العام حاضراً ويلبس (جاكيت) أو ما يسمى (كوت) فأمر المدعي العام بنزع كوته، وأن يلبسه المتهم، وأمر المتهم بأن يعطي غترته وعقاله للمدعي العام، مع مبادلة المكان في جلوسهما، ثم أمر رَحِمَهُ اللَّهُ بإدخالهما منفردين (أي الشاهدين)، ولما حضر الشاهد الأول سأله الشيخ عن معرفته للشاهد، ومنذ كم فأجابه، فسأله تعينه من الحاضرين، فأشار إلى المدعي العام، ولم يظهر له الشيخ أي ملاحظة واستمر في سماع ما عنده.

ثم استدعى الشاهد الثاني، فسأله كما سأل الأول، فأشار إلى المتهم فعلاً، فسأله عما لديه، فأخذ يسرد الكلام سرد من كتب له فحفظ حرفياً، مع ذكر الأيام والتواريخ فسأله عن زواجه وآخر مولود له وعن تاريخ ذلك، فلم يكن يتذكر، وكان بعد الحادث فواجهه بقوله: أمور تخصك وتهتم لها في حياتك، فلم تذكرها، وأمر لا يخصك ولم تكن في يوم من الأيام تتوقع سؤلك عنه وتتذكره باسم اليوم وتاريخه من الشهر، فشرق الرجل وطلب الماء.

وكان قد حضر الجلسة وفد قضائي سوري، منه رئيس محكمة دمشق، وكنت على يسار الشيخ وهو عن يساري، فكتب سؤال في ورقة صغيرة وقدمه إلي لأقدمه إلى الشيخ ليواجه المتهم، فلما قرأته أمسكت بالورقة وقلت له: انتظر حتى النهاية. وبعد قليل، وفي مناقشة الشاهد، وجه الشيخ إليه عين السؤال الذي كان يريد رئيس الوفد تقديمه، فأعدت الورقة إليه. وبعد انتهاء الجلسة كان تعليق الوفد بقولهم: ما كنا أبداً نظن أن القضاء الشرعي بهذه المكانة دقةً واستقصاءً ونقاشاً).

مرضه ووفاته:

أصيب رحمه الله عام ١٤٠٩هـ بمرض الكبد، فأشير إليه بالسفر إلى أمريكا فسافر إليها ورجع بعدها متماثلاً للشفاء. وفي عام ١٤١١هـ سافر مرة أخرى إلى أمريكا، ثم رجع وحالته الصحية غير جيدة ولم يتوقف عن أداء أعماله إلا بعد سفره الثاني، إذ اشتد عليه المرض، لكنه لم يمنعه من الجلوس للناس بعد صلاة المغرب في بيته بالمدينة. وفي يوم الأحد ١٦/ ٢/ ١٤١٥هـ شعر رحمه الله بألم في بطنه وهو جالس في مجلسه على عادته فاستأذن من جلسائه للراحة، وخلال دقائق تطور الأمر فأصابه إسهال واستفراغ ثم هبوط في الضغط فتم نقله إلى المستشفى بناءً على رغبة الطبيب لوضعه تحت الرعاية الطبية، وقبل فجر يوم الاثنين ١٧/ ٢/ ١٤١٥هـ توفي رحمه الله، وصلِّيَ عليه بعد صلاة المغرب في المسجد النبوي، ودفن في البقيع وصلى عليه جموع غفيرة من الناس، في مشهد عظيم تجلى فيه تقدير الناس ومحبتهم إياه.

أولاده:

رزقه الله ثمانية أولاد، وأربع بنات، والأولاد هم:

١ ـ صالح، توفي في ١٤١٦/٦/٢٤هـ، وكان يعمل في التجارة.

٢ ـ محمد، ويعمل محاضراً في كلية العلوم بجامعة الملك عبد العزيز فرع المدينة.

٣ ـ عبد الرحمن، ويعمل أستاذاً في كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٤ ـ أحمد، ويعمل في التجارة.
٥ ـ عبد الله، ويعمل في مشاريع المطارات بجدة، ويواصل دراسته العليا.
٦ ـ مساعد، ويعمل محاضراً في كلية الاقتصاد والإدارة بجامعة الملك عبد العزيز في جدة.
٧ ـ منصور، ويعمل محاضراً في كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
٨ ـ عادل، ويعمل معيداً في كلية الاقتصاد والإدارة بجامعة الملك عبد العزيز في جدة.

رثاؤه:

لقد هز نبأ وفاة الشيخ مشاعر طلبته ومحبيه وسائر من عرف فضله أو سمع به، وننقل هنا بعض ما بثته قلوب هؤلاء من أحاسيس عبروا عنها بأقوالهم:

قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ مفتي عام المملكة: (إن المغفور له كان معروفاً بجده واجتهاده وحرصه الدائم على الخير والعلم، قضى أكثر من أربعين عاماً إماماً للحرم النبوي).

ويقول الشيخ محمد بن عبد الله بن سبيل الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي وإمام وخطيب المسجد الحرام: (لقد خسر العالم الإسلامي بوفاة فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح عالماً جليلاً مكافحاً حتى آخر لحظة من حياته، وكان من أكفأ الرجال وأكثرهم إخلاصاً، يتعامل مع الجميع بإنسانية تفوق الوصف، وبحزم لا ينقصه اللين).

وقال الشيخ عبد العزيز بن منيع عضو هيئة كبار العلماء: (لقد كان رَحِمَهُ اللهُ سداً منيعاً في هذه المدينة الطيبة لأهل الحسبة، وكان عيناً رقيبة في مسجد رسول الله ﷺ، وكان حرباً على أهل البدع، وكان له في مجلس القضاء آثار حميدة).

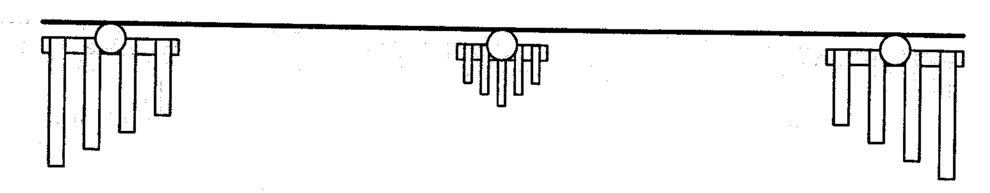
وقال خالد محمد النعمان:

بكى لفقدك محراب ومحكمة ... ومنبر من عليه الوعظ والخطب

من حسن حظك عشت العمر أجمعه في روضة الخير قد طالت بك الحقب
زهاء خمسين عاماً ما تفرقها تؤم في مسجد المختار تحتسب
قد كنت تدعو والآلاف مؤمنة خوفاً من اللّه في الأسحار تنتحب
تتلو عليهم كتاب اللّه تحفظه وتوعظ الناس والأنفاس تلتهب
يا شيخنا ما درى شخص بفقدكم إلا ووجنته بالدمع تختضب
حزناً على نأيكم والموت يفجعنا في كل حين بأحباب فنكتئب
عزاؤنا فيك أن الكل مرتحل وأن من ظل حيّاً بات يرتقب

وقال عبد العزيز الشاماني:

قرأت شعراً فكاد الشعر يشجيني وصاحب الشعر ظل اليوم يبكيني
يا صاحب الشعر لا روع ولا حزن فالموت كأس يسقيكم ويسقيني
عبد العزيز أب للكل ليس لكم يبكيه كل أخ في اللّه والدين
شيخ القضاة قضى بالعدل في شرف ونصتف قرناً إماماً للمصلين
إمام مسجد خير الخلق أجمعهم وواعظ الناس بين الحين والحين
ما زلت أذكر وتراً فيه أسمعنا صوت الوداع وكان الصوت يشجيني



من أعيان علماء القرن الرابع عشر بالمدينة المنورة «الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد السوقي الشهير بالتنبكتي رحمه الله»

إن ممن أوفدتهم أفريقيا إلى المدينة المنورة وهم عدد كثير على أزمان متفاوتة شيخنا الفاضل العلامة الشيخ أبا بكر التنبكتي، وفد إليها عام ١٣١٧ شاباً ناشئاً أخذ مبادئ العلوم في مسقط رأسه ودرس وحصل بالمدينة حتى عين مدرساً بالمسجد النبوي الشريف وبدار الحديث بالمدينة المنورة. وفي حياة شيخنا هذا الفاضل وطريق هجرته ومنهج دراسته العديد من العظات والعبر والمواقف النادرة التي ترسم لطلاب العلم مثاليات السلوك والصبر والجلد وقوة العزيمة، نجمل ذلك في الآتي وهو ثاني من عرفت من العلماء وعن طريق شيخنا الأفريقي عندما دخلت فرنسا أفريقيا كان شيخنا يعيش في داخل الصحراء عيشة البداوة فوصل إليهم الفرنسيون في صورة مصلحين لأوضاعهم فأنكروهم، وكان يوجد الشيخ المحمود وله طلاب ومجموعة نحو المائة شخص وفيهم أصحاب العوائل فعزموا على الهجرة وتجمعوا في مكان يسمى «دار مكة» وهي القرية التي سميت فيما بعد بالسوق، ولما أخذوا في المسيرة مهاجرين إلى أرض الحجاز ووصلوا الحدود ما بين ليبيا وبلادهم ردتهم الحكومة الإيطالية آنذاك فرجعوا إلى بلادهم.

ثم أعادوا المسيرة بمجموعتهم وكانوا يسمون (التوابين) ووصلوا إلى ما بين ليبيا ومصر. وتذكر شيخهم الشيخ محمود أنه نسي مبلغاً من المال حيث كانوا متجمعين في محلة (السوق) فانتدب من يأتيه بها فأجابه شيخنا التنبكتي وكان أشبهم وأنشطهم فرجع ليحضر ذلك المال ومضت الجماعة في طريقها إلى الحجاز ثم لحق بهم وكان وصوله المدينة سنة ١٣١٧، ونزل الشيخ

المحمود بالجماعة خارج سور المدينة في مساكن عبارة عن الأكواخ والصنادق حيث إن عددهم كثير، وهنا بدأت تلك الجماعة تواجه حياة جديدة عليها، وقد سمعت من الشيخ حماد الأنصاري وهو من أقرب الناس إلى تلك الجماعة في موطنهم في بلادهم في معرض حديثه عن تلك المجموعة أمراً غريباً، أنهم أول ما نزلوا بالمدينة أتاهم شخص من أهل المدينة وعند شيخهم المحمود وجاء معه بأدوات عمل (الشاي) ورأوه أوقد الفحم بالغاز.

ومن الغد أرادوا إشعال النار في الفحم فسكبوا عليه من الماء ظناً منهم أن الذي فعله صاحبهم في إشعال الفحم هو «الماء» ولم يكونوا يعرفون «الغاز» في بلادهم. . . .

ونحن نقف عند هذا المشهد لأمرين عجيبين:

الأول: كرم هذا الرجل الذي جاء إلى قوم غرباء يراهم بحالة البداوة ليسوا موضع مطمع ولا رغبة ويقدم إليهم ما يراه يسرهم ويتقبلونه. وليس هذا بجديد على أهل المدينة الأوائل.

الثاني: إن صحت تلك الحالة من عدم التفرقة بين الماء والغاز وأنهم لم يكونوا يستعملونه في بلادهم ولا تعرفوا عليه في سفرهم. فإن هذا يصور مدى الحياة الصحراوية والبداوة العميقة. ويؤكد أن استضاءتهم كانت على شعاع نار الحطب كما هو معروف في البوادي. أما كيف واجهوا الحياة في تلك الحالة؟ فإن شيخهم وقد أحس بأعباء معيشتهم فقد وجههم إلى العمل والتسبب بعمل أيديهم فمنهم من وجهه لسقي الماء ومنهم من وجهه للمشاركة في أعمال البناء ونحو ذلك.

فكانوا يسعون نهاراً لطلب المعيشة، ويدرسون عليه ليلاً لتحصيل العلم. وهكذا قدمت لنا تلك المجموعة عدداً من العلماء تهيؤوا للتدريس في المسجد النبوي الشريف وفي مدرسة دار الحديث، ودار العلوم الشرعية. وهنا دروس وعبر لكل مهاجر ولكل مغترب وخاصة طلبة العلم وأهم تلك الدروس هو أنهم لم يكفوا أيديهم عن العمل ويمدوها إلى الناس. وأنهم لم يشغلهم طلب المعيشة عن طلب العلم.

وأنهم واصلوا كفاحهم حتى بلغوا غايتهم. وأهم هذا كله عناية الله تعالى

بهم ومصداق حديث رسول الله ﷺ فيهم: «من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»، وهنا خاطرة جديدة وهي: وإن هذه الصورة وهي لجماعة نحو المائة خرجت من بلادها وخلفت وراءها ما يمكن أن نسميه ممتلكاتها أو على الأقل وسائل معيشتها. لا من ضيق الرزق، ولا من ثقل الكد. ولكن فراراً بدينها من المستعمر عدوها في دينها واتجهت إلى خارج القارة من أفريقيا إلى آسيا وفي طريقها العديد من الأقطار فلم تجد لها مأمناً ولا مستوطناً كما وجدت في الحجاز وفي المدينة المنورة بالذات فيعطينا دلالة من جانبين:

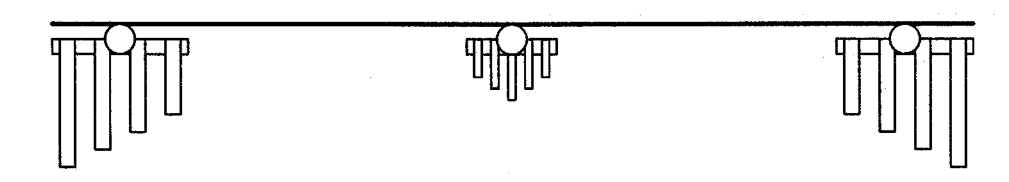
الجانب الأول: الذي أخرجهم من بلادهم وهو وجود المستعمر عدو الدين. وهذا كان موجوداً في كل البلاد التي مروا بها فلم يكونوا ليستبدلوا استعماراً باستعمار مع زيادة الغربة.

والجانب الثاني: أن مجيئهم إلى المدينة لحفظ دينهم ولا حظ لهذا المجيء في أمر دنياهم. وهذا ما يعطينا فهماً جديداً للحديث النبوي الشريف: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها». حيث كنا يتبادر لنا أن ذلك مقصود به آخر الزمن. ولكن بهذه الحادثة وأمثالها سواء على مستوى الجماعة كهؤلاء أو مستوى الآحاد كالعديد الذين يهاجرون بأشخاصهم آحاداً أو مع عوائلهم.

فراراً بدينهم وسواء من المستعمر في البلاد التي احتلها المستعمرون بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية أو فراراً من فتن الحياة الأخرى التي أحدثتها ما يسمى بالحضارة الأوربية أو غير ذلك.

فإن العالم كله لعلى يقين من أن حقيقة الإيمان، وحقيقة الاطمئنان وحرية أداء الواجبات الدينية اليوم وكل يوم لا توجد متوفرة في أي بقعة على وجه الأرض كما هي في الحرمين الشريفين. ولهذا توجهت تلك المجموعة إلى المدينة المنورة وفيها كونت العديد من العلماء على ما سيأتي بيانه إن شاء الله، وبالله تعالى التوفيق.





الشيخ أبو بكر التنبكتي

«حياته العلمية»

تقدم الإيماء إلى خروجه من مسقط رأسه من جنوب الصحراء لبلاد مالي في مجموعة تسمت (بالتوابين) مهاجرين إلى المدينة مع شيخهم المحمود. ولا يخفى أن الحياة العلمية في تلك البوادي قوامها تعلم القرآن الكريم حفظاً ورسماً. وقد كان شيخنا التنبكتي في مقتبل حياته وشبابه وبداية دراسته فأخذ حظاً من التعليم السائد في بلاده. ولما وصل المدينة المنورة كانت حياته العلمية وفق ما وجده بالمسجد النبوي الشريف. ولما كان طبع البداوة من نشاط وذكاء وعراقة الأصالة حيث كان جدوده ممن نزحوا عن الجزيرة في عهد الفتوحات الإسلامية. فإنك ترى فيه مخايل الفطنة والذكاء، وحلة الفضائل والمكارم، وعزة القناعة، بل تلمح فيه سماحة الزهد، وصرامة العلم. ولم تكن تلك البسمة تغيب عن شفتيه، ولا تلك البشاشة من بين عينيه وكان متجهاً بكليته إلى طلب العلم. وخاصة عن شيخه المحمود الذي كان له معلماً ومربياً وموجهاً. فكانت دراسته أولاً بحفظ القرآن ثم حفظ بعض المتون في بعض الفنون من فقه ونحو ومصطلح الحديث، وكان جل ذلك على الشيخ محمد الطيب الأنصاري والد الشيخ إسماعيل الأنصاري وولده الآن موجود حالياً بإدارة الإفتاء بالرياض. كما ذكره الشيخ محمد سعيد دفتردار في ترجمته للتنبكتي.

أما علوم العربية فقد درسها على فضيلة الشيخ الطيب الأنصاري وكان ضمن المجموعة التي قدم فيها الشيخ التنبكتي، وأخبرني الشيخ حماد الأنصاري أن الشيخ الطيب عمل رسالة في النحو للشيخ أبي بكر التنبكتي خاصة سماها باسمه «الرسالة البكرية». وذلك يدلنا على مدى عناية شيوخه به ومدى نشاطه معهم. وقد واصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ دراسته بالمدينة وممن لقيهم وأخذ عنهم

سماحة الشيخ عبد الله بن حسن رئيس الشؤون الدينية آنذاك بالمدينة وأهم ما أخذ عنه العقيدة السلفية. وظل رَحِمَهُ اللَّهُ في جده واجتهاده في طلب العلم حتى واجهته أحداث المدينة في عهد فخري وسافر العديدون عنها إلى تركيا وإلى الشام. وكان شيخنا التنبكتي ممن سافر إلى الشام عام ١٣٣٠، ومكث هناك إلى ١٣٣٨، ثم عاد إلى المدينة يستأنف طلبه للعلم. فلازم شيخه الفاضل ومربيه الكريم العلامة الشيخ محمد الطيب الأنصاري مع مجموعة من الطلبة الأجلّاء والسادة النبهاء تلاميذ الشيخ وخواصه منهم فضيلة الشيخ محمد الحركان الذي تولى مما تولاه وزارة العدل وأمانة رابطة العالم الإسلامي، وكان من أشد وأقرب أصدقائه رحمهما الله. ومنهم الشيخ عبد القدوس الأنصاري مؤسس وصاحب مجلة المنهل، وعضو مجلس الشورى، والشيخ ضياء الدين رجب كذلك، والشيخ عمر بري، والسيد ولي الدين أسعد. والسادة عبيد وأمين مدني.

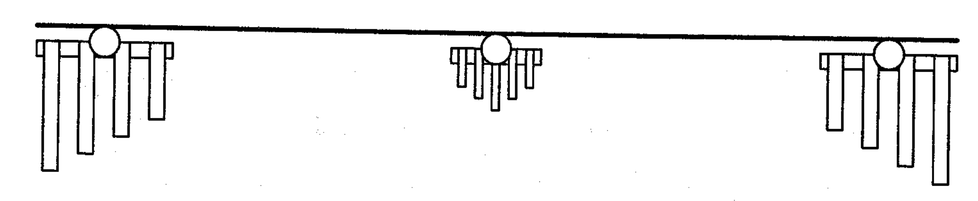
وكل هؤلاء كانوا مبرزين في العلم والأدب بل والسيدين علي وعثمان حافظ أصحاب جريدة المدينة، والسيد أسعد طه وعدد كبير من أماثل شباب المدينة في العلم والأدب. وفي سنة ١٣٥٦، أجازه الشيخ شيخه محمد الطيب الأنصاري في التدريس وانصرف لتدريس التفسير والتوحيد والحديث. وقد استمعت إليه رَحِمَهُ اللَّهُ يدرس في الحديث «مشكاة المصابيح»، كما اشتغل كذلك بتدريس الفقه المالكي. وكان يجلس بالمسجد النبوي بعد الظهر وبعد المغرب وفي سنة ١٣٧٥، عيّن مدرساً بدار الحديث. فكان المدرس المربي والعالم الموجه أكسبه الله حب كل من عرفه، والقبول عن كل من لقيه وكان محبباً لأهل المدينة لما كان عليه من لين الجانب ورقة الحاشية وحكمة الداعية ملماً بحالات الأسر المدنية وتاريخها معاوناً لطلاب العلم ساعياً في مصالحهم، هادئ الطبع غض الصوت بشوش الوجه. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ مسموع الكلمة عند معظم أهل المدينة لا لشيء إلا لرفقه وحكمته مما نوصي به دائماً أنفسنا وعامة طلبة العلم فيما ينبغي أن يكونوا عليه مع العامة والخاصة؛ أداء لحق الله فيما ورثهم من علم، ووفاءً بحق العامة والخاصة فيما لهم من واجب النصح. ولقد عرفت فيه رَحِمَهُ اللَّهُ روح الدعابة الكريمة وألمعية النكتة الطريفة مما يؤنس جليسه، ولا يسأم سامع حديثه. كما عرفته ودوداً لطلاب العلم أقرانه ممن أدركتهم معه في

حلق الدروس في المسجد النبوي الشريف مثل الشيخ عبد الرحمٰن الأفريقي والشيخ محمد الحركان والشيخ حامد عبد الحفيظ والشيخ عمار الجزائري، وكان رحمه الله رغم كبر سنه في الآونة الأخيرة لا يكاد يفوته فرض من الصلوات الخمس في جماعة المسجد النبوي كما أنه قلّ أن تلقاه غير تال للقرآن الكريم وكان حقاً يصدق عليه قولهم: تذكرك رؤيته بذكر الله.

ومع هذا فقد قال عنه الشيخ محمد سعيد دفتردار في معرض أوصافه: كان رحمه الله يمتاز بالفطنة والذكاء وحدة الذاكرة وله بديهة حاضرة، ويحكي واقعة له معه. وكان الشيخ الدفتردار صاحب دعابة وطرف مع الجميع يقول الشيخ محمد سعيد دفتردار: مر بي رجل غريب فسألني عن بيت الشيخ التنبكتي فأرشدته إليه ثم لقيني الشيخ لقيني بعد قليل فسلم علي فأردت ممازحته. فقلت له: يا مولانا. وهذه عادة أهل المدينة الأوائل في نداء العلماء: مولانا. الآن مر بي رجل غريب يسأل عن بيتكم ومعه عشرة (وأشرت إليه بأصابع يدي العشرة) فابتسم وقال: أولئك أعضاؤه. فقلت له: يا مولانا أكثر من الخبز لأجلهم. فقال: يكفيني الخبز الذي معي فلا يشاركني في الصفحة منهم غير خمسة فقط، يعني: أصابع يده اليمنى لا شك أن هذه سرعة بديهة ولطف إجابة. وإنها مع ذلك لموحية بما كانت عليه الحالة المعيشية في المدينة وكذلك فيها التصريح بأن طلبة العلم يحملون بأنفسهم الخبز لأهليهم. بل إننا شاهدنا الكثيرين من أهالي المدينة يباشرون شراء لوازم بيوتهم ويحملونها بأنفسهم إذا كانت في حدود ما يحمل في اليد. فإذا كانت هناك مناسبة تلزمها زيادة في «المقاضي» استعان بحامل يحمل معه إلى البيت ولا يجد أحد أي إحراج في ذلك؛ لأنها عادة العامة ولا شك أن هذا دليل طيب النفس وحسن التواضع وإعمالٌ للأثر: «رب السلعة أحق بحملها». وقد كان السلف فعلة أنفسهم.

ثم توفي شيخنا رحمه الله سنة ١٣٨٦، على إثر عملية ودفن بالمدينة وخلف أربعة أبناء بررة جعلهم الله خير خلف لخير سلف، كما خلف السيرة الطيبة والثناء الحسن والطريقة العملية الفاضلة، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء الحرمين الشريفين وبالمدينة في القرن الرابع عشر «الشيخ عمار الجزائري»

هو فضيلة الشيخ المحدث السلفي (عمار بن عبد الله بن طاهر بن أحمد الهلالي الجزائري) من أوائل من أكرمني الله بسماع حديث رسول الله ﷺ منه في المسجد النبوي وعلى غير ارتباط ولا اتفاق، حيث صليت الظهر تجاه باب الرحمة وبعد الصلاة رأيت الطلاب يتحلقون أمامه وكنت خلف العمود الذي أسند ظهره إليه على عادة المدرسين، فدنوت من العمود واستندت إليه وسمعته يقرأ الحديث الذي وجدت غرابة في سماعه لأول مرة لمجيئه على خلاف ما نألف وموضوعه (النذر) ولا زالت صورة عرضه رحمه الله تتردد في سمعي في هدوء وتكرر في إيضاح قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النذر لا يأتي بخير»، وكان يرددها ويشرح معنى النذر وأنا أنتظر شرحه وبيان السبب المانع من أن النذر لا يأتي بخير، والحال أن كل إنسان واجه شدة أو لزمته حاجة سرعان أن يتقرب إلى الله بالنذر ليكشف شدته أو يقضي حاجته، ثم أخذ رحمه الله في شرح وبيان المعنى ويرد العبارات وينوّع الأسلوب ويكرر الجمل كالذي يحاول صعود الجبل فيدور حوله ويتطلب مسالكه حتى وصل إلى القمة.

فما أن انتهى من تقريره على الحديث حتى كأنه نقش في ذهني ولكأني وأنا أكتب ترجمته هذه أنظر إلى إشاراته بيده واستدارته بوجهه يميناً ويساراً، ورفع رأسه تارة وتصويبه تارة أخرىٰ بتلك العمامة تحت (غترته) وكأني أسمع صوته غير المرتفع ولا الخافت في لهجته المعربية وتعطيش الجيم. وكان لوضوح أسلوبه وتكرار عباراته عامل قوي لحرصي على سماع درسه عند كل فرصة. وقد أكبرت فيه رحمه الله وقار العلماء وهدوء الأتقياء. أما ترجمته فقد سألت ولده الكريم عبد الله فقدم لي مشكوراً بياناً بما يسمى لغة الأرقام، تاريخ ميلاده ١٣١٦ بالجزائر، وتاريخ تخرجه من جامع الزيتونة بتونس سنة ١٣٤١،

وتاريخ هجرته إلى المدينة ١٣٥٢، ثم بياناً عن تاريخه الوظيفي ثم وجدت ترجمته رَحِمَهُ اللهُ بخط يده نقلها عنه فضيلة الشيخ محمد سعيد دفتردار ضمن العديد من تراجم علماء المدينة المنورة، نشرها في مجلة (المنهل) مضمونها وموضع العبرة منها، قال عن نفسه: نشأت في عائلة فقيرة إلا من الإيمان بالله وكان مولدي في بلد القمار في واحات الصحراء الكبرى في جنوب الجزائر.

وبدأت أحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة في بلدة فلياش من قرى بسكرة، وأتممت حفظه ببلدة سيدي عقبة، ثم رجعت إلى مسقط رأسي ولم أجد مطلبي من طلب العلم رحلت إلى تونس مشياً على الأقدام بصحبة والدي، وقد تكبدت مصاعب كثيرة عظيمة يهون أمرها على من طارت به الأشواق في طلب العلم ودخلت جامع الزيتونة، وانخرطت في سلك التعلم، وذلك في سنة ١٣٣٤. وهنا وقفة طويلة مع تلك الرحلة على الأقدام وإن كنا لا نعلم مسافتها إلا أننا ندرك مشقتها على فتىً لم يبلغ العشرين من عمره يسير على الأقدام وسط الصحراء طلباً للعلم يتكبّد مصاعب كثيرة عظيمة نستطيع تقديرها، من وحشة الصحراء وشدة الظمأ، ووهج الهجير ومخافة الطريق وجهد وإنهاك القوى.

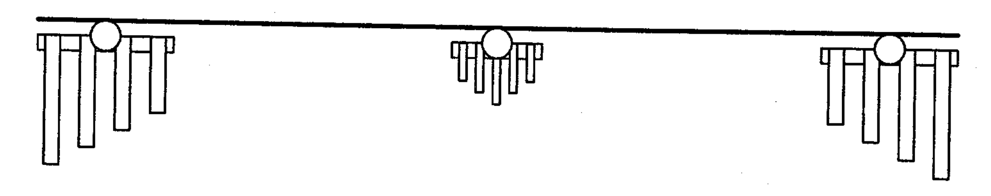
وقد قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في رحلته إلى الخضر: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]. وإذا ضممنا إلى هذا الجزء تلك النشأة في الأسرة الفقيرة؛ أدركنا السر والحكمة؛ لأنه لو كان نشأ في أسرة لها ثراء لما استطاع أن يتحمل مصاعب السفر راجلاً وسط صحراء قاسية. كما أننا نشعر بالسر في نوعية غالبية طلاب العلم من الأسر الفقيرة؛ لأنها أشد رغبة فيما عند الله وأقدر على الاغتراب في سبيل تحصيله كما ندرك عزيمة هذا الوالد في صحبته في هذا السفر. ونستطيع أن نذكر طلاب العلم اليوم بعظم وجليل نعم الله علينا من تيسير في الأسفار وتوفير لوسائل الراحة. بل وتقريب لكل ما يساعد على التحصيل من كتب ومراجع مسموعة ومقروءة مع شيخنا عمار في رحلته الثانية لطلب العلم. قال: وكانت برامج العلم يومئذٍ حافلة بمواد وكتب غزيرة المادة يعني في تونس ـ الزيتونة يدرسها شيوخ أجلّة. كل شيخ بصدد تخصصه وفي فنه الذي يتخصص به ومن فضل الله علي يقول: أن أدركت الكبار من هؤلاء العلماء. وأخذ يعدد شيوخه وما أخذ عن كل منهم.

وهنا نقف وقفة دقيقة هامة في سلك التعليم أومأ إليها وأشار بوضوح رحمه الله بقوله: وكانت برامج العلم يومئذٍ حافلة بمواد وكتب غزيرة المادة يدرسها شيوخ أجلّة. فنقول: إن هذا الربط بين المادة والكتاب والشيخ هو صلب التعليم العالي. لأن المادة الغزيرة بدون كتاب يصعب جمعها والمادة والكتاب غزيري المادة بدون أستاذ على مستوى غزارة المادة وأصالة الكتاب كالعدم ولذا يقال: أعطني أستاذاً قبل أن تعطيني كتاباً، والأستاذ المتخصص والمتمكن من مادته هو الكتاب الناطق وهو الذي يجمع أطراف المادة ويصنف أبوابها ويفصل مسائلها ويقدمها للطالب سائغة هنيئة. ثم عدد رحمه الله المواد التي درسها على من أدرك من الشيوخ منهم، أدرك منهم سبعة أفاضل وفي مقدمتهم: الشيخ الطاهر بن عاشور، ويهمنا في الدرجة الأولى المواد التي درسها على هؤلاء الأفاضل الأعلام وكلهم أصحاب تآليف علمية نافعة أما المواد: فذكر مختصر خليل بشرح الدردير في أربع مراحل. وذكر العاصمية، وذكر التفسير، والحديث، والأصول، والتلخيص في علوم البلاغة، والأشموني على الألفية، والجزرية والشاطبية في التجويد والقراءات، وجمع الجوامع، والمصطلح، واللغة وذكر المعلقات وذكر الشافية ومراح الأرواح، والدرة البيضاء، والسلم في المنطق، ثم قال: وبعد إتمام الدراسة في تسع سنوات تخرجت بشهادة التطويع المعادلة لشهادة العالمية يومئذٍ سنة ١٣٤٣. وبتأمل تلك الدراسات على مدى تسع سنوات نجدها تفوق الدراسات الجامعية اليوم من حيث مواد الدراسة وزمنها فالثانوية ثلاث سنوات والعالي أربع مجموعهما سبع سنوات.

وهنا نجد مواد تجمع منهجي كليتي الشريعة واللغة وشيئاً من كلية أصول الدين وكلية القرآن، أي دراسة شاملة كاملة من علوم الآلة في اللغة والمصطلح والبلاغة والأصول والمنطق والعلوم الأساسية فقه حديث تفسير عقائد، وهذا الذي كانت عليه الدراسات النظامية في الجوامع الكبيرة قبل الجامعات كجامع الزيتونة والجامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص وأمثاله. فكان الدارسون بمثابة المتخصصين في كل فن. وكان باستطاعة كل واحد منهم أن يدرس كل مادة من تلك المواد وهذا ما لمسناه من أصحاب الفضيلة مدرسي المسجد النبوي الذين درسوا على تلك النظم وبتلك المناهج. ثم تحدث رحمه الله عن

المرحلة الثالثة في حياته بعد إتمام دراسته فقال: ثم عدت إلى الجزائر لابتداء صفحة جديدة من الجهاد المقدس في نشر عقيدة السلف والدعوة إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومحاربة البدع والضلالات. قال: وكنت أحد المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين ورئيساً لشيعتها في جنوب الجزائر، قال: ولقد لقيت في نشر الدعوة آنذاك ما يلاقيه أمثالي من جور الاستعمار ومن يسانده من الطرقيين يعرف ذلك أهل تلك البلاد، واستمر إحدى عشرة سنة وكانت الهجرة خوفاً على الأولاد والذرية. لقد بذل وسعه ولما لم يجد أعواناً كانت الهجرة له نجاة متعينة ليتمكن من الدعوة فكانت المدينة الأم الحنون وصلها سنة ٣٥٣، ودرس بالمسجد النبوي الشريف وبدار الحديث ودار العلوم الشرعية وسجل كلمة شكر وعرفان بالجميل للمرحوم الملك عبد العزيز رحمه الله لما لقي منه من عناية وتكريم. وذكر له من الأولاد والبنات: عبد الله ومحمداً وأحمد وعائشة وحفصة وأسماء وزينب، وأرخ ما كتب سنة ١٣٨٧، وانتقل إلى رحمة الله في ٢٨ من شهر ٥ سنة ١٣٨٩، وما زال طلابه يعرفون له الجميل ويحفظون له المعروف، بارك الله في عقبه ونفع الله بعلمه، وبالله التوفيق.





من أعيان علماء الحرمين الشريفين في الرابع عشر بالمدينة فضيلة العلامة «الشيخ محمد بن تركي رحمه الله»

هذا العلامة الجليل الذي جمع الله له بين العلم والعمل، والفقه والورع والذي يعتبر أقرب ما يكون من سلف هذه الأمة الصالح، أدركته مدرساً بالمسجد النبوي الشريف وحظيت بالدراسة عليه مع بعض أحبائه في بيته ودرست عليه بعضاً من صحيح البخاري وبعضاً من شرح «منتهى الإرادات» في الفقه الحنبلي وذلك أثناء العطلة الدراسية، وقد كانت له رحمه الله مواقف انفرد بها في شخصه وفي علمه من ذلك جئناه إلى البيت في شدة الحر بعد العصر للدرس فإذا هو تعلوه حمى شديدة وهو خفيف الجسم ضعيف البنية فجلسنا حوله نواسيه ثم همست إليه: توجد حبوب وأبر وشراب لتخفيف تلك الشدة فما شئت أحضرناه إليك، فصمت قليلاً ثم قال: حياتي كلها إلى يومي هذا لم أتعاطَ دواءً البتة وأرجو الله كذلك بقية عمري. فقلنا له: أنالك الله مطلوبك وجعلك من السبعين ألفاً الذين تعنيهم فقال: الله كريم. وإني لأكاد أعتقد أنه لم يوجد في هذا العصر من يصبر على ما يصيبه ويمسك عن التداوي.

ومن الناحية الفقهية مررنا في شرح «منتهى الإرادات» على مسألة تعاطي المرأة ما يوقف الدورة وما يسقط الحمل، ونص الكتاب على جواز ذلك ما لم ينفخ فيه الروح. فقال رحمه الله في هدوئه المألوف: لا يا حبيبي. ولا بعد ساعة واحدة من علوقه بالرحم فهو ينمو كل يوم كما تنمو الحبحبة في عروقها. وهذا القول الذي سمعته منه وجدته بعد ذلك بعينه لهيئة الأطباء في الندوة الطبية سنة ١٩٣٢م بكلية الطب بالقاهرة، حين ناقشوا منع الحمل والإجهاض فقرروا وبالإجماع أن إجهاض المرأة ولو بعد يوم واحد جريمة

وجناية. ومن نوادره رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتلطفه كنت أتوضأ بالميضأة التي كانت عند باب الرحمة قبل التوسعة السعودية الأولى فجاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليتوضأ فجلس بجانبي وقال: من زمزم وإن كرهوا فقلت: من هم؟ قال: اللي تعرفهم الذين لا يفقهون إلا كلمة «بدعة» ثم عقب قائلاً: إنها بمثابة الدعاء أدعو لك بأن يكتب الله لك حجاً أو عمرة فنتوضأ من زمزم. وذكر لها نظائر، وقال: إن ذلك من الجهل. ولقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحثنا دائماً على البداءة بالفقه قبل الحديث لدقة مسائل الفقهاء ومسالكهم العميقة ثم تطبق الحديث عليها، ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من لم يدرس الفقه لا يفقه الحديث. ويقول: أئمة المذاهب الأربعة شيوخ علماء الحديث.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ على منهج قويم لا إفراط ولا تفريط. وقد ترجم له أخونا الشيخ عبد الله البسام ضمن علماء نجد فقال ما ملخصه: والشيخ محمد بن علي بن محمد بن منصور، وساق نسبه إلى عدنان وقال: فآل تركي من قبيلة مضرية عدنانية، ولد في بلدة آهلة (عنيزة) عام ١٣٠١، وسافر إلى مكة وعمره ١٤ عاماً مع أخيه إبراهيم للتجارة وفي عام ٣٧، قام برحلة إلى الهند زار مدناً عديدة ثم عاد عن طريق الخليج فزار العراق والإمارات، ثم واصل إلى المدينة المنورة وفي عام ١٣٤٠ قام برحلة إلى مصر وفلسطين وقضى شهر رمضان في القدس، وألقى دروساً في المسجد الأقصى في عهد سيد أمير الحسيني وكان يستمع شخصياً إلى دروسه، وقال الحسيني عنه: لم يجلس على هذا الكرسي بعد الشيخ محمد عبده أحسن من صاحب هذه الترجمة وتمت له زيارة بلاد الشام كلها ثم عاد إلى جدة. وفي عام ٥٧ تجول في نجد والإحساء والقطيف ثم عاد إلى المدينة المنورة، ومعلوم أن رحلة العالم كالغيث حيث ما نزل أحيا وأنبت. ولا سيما العالم التاجر لقوة صلته بالناس، ولهذا فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أليفاً مألوفاً، لمن عرفه وخالطه. أما طلبه للعلم: فحين أقام بمكة حفظ القرآن وجلس إلى العلماء بالمسجد الحرام فتلقى التفسير والحديث والفقه والعربية. وكان يحضر وهو في عنيزة دروس الشيخ الجليل ابن سعدي. وكان ينفرد بدراسة شرح «منتهى الإرادات» في بيت شيخه ويحضر شيخه إليه في بيته يوم الثلاثاء من كل أسبوع لمناقشة مواضع الإشكال.

وأما مشايخه:

فعد له ستة من علماء مكة وله غيرهم من غيرها. وذكر له أيضاً اطلاعٌ أدبيٌّ وأنه حفظ ديوان المتنبي وله بديهة حاضرة وجوابٌ سديدٌ. كما ذكر له من التلاميذ العديد من الشخصيات. وإني لأعرف من تلاميذه رَحِمَهُ ٱللَّهُ العدد الكثير في حلقته بالمسجد النبوي الشريف ولا مجال لتعدادهم.

أما أعماله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فقد كانت له دورس في الحرمين الشريفين ولقد شاهدت حلقته بالمدينة يحضرها مختلف الطبقات والكل يستفيد من درسه ويصدر عن رأيه ويقنع بفتواه. ومن الجهة الرسمية فقد ولي القضاء بالمدينة المنورة سنة ١٣٤٥. وقد اطلعت على العديد من قضاياه في سجل أعمال القضاة الموجود بالمحكمة حالياً في قسم السجلات وفي عام ١٣٤٦ عين مساعداً لرئيس القضاة في مكة المكرمة، وبطلبه أعفي من منصبه ورجع إلى المدينة المنورة فعين مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية بالمدينة. طلب منه التدريس بالمعهد العلمي بالرياض مع أصحاب الفضيلة الذين طلبهم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آنذاك فاعتذر بأن بقاءه في المدينة أكثر فائدة وتحقيقاً للمصلحة العامة فأعفاه. وبقي في المدينة وقد حدثت منه المشاركة في الدعوة إلى الله كما ذكر الشيخ البسام: أنه كتب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالاشتراك مع شخص آخر تحت أسماء: الأول سمىٰ نفسه ناصر الدين الحجازي، وهو المعني بمترجمنا الشيخ ابن تركي، وأبا البسار الدمشقي وهو شخص من الشام كتب رداً على بعض الأشخاص فيه انتصار للحق ودحض للباطل، وبلغ ذلك الرد المغفور له الملك عبد العزيز فكتب إليه خطاب تكريم وتقدير، ومما جاء فيه بعد المقدمة: من عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل فيصل إلى الأخوين المكرمين الشيخ الفاضل أبي اليسار الدمشقي وناصر الدين الحجازي سلمهما الله. وذكر لهما أنه عرض ما كتباه على مشايخ المسلمين فاستحسنوه وأجازوه، فالحمد لله الذي جعل لأهل الحق بقية وعصابة تذب عن الدين وتحمي حماه.. إلى آخر ما جاء فيه من تقدير وثناء وحث على القيام بالدعوة إلى الله وبالحق. وقد ذكر الشيخ البسام عنه ما هو شائع عند أهل المدينة عن شيخنا ابن تركي فقال: وكان عفيفاً ورعاً زاهداً

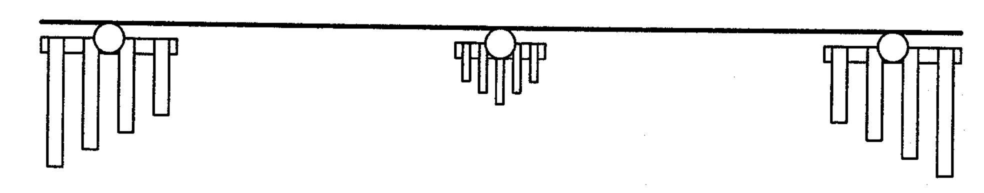
متخففاً من الدنيا. فحين عينه الملك عبد العزيز في رئاسة القضاة اشترط أن يصرف له مرتبه من حاصلات البريد لبعدها عن الشبهة.

ولا يخفى على الجميع أن هذا كان قبل وفرة استغلال البترول وقلة الموارد الرئيسية وشدة تورعه رحمه الله، والمعلوم أن الحكومة المسلمة تتحرى في مواردها الكسب المشروع، ومنذ تاريخ القضاء والقضاة يتقاضون مرتباتهم من الدولة إلا أن شيخنا ابن تركي كان نموذجاً متميزاً في الزهد والورع والتعفف وكنت تراه صيفاً وشتاءً متخففاً من اللباس. وكان رحمه الله قوياً في الحق صريحاً في القول. ولقد شاهدته قائماً على الكرسي الذي كان يجلس عليه للدرس وبعد صلاة العصر يحذر ويبين بدعة تعيين يوم ٢٧ من رمضان بالذات للذهاب إلى قباء وما كان يحدث آنذاك من شدة الزحام على الباب، أي قبل هذه العمارة الفخمة، الموجودة حالياً وكان رحمه الله عزوفاً عن الدنيا ومن ذلك ما حدثني به شاهد عيان قال في زيارة الملك مسعود رحمه الله المدينة: زار الشيخ ابن تركي في منزله وقدم له ٢٠ ألف ريال فلم يقبلها ودعا للملك بخير.

هنا لفتة: ـ

فإن فيها شدة توقيع الملوك لعلمائهم فجزاهم الله أحسن الجزاء ولشيخنا التركي مواقف عديدة مع الحق وقد وافاه الأجل صباح الجمعة ٢٠/٦/سنة ١٣٨٠، ودفن بالبقيع وصلي عليه صلاة الغائب بمكة وبكاه أهل المدينة لعلمه وصلاحه وورعه. وخلف ذرية صالحة، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، وبالله تعالى التوفيق.





من علماء الحرمين الشريفين في القرن الرابع عشر بالمدينة المنورة «الشيخ عبد الله الخربوش»

من العلماء من تستفيد منه دراسة عليه. ومنهم من يفيدك بتوجيه منه وفضيلة الشيخ عبد الله بن حمد بن دخيل بن سليمان آل خربوش ممن حظيت بمعرفته أوائل مجيء المدينة، وفي بداية الدراسة أثناء قراءة «بلوغ المرام» وشرحه «سبل السلام» ومن طبيعة المتن إيراد الأحاديث التي استدل بها الأئمة رحمهم الله وفي حالتي الاتفاق أو الاختلاف وعمل الشارح يناقش مسائل الخلاف بذكر أقوال أصحاب المذاهب دون ذكر مراجعها عندهم، فسألت الشيخ عبد الله ونحن معاً عند باب المصري سألته قديماً عن أوائل كتب الحنابلة فأخبرني بكتاب «الزاد» وقال: إنه يحفظه وأنه سهل العبارة. ثم توالت اللقاءات عند الأخ يوسف ابن السيد يوسف، وكان سلفي العقيدة مجالساً للعلماء هاجر إلى المدينة مع أخيه عبد المعطي، وكان أخوه من خيرة طلبة العلم كان يوسف هذا معروفاً عند كثيرين من كبار طلبة العلم ويلتقون عنده، وطالما لقيت العديد منهم وما كان حديثهم إلا في حديث أو مبحث في عقيدة وأول ما لقيت الشيخ محمود شويل وحامد عبد الحفيظ وعبد الحميد سناري وغيرهم إلَّا كان عنده.

وفي بعض تلك اللقاءات دار الحديث حول مسائل فرضية. ولم أكن أعلم عن علم الفرائض شيئاً فسألت الشيخ عبد الله الخربوش عن أيسر كتاب في الفرائض؟ فسمى لي «الرحبية» فقمت حالاً واشتريته من مكتبة السلفية لصاحبها محمد عبد المحسن رَحِمَهُ اللهُ، وكان زميلاً عند الشيخ عبد الرحمٰن الأفريقي في بلوغ المراد وما أصبحت من ليلتها إلا وأنا أحفظ أكثر المتن، وعنها درست الفرائض على الشيخ حماد الأنصاري فكان الشيخ عبد الله الخربوش رَحِمَهُ اللهُ من أوائل من عرفت وعنه استفدت بإرشاداته وتوجيهاته وما

عرفته عنه من سمو في الأخلاق ونصح مع الآخرين وسعي في قضاء حوائج كل من يقصده جعله محبوباً عند كل من يعرفه. أما ترجمته فنوجزها من خط يده قال: ولدت بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم في غرة رجب سنة ٣٣٧ وبعد السابعة من عمره قال: أدخلني والدي رحمه الله تعالى مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة، قال: فتعلمت وواصلت الدراسة فيها، وفي عام ٥١ حفظ القرآن، قال: نال شهادة حفظه، أي قبل البلوغ. وفي عام ١٣٥٥، قال: تعين مدرساً في نفس مدرسته للقرآن الكريم. وبقي منتسباً بالمدرسة المذكورة حتى أتم الدراسة العالية بها عام ١٣٥٨ ثم واصل دراسته بالمسجد النبوي الشريف على علمائه الأجلاء وذكر منهم العالم الجليل الشيخ محمد الطيب بن إسحاق الأنصاري، قال: ودرست عليه ولازمته طويلاً ومنهم الفقيه الفاضل الشيخ سليمان العمري. والذي عرفته أنا عن الشيخ سليمان هذا أنه كان رئيس العلماء بالمسجد النبوي والمشرف على الدروس وله نشاط علمي بين العلماء واطلعت على رسالةٍ له عن الوتر في أسلوب رفيع واطلاع واسع.

ومن شيوخه الذين درس عليهم بالمسجد النبوي كما قال، أي الشيخ عبد الله الخربوش يقول: درست على العابد الشيخ صالح الزغيبي إمام المسجد النبوي الشريف. وقد أدركت بحمد الله فضيلة الشيخ صالح رَحِمَهُ اللهُ وهو إمام وخطيب المسجد النبوي، وقد اشتهر عنه رَحِمَهُ اللهُ أنه منذ ولايته الإمامة لنحو من خمس وعشرين سنة لم يتخلف عن فريضة واحدة، وله أخبار في ذلك عند أهل المدينة وقد كان توقيته رَحِمَهُ اللهُ أي الشيخ صالح للإقامة أدق من توقيت المؤذنين للأذان، حتى في أحرج المواقف.

ومن شيوخ الخربوش أيضاً الإمام في علوم الأدلة الشيخ أمين الطرابلسي. وذكر أيضاً من شيوخه الشيخ عمار المغربي وقد تقدم الحديث عنه رَحِمَهُ اللهُ، درس في بلاده وفي تونس علوم الأدلة والفقه والأصول والحديث والمصطلح والتفسير والعقائد والمنطق واللغة، وقد أدركته أيضاً رَحِمَهُ اللهُ وسمعت منه. قال الشيخ خربوش أيضاً: ودرست كثيراً من كتب الأدلة على الشيخ عبد المجيد حسن. وفضيلة الشيخ عبد المجيد هو الإمام المساعد لسماحة إمام

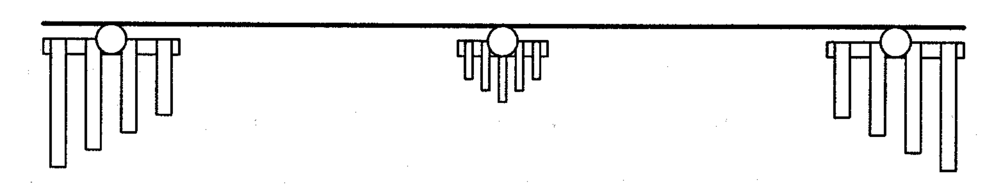
وخطيب المسجد النبوي حالياً الشيخ عبد العزيز بن صالح. وكان المساعد له أيضاً في رئاسة المحاكم وهو عضو في هيئة كبار العلماء متعه الله بالصحة والعافية، قال رحمه الله: وممن درست عليهم بالمسجد النبوي الشريف سماحة الشيخ عبد العزيز بن صالح إمام وخطيب المسجد النبوي ورئيس محاكم منطقة المدينة قال: درست عليه الكثير من كتب العقائد والفقه والحديث، وسمعت من سماحته أنه درس عليه الشيخ عبد الله الخربوش الفقه والحديث والعقائد والتوحيد، وكان لسماحته حلقة بالمسجد النبوي أوائل مجيئه للفقه والفرائض والتوحيد. ثم كان له مجلس في بيته بين المغرب والعشاء لخاصة طلبة العلم ثم كثرة حاجة الناس إليه فغلب على مجلسه في بيته أعمال الناس، متعه الله تعالى بالصحة والعافية وزاده توفيقاً لقضاء مصالح المسلمين الشيخ عبد الله الخربوش وقد درست علوم المصطلح على العالم الجليل الشيخ قاسم أنديجاني.

وأخيراً لازم دروس العلامة الجليل الشيخ محمد العلي الحركان وزير العدل قال: حتى أجازني في التدريس في جميع العلوم النقلية والعقلية إجازة مطلقة بسند الرواية في الحديث المتصل إلى الرسول الله ﷺ وذلك سنة ١٣٨٢، أما الشيخ محمد علي الحركان فكان يعد من كبار علماء المسجد النبوي وكان يدرس الصحاح ويحضره كبار الطلاب والمدرسين في المدارس يتلقون عليه الحديث واللغة والفقه والعقائد، وقد أسندت إليه رحمه الله أعمال قيادية فكان المثال الأمثل عزماً وعزيمة، وستأتي إن شاء الله ترجمته فيمن حضرته من مدرسي المسجد النبوي إن شاء الله. ثم قال الشيخ عبد الله الخربوش عن نفسه وعن منهج حياته العملي: إنه عين مدرساً بمدرسة شقراء بتاريخ ٩/٦/سنة ١٣٦٠، ثم مدرساً بمدرسة النجاح بالمدينة بتاريخ ١٧/١٢/٦٥، ثم عين مدرساً بالمسجد النبوي للعلوم الشرعية والعربية وذكر التاريخ، ثم اختير نائباً لإمام وخطيب المسجد النبوي سماحة الشيخ عبد العزيز بن صالح، وقد كان يؤدي خطبة وصلاة الجمعة عند اللزوم، وسمعته رحمه الله يذكر سنوات عديدة كان يلازم قرب المنبر يوم الجمعة تحسباً للظروف والطوارئ. ثم رفع في عمله بالمعارف إلى كبير مفتشين ورئيسٍ للتربية الإسلامية بمنطقة المدينة التعليمية سنة ٨٧. وفي غرة محرم سنة ٩٤، اختير عضواً لهيئة الإشراف الديني والتدريس

بالمسجد النبوي الشريف ولم يزل رَحِمَهُ اللَّهُ في عضوية تلك الهيئة والتي يرأسها فضيلة الشيخ عبد الله الزاحم الرئيس المساعد لمحاكم منطقة المدينة.

والإمام والخطيب كذلك بالمسجد النبوي الشريف. وقد شارك رَحِمَهُ اللَّهُ في مهرجان ماليزيا لمسابقة القرآن الكريم عن المملكة لمدة أربع سنوات متوالية من سنة ١٣٩٤، ولما نظمت تلك المسابقة بالمملكة عمل فضيلته في لجنة التحكيم للمتسابقين الدوليين. وفي شهر رجب عام ١٤٠١ أحيل رَحِمَهُ اللَّهُ إلى التقاعد من التفتيش والتربية وظل في عضوية هيئة الإشراف إلى أن توفي رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة، وقد كانت أهم مميزاته رَحِمَهُ اللَّهُ النصح للمسلمين ولعقيدة السلف والحفاظ على الصلوات الخمس في جماعة المسجد النبوي حتى في حالة مرضه الذي توفي فيه ورحل من الدنيا تشيعه سيرة عطرة ودعوات صالحة، وبالله تعالى التوفيق.





من أعيان علماء الحرمين الشريفين في القرن الرابع عشر بالمدينة المنورة شيخنا وإمامنا «الشيخ صالح الزغيبي»

هو سماحة الشيخ الفاضل الجليل جمع الله له فضل الإمامة والخطابة بالمسجد النبوي الشريف. وجمع له أيضاً فضيلة العلم والتعليم بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم. وكتب الله له المحبة والقبول لدى جميع أهالي المدينة المنورة على حسن سيرته وغاية زهده وعلو منزلته في عبادته وورعه، ودقة حفاظه ومحافظته على الجماعة للصلوات الخمس واعتداله دون إفراط ولا تفريط، مع حسن تلاوة ولطف أداء. مما يطول ذكره وسنوجز ترجمته رحمه الله مما لمسناه منه مباشرة. وسمعناه ممن أدركه قبلنا وما كتبه عنه فضيلة أخينا الشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام ضمن كتابه المنوه عنه مراراً ومجمل ذلك كله:

اسمه ونسبه ومولده:

هو فضيلة الشيخ صالح بن عبد الله بن محمد بن حمد الزغيبي وينتهي نسبه ونسب عشيرته (الزغابي) إلى فخذ الزغيبات. من ولد محمد من بني عمرو وأحد كبار البطون من قبيلة (حرب) تلك الشهيرة والمنتشرة في كل من نجد والحجاز، وأصلها قبيلة قحطانية، من عرب اليمن، قال الشيخ البسام: وهي من خولان وكانت منازلهم في اليمن (صعدة) وعزاه ذلك إلى الهمذاني في «الإكليل». ويذكر علماء صعدة أن بني حرب أجلت عن صعدة في عام ١٣١هـ، ونزلوا فيما بين مكة والمدينة ومنازلهم حوالي ينبع، وكانوا قلة فكثروا ودخل فيهم عشائر من القبائل العدنانية لا سيما بقايا بني هلال ثم زحفوا إلى نجد، وتحضر منهم أسر وعشائر أقاموا في مدن الحجاز ونجد، وقراهما. وعشيرة شيخنا الزغيبي في مدينة عنيزة بالقصيم.

مولده رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولد بالعنيزة في مستهل القرن الرابع عشر ونشأ ببلدة شيوخه؛ فكانوا هم علماء بلده. ومن أشهرهم الشيخ صالح بن عثمان القاضي بعنيزة آنذاك، والشيخ علي بن وادي. ومن زملائه الشيخ عبد الرحمٰن السعدي، قال الأخ عبد الله البسام: وكان يكبره في السن ولكنه عرف تفوق زميله عليه فصار يأخذ عنه ويستفيد منه. وهنا وقفة تكريم مع طلبة العلم واحترام لكل من الشيخ عبد الرحمٰن السعدي، العالم الجليل الذي ورث طلبة العلم العديد من المؤلفات في فنون متعددة من تفسير وفقه وحديث بل ومجموعة فتاوى قام أبناؤه بطبعها وتوزيعها. كما طبع البعض منها تجارية نفع الله تعالى بها. وكذلك إجلال وتكريم لشيخنا الشيخ صالح الزغيبي الذي لم يمنعه تقدم سنة أن يأخذ عن زميله ويستفيد منه. ومعلوم عند المحدثين ما يعرف (بالتدبيج) وهو أن يروي الأقران بعضهم عن بعض. بل قد يحدث الشيخ بحديث فيحفظه تلاميذه وينساه الشيخ بعد أن حدث به فيأتي أحد تلاميذه فيرويه عن شيخه فلا يتذكر الشيخ أنه كان قد حدث به ولكن لثقة تلميذه أو اتفاق عدد منهم على ذلك.

يعود الشيخ فيروي نفس الحديث فيقول: حدثني فلان عني. وهكذا رواية الأكابر عن الأصاغر. وقد يكون مسمى الزمالة مع تفاوت الزمن فقد أدركنا على عهدنا في أول الطلب وجدنا طلاباً قد سبقونا في الدراسة على شيوخنا فكانوا لنا كالمساعد للأستاذ بفضل ما حصلوه قبلنا. وبعد طول الزمن وملازمة المشايخ قد يرجع أولئك وهم من نسميهم كبار الطلبة فيتذاكرون مع زملائهم الجدد ويستفيدون منهم على أساس قولهم؛ من حفظ حجة على من لم يحفظ. وعلم الله أن تلك المنهجية وتلك الروح العلمية لهي بحق رياض الجنة بنعيمها وروحها وريحانها في صفاء النفوس وطهارة القلوب، وتحقيق ما قيل: «الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أني وجدها» وقد جاء إلى المدينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ للإمامة والخطابة حتىٰ الوفاة.

أعماله:

وقد أسندت إليه إمامة وخطابة المسجد النبوي الشريف، وبجانبها القيام بالتدريس في المسجد النبوي الشريف وكان له في إمامته سيرة حميدة؛ لم تزل ألسنة أهل المدينة تلهج بالثناء عليه فيها ومجملها:

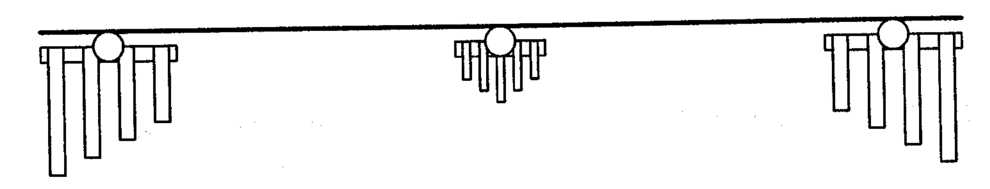
أولها: حسن الترتيل للقراءة.

ثانيها: تخشعه وحسن مواقفه؛ أي حسن اختياره مواضع الوقف والوصل في القراءة في الصلاة.

ثالثها: إتقان الحفظ.

رابعها: ما يشبه المستفيض عند الجميع وسمعته من أكثر من شخص أنه لم (يسبح له عن سهو) مدة أدائه للإمامة مع أنها مدة تقارب ربع القرن. ولعل هذا مما يستغرب أو يستبعد ولا سيما وقد حدث ذلك من رسول الله ﷺ فسلم في الرباعية من ركعتين، ولكن قد يقال: إنما حدث من رسول الله ﷺ إنما هو ليشرع للأمة كما جاء: «إني لا أنسى، ولكن أنسى لأسن». أقول: إن هذا الخبر مستفيض عند الناس جميعاً عند الشيخ صالح الزغيبي وليكن على سبيل المبالغة وأنه لم يقع منه سهو إلا نادراً. فهي من أخص صفاته رحمه الله. وقد يساعده على ذلك ما هو معروف عنه من تفرغه التفرغ التام للإمامة ومداومته لتلاوة القرآن.

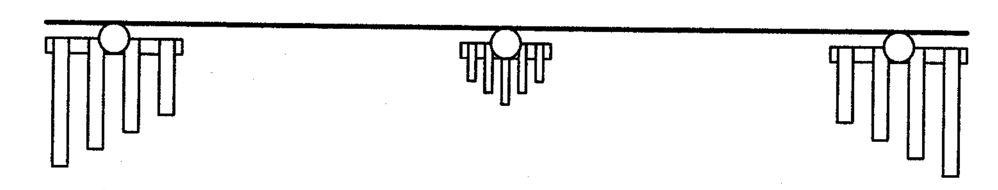
وخامسها: وهي نتيجةٌ لما تقدم لم يعرف عنه رحمه الله أن تأخر عن إحدى الصلوات الخمس إلا لمرض يقعده. وأذكر له حادثة تشهد لذلك مما سمعته من فضيلته مشافهة: حدث أن قام كعادته عند الأذان الأول للفجر يتوضأ ويوتر ثم يذهب إلى المسجد ويكون قد أذن الأذان الثاني فيصلي سنة الفجر وينتظر وقت الإقامة حسب المعتاد، ثم تقام الصلاة وفي بعض الأيام قام كعادته وبعد أن توضأ وأخذ يلبس نعله فإذا بعقرب عند قدمه فلدغته. قال: وليس عندي من أرسله يشعر الشيخ ابن صالح ليصلي بالناس؛ أي وكان يعاونه في الصلاة. فتجلد وتحمل وجاء إلى المسجد وانتظر وقت الإقامة الذي تعوده الناس منه وبعد الصلاة تراخت أعصابه وعجز عن القيام والعودة إلى بيته، فسألته: ولماذا لم تعجل بالإقامة وأنت بهذه الحالة؟ فقال: لأن كثيراً من الناس يحرص على إدراك الصبح في المسجد النبوي ويأتون من آخر المدينة من (زقاق الطيار) أي كان ذلك هو أقصىٰ بيوت المدينة، قال: فكرهت تفويت الجماعة عليهم وإني أعتقد أن هذا الحدث لا تعليق عليه إلا قوة تحمله وتصبره في سبيل أداء هذا الواجب الجليل الذي ظل في خدمته حتى وافاه الأجل في صفر سنة ١٣٧٢ بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع، وبالله تعالى التوفيق.



نبذة عن حياة
شيخنا الشيخ عبد الرؤوف عبد الباقي رحمه الله

الذي أعرفه أنه قدم إلى المدينة في أول العهد السعودي بعد عام ١٣٤٤ وبدأ يدرس بالمسجد النبوي من ثم عين مدرساً رسمياً بالمسجد وعند قدومه إلى المدينة كان معه زوجته وابنه عبد الغفور وهو الآن على قيد الحياة في السفارة السعودية في مصر وأخته عليَّة ثم توفيت زوجته أم الأولاد المصرية وبعدها تزوج بنت الشيخ سعيد اللاذقاني وأنجب منها ولداً سماه عبد الغني وهو من موجود على قيد الحياة وولداً آخر سماه عبد البديع ولكنه توفي . . . كتاب فقه شافعي (الإقناع في حل ألفاظ ند شجاع) ودرس عليه رحمه الله النووي على مسلم بعد المغرب إلى العشاء، وبعد المساء ندرس عليه مع الطلبة ألفية ابن مالك في النحو، بعدها ندرس عليه في البلاغة (الجوهر المكنون) للأخضري، ثم نذهب معه لندرس أصول الحديث، وبعد أن أتممنا كتاب الإقناع في الفقه الشافعي بدأنا في كتاب (كفاية الأخيار) في الفقه الشافعي أيضاً بعد الظهر، ثم بدأنا في كتاب المنهاج من الفقه الشافعي للإمام النووي ثم الشيخ رحمه الله مرض فجأة حيث فقد الذاكرة وأصبح لا يستطيع النطق إلا بكل كلفة، ومكث على هذه الحالة ما يقرب من أربعة أشهر تقريباً، ثم توفي رحمه الله في شهر جمادى الثاني عام ١٣٥٩.

ابن صالح رشد



من أعيان علماء الحرمين الشريفين في القرن الرابع عشر بالمدينة المنورة

(أ) «الشيخ محمد بن علي الحركان»

من الشخصيات من تدعوك شخصيته لتقدمه عن طريق ترجمته من حيث المولد والنشأة والتعلم والتعليم وآثاره العلمية ومنهجه مع طلابه وعلاقاته مع شيوخه ويستفيد القارئ والمستمع من كل ذلك. ومن الشخصيات من تدعوك شخصيته لتقدمه عن طريق سيرته من حيث سلوكه وصفاته التي تميز بها عن أقرانه وزملائه وما يؤثر عنه من صفاته النفسية والخلقية أو الأخلاقية ويستفيد كذلك من يطلع على ذلك وشيخنا في هذه الحلقة الشيخ الحركان من الشخصيات التي تدعوك شخصيته لتقدمه من الجهتين: جهة الترجمة: وفي ترجمته المواقف الجليلة؛ وجهة سيرته: وفي سيرته الخلال الحميدة والصفات الجميلة ولعلنا نجمل ذلك بقدر ما يسعه الوقت إن شاء الله.

اسمه ومولده:

هو فضيلة الشيخ محمد بن علي بن محمد بن سليمان الحركان. ولد بالمدينة سنة ١٣٣١هـ، وكان مجيء والده من عنيزة مقر أسرته، فالأصل من عنيزة بالقصيم، والمولد بالمدينة المنورة.

نشأته:

نشأ بالمدينة وتعلم بها. وبدأ تعليمه بالكتاب وحفظ القرآن الكريم ثم التحق بمدرسة دار العلوم الشرعية. تلك المدرسة التي تشتمل على عدة أقسام من ابتدائي إلى عالٍ يعادل ما يوجد اليوم بالكليات يدرس فيها الصحاح من السنة والتفسير والتوحيد والعربية وغير ذلك من العلوم الشرعية، وقد تخرج منها العديد من خيرة أهل المدينة ولم تزل تؤدي رسالتها إلى اليوم، ولعلنا نحصل

على موجز لمناهجها والعديد من مدرسيها إن شاء الله. وذلك أنها هي التي كانت تستقطب الطلاب إليها وتمد المحتاجين منهم بالمساعدة. وكان موقعها فيما أدركتها مجاوراً للمسجد النبوي مما يزيدها ارتباطاً ويقربها إلى طلبة العلم ويقرب طلبة العلم منها. وقد تم لشخينا الفاضل الحركان تجويد القرآن ودراسة مبادئ العلوم على أفاضل العلماء الذين كانوا يقومون بالتدريس فيها آنذاك ومما هو جدير بالذكر أن مدارس المدينة المجاورة للمسجد النبوي كان من مناهجها التربوية المحافظة على الصلوات في المسجد النبوي ومدرسة العلوم الشرعية من تلك المدارس.

فكنت ترى طلابها في صلاة الظهر يخرجون إلى المسجد في صف منتظم يرافقهم من المدرسين أو المراقبين من يحافظ على النظام والتزام الآداب حتى يصلوا إلى موضع معين في المسجد النبوي، فيؤدون النافلة ثم يصلون مع الإمام ثم يعودون كما جاؤوا. أما دار التربية وتسمى دار الأيتام فكانت أيضاً قريبة من المسجد النبوي لا يفصلها عنه إلا مسمىً (دار الضيافة) فكان فيها قسم داخلي، فكان طلابها يأتون إلى المسجد النبوي كما وصفنا في الصلوات الخمس. ذكرنا ذلك لبيان ما كانت عليه تلك المدارس بل والكتاتيب التي كانت ملحقة بالمسجد النبوي من تطبيق الحديث النبوي الشريف: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر». فهؤلاء الطلاب في تلك المدارس وتلك الكتاتيب يؤمرون بالصلاة لسبع وقد يكون فيهم من هو دون السبع فتنشأ ناشئتهم وهم يعرفون للصلاة حرمتها وللعبادات حقها.

في تلك البيئة وهذا المجتمع كانت نشأة شيخنا الحركان، مع مراعاة ما عليه بيوتات المدينة من صلاح وحسن توجيه ومحافظة على الواجبات ناهيك عن خلو المدينة من مظاهر الحضارة المتطورة. مما كان يجعل مجتمع المدينة آنذاك أقرب ما يكون إلى المثالية بصفة عامة. هكذا كانت حالة نشأة شيخنا الحركان وحال البيئة التي نشأ فيها. وبعد تلقيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ مناهج دار العلوم الشرعية جاء دور حلق الدروس بالمسجد النبوي فكان من أعظمها وأبرزها وأهمها حلقة العلامة الجليل شيخ زمانه وفريد أقرانه من لا تزال الألسنة تلهج بالثناء عليه، ولم تزل آثاره في طلابه صفة مميزة. ولعل الله ييسر إيراد ما يعطي الصورة

عنه رَحِمَهُ اللَّهُ وهو فضيلة الشيخ محمد الطيب بن إسحاق الأنصاري، وقد ترجم له فضيلة الأديب الكبير عبد القدوس الأنصاري - رَحِمَهُ اللَّهُ - في مقدمة «اللآلئ الثمينة» على ما سيأتي إن شاء الله.

لقد كان الشيخ الطيب شيخ شيوخ المسجد النبوي آنذاك، فلازمه شيخنا الحركان مدة طويلة ودرس عليه جميع ما لديه من العلوم سواءً المنقول والمعقول. وقد أجازه شيخه للتدريس بالمسجد النبوي الشريف حين رأى فيه الأهلية لذلك. ثم إنه رَحِمَهُ اللَّهُ قد خلف شيخه في مجلسه وأحيا ذكره وواصل دروسه، فكان خير خلف لخير سلف. وقد وقفت على إجازته مطولاً سنوردها إن شاء الله في نهاية هذا البرنامج. وقد كان شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ، من خيرة وأبرز المدرسين في المسجد النبوي وكنا في بداية الطلب نتهيب الجلوس في حلقته حيث كان غالب من يجلس إليه من نعرفهم كبار الطلاب ومنهم المدرسون في المدارس. إذ كان رَحِمَهُ اللَّهُ مهيباً في شخصه عميقاً في شرحه شديداً في مناقشته قوياً في عربيته لا يطيق سماع اللحن ويحث على التزام الإعراب حتى في الحديث العادي فضلاً عن البحث العلمي.

علومه:

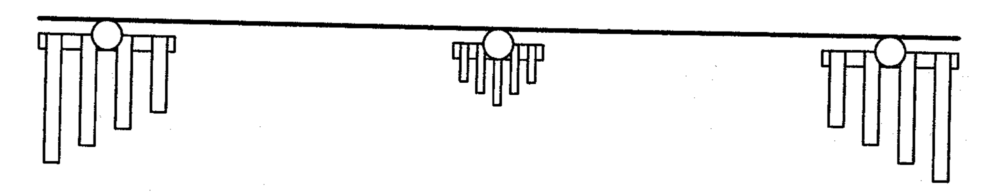
لقد أدركت عنه وسمعت منه بعض الدروس في الحديث وخاصة «صحيح البخاري» و«نيل الأوطار» و«مشكاة المصابيح» وغير ذلك من السنن والصحاح وكذلك التفسير والنحو وعلوم الحديث.

أمّا منهجه:

فكان منهجه في تدريسه يقرر المعاني في الحديث وإيضاح مدلوله: لغةً، وفقهاً، وتوجيهاً. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ جريئاً في الحق يقر الخلاف في المسائل الخلافية ويختار ما ترجح عنده بدون تعصب لمذهب ولا مساس بمذهب آخر. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ عف اللسان في حق جميع علماء السلف من وافق الجمهور ومن خالف يترضى ويترحم ويدعو بالخير للجميع. كان يردد القول ليفهم السامع مع فصاحة في اللفظ وبلاغة في القول وسلاسة في الأسلوب. لم تقتصر حلقة درسه على طلابه بل يحضرها من العامة والخاصة كبار السن والشباب.

وإذا غاب أحد المدرسين الآخرين عن درسه في المسجد النبوي رأيت خواص طلاب ذلك الشيخ ينضمون إلى حلقة شيخنا الحركان رغبة في السماع منه. وكان درسه الرئيسي ما بين المغرب والعشاء طيلة ليالي الأسبوع ما عدا ليلتي عطلة الدروس بالمسجد النبوي، وهما ليلة الثلاثاء وليلة الجمعة وربما درس بعد العصر أحياناً. أما آثاره العلمية وطلابه وأعماله الجليلة فسيأتي الحديث عنها في الحلقة الآتية إن شاء الله، وبالله تعالى التوفيق.





(ب) الشيخ محمد بن علي الحركان في «أعماله وآثاره العلمية والاجتماعية»

تقدمت نبذة عن مولده ونشأته وتعلمه وتعليمه. أما أعماله وآثاره العلمية والاجتماعية فهي حقاً جديرة بالذكر حرية بالإشادة لتكون منهجاً لطلاب العلم وأسوة لرجال الإصلاح وقدوة للدعاة في مجالات متعددة وأساليب متنوعة. فأول أعماله الحكومية تعيينه قاضياً لمحكمة العلا سنة ١٣٥٢، أي وهو في الواحدة والعشرين من عمره. ولعله أصغر سن يتولى فيه القضاء في هذه الآونة تقريباً ثم أسندت إليه رئاسة محاكم مدينة جدة سنة ١٣٧٠، وقد كانت فترة رئاسته تلك فترة كريمة، وموضع ارتياح وطمأنينة الجميع مع تضامن وتعاون المشاركين في العمل معه وبجانب ذلك عضوية مجلس القضاء الأعلى، وهيئة كبار العلماء، ومجلس القضاء الأعلى هو السلطة العليا في القضاء يشرف على سير القضاء والقضاة لتحقق استقلال القضاء عن أي سلطة في الدولة، وهو الذي يفصل في القضايا التي تحال إليه، وينقسم إلى قسمين: المجلس بهيئته الدائمة وينظر فيما يرفع إليه من قضاة المحاكم مما فيه نزاع وعدم اقتناع، والمجلس بكامل أعضائه أو كامل الهيئة وينظر فيما يستجد من الأمور قضائية أو إدارية، وله النظر في ترفيع ونقل وإنهاء خدمات للسلك القضائي وله ترشيح القضاة والرفع عنهم لخادم الحرمين لإتمام التعيين.

وكذلك عضوية هيئة كبار العلماء تنظر فيما يستجد من أمور المعاملات أو الأحوال الطارئة للبحث عن حكمها من قواعد الشرع الحنيف سواء بإدخالها تحت قاعدة ثابتة، أو إلحاقها بقياس صحيح أو غير ذلك مما هو من واجب المجتهدين من أفاضل العلماء. وتعتبر هذه الهيئة بالنسبة للنظام الدولي: تعتبر بمثابة السلطة التشريعية لأنها تعمل على إيجاد الحكم الشرعي لما لا حكم له من المستجدات. ومعلوم أن نظام الدول يقوم على وجود سلطات ثلاث: سلطة تشريعية تضع النظم

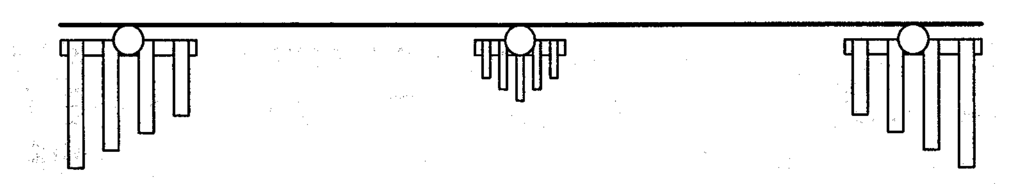
والقوانين التي تؤمن في نظرها مصالح الناس، وسلطة قضائية وهو جهاز القضاء الذي يزن أعمال الأفراد بميزان التشريع ويظهر حال الملتزم والمعتدي وهو الذي يقرر ويحمي العدالة وحقوق الأمة. ثم سلطة التنفيذ وهي السلطة التي تنفذ أحكام القضاء، ولا يستقيم أمر دولة بغير ذلك. ومعلوم أن السلطة التشريعية في الإسلام هي أولاً لله ولرسوله ﷺ. ثم من بعده صلوات الله وسلامه عليه لخلفائه الراشدين. ثم من بعدهم للعلماء المجتهدين، والعلماء هم ورثة الأنبياء فإذا ما جد جديد نظر العلماء أولاً في كتاب الله فإن وجدوا له مرجعاً أرجعوه إليه وإن لم يجدوا في كتاب الله نظروا في سنة رسول الله ﷺ فإذا وجدوا فيها ونعمت وإن لم يجدوا نظروا في عمل الخلفاء وأصحاب رسول الله ﷺ وفي أئمة المسلمين وسلفها الصالحين واجتهدوا فيما يبرئ الذمة عند الله وألحقوه به.

والأصل في هذا ضرورة اجتهاد العلماء وحديث معاذ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن قال له: «بم تقض يا معاذ؟» قال: بكتاب الله قال: «فإن لم تجد في كتاب الله؟» قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد رأيي. فمعاذ رضي الله عنه بعد سنة رسول الله ﷺ يجتهد رأيه لأنه من الرعيل الأول وليس قبله من يلزمه الرجوع إليه بخلاف من جاء بعد معاذ فإنه يلزمه بعد سنة رسول الله ﷺ النظر في أقوال وأحكام وأقضية أصحاب رسول الله ﷺ، وخير القرون التي شهد لها رسول الله ﷺ بالفضل والخيرية خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. وهكذا تظل الأمة الإسلامية ثابتة الخطى على الجادة الثابتة مستقيمة على الصراط المستقيم قائمة بدين الله وتلك السلطات الثلاث ينص عليها كتاب الله تعالى، في سورة الحديد وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥]، فبإرسال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بالبينات المثبتة رسالتهم من الله وهي المعجزات التي جاء بها كل نبي في قومه من خوارق العادات في معرض التحدي.

وأنزل معهم الكتاب أي مع كل منهم أو بعضهم تابع لبعض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا . . .﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾

[المائدة: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]. فالتشريع فيما أنزل الله مع الرسل من الكتب والميزان ليقوم الناس بالقسط. والقسط تمام وكمال العدل. وبه تطبق أفعال أفراد المجتمع على تشريعات الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ الآية.

وجميع نصوص التشريع ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وهو القوة الرادعة والتي تحد الظالم وتنصف المظلوم وتنصر حكم الله. وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب. وهذا ولله الحمد والمنة مطبق عملياً وقائم بالفعل وكان شيخنا الحركان مساهماً في عمل السلطتين، التشريعية والقضائية وقد سمعت الكثير عن مواقفه الجليلة من زميله في عضوية المجلسين المذكورين وصديقه الشخصي سماحة الشيخ عبد العزيز بن صالح. وما يحكيه عن نبله وسمو أخلاقه وعن ظرفه وآدابه، وطرفه الشيء الكثير. ثم هو رحمه الله في سنة ١٣٨٤ أسندت إليه وزارة العدل ولأول مرة حيث لم تكن موجودة وكانت رئاسة القضاء لسماحة المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وقد توسع مجال القضاء فكثرت المحاكم وتعدد القضاة مسايرة لتعدد السكان وتطور الحياة وإنشاء العديد من توابع القضاء مثل كتابة العدل وبيت المال مما يتطلب جهازاً وزارياً متكامل. فكان شيخنا هو معالي وزير العدل لأول مرة في المملكة وكان له نشاط ملموس في الداخل والخارج ومن النشاط الخارجي أنه في عهد وزارته جرى اتصال بين المملكة والفاتكان في روما لدراسة ما يسمى بالأحوال الشخصية ونظامه في الإسلام وخاصة نظام النكاح والطلاق والميراث، وكان لذلك الأثر الطيب في تعريف (روما) فسحة التشريع الإسلامي وعدالته ثم أسندت لشيخنا الحركان أمانة رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، واتسعت مجالات نشاطه في الدعوة إلى الله باتصالاته ورحلاته واستضافته شخصيات عاملة إلى أن توفي رحمه الله يوم الجمعة في رمضان وعقب ستة أولاد خمسة في مرتبة الدكتوراه وواحد رجل أعمال، حفظهم الله تعالى وقد وقفت على إجازته العلمية من شيخه الطيب الأنصاري مطولة مما أجاز به تلميذه الشيخ عبد الله الخربوش إن شاء الله نلحقها بطبع هذا البرنامج في كتاب توفية بحقه وبياناً لما كان عليه السلف، وبالله تعالى التوفيق.



(ج) الشيخ عبد الله بن زاحم

الاسم:

جاء في كتاب «علماء نجد» لفضيلة الشيخ عبد الله البسام في ترجمته أنه اسمه: الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب بن عثمان بن محمد بن عبد الوهاب بن زاحم وساق نسبه إلى الأزد أحد الشعوب القحطانية. نزح جد آل زاحم من تربة إلى بلدة (القصب) إحدى بلدان الوشم منذ مائتي سنة، والقصب وطن ذريته إلى الآن، وكانت عشيرته تتداول إمارة القصب هم وآل جبور.

مولده:

ولد رَحِمَهُ اللَّهُ في القصب سنة ١٣٠٠هـ، ونشأ في رعاية والده.

بداية تعليمه:

أخذ مبادئ القراءة والكتابة عند مقرئ القرية سليمان بن قاسم. وفي سن مبكرة أقبل على حفظ القرآن وتجويده ومحاولة فهم كتب العلم في التفسير والحديث. وعرف بالصلاح والجد في طلب العلم فجعلوه إمام جامعهم. ثم رغب في التزود من العلم فرحل إلى بلدة أشيقر قريبة من بلده وأخذ عن عالمها الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى ثم بعدها توجه إلى الرياض، وهي موطن أكابر العلماء وشيخهم الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ. فأخذ عنه في العقائد والتفسير والحديث، كما أخذ الفقه عن العلامة الشيخ محمد بن محمود، وكذلك أخذ عن الشيخ الجليل سعد بن عتيق، والشيخ حمد بن فارس، وحصل على حظ وافر من العلوم الشرعية والعربية، وصار بينه وبين الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري صحبة وزمالة وتلمذة ومشيخة بداية عمله رَحِمَهُ اللَّهُ.

لما عين فضيلة الشيخ عبد الله العنقري قاضياً في بلدان سدير ومقر قضائه

المجمعة رغب إلى تلميذه المترجم له أن يصحبه، فصحبه وكان كاتباً ومحضراً للدروس وتلميذه الخاص، وذلك سنة ١٣٢٦هـ. ثم رأى شيخه منه أهليته للتدريس فأذن له في تدريس الطلاب والجلوس إليهم حتى عام ١٣٣٦هـ. ثم اختاره الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى لقضاء وإمامة وإرشاد هجرة الداهنة عند أمير الروقة من قبيلة عتيبة عبد الرحمٰن بن تركي بن ربيعان. بعد ذلك كثرت مرافقته للملك عبد العزيز رحمه الله في غزواته وأسفاره. ومحل ثقته في المهمات عنده وكثيراً ما يبعثه لبعض شؤونه. وقد كان رحمه الله عضواً في مندوبي الملك إلى اليمن، في إبرام الاتفاقية السعودية اليمنية عام ١٣٥٢هـ، وفي عام ١٣٥٨هـ عينه الملك عبد العزيز قاضياً في مدينة الرياض. تلك رحلته الطويلة في حياته العلمية وله فيها أخبار ونوادر لطيفة أدبية وسياسية وأخلاقية زادته قرباً وتقديراً لدى الملك عبد العزيز رحمهما الله.

حياته بالمدينة:

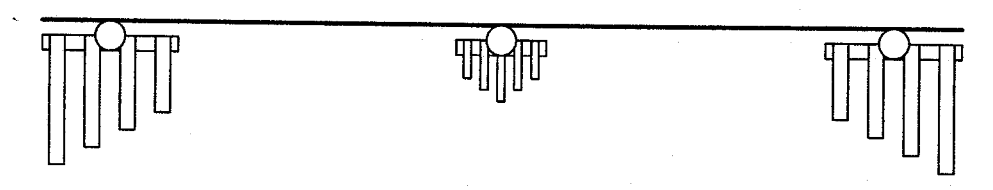
وفي عام ١٣٦٣هـ عينه الملك عبد العزيز رئيساً لمحاكم منطقة المدينة المنورة والدوائر الشرعية. وتعتبر حياته بالمدينة هي المرحلة الأخيرة في مسيرة حياته، وهي أطولها زمناً. وكانت محصلة تجارب حياته علماً وتعليماً ودعوةً وإرشاداً وحكمةً وإصلاحاً، وهي أيضاً أعظم مسؤولية لاتساع دائرة اختصاصها حيث كان مسؤولاً عن محاكم المنطقة بما يتبع المدينة من مدن وقرى والدوائر الشرعية من هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتدريس بالمسجد النبوي. فكان رحمه الله الرئيس الأمثل حلماً وعلماً وفضلاً وعقلاً وحسن تدبير واستنارة فكر. وكان له نشاط علمي في حدود فراغه من عمله الواسع، وممن درس عليه في المدينة خواصه منهم الشيخ عبد الحسن بن سليمان الحصين كان مفتش محاكم المدينة الشيخ عبد العزيز بن محمد بن زاحم كان مدير إدارة المحاكم بالمدينة الشيخ محمد القاضي رئيس هيئة الأمر بالمعروف بالمدينة سابقاً الشيخ سيف بن سعيد رئيس هيئة الأمر بالمعروف بعد الشيخ محمد القاضي وخطيب وإمام مسجد الغمامة.

ومن آل الفنتوخ الشيخ محمد بن إبراهيم فنتوخ أمام جامع القصب والشيخ عبد الرحمٰن بن إبراهيم فنتوخ رئيس التحقيق القضائي بوزارة العدل.

ومن قرأ عليه واستفاد منه في بداية دراسته فضيلة ولد أخيه الشيخ عبد الله بن محمد بن زاحم الرئيس المساعد للمحاكم الكبرى بالمدينة حالياً. وقد ختم الشيخ البسام ترجمته لشيخنا رحمه الله بقوله: وكان الشيخ المترجم له رحمه الله يتمتع بأخلاق كريمة. من رضا النفس والحلم والبشاشة وطلاقة الوجه وحسن الضيافة وإكرام الصديق وصلة الرحم والعطف على الضعيف. أما عدالته ونزاهته وإخلاصه وكفايته في أعماله فأمر ظاهر لا يحتاج إلى دليل. ولذا رزق المحبة بين المواطنين والإجلال والتقدير من المسؤولين ولم يزل على عمله حتى وافاه الأجل سنة ١٣٧٤هـ في شهر رجب فرحمه الله تعالى. ولقد عرفت فضيلة شيخنا المترجم له ولمست فوق ما ذكر الشيخ البسام ما أحب أن أضيفه في هذه الترجمة الموجزة.

لقد عرفته رحمه الله معرفة طالب علم مبتدئ في العلوم الشرعية ينظر إلى رجل السلطة الدينية بهيبة ووقار في ظل سلطانه ومكانته فكان رحمه الله مهاباً في النفوس لوقاره في شخصه. ولقد عرضت لي حاجة فكلمته فيها وهو خارج من المسجد النبوي إلى بيته فإذا به رحمه الله يهش لي ويتلطف معي ويصحبني معه إلى بيته حتى تناول القهوة وفي بشاشة الحديث معه، فإذا بي أشعر وكأنني مع الوالد العطوف على أولاده، والرجل الكريم الذي يهتم بمصالح الآخرين ولقد سمعت الكثير والكثير جداً من الثناء والتقدير من سماحة الشيخ عبد العزيز بن صالح صديقه الأول وأقرب الناس منه وألصقهم به، سواء ثناؤه عليه في أخلاقه أو أعماله أو مراعاته للعاملين معه أو في مكانته عند المسؤولين وماضي حياته العملية، وكذلك الحال من والدنا الشيخ الأمين في أوائل مجيئه إلى الحجاز حاجاً وعلى نية العودة إلى بلاده وما كان من لقاءاته لفضيلة شيخنا الزاحم، وما دار بين الشيخين من أحاديث وجلسات متعددة مع فضيلة مساعده سماحة الشيخ عبد العزيز بن صالح، ومما نتج عن تلك اللقاءات والتحادثات من تغيير وجهة شيخنا الأمين ورغبته بالمدينة والمقام بها. على ما يأتي عرضه إن شاء الله مع نماذج من حكمته رحمه الله في الدعوة إلى الله ورفقه بالعامة، وبالله تعالى التوفيق.





أولاً: رحلة صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ

وهي من بلدة «قرو» مسقط رأسه بمقاطعة «كيفة» من موريتانيا إل الحجاز إلى المدينة المنورة، حيث أتى إلى المسجد النبوي وصلّى فيه أول صلاته، وسلّم على رسول الله ﷺ أول سلامه، وعلى صاحبيه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ورحمه الله تعالى رحمة واسعة.

تمهيد

يعتبر أدب الرحلات فناً متميزاً، حيث يتطلب قدرة على التعبير ودقة في التصوير، لأنه يصف المواقع والمواقف وما يمر له مما يستحق التسجيل بوضوح العبارة حتى يجعله كالمحسوس المدرك بالإشارة، مع حسن الاختيار وذوق فيما يختار، ويبرز ما شاهد من مرئيات بأدق وأصدق العبارات وأعذب ما يكون من كلمات وعبارات، مما يتطلب ذوقاً حساساً، وحساً ذواقاً، ولا يقوى على ذلك إلا عالم أريب أو مثقف أديب وعالم بأوضاع البلاد سياسياً واقتصادياً وجغرافياً.

وقد اجتمع كل ذلك لصاحب هذه الرحلة رحمه الله تعالى، فجاءت سلسة الأسلوب، شيقة الحديث، عذبة الألفاظ، جمعت من الطرف أطيبها، ومن الحقائق العلمية أدقها، ومن المؤانسات الشعرية أعذبها، بل ربما اشتملت على ليال نابغية، وساعات ذهبية، شأن كل رحالة عظيم الشأن، يلقى المخاطر ويجازف ويغامر، ويقابل كل ظرف وحال بما يناسبه من صبر وتحمل واستئناس وتجمل، فهي بحق كحديقة غناء بها غروس مورقة، وزوهور ناعمة وثمار يانعة، وقد تجد فيها أشواكاً بارزة وأحجاراً صلدة، وجداول باسمة، ورمالاً جاثمة فتكتمل الصورة الطبيعية التي تمتع النظر وتثير

الفكر وتورث العبر، ويجد كل ذي طبع ما يلائمه وكل ذي رغبة ما يوافقه.

فهي بحق ممتعة كل قارئ مهما اختلفت العادات، أو تنوعت الاتجاهات أو تعددت الاختصاصات: من أدب ونحو وفقه وأصول وتفسير وعقائد ومنطق وتاريخ وبيئة وطبيعة، مما سيراه القارئ بنفسه ويدركه بحسه.

مغايرة هذه الرحلة لأغلب الرحلات:

يغلب على أساليب الرحلات وموضوعاتها أن يكون مبناها عرض خط السير من منطلق صاحبها إلى منتهاه، وتسجيل معالم الطريق وأحداث المسير وما جرى لصاحبها من أحداث تسر أو تحزن، وتضحك أو تبكي، وقل ما تشتمل على مجالس أدبية أو مباحث علمية، وبين أيدينا من أشهر الرحلات. رحلة ابن بطوطة ورحلة ابن جبير، وكلاهما رحل من المغرب إلى الحجاز وعاد إلى بلده فلم تجد فيهما من المجالات العلمية أكثر من عرض لمشاعر الحج.

ولم أقف على رحلة عنيت بمسائل علمية أو مجالس العلماء ومباحث دقيقة وجليلة، اللهم إلا رحلة النابلسي إلى المدينة، فقد بسط فيها مباحث فقهية وأحاديث نبوية، وإن كانت لم تتعرض لشيء من المعقول كالمنطق والأصول، وكانت مباحثها كلها في المدينة المنورة ورحلة أبي على القالي.

وعلى هذا فتكون هذه الرحلة التي أتشرف بالتقديم لها قد تميزت عن جميع الرحلات بما زخرت به من مباحث غاية في الدقة وآية في الروعة واشتملت صنوفاً وفنوناً كما أسلفنا كالروض أزاهير وافانين، وسنوجز المقدمة بالقدر الذي يفيد قارئها ويشير إلى مباحثها ومحتوياتها كالعناوين المجملة ليكون على بينة منها.

براعة الاستهلال:

بدأها رحمه الله بمقدمة رائعة الخيال في براعة الاستهلال، وبين الدوافع على السفر واقتحام العقبات وركوب الخطر، ومفارقة الأوطان وفراق الأخوان، وهو امتثال أمر الله حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

ثم أخذ يسجل ما ألقي عليه من الأسئلة وما قدم عليها من الأجوبة بأحسن ما يقال في دروس تشد إليها الرحال.

أول سؤال فيها: كان أول سؤال ألقي عليه من إحدى بنات عمومته عن اسم الجنس وعلم الجنس والفرق بينهما وبين النكرة.

وهذا المبحث معروف عند النحويين والبلاغيين والأصوليين من أدق المباحث وأصعبها فهماً. وكذلك سألته عن الفرق بين الصفات النفسية وعن الموصوف وهذا المبحث من غوامض المباحث عند المتكلمين(١).

والسؤال الثاني وفي منزل آخر عن القياس الاستثنائي، ثم توالت الأسئلة والأجوبة كالآتي:

سؤال عن كيفية استحالة تسلسل هيولي العالم وهو فلسفي محض وقد فصله الشيخ تفصيلاً شافياً، ثم عن الفرق بين خطاب التكليف وخطاب الوضع في اصطلاح الأصوليين، ثم عن السلم في الأوراق النقدية والفلوس والنحاس.

ثم مبحث في سد الذريعة وأقسامها عند مالك، وبيان أقسام المصلحة المرسلة، ثم مبحث في النسخ بالإجماع والرد على من يقول به، ونسخ الأخف بالأثقل. ثم حل الإشكال بين مدلول آيتين من كتاب الله، الأولى قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣]، والثانية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، والاستثناء بعد جهل هل يعود على جميعها أو على الأخيرة منها فقط؟ وبيان الاختلاف بين المتبايعين وكان منه في مجلس قضاء عند أحد القضاة.

ثم المبحث المشهور وهو الفرق بين القدم والأزل، ومنه إلى أوسع المباحث وهو آيات الصفات. والجدير بالذكر أنه رحمه الله سجل هذا المبحث وفق معتقد أهل السنّة والجماعة وعلى طريقة السلف رحمهم الله قبل أن يصل إلى

---

(١) وصاحبة هذين السؤالين مشاركة في كثير من الفنون، وقد وصلت إلى المدينة المنورة حوالى سنة ١٣٧٥هـ تقريباً، والتقيت بها وقد عرضت على سؤالاً في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ١]، وهل الضمير راجع إلى عمد أم إلى السماوات في مناقشة طريفة واطلعت على كراسة فيها نظم السيرة النبوية، وطلبت مني مراجعتها وإبداء رأيي فيها فوجدتها فوق ما يمكن لمثلي أن يعلق عليها، فرددتها إليها، وكنت كثيراً ما أسمع من الشيخ رحمه الله تعالى ثناء عليها.

المشرق ويطلع على كتب الإمام ابن تيمية، مما يدل دلالة قاطعة أن هذا المبدأ والمنهج موجود عند العلماء المحققين في تلك البلاد(١).

وكذلك الرد بقوة على المتكلمين في قولهم: بصفات نفسية لله تعالى، وهي من قواعد المتكلمين الأساسية التي ضل بها كثيرون وفي بيانه رحمه الله شفاء وإقناع.

ومن العقائد إلى الأدب في مجلس عن أيام العرب، وملحهم وعن بيان ما جاء في أشعارهم عن قصار النساء وما ظنه البعض أنه في القصر ضد الطول، وإنما هو في مقصورات الخيام.

ومن الطرف تشاكل مسمى الخرطوم، ووجود لفظه في القرآن وظن بعض الجهال فيه، وإيراد قصة مغنى اللصوص.

ومن طرف الأدب إلى درر الفقه فمن غاب عنها زوجها وتزوجت فحملت ثم رجع الأول.

ومن الفقه إلى التفسير ورفع إيهام التعارض بين قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨].

ومن التفسير إلى السيرة في قصة الغرانيق.

ثم المبحث الاصطلاحي المشهور رسالة الرسول ورسالة النبي.

ثم عود على النحو والصرف في الإعلال والإبدال، وتسجيل اجتهاد للشيخ رحمه الله في حكم المثنى من الموصول واسم الإشارة في الإعراب والبناء.

ومنه إلى الأصول في القول: بالموجب عند الأصوليين والبيانيين.

وفي القوارح: فساد الوضع، وفساد الاعتبار، ومباحث المناط في تنقيحه وتخريجه وتحقيقه، وهي من أدق فن الأصول.

---

(١) وبهذه المناسبة فقد عثرت على قصيدة لأحد أفاضل العلماء بتلك البلاد أثناء مرافقتي للشيخ رحمه الله إلى أفريقيا ووصولنا إلى بلاده وعدد أبياتها اثنا عشر بيتاً تضمنت أقوم المناهج لمذهب السلف، وقد شرحها ناظمها لكنه جمع في شرحها كثيراً من الأقوال لكثير من العلماء وفيهم من يؤخذ من قوله ويترك، وقد بيضتها ولم تزل مخطوطة لهذا السبب.

ومنها إلى المصالح المرسلة واستطراد طويل استتبع شرع من قبلنا، والوصف الملائم والمؤثر والغريب.

ثم إلى مذهب مالك والرد على من نسب إلى مالك القول: بجواز إتلاف الثلث لإصلاح الثلثين ومناقشة القرافي في ذلك.

وأوسع ما يراه القارئ الكريم مبحث المجاز بأقسامه كلها وما يتفرع عنه من استعارات بأقسامها ومناقشة البيانيين، مما لا يوجد في غير هذه الرحلة تقريباً حتى في كتاباته رحمه الله الأخرى وقد استطرد فيه إلى متعلق معنى الحرف.

ومن عجب أن يجد القارئ جواب الشيخ في هذه الرحلة بنعم على سؤال حول إمكان قيام دولة لإسرائيل قبل نشوئها في وقت لاحق، ثم يتحقق جوابه بعد عدة سنوات.

وقد أقام رحمه الله في السودان ليالي جرت له فيها مساجلات أدبية ومباحثات علمية في الفقه والمنطق تخللتها ملحمة أدبية، ثم انتهى به المطاف إلى جدة فمكة فالمناسك وجرى له فيها مباحث علمية مع فضلاء جدة ومكة وعلمائها، ومنها أنواع الأنساك وتدليله رحمه الله وبقوة على أفضلية الإفراد بالحج وفي عرفات ومن قبيل الصدفة جرى التعارف مع الأميرين الأكرمين الأمير خالد السديري وأخيه الأمير تركي السديري، بسبب مناقشة أدبية كانت تدور في خيمة الأميرين واختلفا في عزو بعض الأبيات لقائلها ووجدا الجواب عند الشيخ. ولقد قام الشيخ بالاعتمار من التنعيم مما يؤيد ما عليه الجمهور اليوم ومن قبل اليوم. ثم توجه إلى المدينة فالمسجد النبوي فرأى رأياً للشيخ رحمه الله في كيفية وحكم السلام على رسول الله ﷺ من قرب أو بعد.

ثم ألقى عصا التسيار وكان جلوسه مؤقتاً إذ كان يعتزم العودة إلى بلاده إلى أن جرت له زيارة ومحادثة مع بعض المسؤولين عن الدعوة إلى الله في المدينة وعن شؤون المسجد النبوي، فتمت المعرفة ووقعت الإلفة فاستقر عزمه على الإقامة والاستيطان بعد المؤانسة والاطمئنان.

استتباع:

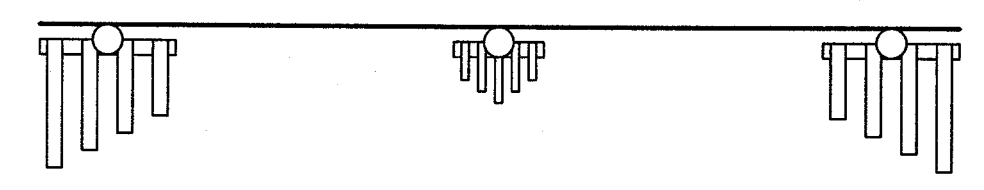
ولعل القارئ الكريم يتطلع إلى معرفة الحلقة الباقية من حياة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد الإقامة في ربوع هذه المملكة إلى النهاية.

فنقول: لقد بدأ تدريس التفسير في المسجد النبوي، ثم انتقل إلى المعاهد والكليات في الرياض، ثم إلى الجامعة الإسلامية وهو بين هذا وذاك مشتغل بالتدريس والتأليف.

حلقة طويلة حافلة بالأعمال الجليلة مما سيراه القارئ الفاضل مفصلاً في موجز ترجمته التي تلي هذه المقدمة إن شاء الله.

وإنه لا يسعنا إلا أن نترك المجال لسماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديثه الفياض، في رحلته الحافلة بكل فن وعلم، ونرفع أكف الضراعة إلى الله أن يسكنه فسيح جنته وأن يجزيه أحسن الجزاء على ما خلّف من تراث علمي، وعلّم من طلاب حتى تخرج على يديه أعداد كبيرة منهم، وأن يجعل من أولاده خير خلف لخير سلف، حتى يعيدوا سيرته ويجددوا منهجه. إنه تعالى على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، وصلى الله وبارك على سيدنا ونبينا محمد، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

عَطيّة محمد سَالم



ثانياً: ترجمة صاحب الفضيلة والدنا العلامة الشيخ محمد بن الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى

تعتبر التراجم للرجال بمثابة المدارس للأجيال، ولذا كانت محل عناية العلماء والأدباء والكتاب لخاصة الرجال من العلماء، وكل من قدم للأمة خدمات دينية أو دنيوية.

وتنقسم التراجم إلى ذاتية، وغير ذاتية. فالذاتية ما يكتبها الشخص عن نفسه من طفولته إلى رجولته، وما بين ذلك، ويسجل ما جرى له وعليه. وهي أصدق ما تكون إن كان صاحبها معتدلاً أميناً.

وقد ترجم بعض العلماء والفلاسفة لأنفسهم منهم:

١ - ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ كانت ترجمته لنفسه مرجعاً لكل من كتب عنه من تلاميذه.

٢ - والعماد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ في مقدمة كتابه «البرق الشامي».

٣ - وابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦.

٤ - وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٥، والسيوطي وغيرهم.

والترجمة غير الذاتية ما يكتب غيره عنه.

وإن ما أقدمه في هذا المجال ليجمع بين القسمين الذاتي، وغير الذاتي، لأنه يشتمل على ما قاله هو عن نفسه وسمعته منه مباشرة. كما تشتمل على ما عرفته ولمسته من حياته مدة صحبتي له.

والله أسأل أن يجعل من سيرته خير قدوة لتلامذته، وأن يجعل في ولديه خير خلف لخير سلف. وأن يأجرنا في مصيبتنا ويخلفنا خيراً منها، ونسأله تعالى أن يتغمده بوافر رحمته ويسكنه فسيح جنته، وأن يجزل له العطاء ويجزيه

أحسن الجزاء عما بذله من جهد، وخلفه من علم، إنه جواد كريم.

إن أول ما يبدأ به في مثل هذا المقام لهو الاسم واللقب والنسب والنشأة والموطن.. إلخ.

هذه ترجمته رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما سمعتها منه مباشرة:

الاسم: هو محمد الأمين وهو علم مركب من اسمين، وذكر محمد تبرك.

واللقب: آبّا. بمد الهمزة وتشديد الباء من الإباء.

واسم أبيه: محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد بن سيدي أحمد بن المختار من أولاد أولاد الطالب أوبك، وهذا من أولاد أولاد كرير بن الموافى بن يعقوب بن جاكن الأبر، جد القبيلة الكبيرة المشهورة المعروفة بالجكنيين، ويُعرفون بتجكانت.

نسب القبيلة: ويرجع نسب هذه القبيلة إلى حمير. كما قال الشاعر الموريتاني محمد فال ولد العينين مستدلاً بفصاحتهم على عروبتهم:

إنا بنو حسن دلت فصاحتنا	أنا إلى العرب الأقحاح ننتسب
إن لم تقم بينات أننا عرب	ففي «اللسان» بيان أننا عرب
انظر إلى مالنا من كل قافية	لها تذوم شذور الزبرج القشب

وبين شاعر آخر مرجع تلك القبيلة إلى حمير بقوله:

يا قائلاً طاعناً في أننا عرب	قد كذبتك لنا لسن وألوان
وشم العروبة بادٍ في شمائلنا	وفي أوائلنا عز وإيمان
آساد حمير والأبطال من مضر	حمر السيوف فما ذلوا ولا هانوا

لقد كانت خصائص العروبة ومميزاتها موفورة لدى الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولدى أهله وذويه في النظم والنثر، كما توفرت العلوم والفنون في بيته وقبيلته. وقد بيَّن أحد شعرائهم أصالة العروبة فيهم وارتضاعهم إياها من أمهاتهم في قوله يخاطب من ينكرها عليهم:

لنا العروبة الفصحى وإنا	أحق العالمين بها اضطلاعاً
عن الكتب اقتبستموها انتفاعاً	بما فيها ونرضعها ارتضاعا

المولد:

ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عام ١٣٠٥هـ.

الموطن:

كان مسقط رأسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند ماء يسمى (تَنْبه) من أعمال مديرية (كيفا) من القطر المسمى بشنقيط وهو دولة موريتانيا الإسلامية الآن.

علماً بأن كلمة شنقيط كانت ولا تزال اسماً لقرية من أعمال مديرية أصار في أقصى موريتانيا في الشمال الغربي.

نشأته رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقبل الحديث عن نشأته يحسن إيجاز نبذة عن البيئة في تلك البلاد.

تعتبر الحياة الاجتماعية في تلك البلاد بحسب المواطنين قسمين: عرب وعجم، والعربية لغة الجميع.

أما العمل: فالعجم أكثر أعمالهم الزراعة والصناعة وسلالتهم من الزنوج.

وأما العرب فقسمان: طلبة وغير الطلبة. والطلبة من يغلب عليهم طلب العلم والتجارة وغيرهم من يغلب عليهم التجارة والإغارة. وهم قبائل عدة، ومن القبائل من يغلب عليها الطلب، ومنها من يغلب عليها الإغارة والقتال.

وقبيلة الجكنيين خاصة قد جمعت بين طلب العلم، وفروسية القتال، مع عفة عن أموال الناس، وفي هذا الجو كان طلب العلم على قد وساق، سواء في حلهم أو ترحالهم، كما قال بعض مشايخهم العلامة المختار بن بونا:

ونحن ركب من الأشراف منتظم ... أجل ذا العصر قدراً دون أدنانا

قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة ... بها نبيِّن دين الله تبيانا

أما كرم الطبع فهذا سجية في جميعهم وأمر يشب فيه الصغير، ويشيب عليه الكبير وقد ألفوا الضيف لنجعة منازلهم، ومن عاداتهم إذا نزل وفد على بيت، فإن أهل هذا المنزل يرسلون لأهل بيت المضيف مما عندهم قلَّ أو كثر مشاركة في قرى الضيف، وتعاوناً مع المضيف حتى لو كان معدماً غداً واجداً، ويرحل الوفد وهو في غاية الرضا. وهكذا دواليك.

طلبه للعلم:

حفظ القرآن في بيت أخواله على خاله عبد الله كما تقدم، وعمره عشر سنوات.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثم تعلمت رسم المصحف العثماني (المصحف الأم) عن ابن خالي سيدي محمد بن أحمد بن محمد المختار، وقرأت عليه التجويد في مقرأ نافع برواية ورش، من طريق أبي يعقوب الأزرق، وقالون من رواية أبي نشيط، وأخذت عنه سنداً بذلك إلى النبي ﷺ وذلك وعمري ست عشرة سنة.

ثم درس كذلك ضبط ما فيه من متشابه في الرسم أو التلاوة. ومن المشهور عندهم في هذا رجز (محمد بن بوجه) المشهور المعروف بالبحر، تعرض فيه لكل كلمة جاءت في القرآن مرة واحدة أو مرتين أو ثلاث مرات إلى سبع وعشرين مرة أي من الكلمات المشتبهة، وإفراد كل عدد بفصل فمثلاً: كلمة (أعينهم) بالرفع جاءت ثلاث مرات قال فيها:

أعينهم بالرفع من غير خضور من بعد كانت وتولت وتدور

ومن الثنائي: كلمة (الأشياع) بالعين قال فيه:

أشياع بالعين فهل من مذكر في سبإ من قبل بأنهم ذكر

وقد درس هذا كله في طفولته، وكانت له زيادة نظم على ذلك تذييلاً لزيادة الفائدة، كما قال على البيت الأخير مبيناً حركاته وإعرابه:

في سورة القمر خاطب وانصبا وجره وغيِّبنَه في سبا

أي في سورة القمر تكون تلاوتها الخطاب والنصب ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ [القمر: ٥١] فهل من مدكر.

وفي سبأ تكون تلاوتها بالغيبة والجر «كما فعل بأشياعهم» وهذه دراسة لا تكاد توجد إلا ما شاء الله، وهي من المهام العلمية لحفظها رسم القرآن من التغيير والتبديل، وهي من آثار تعهد الله بحفظ هذا القرآن المنزَّل من عنده سبحانه.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي أثناء هذه القراءة درست بعض المختصرات في فقه مالك كرجز الشيخ ابن عاشر، وفي اثنائها أيضاً درست دراسة واسعة في الأدب على زوجة خالي أم ولد الخال أي أن ولد خاله يعلمه العلوم لخاصة بالقرآن، وأمه تعلمه الأدب، قال: أخذت عنها مبادئ النحو كالأجرومية وتمرينات ودروس

واسعة في أنساب العرب وأيامهم، والسيرة النبوية، ونظم الغزوات لأحمد البدوي الشنقيطي، وهو يزيد على ٥٠٠ بيت وشروحه لابن أخت المؤلف المعروف بحماد، ونظم عمود النسب للمؤلف وهو يعد بالآلاف وشرحه لابن أخته المذكور على خصوص العدنانيين، لأنه مات قبل شرح ما يتعلق بالقحطانيين.

هذه دراسة في علوم القرآن والأدب والسير والتاريخ كانت في بيت أخواله على أخواله وأبناء أخواله وزوجات أخواله، أي كان بيت أخواله المدرسة الأولى إليه. أما بقية الفنون فقال:

١ ـ أولاً: الفقه المالكي، وهو المذهب السائد في البلاد درست مختصر خليل، بدأ دراسته فيه على الشيخ محمد بن صالح إلى قسم العبادات، ثم درس عليه النصف من ألفية ابن مالك. ثم أخذ بقية الفنون على مشايخ متعددة، في فنون مختلفة، وكلهم من الجكنيين ومنهم مشاهير العلماء في البلاد منهم:

١ ـ الشيخ محمد بن صالح المشهور بابن أحمد الأفرز.

٢ ـ والشيخ أحمد الأفرم بن محمد المختار.

٣ ـ والشيخ العلامة أحمد بن عمر.

٤ ـ والفقيه الكبير محمد النعمة بن زيدان.

٥ ـ والفقيه الكبير أحمد بن مُودْ.

٦ ـ والعلامة المتبحر في الفنون أحمد فال بن آدُه.

وغيرهم من المشايخ الجكنيين.

قال رحمه الله: وقد أخذنا عن هؤلاء المشايخ كل الفنون: النحو، والصرف، والأصول والبلاغة. وبعض التفسير والحديث.

أما المنطق وآداب البحث والمناظرة فقد حصلناه بالمطالعة.

هذا ما أملاه عليّ رحمه الله وسجلته عنه.

علماً بأن الفن الذي درسه على المشايخ أو مطالعة من الكتب، لم يقتصر في تحصيله على دراسته، بل كان دائماً يديم النظر ويواصل التحصيل حتى غدا في كل منه كأنه متخصص فيه، بل وله في كل منه اجتهادات ومباحث مبتكرة، سنلم بها إن شاء الله عند إيراد المنهج العلمي لدراسته وآثاره العلمية.

منهجه العلمي في الدراسة:

وقبل إيراد المنهج العلمي له رحمه الله في دراسته، نلم بالمنهج العام السائد في بلاده لكافة طلبة العلم وطريقة تحصيله.

تعتبر طريقة الدراسة في تلك البلاد جزءاً من حياة البوادي حلًّا وارتحالاً. وإذا أقام أحد المشايخ في مكان توافد عليه الطلاب للدراسة عليه ومكث حتى يأخذوا عنه، وقد يقيم بصفة دائمة لدوام الدراسة عليه، ويُقال له: «المرابط» نظراً لإقامته الدائمة لنشر العلم.

ولا يأخذ المرابط من طلابه شيئاً وإن كان ذا يسار ساعد المحتاجين من طلابه، وقد يساعد أهل ذاك المكان الغرباء من الطلاب.

فينزلون حول بيته ويبنون لهم خياماً أو مساكن مؤقتة، ويكون لهم مجلس علم للدرس والمناقشة والاستذكار.

وقد يكون المرابط مختصاً بفن واحد، وقد درس عدة فنون. فإذا كان مختصاً بفن واحد فإن دروسه تكون في هذا الفن موزعة في عدة أماكن منه بحسب مجموعات الطلاب، فقد تكون مجموعة في البداية منه، ومجموعة في النهاية وأخرى في أثنائه وهكذا. فتتقدم كل مجموعة على حدة فتدرس على الشيخ، ثم تأتي المجموعة الأخرى وهكذا.

وإذا كان يدرس عدة فنون، فإنه يقسم طلاب كل فن على النحو المتقدم.

إفراد الفنون: ولا يحق لطالب أن يجمع بين فنين في وقت واحد، بل يدرس فناً حتى يكمله كالنحو مثلاً، ثم يبدأ في البلاغة حتى يكملها. وهكذا يبدأ مثلاً في الفقه حتى يفرغ منه ثم يبدأ في الأصول حتى يكمله. سواء درسها على عدة مشايخ أو على شيخ واحد.

طريقة الدراسة اليومية: يبدأ الطالب بكتابة المتن في اللوح الخشبي فيكتب قدر ما يستطيع حفظه، ثم يمحوه، ثم يكتب قدراً آخر حتى يحفظ مقراً من الفن حسب التقسيم المعهود. فمثلاً النحو، تعتبر الألفية أربعة مقارئ، ويعتبر متن خليل في الفقه نحواً من ذلك.

فإذا حفظ الطالب مقراً من الفن تقدم للدراسة، فيشرحه له الشيخ شرحاً وافياً بقدر ما عنده من تحصيل، دون أن يفتح كتاباً أو يحضر في مرجع، ثم

يقوم هؤلاء للاستذكار فيما بينهم ومناقشة ما قاله الشيخ، وقد يأخذون بعض الشراح لمقابلته على ما سمعوه أو يرجعون إلى بعض الحواشي، ولا يجتازون ذاك المكان من الدرس حتى يروا أنهم قد حصلوا كل ما فيه. وليس عليهم من سرعة أو إنهاء كتاب وتحصيل ما في الباب.

الحياة الدراسية:

دراسة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: على هذا المنهج كانت دراسة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، إلا أنه تميز ببعض الأمور، قل أن كانت لغيره. نوجز منها كالآتي:

١ ـ في مبدأ دراسته: تقدم أنه أتيح له في بادئ دراسته ما لم يتح لغيره حيث كان بيت أخواله مدرسته الأولى، فلم يرحل في بادئ أمره للطلب. وكان وحيد والديه، فكان في مكان التدلل والعناية.

٢ ـ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: كنت أميل إلى اللعب أكثر من الدراسة حتى حفظت الحروف الهجائية وبدأوا يقرئونني إياها بالحركات، با فتحة با، بى كسرة بي، بو ضمة بو، وهكذا ث د ث. فقت لهم: أوكل الحروف هكذا؟ قالوا: نعم. فقلت: كفى إني أستطيع قراءتها كلها على هذه الطريقة كي يتركوني فقالوا: اقرأهاو فقرأت بثلاثة حروف أو أربعة وتنقلت إلى آخرها بهذه الطريقة، فعرفوا أني فهمت قاعدتها واكتفوا مني بذلك وتركوني. ومن ثم حُببت إليَّ القراءة.

٣ ـ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: ولما حفظت القرآن، وأخذت الرسم العثماني، وتفوَّقت فيه على الأقران عُنيت بي والدتي وأخوالي أشد عناية، وعزموا على توجيهي للدراسة في بقية الفنون. فجهزتني والدتي بجملين أحدهما عليه مركبي وكتبي، والآخر عليه نفقتي وزادي، وصحبني خادم ومعه عدة بقرات، وقد هيأت لي مركبي كأحسن ما يكون من مركب، وملابس كأحسن ما تكون فرحاً بي، وترغيباً لي في طلب العلم. وهكذا سلكت سبيل الطلب والتحصيل.

تقوم الحياة الدراسية على أساس منع الكلفة وتمام الألفة، سواء بين الطلاب أنفسهم أو بينهم وبين شيخهم، مع كمال الأدب ووقار الحشمة. وقد تتخللها الطرف الأدبية والمحاورات الشعرية، ومن ذلك ما حدثنيه رَحِمَهُ اللَّهُ. قال: قدمت على بعض المشايخ لأدرس عليه ولم يكن يعرفني من قبل، فسأل عني من أكون، وكان في ملأ من تلامذته فقلت مرتجلاً:

هذا فتى من بني جاكان قد نزلا … به الصبا عن لسان العرب قد عدلا

رمت به همة علياء نحوكم … إذ شام برق علوم نوره اشتعلا

فجاء يرجو ركاماً من سحائبه … تكسو لسان الفتى أزهاره حللا

إذ ضاق ذرعاً بجهل النحو ثم أبى … ألا يميز شكل العين من فعلا

قد أتى اليوم صبا مولعاً كلفا … بالحمد لله لا أبغى له بدلا

يريد دراسة لامية الأفعال:

وقد مضى رحمه الله في طلب العلم قدماً، وقد ألزمه بعض مشايخه بالقران. أي أن يقرن بين كل فنين حرصاً على سرعة تحصيله، وتفرساً له في القدرة على ذلك، فانصرف بهمة علية في درس وتحصيل.

حدثني رحمه الله قال: جئت للشيخ في قراءتي عليه فشرح لي كما كان يشرح، ولكنه لم يشف ما في نفسي على ما تعودت، ولم يرو لي ظمئي. وقمت من عنده وأنا أجدني في حاجة إلى إزالة بعض اللبس وإيضاح بعض المشكل، وكان الوقت ظهراً فأخذت الكتب والمراجع فطالعت حتى العصر، فلم أفرغ من حاجتي فعاودت حتى المغرب فلم أنته أيضاً، فأوقد لي خادمي أعواداً من الحطب أقرأ على ضوئها كعادة الطلاب، وواصلت المطالعة وأتناول الشاهي الأخضر كلما مللت أو كسلت والخادم بجواري يوقد الضوء حتى انبثق الفجر وأنا في مجلسي لم أقم إلا لصلاة فرض أو تناول طعام، وإلى أن ارتفع النهار وقد فرغت من درسي وزال عني لبسي، ووجدت هذا المحل من الدرس كغيره في الوضوح والفهم فتركت المطالعة ونمت، وأوصيت خادمي أن لا يوقظني لدرسي في ذلك اليوم اكتفاء بما حصلت عليه واستراحة من عناء سهر البارحة.

فقد بات مفكراً فيها فأضحت … لفهم الفدم خافضة الجناح

وإن هذا لدرس لأبنائه ومنهج لطلاب العلم في الصبر والدأب والمثابرة. وقد نفعني الله بهذه الحادثة في دراستي وتدريسي، وخاصة في صورة مشابهة في الفرائض لم أكن درستها على أحد، وكان الاختبار في المقروء لا في المقرر.

وتلك هي آفة الدراسة النظامية اليوم وكنت كلما ضجرت في تحقيقها،

تذكرت قصته رحمه الله فصبرت حتى حصلتها ولله الحمد والمنة. وكان من بعد الظهر إلى هزيع من الليل، ولكن كم كانت لذتي وارتياحي.

ومع هذا فقد كانت له رحمه الله هدة مؤلفات نظماً في عدة فنون سيأتي بيانها إن شاء الله.

أعماله في البلاد:

كانت أعماله رحمه الله كعمل أمثاله من العلماء: الدرس والفتيا، ولكنه كان قد اشتهر بالقضاء وبالفراسة فيه، ورغم وجود الحاكم الفرنسي إلا أن المواطنين كانوا عظيمي الثقة فيه فيأتونه للقضاء بينهم، ويفدون إليه من أماكن بعيدة أو حيث يكون نازلاً.

طريقته في القضاء:

كان إذا أتى إليه الطرفان استكتبهما رغبتهما في التقاضي إليه وقبولهما ما يقضى به ثم يستكتب المدعي دعواه ويكتب جواب المدعى عليه أسفل كتابة الدعوى، ويكتب الحكم مع الدعوى والإجابة ويقول لهما: اذهبا بها إلى من شئتما من المشايخ أو الحكام.

أما المشايخ فلا يأتي أحدهم قضية قضاها إلا صدقوا عليها. وأما الحكام فلا تصلهم قضية حكم فيها إلا نفذوا حكمه حالاً، وكان يقضي في كل شيء إلا في الدماء والحدود وكان للدماء قضاء خاص.

قضاء الدماء: كان الحاكم الفرنسي في البلاد يقضي بالقصاص في القتل بعد محاكمة ومرافعة واسعة النطاق وبعد تمحيص القضية وإنهاء المرافعة وصدور الحكم، يعرض على عالمين جليلين من علماء البلاد ليصادقوا عليه، ويسمى العالمين لجنة الدماء، ولا ينفذ حكم الإعدام في القصاص إلا بعد مصادقتهما عليه.

وقد كان رحمه الله أحد أعضاء هذه اللجنة ولم يخرج من بلاده حتى علا قدره وعظم تقديره، وكان علماً من أعلامها وموضع ثقة أهلها وحكامها ومحكوميها.

خروجه من بلاده رحمه الله:

كان خروجه من بلاده لأداء فريضة الحج وعلى نية العودة وكان سفره

براً، كتب فيه رحلة ضمنها مباحث جليلة هي التي بين يدي القارئ وبعد وصوله إلى هذه البلاد تحددت نية بقائه. بعد لقائه مع الأميرين الكريمين كما سلف ذكره في المقدمة.

ورغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الجوار الكريم بالمدينة المنورة وكان يقول: ليس من عمل أعظم من تفسير كتاب الله في مسجد رسول الله ﷺ. وتم ذلك بأمر من جلالة الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولقي الشيخين الجليلين الشيخ عبد الله الزاحم والشيخ عبد العزيز بن صالح الصرف والبيان عليه. رحم الله الموتى وحفظ الله الأحياء.

ولما عزم على البقاء وبدأ التدريس في المسجد النبوي وخالط العامة والخاصة وجد من يمثل المذاهب الأربعة، ومن يناقش فيها، ووجد في المسجد النبوي دراسة لا تقتصر على مذهب مالك، بل ولا على غيره فكان لا بد من دراسة بقية المذاهب بجانب مذهب مالك، وبما أن الخلاف المذهبي لا ينهيه إلا الحديث أو القرآن، فكان لزاماً من التوسع في دراسة الحديث، وقد ساعد الشيخ على هذا التوسع والاستيعاب وقوة الاستدلال ودقة الترجيح ما هو متمكن فيه من فن الأصول والعربية، مع توسعه في دراسة الحديث، وبالأخص المجاميع كنيل الأوطار وفتح الباري وغيرها.

وقد ظهر ذلك في منهجه في أضواء البيان، حينما يعرض لمبحث فقهي فيه فيستوفي أقوال العلماء، ويرجح ما يظهر له بمقتضى الدليل عقلاً كان أو نقلاً.

وهذا المنهج هو سبيل أهل التحصيل الدأب على الدراسة ومواصلة المطالعة والتنقيح.

أما في العقيدة فقد بلورها منطقاً ودليلاً، ثم لخصها في محاضرة آيات الأسماء والصفات في أولى محاضرات الجامعة ثم بسطها ووضحها إيضاحاً شافياً في أخريات حياته، في كتابي آداب البحث والمناظرة دليلاً واستدلالاً وعرضاً وإقناعاً. ومن آثار بيانه لها وأسلوبه فيها ما قاله فضيلة الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سمع بيان الشيخ لعقيدة السلف في مسجد الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: جزى الله عنا الشيخ محمد الأمين خيراً على

بيانه هذا، فالجاهل عرف العقيدة، والعالم عرف الطريقة والأسلوب.

وهذه الحقيقة تضع بين يدي طالب العلم منهج الاستزادة في التحصيل وطموحه فيه، كما قال ﷺ: «منهومان لا يشبعان أبداً: طالب علم وطالب مال». هذا جانب استفادته، كما أفاد رحمه الله في عدة جهات من المملكة كالآتي:

أولاً: في المسجد النبوي:

يعتبر التدريس في المسجد النبوي من أهم التدريس في كبريات جامعات العالم، في نشر العلم، وهو الجامعة الأولى للتشريع الإسلامي. منذ عهد النبوة. وحين كان جبريل عليه السلام يأتي لتعليم الإسلام في مجالس الرسول ﷺ. ومنذ كانت مجالس الخلفاء الراشدين وعلماء الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. إذ كانت المدينة العاصمة العلمية، وظلت محافظة على مركزها العلمي، ولم تخل في زمن من الأزمان من عالم يقوم بحق الله فيها.

وقبل مجيء الشيخ رحمه الله كان قبله الشيخ الطيب رحمه الله نفع الله به كثيراً. وتوفي سنة ١٣٦٣هـ. فكان جلوس الشيخ رحمه الله للتدريس في المسجد النبوي امتداداً لما كان قبله مع من كان من العلماء بالمسجد النبوي آنذاك من تلاميذ الشيخ الطيب وغيره. وكان درس الشيخ في التفسير ختم القرآن مرتين.

منهجه في درسه: من المعلوم أن التفسير لا ينحصر في موضوع فهو شامل عام بشمول القرآن وعمومه، فكان المنهج أولاً بيان المفردات ثم الإعراب والتصريف ثم البلاغة مع إيراد الشواهد على ما يورد.

ثم يأتي إلى الأحكام إن كان موضوع الآية فقهاً، فيستقصى باستنتاج الحكم، وبيان الأقوال والترجيح لما يظهر له. ويدعم ذلك بالأصول وبيان القرآن وعلوم القرآن من عام وخاص، ومطلق ومقيد وناسخ ومنسوخ وأسباب نزول وغير ذلك.

وإذا كانت الآية في قصص أظهر العبر من القصة وبين تاريخها وقد يربط الحاضر بالماضي.

وكان درسه أشبه بحديقة غناء احتوت أشهى الثمار وأجمل الأزهار، في

تنسيق الغرس وجمال الجداول، تشرح الصدر وتشفى القلب وتروق للعين، فيستفيد منه جميع الناس ويأخذ كل واحد ما طاب له وما وسعه.

وقد يستطرد للقاعدة بمبحث كامل كما استطرد في الرد على ابن حزم في رده القياس بإتيانه بأنواعه عند قوله: «ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك» وقد طبع في نهاية مذكرة الأصول تعميماً للفائدة. وبهذا الشمول والاستقصاء لم يكن يترك مجالاً لسؤال ولم يبق لذي حاجة تساؤلاً.

وأذكر كلمة لقاضي قرية (قرو) في موريتانيا بعد أن سئل رَحِمَهُ اللَّهُ عن مهام من المسائل العلمية، وأجاب إجابة مستفيضة مفصلة كافية. قال قاضي قرو: لم يبق لأحد هنا كلام فقد ظهر الحق، ولا سؤال فقد زال اللبس، وإن الحضور بين أحد رجلين: عالم، فقد عرف الحق فلم يبق له سؤال، وجاهل، فلا يحق له أن يسأل.

فكان نفعه رَحِمَهُ اللَّهُ في المسجد النبوي للمقيم والقادم للقاصي والداني نفعاً عظيماً.

ثانياً:

في سنة ١٣٧١هـ افتتحت الإدارة العامة للمعاهد بالرياض على معهد علمي، تلاه عدة معاهد وكليتا الشريعة واللغة.

واختير للتدريس في المعهد والكليتين نخبة من العلماء من داخل وخارج المملكة. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ ممن اختير لذلك فتولى تدريس التفسير والأصول إلى سنة ١٣٨١هـ حين افتتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة.

آثاره في الرياض: كانت مدة اختياره للتدريس بالرياض، عشر سنوات دراسية، يعود لقضاء العطلة بالمدينة، وما كان عمله في التدريس بالمعهد والكلية كغيره من المدرسين. ولكن لبيان أثره حقيقة نورد نبذة عن الحالة العلمية آنذاك بالرياض.

كانت الرياض عاصمة نجد علمياً وسياسياً وكان يفد إليه طلاب العلم من أنحاء نجد لأخذ العلم عن آل الشيخ. وكان مركز الدراسة والتدريس في المساجد إلا خواص الطلاب لدى سماحة المفتي فيدرسون عليه بعض الدروس في بيته ضحى، وكانت الدراسة عمادها التوحيد والفقه والتفسير، وكذلك الحديث

والسيرة والنحو، وكانت دراسة مباركة تخرج عليها جميع علماء نجد، حتى جاءت تلك الحركة العلمية الجديدة، أو تنظيم الدراسة الجديد في عم ١٣٧١هـ.

نشأة هذه الحركة: كانت نشأتها كما سمعت منه رَحِمَهُ اللهُ استجابة لرغبة المرحوم جلالة الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ. قال لجماعة العلماء وهم في مجلسه الخاص: لقد كانت الرياض مليئة بالعلماء عامرة بالدروس. وانتقل الكثير منهم إلى رحمة الله، ولم يخلفهم من يماثلهم وأردت تعاونكم مع سماحة المفتي في تربية جيل من طلبة العلم عن العلوم الصحيحة والعقيدة السليمة، فنحن وأنتم مشتركون في المسؤولية.

في مسجد الشيخ: وفي مسجد الشيخ محمد رَحِمَهُ اللهُ بدأ درس الأصول لكبار الطلبة في قواعد الأصول، حضره العامة والخاصة وكان يتوافد إليه من أطراف الرياض، وكان الشيخ عبد الرحمن الإفريقي رَحِمَهُ اللهُ يدرس الحديث وكان درس الأصول بمثابة فتح جديد في هذا الفن.

في بيته رَحِمَهُ اللهُ:

ولما كان الدرس في الأصول في المسجد عاماً وفي الطلبة من خواصهم رغبوا في درس خاص في بيته رَحِمَهُ اللهُ، فكان لهم درس خاص بعد العصر. وكان بيته رَحِمَهُ اللهُ كمدرسة سواء لأبنائه الذين رافقوه للدراسة عليه وقد أملى شرحاً على مراقي السعود في بيته على أخينا أحمد الأحمد الشنقيطي.

لقد كان لتدريسه هذا سواء رسمياً في المعهد والكليتين أو في المسجد أو في المنزل، كان له أثر طيب ونتائج حسنة لا يسع متحدث التحدث عنها بقدر ما تحدثت هي عن نفسها في أعمال كافة المتخرجين من تلك المعاهد والكلِّيتين المنتشرين في أنحاء المملكة المبرزين في أعمالهم وفي أعلى مناصب في كافة الوزارات.

ولا يغالي من يقول: إن كل من تخرج أو يتخرج فهو إما تلميذ له أو لتلاميذه فهم بمثابة أبنائه وأحفاده وكفى.

تقدير المسؤولين له:

لقد كان بعلمه ونصحه وجهده وعفته موضع تقدير من جميع المسؤولين

وبالأخص أصحاب الفضيلة آل الشيخ، وصاحب الجلالة الملك عبد العزيز، وصاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد الرحمن، وكان أشد الناس تقديراً له، وقد منحه جلالة الملك رَحِمَهُ اللهُ أمراً بالجنسية لجميع من ينتمي إليه وفي كفالته ثقة به وإكراماً له.

ولمازار الملك محمد الخامس ملك المغرب الرياض استأذن في صحبة الشيخ إلى المدينة فرافقه تقديراً وإكراماً، وألقى محاضرته بالمسجد النبوي بحضور الملك محمد الخامس بعنوان «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا»، وقد طبعت مرتين.

وهكذا قدم الرياض رَحِمَهُ اللهُ في ترحيب وإكرام وانتقل منها في إعزاز وإكبار. بعد أن ترك فيها أطيب الآثار. وساهم في أكبر نهضة علمية في البلاد.

دوره رَحِمَهُ اللهُ في الجامعة الإسلامية:

إن من يعرف نشأة الجامعة الإسلامية، وقد عرف الحركة العلمية الحديثة بالرياض ليقول: إن افتتاح الجامعة الإسلامية امتداد للحركة العلمية الحديثة بالرياض.

وقد كان لوالدنا رَحِمَهُ اللهُ في هذه المجالات اليد الطولى، والمجهود الأكبر، فلم يدخر وسعاً في تعليم، ولم يتوان في توجيه، سواء في دروسه أو أحاديثه أو محاضراته، وسواء مع الطلاب أو المدرسين، فكان كالأب الرحيم والداعية الناصح الأمين. تحمل عنه تلاميذه إلى أنحاء العالم الإسلامي حينما وصلت منح الدراسة بالجامعة الإسلامية لبلدان العالم الإسلامي. فهل يمكن أن نقول ولو ادعاء أو تجوزاً: إنه كان بحق في منزلة شيخ الإسلام في هذا الوقت؟ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقد كان بجانب التعليم عضو مجلس الجامعة ساهم في سيرها ومناهجها، كما ساهم في إنتاجها وتعليمها.

وفي سنة ١٣٨٦هـ افتتح معهد القضاء العالي بالرياض برئاسة فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي، وكانت الدراسة فيه ابتداء على نظام استقدام الأساتذة الزائرين، فكان رَحِمَهُ اللهُ ممن يذهب لإلقاء المحاضرات المطلوبة في التفسير والأصول.

امتداد نشاطه خارج المملكة:

إذا كانت الجامعة الإسلامية فتحت للبلاد نوافذ تطل منها على العالم الإسلامي كله، وجعلت من حق أولئك الأبناء ما يجب من رعايتهم وحق تلك الأقطار ما يلزم من تقوية أواصر الروابط. فكانت فكرة إرسال بعثات إلى الأقطار الإسلامية وخاصة إفريقيا، فكان رَحِمَهُ اللَّهُ على رأس بعثة الجامعة إلى عشر دول إفريقية بدأت بالسودان، وانتهت بموريتانيا موطن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ. كان لهذه البعثة في تلك البلاد أعظم الأثر، وأذكر في مجلس من أفاضل البلاد بموريتانيا وفي حفل تكريم للبعثة وكل إلى فضيلته رَحِمَهُ اللَّهُ كلمة الجواب فكان منها: إن الذكريات لتتحدث، وإنها لساعة عجيبة أدارت عجلة الزمان حيث نشأ الشيخ في بلادكم ثم هاجر إلى الحجاز ثم ها هو يعود إليكم على رأس وفد ورئاسة بعثة، فقد نبتت غرسة علمه هنا عندكم فذهب إلى الحجاز فنمت وترعرت فامتدت أغصانها حتى شملت بوارف ظلها، بلاد الإسلام شرقاً وغرباً، وها نحن في موطنه نجني ثمار غرسها ونستظل بوافر ظلها. فكانت تلك الرحلة حقاً حلقة اتصال وتجديد عهد وإحياء معالم للإسلام.

وكان له رَحِمَهُ اللَّهُ العديد من المحاضرات والمحادثات، سجلت كلها في أشرطة لا تزال محفوظة، آمل أن أوفق لنقلها وطبعها إتماماً للفائدة إن شاء الله. ونضم إليها منهجه وسلوكه مع الحكام، وصغار الطلاب والعوام، مما يرسم الطريق الصحيح للدعوة إلى الله على بصيرة وبالحكمة والموعظة الحسنة.

في هيئة كبار العلماء:

وكما شكلت هيئة كبار العلماء بعد سماحة المفتي رَحِمَهُ اللَّهُ، وهي أكبر هيئة علمية في البلاد. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ أحد أعضائها وقد ترأس إحدى دوراتها فكانت له السياسة الرشيدة والنتائج الحميدة. سمعت فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح حفظه الله وهو عضو فيها يقول: ما رأيت قبله أحسن إدارة منه مع بُعد نظر في الأمور، وحسن تدبر للعواقب.

في الرابطة:

وفي رابطة العالم الإسلامي كان عضو المجلس التأسيسي لم تقل خدماته

فيه عن خدماته في غيرها. أذكر له موقفاً حدثني به جنَّب الرابطة مأزقاً كاد أن يدخل عليها شقاقاً أو انثلاماً.

حينما قدم مندوب إيران وقدم طلباً باعتراف الرابطة بالمذهب الجعفري ومعه وثيقة من بعض الجهات العلمية الإسلامية ذات الوزن الكبير تؤيده على دعواه وتجيبه إلى طلبه. فإن قبلوا طلبه دخلوا مأزقاً وإن رفضوه واجهوا حرجاً. فاقترحوا أن يتولى الأمر فضيلته رحمه الله في جلسة خاصة. فأجاب في المجلس قائلاً: لقد اجتمعنا للعمل على جمع شمل المسلمين والتأليف بينهم وترابطهم أمام خطر عدوهم، ونحن الآن مجتمعون مع الشيعة في أصول هي:

الإسلام دين الجميع والرسول محمد ﷺ رسول الجميع. والقرآن كتاب الله والكعبة قبلة الجميع والصلوات الخمس وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام، ومجتمعون على تحريم المحرمات من قتل وشرب وزنا وسرق ونحو ذلك. وهذا القدر كاف للاجتماع والترابط. وهناك أمور نعلم جميعاً أننا نختلف فيها وليس هذا مثار بحثها، فإن رغب العضو الإيراني بحثها واتباع الحق فيها فليختر من علمائهم جماعة ونختار لهم جماعة ويبحثون ما اختلفنا فيه ويعلن الحق ويلتزم به، أو يسحب طلبه الآن. فأقر الجميع قوله وسحب العضو طلبه.

وهكذا كان رحمه الله حكيماً في تعليمه حكيماً في دعوته حكيماً في بحثه وإقناعه. وقد ظهر ذلك كل الوضوح في مؤلفاته.

مؤلفاته رحمه الله:

لا شك أن كل مؤلف يحكي شخصية مؤلفه في علمه وفي عقله بل وفي اتجاهه كما قالوا: من ألف فقد استهدف، أي لأنه يعرض ما عنده على أنظار الناس. وللشيخ تآليف عديدة منها في بلاده ومنها هنا. فما كان في بلاده هو:

١ ـ في أنساب العرب نظماً ألفه قبل البلوغ يقول في أوله:

سميته بخالص الجمان ... في ذكر أنساب بني عدنان

وبعد البلوغ دفنه قال: لأنه كان على نية التفوق على الأقران، وقد لامه مشايخه على دفنه وقالوا: كان من الممكن تحويل النية وتحسينها.

٢ ـ رجز في فروع مذهب مالك يختص بالعقود من البيوع والرهون وهو آلاف متعددة وكل هذه المؤلفات مخطوطة.

أما مؤلفاته هنا فهي:

١ ـ منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز. وموضوعها إبطال إجراء المجاز في آيات الأسماء والصفات وإيفائها على الحقيقة. وقد زاد هذا المعنى فيما بعد في آداب البحث والمناظرة.

٢ ـ دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، أبان فيه مواضع ما يشبه التعارض في القرآن كله كما في قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، مع قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وأن السؤال متنوع والمواقف متعددة. وقد طبع وما قبله ونفذ.

٣ ـ مذكرة الأصول على روضة الناظر: جمع في شرحها أصول الحنابلة والمالكية وبالتالي الشافعية، مقررة على كليتي الشريعة والدعوة.

٤ ـ آداب البحث والمناظرة: أوضح فيه آداب البحث من إيراد المسائل وبيان الدليل ونحو ذلك. وهو أيضاً مقرر في الجمعة ومن جزأين.

٥ ـ أضواء البيان لتفسير القرآن بالقرآن: وهو مدرسة كاملة يتحدث عن نفسه طبع منه سبعة أجزاء كبار وصل فيه رحمه الله إلى نهاية «قد سمع». ولعل الله ييسر ويوفق من[1] يعمل على إكماله ولو بقدر المستطاع. ومن عجيب الصدف أن يكون موقفه رحمه الله في التفسير على قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهنا العديد من المحاضرات ذات المواضيع المستقلة طبعت كلها ونفدت وهي:

١ ـ آيات الصفات: أوضح فيها تحقيق إثبات صفات الله.

٢ ـ حكمة التشريع: عالج فيها العديد من حكمة التشريع في كثير من أحكامه.

٣ ـ المثل العليا: بين فيها المثالية في العقيدة والتشريع والأخلاق.

---

(١) وفق الله تلميذه العالم اللوذعي الشيخ عطية محمد سالم ـ القاضي بالمحكمة الشرعية الكبرى بالمدينة المنورة ـ للقيام بهذا العمل الجليل، فأتمه في جزأين مطبوعين، هما الثامن والتاسع وبهما كمل تفسير أضواء البيان، والحمد لله على جزيل نعمائه (الناشر).

٤ ـ المصالح المرسلة: بين فيها ضابط استعمالها بين الإفراط والتفريط.
٥ ـ حول شبهة الرقيق: رفع اللبس عن ادعاء استرقاق الإسلام للأحرار.
٦ ـ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ألقاها بحضرة الملك محمد الخامس عند زيارته للمدينة.
٧ ـ رحلته لأداء مناسك الحج وهي التي تتلو هذه الترجمة وكلها عامة ونافعة مفيدة. وبالتالي فقد كان لمنهجه العلمي في أبحاثه وتدريسه وفي مؤلفاته إحياء لعلوم درست وتصحيح لمفاهيم اختلفت.

فما أحيا من العلوم علم الأصول الذي هو أصل الاستدلال والاستنباط. والاجتهاد والترجيح وعمدة المجتهد وعماده، وبجهله لا يحق الاجتهاد ويجب التقليد المحض. كما يقولون: جهلة الأصول عام العلماء: ففتح أبوابه وسهل صعابه وأوضح قواعده، وقرب تناوله تسهيلاً لأخذ الأحكام من مصادرها ورد الفروع إلى أصولها.

كما أحيا آداب البحث والمناظرة فوضع منهجه وألف مقرره فكان خدمة للعقيدة في أسلوب بيانها، وكيفية إثباتها والدفاع عنها وطرق الإقناع بما فيه الخلاف.

كما فتح أبواباً جديدة وأحدث فنوناً طريفة في علوم القرآن من منع المجاز عن المنزل للتعبد والإعجاز، إثباتاً لمعاني آيات الصفات على حقيقتها وسد باب تعطيلها عن دلالتها إجراء للنص على حقيقته وإبقاء عليه في دلالته.

ومن دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب وبيان تصديق آي الكتاب بعضه بعضاً بدون تعارض ولا إشكال.

ومن تسليط أضواء البيان على تفسير القرآن بالقرآن رسم فيه المنهج السليم لتفسير القرآن الكريم. تفسير كلام الله بعضه ببعض، وأبان أحكامه وحكمه، وفتح كنوزه وأطلع نفائسه ونشر درره على طلبة العلم.

وكل ذلك فتح جديد في علوم القرآن لم تكن موجودة على هذا النسق من قبل، ولم تكن تدرس بهذا المثل.

كما أنه في غضونها صحح مفاهيم مختلفة؛ منها أن المنطق لم يكن يعرف عنه إلا أنه تقديم العقل على النقل ومصادمة النص بالرأي، وكان فعلاً

وسيلة التشكيك في العقيدة باستخدام قضايا عقيمة. فهذب الشيخ رحمه الله من أبحاثه وأحسن باستخدامه فنظم قضاياه المنتجة ورتب أشكاله السليمة واستخدم قياسه في الإلزام. سواء في العقيدة أو أصول الأحكام، وبعد أن كان يستخدم ضدها أصبح يعمل في خدمتها. كما وضح ذلك في آداب البحث والمناظرة.

مواقفه مع الحق:

كان رحمه الله قوياً صلباً ليناً سهلاً.

كان قوياً صلباً في بيانه، ليناً سهلاً في الرجوع إلى ما ظهر إليه منه.

في بعض الأعوام التي حججتها معه رحمه الله قدمنا مكة يوم سبع من الشهر، وكان مفرداً الحج وفي يوم العيد صحبته للسلام على سماحة المفتي رحمه الله بمنى، فسأله رحمه الله عن نسكه فقال: جئت مفرداً الحج وقصداً فعلت فأدرك المفتي رحمه الله أن وراء ذلك شيئاً، ولكنه تلطف مع الشيخ وقال: أهو أفضل عندك حفظك الله؟ فأجاب أيضاً حفظكم الله لا للأفضلية فعلت، ولكن سمعت وتأكد عندي أن أشخاصاً ينتمون لطلب العلم يقولون: لا يصح الإفراد بالحج ويلزمون المفردين بالتحلل بعمرة. وهذا العمل لا يتناسب مع العديد من وفود بيت الله الحرام كل بما اختار من نسك وكل يعمل بمذهب صحيح، وجرت محادثة من أنفس ما سمعت في تقرير هذا البحث من مناقشة الأدلة وبيان الراجح. وأخيراً قال رحمه الله: إنه لا يعنيني بيان الأفضل فهذا أمر مختلف فيه وكلٌّ يختار ما يترجح عنده. ولكن يعنيني إبطال القول: بالمنع من صحة إفراد الحج لأنه قول لم يسبق إليه، والأمة مجمعة على صحته. فما كان من سماحة المفتي رحمه الله إلا أن استحسن قوله ودعا له.

ولكأني بهذا العمل من الشيخ رحمه الله الذي اراد به البيان عملياً صورة مما وقع من علي رضي الله عنه حينما بلغه عن عثمان رضي الله عنه أنه ينهى عن التمتع فدخل عليه وقال: كيف تنهى عن شيء فعلناه مع رسول الله ﷺ؟ وخرج من عنده وهو يقول: لبيك اللهم حجاً وعمرة.

أما لينه مع الحق ورجوعه إلى ما ظهر له منه، ففي آخر دروسه في الحرم النبوي في رمضان الماضي في سورة براءة أعلن عن رجوعه عن القول في الأشهر الحرم بأنها منسوخة. وقال: الذي يظهر أنها محكمة وليست

منسوخة. وكنا نقول: بنسخها في دفع إيهام الاضطراب، ولكن ظهر لنا بالتأمل أنها محكمة. وهو الحق الذي ينبغي اعتماده والتعويل عليه.

ومما وقع لي معه رحمه الله وأكبرته فيه تواضعه وإنصافه سمعت منه في مبحث زكاة الحلى في أضواء البيان عند سرد الأدلة ومناقشتها، أن من أدلة الموجبين حديث المرأة اليمنية ومعها ابنتها وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب، فسألها ﷺ: «أتؤدين زكاة هذا؟ فقالت: لا. فقال: هما حسبك من النار. فخلعتهما وألقت بهما».

وأجاب المانعون بأن ذلك كان قبل إباحة الذهب للنساء، فتساءلت مستوضحاً منه رحمه الله: وماذا يسمى هذا منه ﷺ سكوته عن لبسه وهو محرم وسؤاله عن زكاته؟ فقال: عجباً إن هذا يتضمن وجود اللبس عند السؤال، ويدل على إباحته آنذاك، لأنه ﷺ لا يقر أحداً على محرم ولا يتأتى أن يسكت على لبسها إياه وهو ممنوع، ويهتم لزكاته. ولو أعيد طبع الكتاب لنبهت عليه رغم أن جميع المراجع لم تلتفت إليه، فهو بهذا يلقن طلبة العلم درساً في موقفه من الحق، ولكأني بكلام عمر رضي الله عنه في كتابه لأبي موسى رحمه الله: ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس، ثم راجعت فيه نفسك وظهر لك الحق، أن تأخذ به، فالحق أحق أن يتبع. وقد رأينا من قبل للشافعي القديم والجديد. وهذا ما يقتضيه إنصاف العلماء وأمانة العلم.

هذا ما وسعني ذكره عن حياته العلمية في نشأته وتعلمه وتعليمه، وعن تراثه العلمي في مؤلفاته وآثاره التربوية في أبنائه، وأبناء العالم الإسلامي كله، رحمه الله رحمة واسعة.

أما الناحية الشخصية:

في تقويمه الشخصي لسلوكه، وأخلاقه، وآدابه، وكرمه، وعفته، وزهده وترفع نفسه وما إلى ذلك، فهذا ما يستحق أن يفرد بحديث، وإني لا أستطيع الآن تصويره ولا يسعني في هذا الوقت تفصيله. وما كان رحمه الله يحب أن يذكر عنه شيئاً في ذلك ولكن على سبيل الإجمال لو أن للفضائل والمكرمات والشيم وصفات الكمال في الرجال عنواناً يجمعها: لكان هو أحق به.

وإذا كان علماء الأخلاق يعنون لأصول الأخلاق والفضائل بالمروءة فإن

المروءة كانت شعاره ودثاره. وكانت هي التي تحكمه في جميع تصرفاته، سواء في نفسه أو مع إخوانه وطلابه أو مع غيرهم من عرفهم أو لم يعرفهم. وقد قال فيه بعض الناس في حياته: إنه لا عيب فيه سوى عيب واحد، هو أننا نفقده بعد موته.

وإن تفضيل ذلك لمتروك لمن خالطه عن قرب. وقد استعصى على المقال في ذلك ولكأني بقول القائل:

أهابك إجلالاً وما بك سلطة　　　علىّ ولكن ملء عين حبيبها

ولكن قد تكفي الإشارة إذا لم تسعف العبارة. وأقرب شيء زهده في الدنيا وعفته عما في أيدي الناس، وكرمه بما في يده: لأن هذا لا يعلم إلا لمن خالطه، وليس كل من خالطه يعرف ذلك منه بل من داخله ولازمه.

والواقع أن الدنيا لم تكن تساوي عنده شيئاً فلم يكن يهتم لها ومنذ وجوده في المملكة وصلته بالحكومة حتى فارق الدنيا لم يطلب عطاء ولا مرتباً ولا ترفيعاً لمرتبه ولا حصولاً على مكافأة أو علاوة. ولكن ما جاءه من غير سؤال أخذه، وما حصل عليه لم يكن ليستبقيه بل يوزعه في حينه على المعوزين من أرامل ومنقطعين، وكنت أتولى توزيعه وإرساله من الرياض إلى كل من مكة والمدينة. ومات ولم يخلف درهماً ولا ديناراً، وكان مستغنياً بعفته وقناعته. بل إن حقه الخاص ليتركه تعففاً عنه كما فعل في مؤلفاته وهي فريدة في نوعها، لم يقبل التكسب بها وتركها لطلبة العلم.

وسمعته يقول: لقد جئت معي من البلاد بكنز عظيم يكفيني مدى الحياة وأخشى عليه الضياع. فقلت له: وما هو؟ قال: القناعة وكان شعاره في ذلك قول الشاعر:

الجوع يطرد بالرغيف اليابس　　　فعلام تكثر حسرتي ووساوسي

وكان اهتمامه بالعلم وبالعلم وحده وكل العلوم عنده آله ووسيلة، وعلم الكتاب وحده غاية.

أما مكارم أخلاقه ومراعاة شعور جلسائه، فهذا فوق حد الاستطاعة، فمذ صحبته لم أسمع منه مقالاً لأي إنسان ولو مخطئ عليه يكون فيه جرح لشعوره، وما كان يعاتب إنساناً في شيء يمكن تداركه، وكان كثير التغاضي عن كثير من

الأمور في حق نفسه، وحينما كنت أسائله في ذلك يقول:

ليس الغبيُّ بسيد في قومه لكنَّ سيد قومه المتغابي

ولم يكن يغتاب أحداً أو يسمح بغيبة أحد في مجلسه، وكثراً ما يقول لإخوانه (اتكايسوا): أي من الكياسة والتحفظ من خطر الغيبة، ويقول: إذا كان الإنسان يعلم أن كل ما يتكلم به يأتي في صحيفته، فلا يأتي فيها إلا الشيء الطيب.

ومما لوحظ عليه في سنواته الأخيرة تباعده عن الفتيا، وإذا اضطر يقول: لا أتحمل في ذمتي شيئاً، العلماء يقولون: كذا وكذا.

وسألته مرة عن ذلك، فقال: إن الإنسان في عافية ما لم يُبْتَلَ والسؤال ابتلاء، لأنك تقول عن الله ولا تدري أتصيب حكم الله أم لا؟ فما لم يكن عليه نص قاطع من كتاب الله أو سنّة رسول الله ﷺ وجب التحفظ فيه.

ويتمثل بقول الشاعر:

إذا ما قتلت الشيء علماً فقل به ولا تقل الشيء الذي أنت جاهله

فمن كان يهوى أن يرى متصدراً ويكره لا أدري أصيبت مقاتله

وفي الجملة، فقد كان رحمه الله خير قدوة وأحسنها في جميع مجالات الحياة، فكان العالم العامل ولا أزكى على الله أحداً، وقد خلف ولدين فاضلين أديبين تخرجا من كلية الشريعة الإسلامية جعلهما الله خير خلف لخير سلف، والله أسأل أن يسكنه فسيح جنته ويوسع له في رضوان رحمته وأن يعلي منزلته ويرفع درجته مع العلماء والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقا.

ونفعنا الله بعلمه وسلك بنا طريقة عمله بما يرضيه تبارك وتعالى عنا، وقد طبعت ترجمته بأوسع من ذلك مع الجزء التاسع من أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد ﷺ.

كتبها تلميذ الشيخ
عَطيّة محمّد سَالم

خاتمة برنامج من أعيان علماء الحرمين الشريفين

تم بحمد الله وتوفيقه تقديم ما تيسر من تراجم لبعض أعيان العلماء الأجلاء من علماء الحرمين الشريفين ممن كانت لهم نشاطات علمية منذ الصدر الأول من أصحاب رسول الله ﷺ؛ كزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، ثم ممن كان بعدهم باعتبار اثنين أو ثلاثة من كل من علماء مكة المكرمة والمدينة المنورة في كل قرن ممن يعطون صورة منهجية للحركة التعليمية في نشاطها أو فتورها إلى نهاية القرن الثالث عشر، ثم زيادة العدد نسبياً في القرن الرابع عشر، وقد يسر الله تعالى تقديم أكثر من مائة ترجمة في مائة وست عشرة حلقة من بداية ١٠/٢/١٤٠٨ في هذا البرنامج المبارك وقدمت للسادة المستمعين من إذاعة نداء الإسلام مع واسع الشكر ووافر التحية وكان بحمد الله وعونه وواسع فضله له الأثر الملموس والتوجيه الحميد فجزى الله المسؤولين عن ذلك خيراً.

ولما كان لهذا البرنامج وقتاً محدداً وزمناً معيناً وقد توفر لدي من أسماء العلماء الذين عاصرتهم أو عاصرت تلاميذهم ومن عاصرهم نحواً من أربعين عالماً كلهم قد باشر التدريس في المسجد النبوي في القرن الرابع عشر، وأكثرهم في النصف الثاني منه، وفي عهد هذه الحكومة السعودية أيدها الله وسدد خطاها ووفقها لكل خير وصلاح وأعزها بالإسلام وأعز الإسلام بها، وكان في العزم تقديم تراجم لهؤلاء جميعاً حسب المستطاع حيث يوجد لأكثرهم تراجم سابقاً؛ منهم من توجد ترجمته في مقدمة كتاب كان قد ألفه، مثل علامة وقته الشيخ محمد الطيب الأنصاري مع مقدمة كتابه «اللآلئ الكمينة في شرح الدرة الثمينة»، كتبها تلميذه الأول وملازمه الأوحد الكاتب الأديب الشيخ عبد القدوس الأنصاري رحمه الله وساهم كذلك فيها الشيخ ضياء الدين رجب وتلميذه قبل وبعد الهجرة الشيخ أبو بكر بن محمد المعروف بالتنبكتي،

جاءت هذه الترجمة مجتمعة في أكثر من عشرين صفحة، كما يوجد له من التلاميذ الموجودين حتى الآن ممن سمعنا العديد من أخباره منهم، وقد قال الشيخ عبد القدوس في ترجمته إياه: كان رحمه الله أحد دعائم التجديد في حقل التربية والتعليم بهذه البلاد في القرن الرابع عشر للهجرة، وقد بدأت شجرة علمه الباسقة تؤتي ثمارها في المدينة المنورة فيما بين عامي ١٣٣٥هـ و١٣٦٣هـ وما توفي حتى كانت ثمار هذه الشجرة المباركة قد انتشرت في كل مكان ليس بالمدينة المنورة وحدها ولكن بالمملكة العربية السعودية ثم بجزيرة العرب... إلخ، وسنعمل بعون الله على ضم تلك الترجمة بتمامها إلى هذا البرنامج عند تقديمه للقراء الكرام في شكل كتاب.

ومن هؤلاء الشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن بن جاسر توجد ترجمته في مقدمة كتابه «مفيد الأنام ونور الظلام في تحرير الأحكام لحج بيت الله الحرام» كتبها بعض تلاميذه وهو رحمه الله من تلاميذ الشيخ الطيب الأنصاري المذكور أعلاه، ولد رحمه الله في شهر المحرم سنة ١٣١٣هـ، ببلدة أشيقر، وذكر شيوخه وأعماله ومنها: توليه القضاء بمكة، ثم بالمدينة سنة ١٣٥٦هـ وآخر أعماله معاون لرئيس القضاة بمكة المكرمة، ثم ذكر مؤلفاته وإجازاته وسنلحقها إن شاء الله بهذا البرنامج.

ومن هؤلاء من له ترجمة إما ضمن بعض من عثرنا عليهم ممن ترجم لهم الشيخ محمد سعيد دفتردار. وهم: محمد بن أحمد العمري الجزائري المتوفى سنة ١٣٥٠هـ.

ومنهم الشيخ أبو بكر داغستاني وقد سبق التنويه عنه عند ترجمة أخيه، وكانت وفاته سنة ١٣٦٢هـ. ومنهم الشيخ عبد الحق رفاقت المتوفى سنة ١٣٧٢هـ.

ومنهم الشيخ عمر بري، وقد أطال رحمه الله في ترجمته على عدة حلقات شملت حياته العلمية والأدبية، ونماذج من أدبياته القيّمة ورحلاته.

ومنهم السيد جعفر برزنجي...

ومنهم الشيخ أحمد زاهد المتوفى سنة ١٣٤٨هـ، وكل هؤلاء لهم تراجم تعطي الصورة العلمية لشخصياتهم رحمهم الله وسنلحقها كلها إن شاء الله.

ومن هؤلاء الأربعين عالماً نحواً من اثني عشر عالماً جاءت تراجمهم في كتاب «تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع» أو «إمتاع أولي النظر ببعض أعيان القرن الرابع عشر» لمؤلفه أبو سليمان محمود سعيد ممدوح ساق فيه فوق مائتي ترجمة، وسنختار ممن أورد تراجمهم البعض إن شاء الله.

هذا ويوجد تواقيع لاثني عشر مدرساً من مدرسي المسجد النبوي على رسالة للشيخ سليمان بن عبد الرحمٰن العمري كان قد وجهها إليهم في مسألة علمية وصادقوه عليها وكان ذلك سنة ١٣٥٥هـ، وتوجد الرسالة المذكورة بنصها وبنص تقاريرهم عليها.

أما الشيخ سليمان فقد ترجم له فضيلة أخونا الشيخ عبد الله البسام في كتابه «علماء نجد» جاء فيها الآتي:

الشيخ سليمان بن عبد الرحمٰن بن الشيخ محمد بن عمر آل عمري، ولد في مدينة عنيزة عام ١٣٠٠هـ ونشأ بها، وبدأ تعلمه على مشايخها، ثم رحل إلى بريدة ومعلوم أنها قريبة منها، فأخذ من علمائها، ثم رحل إلى مدينة الرياض ـ يعني من القصيم إلى نجد ـ فأخذ عنه علمائها، ثم عاد إلى القصيم وعيّن إماماً في أحد المساجد وبدأ بالتدريس فعمر المسجد بالطلاب، وثم سنة ١٣٤٥هـ عيّنه الملك عبد العزيز في قضاء المدينة، وصار مع عمل القضاء يدرس بالمسجد النبوي الشريف، وفي أثناء وجوده بالمدينة ألّف عدة رسائل منها الرسالة التي نوهنا عنها سابقاً. وذكر البسام حفظه الله تلاميذ الشيخ العمري وأنه في آخر أمره نقل إلى الأحساء قاضياً وبقي بها إلى أن توفي رحمه الله عام ١٣٧٣هـ.

وهناك من العلماء من لم توجد لهم تراجم وقد عاصرناهم وعايشناهم وكل منهم جدير بتقديم الترجمة الوافية عنه. منهم شيخنا الفاضل الشيخ محمد المختار بن أحمد المزيد ـ على وزن فعيل ـ الشنقيطي من خيرة من كانت لنا معه مصاحبة ومعايشة في منزل والدنا وشيخنا العلامة الفاضل الشيخ محمد الأمين وتوثقت الصلة معه في الرياض حيث كان يدرس السيرة النبوية في المرحلة الثانوية، وكان شيخه حافظ لها، وقد كان رحمه الله يدرس بالمسجد النبوي نحو الخمسة دروس يومياً في السيرة والحديث والتفسير والعربية، وقد عمل

شرحاً لسنن النسائي لعله يطبع قريباً، وكان رغم دعابته وتظرفه يعجبه الاقتصار عن الناس إلا خاصة أصحابه وله ولدان كلاهما حاز على الدكتوراه في الشريعة، ومن هؤلاء الشيخ محمد صديق الأفغاني كان مدرساً بدار الحديث بالمدينة وبالمسجد النبوي في الحديث والمصطلح، وكان عضواً في هيئة الإشراف الديني بالمسجد النبوي، وله أولاد ومنهم الشيخ أمان الله عضو قضائي بمحكمة المدينة، ومنهم الشيخ يوسف السلفي كذلك كان مدرساً بدار الحديث، وبالمسجد النبوي وغيرهم ممن ساهم في التدريس بالمسجد النبوي، أما صاحب الفضل علي بعد الله ومن له اليد الطولى بتوفيق الله فيما فتح الله علي من تحصيل ولم أستطيع إيفاءه حقه عوض والدي وشيخ هذا الجيل على الإطلاق بطريق مباشر أو بواسطة تلاميذه صاحب «أضواء البيان» الذي زاع وشاع في جميع الأقطار العلامة الجليل الشيخ محمد الأمين بن المختار الملقب أباً، فقد كتبت له ترجمة طبعت في أكثر من مرجع ستكون مسك الختام ـ إن شاء الله ـ ولله الحمد والمنة.

٢٨/٥/١٤١٠هـ

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة